



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

”دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك

العسكرية ”

منذ صدر الإسلام (١هـ / ٦٢٢م) وحتى نهاية العصر الأموي

(١٣٢هـ / ٧٥٠م)

رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام في جامعة دمشق

إعداد الطالب:

علي موسى طالب

إشراف:

أ.م.د. غطاس سليمان نعمة

عام (١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م)

Syrian Arab Republic

Damascus University

Faculty of Arts and Humanities

Department of History



"The Role of the Natural Geographical Factor in the most important military Battles"

**Since The Dawn of Islam (1 A.H/ 622A.D) till the End of the
Umayyad Period (132 A.H/ 750A.D)**

A Thesis Prepared for Obtaining A master's degree in the history of
Arab and Islam in Damascus University

Prepared By

Ali Mousa Talep

Supervised By

A.M.D. Ghattas Sulaiman Nimeh

Year (1441 A.H /2020 A.D)

قائمة المحتويات

البيان	الصفحة
آية قرآنية.	٢
إهداء خاص.	٤
الإهداء.	٥
شكر وتقدير.	٦
قائمة المحتويات.	٧
مقدمة	١٢-٢٥
الإطار النظري للدراسة.	١٣
الإطار المنهجي للدراسة.	١٦
دراسة المصادر والمراجع.	١٨
التمهيد هوية التاريخ والجغرافية	٢٦-٦٤
❖ الفصل الأول: التاريخ؟	٢٧-٣٨
أولاً- تعريف التاريخ.	٢٧
١- التاريخ لغة.	٢٨
٢- التاريخ اصطلاحاً.	٣٢
❖ الفصل الثاني: الجغرافية؟	٣٩-٥٠

٣٩	أولاً- تعريف علم الجغرافية.
٤٤	ثانياً- أهم ميادين علم الجغرافية.
٤٥	١- الجغرافيا الطبيعية.
٤٨	٢- الجغرافيا التاريخية.
٦٤-٥١	❖ الفصل الثالث: علاقة التاريخ والجغرافية.
٥١	أولاً- ارتباط التاريخ بالجغرافيا.
٥٧	ثانياً- إسهامات المؤرخين الجغرافيين العرب المسلمين في إثراء الفكر الجغرافي
١٢٠-٦٥	الباب الأول دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال عصر الرسول ﷺ (١-١١١هـ/٦٢٢-٦٣٢م)
٩٢-٦٦	❖ الفصل الأول: أثر التضاريس.
٦٩	أولاً- أثر الجبال.
٨١	ثانياً- أثر الأودية والخراندق والسهول.
٨٩	ثالثاً- أثر الصحراء.
١٠١-٩٣	❖ الفصل الثاني: أثر المياه.
٩٤	أولاً- أثر مياه الآبار.
١٠٠	ثانياً- أثر مياه الأنهار.

١٢٠-١٠٢	❖ الفصل الثالث: أثر المناخ.
١٠٣	أولاً- أثر الأمطار والسيول.
١٠٧	ثانياً- أثر الجفاف والقحط.
١١١	ثالثاً- أثر الرياح والشمس.
١١٧	رابعاً- أثر الشتاء والبرد.
٢١٣ - ١٢١	الباب الثاني دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال عصر الخلفاء الراشدين (١١ - ٤١هـ/٦٣٢ - ٦٦٢م)
١٦١-١٢٢	❖ الفصل الأول: أثر التضاريس.
١٢٥	أولاً- أثر الجبال.
١٣٧	ثانياً- أثر الأودية والخراندق والسهول.
١٥٢	ثالثاً- أثر الصحراء.
١٩٦-١٦٢	❖ الفصل الثاني: أثر المياه.
١٦٢	أولاً- أثر مياه الآبار.
١٦٨	ثانياً- أثر مياه الأنهار.
١٩٠	ثالثاً- أثر مياه البحار.
٢١٣-١٩٧	❖ الفصل الثالث: أثر المناخ.
١٩٨	أولاً- أثر الأمطار والسيول.

٢٠٢	ثانياً- أثر الجفاف والقحط.
٢٠٥	ثالثاً- أثر الرياح والشمس.
٢٠٩	رابعاً- أثر الشتاء والبرد.
٣١٤-٢١٤	الباب الثالث دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ/٦٦٢-٧٥٠م)
٢٥٥-٢١٥	❖ الفصل الأول: أثر التضاريس.
٢١٦	أولاً- أثر الجبال.
٢٣٩	ثانياً- أثر الأودية والخراندق والسهول.
٢٥٠	ثالثاً- أثر الصحراء.
٢٨٨-٢٥٦	❖ الفصل الثاني: أثر المياه.
٢٥٧	أولاً- أثر مياه الآبار.
٢٦٠	ثانياً- أثر مياه الأنهار.
٢٨٠	ثالثاً- أثر مياه البحار.
٣١٤-٢٨٩	❖ الفصل الثالث: أثر المناخ.
٢٩٠	أولاً- أثر الأمطار والسيول.
٢٩٦	ثانياً- أثر الجفاف والقحط.

٣٠١	ثالثاً- أثر الرياح والشمس.
٣٠٧	رابعاً- أثر الشتاء والبرد.
٣١٥	الخاتمة
٣١٨-٣٥٧	الملاحق
٣٥٨-٣٦٢	الملخص
٣٥٩	★ ملخص الرسالة باللغة العربية.
٣٦١	★ ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية.
٣٦٣-٣٨٤	قائمة المصادر والمراجع

مقدمة

منذ أن اهتم الإنسان بدراسة تاريخه الأول، وطبيعة المجتمع البشري، أدرك العلاقة القائمة بين الجغرافية التي تمثل علم المكان (البيئة)، والتاريخ الذي يعد علم الزمان (الوقت)، وذلك في محاولة منه للإجابة على بعض القضايا ومنها:

- إمكانية فهم التاريخ ودراسته بمعزل عن الجغرافية.
- فصل التاريخ عن الجغرافية.
- مدى علاقة التاريخ بالجغرافية.

وجاءت جميع الإجابات لتؤكد على أنه لا يمكن فصل التاريخ عن الجغرافية، باعتبار أن الأول هو عامل الزمن الذي تجري وتدور الأحداث من خلاله، والثاني هو عامل المكان الذي لا بد من وجوده لتجري عليه الأحداث.

وعليه فإن دراسة كل منهما، وإدراك العلاقة والتأثير المتبادل بين التاريخ والجغرافية كعلمين مترادفين يشكل أمراً غاية في الأهمية، فالتاريخ بدون جغرافية كالأرض الجافة العطشى بلا ماء ولا حياة، لاسيما أن الحادثة التاريخية تحدث في إطارها الزمني بين الأزلي والأبدي، ولا بد لها من إطار مكاني يضيف على الحادثة التاريخية سمتها الجغرافية ويعطيها هوية تميزها عن أي حادثة أخرى.

بمعنى أنه لا يمكن فهم الكثير من الحقائق التاريخية حتى يتم إلقاء الضوء عليها من خلال تتبع الوضع الجغرافي الحاصل والبيئة المكانية في الفترة المدروسة، فإذا ما تم ذلك بطريقة صحيحة وموضوعية فإن الحقيقة التاريخية عندها تظهر واضحة جلية.

فالجغرافية هي التي تجعل للتاريخ معنى واضح، حيث أن الباحث في هذا المجال يلاحظ أن الإنسان عبر تاريخه الطويل منذ أقدم العصور مروراً بالعصور الوسطى وانتهاءً بالعصر الحديث ونهضته، أدرك أثر العامل الجغرافي في تقويم وتحديد مسار التاريخ وتطوره على اعتبار أن البقاع تؤثر في الطباع والأرض هي المسرح الذي تمثل فيه الأحداث.

وعليه فإن مقولة "بيتر هايلين": "التاريخ بدون جغرافية كالجثة الميتة لا حياة فيها ولا حراك". لاشك أنها حقيقة لا جدال فيها، كما أن الجغرافية بغير التاريخ لا حياة فيها أو حركة.

وهنا يمكن القول أن البحث يهتم بالتفسير الجغرافي للتاريخ، أي كما يعتقد أنصار التفسير الجغرافي للتاريخ، بأن التاريخ بما يتضمن من معارك وغزوات على مر الزمان يتأثر بالجغرافيا والعوامل الجغرافية لا محالة، وتتدخل هذه العوامل في الأسباب التي تؤدي أما إلى عظمة الدول وارتقاء مكانتها، أو إلى ضعفها وانحسار دورها، فضلاً عن تأثيرها في وضع الأجناس البشرية التي تصنع التاريخ، حيث أن المناخ يحدد أماكن قيام الحضارات، ومصببات الأنهار هي مهد جميع الحضارات تقريباً، بالرغم من أن الدول العظمى تكاد تكون قد ظهرت في كل مكان على وجه الأرض، بينما الزلازل والأوبئة والجفاف تقف وراء ما قامت بها الشعوب من هجرات عبر العصور.

وبما أن البحث اختصّ بدور العامل الجغرافي في التاريخ في عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وحتى العصر الأموي، تلك العصور التي تميزت بالفتوحات بشكل أساسي، ونشر الدين الإسلامي على مساحات جغرافية واسعة شرقاً وغرباً، فقد كان الاهتمام بدور الجغرافية في الفتوحات العسكرية أساسياً وكبيراً.

والملاحظ أن الحوادث التاريخية قد تشترك فيها عوامل جغرافية متعددة، ولذلك تم تكرار ذكر الحدث الذي اشترك فيه أكثر من عامل، وسيتم تناول ذلك خلال فصول البحث.

أولاً- الإطار النظري للدراسة.

١- إشكالية البحث.

بما أن الإطار النظري لأي بحث علمي أو رسالة (ماجستير أو دكتوراه) هو: الهيكل أو الأساس الذي يكون الفكرة المراد بحثها أي: "مشكلة البحث".

هنا تكمن إشكالية البحث "مشكلة البحث" في بيان وتوضيح الدور الذي تشغله العوامل الجغرافية على اختلاف ميادينها (الطبيعية من جبال وتلال وسهول وصحاري وأودية ومياه) و(المناخية من الأمطار والسيول والرياح والشمس والجفاف والبرد والشتاء) في الأحداث التاريخية.

وتضاف إشكالية غاية في الأهمية وهي: بيان انعكاس العوامل الجغرافية على نتائج الأحداث وتغييرها، في مراحل متتالية بدءاً من عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ وانتهاءً بالعصر الأموي، وذلك من خلال استقراء وتحليل المعلومات الواردة في المصادر عن التضاريس بأنواعها، وبيان أثرها على سير الأحداث التاريخية وهو ما يعرف بالجغرافية الطبيعية، وبعدها تطرق البحث إلى الآراء التي جاءت في المصادر فيما يخص الجغرافية المناخية، وقد ورد في البحث تكرار ذكر الحدث أو المعركة التي برز فيها أثر أكثر من عامل جغرافي، وهذا ما تم التنويه إليه أثناء الحديث عن صعوبات البحث.

ومما سلف يمكن القول: إن القضية الأساسية التي ستكون الإجابة عليها من خلال معلومات البحث هي:

★ بيان دور العوارض الجغرافية، وتوضيح أثرها في مراحل التاريخ وعصوره منذ العصر النبوي وحتى العصر الأموي، وذلك من خلال إيراد نماذج وأمثلة ذكرتها المصادر والمراجع الإسلامية، وكان لها الأثر الكبير في سير الأحداث وتغيير النتائج.

٢- سبب اختيار البحث.

كان من الأسباب الأساسية وراء اختيار موضوع البحث، توضيح بعض النقاط التي شغلت تفكير الباحث، ومنها:

- أهمية علمي التاريخ والجغرافيا، ومدى العلاقة فيما بينهما.
- إلقاء الضوء على أفكار المؤرخين العرب المسلمين الجغرافية.
- أهمية العوامل الجغرافية على اختلاف ميادينها ودورها في تكوين الحدث التاريخي.
- إيضاح أهمية الجغرافيا كعامل موجه للتاريخ وأحداثه عبر العصور المتتالية - عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين ﷺ والعصر الأموي - وذلك من خلال استخلاصها من المصادر والمراجع التاريخية الإسلامية التي أشارت إلى أثرها بمختلف فروعها؛ إذ لا يمكن فهم أي حدث تاريخي من دون دراسة جغرافية، لاسيما أن ميدان السياسة هو الجغرافية وامتدادها هو التاريخ، ومن هذين المنطلقين يمكن فهم الأحداث، ووضعها في زمانها ومكانها الصحيحين.

٣- أهمية البحث.

تبرز أهمية البحث كونه إحدى المحاولات التي يراد من خلالها إيضاح الصلة الوثيقة بين التاريخ كعلم يعبر في جوهره عن ديناميكية الحركة الزمنية، وبين الجغرافيا كعلم يعبر عن المكان والواقع البيئي للظاهرة، وأهمية هذه الصلة، حيث تجري فيه الأحداث وتتأثر فيما بينها، على الرغم من أن الاهتمام في هذا المجال كان موجوداً سواءً عند الأقدمين كالليونان والرومان، وعند العرب كمؤرخين وشعراء.

كما تتجسد في دراسة أثر العوامل الجغرافية على أحداث التاريخ أهمية كبيرة، ومنفعة عظيمة، خاصة وأن الباحثين انصبّ جل اهتمامهم وبحثهم على جوانب معينة من تاريخ الأمة العربية الإسلامية ومنها التاريخ السياسي والاجتماعي؛ مما كان له انعكاساته على طبيعة الإنتاج العلمي والبحثي في الدراسات التاريخية الإسلامية والتي اتسمت في معظمها بطابع التجسيد، والوصف للواقع السياسي والاجتماعي للأمة الإسلامية.

بينما بقيت العوامل التي أثرت في الأحداث وغيرها بمنأى إلى حد ما عن البحث والدراسة، خاصة وأن الحدث التاريخي يحدث في بيئة جغرافية وزمنية لها صفتها الخاصة، ومن هنا تشكل دراسة "دور العوامل الجغرافية في التاريخ" قيمة أساسية تسير في اتجاهين حسب ما تم في البحث، الاتجاه الأول: دراسة "دور العوامل الجغرافية الطبيعية" متمثلة بالتضاريس من جبال وأنهار وصحاري وسهول وغيرها من العوارض الجغرافية ذات الأثر على أحداث التاريخ.

أما الاتجاه الثاني: هو دراسة "دور العوامل الجغرافية المناخية" المتمثلة بالأمطار والسيول والجفاف والحر والشتاء والبرد وغيرها من العوامل ذات الأثر المباشر على أحداث التاريخ.

وذلك في محاولة لتحقيق عدة أهداف وهي: التعرف على أهمية تلك العوامل، ومدى قدرتها على تغيير النتائج لصالح أحد الطرفين، ومحاولة استخراج أثر العوامل من خضم الحوادث، حتى يتم التمكن من إبراز أثرها؛ حتى إذا تم ذلك كان الفهم للتاريخ أوضح، ومحاولة إلقاء الضوء على الطريقة التي حاول من خلالها القادة المسلمين أو حتى أعدائهم استغلال تلك العوامل وتسخيرها لصالحهم.

٤- صعوبات البحث.

لكل عمل علمي مهما كان نوعه، وطريقة بحثه صعوبات متعددة منها: تعدد وتشتت الأفكار النظرية التي استقاها البحث، وتبعثرها في بطون المصادر والمراجع، وعدم وجود الأبحاث التي تتناول مواضيع مشابهة للبحث إلا فيما نذر، ويزيد من صعوبة الأمر في هذا البحث، أن يتم اختيار "أثر العوامل الجغرافية في التاريخ" محوراً للبحث، فأصبح من المفروض إبراز أثر العوامل على اختلاف ميادينها في أحداث التاريخ الإسلامي، وأن يتم التقنن في التدليل على قوة تلك العوامل، وفي أعماق النفس ميل جياش إلى إبراز دور الجغرافية وأهميتها كعامل أساسي وريادي في أحداث التاريخ الإسلامي، وهذا ما يستدعي إطالة التأمل في تلك الظروف، والإمعان في تحليلها.

وكان من الصعوبات التي انفرد بها البحث هي اشتراك عدة عوامل جغرافية في بعض الأحداث كما سيلاحظ القارئ للبحث، وهذا ما فرض تناول نفس الحدث عند الحديث عن عاملين أو أكثر من العوامل الجغرافية، ولتوضيح ذلك يمكن القول: إن بعض المعارك والأحداث ظهر فيها أثر الجغرافية

الطبيعة كالجبال أو الأودية، كما ظهر فيها أثر الشتاء كالمطر أو الثلج؛ وهذا ما يبرر تناول أكثر من عامل جغرافي للواقعة أو الحدث الذي جرى. إذاً من أجل التأكيد على اشتراك أكثر من عامل جغرافي في الحدث التاريخي، كان لابد من تكرار ذكر الحدث والواقعة التاريخية خلال فصول البحث.

ثانياً- الإطار المنهجي للدراسة.

بما أن الإطار المنهجي للبحث يعدُّ من أهم الخطوات التي يعتمد عليها الباحث من أجل إعداد بحثه، والهدف منه توضيح الكيفية التي يجري بها الباحث بحثه، أي (تصميم البحث)، وبهدف الوصول إلى نتائج قيمة ودقيقة، قام البحث على دراسة عدة أمور والتطرق لها في محاولة لإلقاء الضوء على عدة نواحي عني البحث بها.

وقد تم الاعتماد في أغلب الأحداث على سؤالين تم طرحهما وهما: كيف ظهر أثر العامل الجغرافي؟ وماذا نتج عنه؟ وتمت المحاولة للإجابة عنهما من خلال ما جاء في المصادر والمراجع، معتمداً على مناهج بحثية متعددة، وهي:

- دراسة وصفية تاريخية (المنهج الوصفي) للجانب الفكري التاريخي والجغرافي، لبيان الارتباط الوثيق فيما بينهما.
 - دراسة فكرية تحليلية (المنهج التحليلي) للمصادر الإسلامية لاستخلاص المعلومات الجغرافية ذات الأثر على الأحداث التاريخية، وكان ذلك بالاعتماد على عدة مناهج بحثية ومنها:
 - (المنهج الاستقرائي) ممزوجاً بالمنهج التحليلي، بهدف محاولة استقراء وتحليل المعلومات الجغرافية الواردة في الكتب والمصادر التي تغني البحث بالمعلومات الجغرافية.
 - (المنهج الاستنتاجي) الذي كان له حضوراً من أجل استنتاج المعلومات الخاصة والمتعلقة بهذا المجال، ومدى انعكاسها على سير الأحداث التاريخية.
- وقد تناول البحث فترة زمنية تبلغ (١٣٢) سنة، منذ بداية فجر الإسلام سنة ١هـ/٦٢٢م وحتى نهاية العصر الأموي سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م؛ وعليه جاء البحث مقسماً إلى:
- مقدمة: تضمنت فكرة عن البحث مع الإطار النظري للدراسة بما فيها من إشكالية البحث، وسبب اختيار البحث، وأهمية البحث، والصعوبات التي واجهت الباحث في بحثه.
 - تمهيد: حيث اشتمل على التعريف بهوية التاريخ والجغرافية وقد قُسم إلى ثلاثة فصول.
- خُصَّص الفصل الأول للحديث عن التاريخ، وتعريفه لغةً، واصطلاحاً بشكل عام، مع ذكر لأهم فوائده.

أما الفصل الثاني فقد اشتمل على الجغرافية، وتعريفه كعلم، وماهي طبيعة هذا العلم وذلك من خلال إلقاء نظرة شاملة لعلم الجغرافية.

والفصل الثالث اشتمل على علاقة التاريخ بالجغرافية بما فيها من ارتباط وثيق بينهما، وتحدث عن أبرز إسهامات المؤرخين العرب المسلمين في إثراء الفكر الجغرافي المرتبط بالتاريخ دون شك. **وخصّص الباب الأول: لدراسة دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال عصر الرسول ﷺ من سنة ١هـ/٦٢٢م وحتى سنة ١١هـ/٦٣٢م، وقد قسم هذا الفصل إلى ثلاث فصول.**

تناول الفصل الأول: أثر العوامل الجغرافية الطبيعية من جبال، أودية، خنادق، سهول، صحراء. أما الفصل الثاني فقد تناول: أثر المياه، وما تشتمل عليه من مياه الآبار، ومياه الأنهار وذلك لبيان أثرها على أحداث العصر النبوي.

والفصل الثالث اشتمل على دراسة أثر العوامل الجغرافية المناخية من أمطار، سيول، جفاف وقحط، الرياح والشمس، الشتاء والبرد؛ وبذلك تتكون صورة تعطي برهاناً على أثر الجغرافية في التاريخ.

وخصّص الباب الثاني: لدراسة دور العامل الجغرافي الطبيعي خلال عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١هـ/٦٣٢م حتى سنة ٤١هـ/٦٦٢م، وقد قسم هذا الباب إلى ثلاث فصول تحاكي فصول الباب الثاني، لكن هنا في عصر الخلفاء الراشدين، وللتوضيح:

تناول الفصل الأول: أثر العوامل الجغرافية الطبيعية من جبال، أودية، خنادق، سهول، صحراء، في عصر الخلفاء الراشدين.

أما الفصل الثاني فقد تناول: أثر المياه، وما تشتمل عليه من مياه الآبار، ومياه الأنهار وذلك لبيان أثرها على أحداث العصر الراشدي.

والفصل الثالث اشتمل على دراسة أثر العوامل الجغرافية المناخية من أمطار، سيول، جفاف وقحط، الرياح والشمس، الشتاء والبرد.

وجاء الباب الثالث مخصصاً: لدراسة دور العامل الجغرافي الطبيعي خلال العصر الأموي من سنة ٤١هـ/٦٦٢م وحتى سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، كما قُسم إلى ثلاث فصول كما في الفصلين السابقين تماماً. تناول الفصل الأول: أثر العوامل الجغرافية الطبيعية من جبال، أودية، خنادق، سهول، صحراء، في العصر الأموي.

أما الفصل الثاني فقد تناول: أثر المياه، وما تشتمل عليه من مياه الآبار، ومياه الأنهار وذلك لبيان أثرها على أحداث العصر الأموي.

والفصل الثالث اشتمل على دراسة أثر العوامل الجغرافية المناخية من أمطار، سيول، جفاف وقحط، الرياح والشمس، الشتاء والبرد.

أما **الخاتمة**؛ فقد تمت صياغتها لتشتمل على النتائج التي خلصت إليها الدراسة، والتوصيات التي يمكن تقديمها على ضوء المعلومات التي وردت في البحث.

ثالثاً- دراسة المصادر والمراجع.

فرضت طبيعة البحث، وامتداده على مرحلة زمنية طويلة نسبياً؛ تنوعاً في المصادر والمراجع التي يمكن من خلالها إغناء البحث، ويمكن القول: إن طبيعة الاستفادة من المصادر والمراجع ارتبطت بصلة المصدر أو المرجع بموضوع البحث، فكان بعضها شديد الصلة بموضوع البحث ويغطيه كاملاً، وبعضها الآخر يغطي جوانب مهمة من الموضوع.

١- الكتب التاريخية.

لا شك أن المصادر العربية الإسلامية تتميز بكثرتها وتنوعها، وتتحدد القيمة بالنسبة للبحث من خلال ما تقدمه من معلومات عن أحداث التاريخ التي يمكن من خلالها استنتاج دور العامل الجغرافي فيها، ويلاحظ أن هذه الكتب تذكر الحوادث السياسية والعسكرية والإدارية، بما في ذلك أخبار الفتوح وقد ذكرت إشارات إلى دور الجغرافية في التاريخ، وقد تمت دراسة البعض منها وسيتم عرضها حسب تاريخ الوفاة بدءاً من الأقدم:

١. **الواقدي**، محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، كتابه **"المغازي"**، وقد انقسم عمل الواقدي إلى قسمين، القسم الأول حمل عنوان المغازي، وتألف من ثلاثة أجزاء، وقدم معلومات هامة جداً عن غزوات الرسول الأكرم ﷺ، مراعيًا التسلسل الزمني للأحداث، ونوّه إلى المواضع التي اتخذها الرسول الأكرم في معاركه، وهذا ما أفاد البحث بشكل كبير.

والقسم الثاني كان بعنوان فتوح الشام، تناول أهم المعارك التي قام بها الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ، وقد أفاد البحث بشكل كبير في استنتاج أثر عوامل الجغرافية الطبيعية.

٢. **ابن خياط**، خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، كتابه **"تاريخ خليفة بن خياط"**، ويعدّ كتابه من أقدم الحوليات في التاريخ الإسلامي، حيث يبدأ من السنة الأولى للهجرة وينتهي عند سنة (٢٣٠هـ/٨٤٤م)، ظهرت في كتابه إشارات كثيرة ومهمة لأثر المناخ والرياح في الغزوات، لاسيما أنه أشار إلى أثر الجغرافية في تحديد مواقع المعسكرات الإسلامية، كما أفاد البحث في توثيق أعوام الغزوات والمعارك التي حدثت عند الاختلاف مع مصدر آخر.

٣. **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)، كتابه **"تاريخ الرسل والملوك"**، تألف من عدة أجزاء، ولا غنى للباحث عنه، يلاحظ الاعتماد فيه على الجمع الشامل للروايات دون نقد أو تمحيص، بدأ فيه الحديث منذ بدء الخليقة وحتى عصره أي سنة (٢٩٠هـ/٩٠٣م)، معتمداً على

ترتيب السنين، وقدم مادة وفيرة جداً عن الأحداث ووقائعها، وتكاد لا تخلو صفحة من البحث دون الإشارة إليه، وفيه ثناياه إشارات كثيرة إلى أثر العوامل الجغرافية على اختلاف نوعها.

٤. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، وكتابه "فتوح البلدان" وقد جمع فيه البلاذري أخبار الفتوح بمصادقية وشمول واضحين منذ عهد الرسول الأكرم وحتى وقت تدينه، وما تبعها من تنظيم إداري لكل البلاد التي غزاها العرب المسلمين، وكان من أهم المصادر التي اعتمد عليه الباحث أثناء الحديث عن الكثير من المعارك ومنها فتوحات بلاد الشام التي برز فيها أثر الشتاء والبرد.

٥. —، كتابه "أنساب الأشراف" مصدر غني وثمين، أورد كتابه على شكل قصص لتاريخ الشخصية وأسرتها؛ فقدم معلومات عن أهم القادة والأفراد الذين شاركوا في الفتوح بالإضافة إلى معلومات متفرقة عن أجناد الشام وكيفية فتوحا في العصر الراشدي والأموي.

٦. ابن خرداذبه، عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٢)، وكتابه "المسالك والممالك"، وقد حوى الكتاب على مادة غنية وقيمة عن الجغرافية الطبيعية لكور أرض الشام، ومدنها، وقد تمت الإشارة إليه أثناء الحديث عن الفتوحات التي جرت في عهد الخلفاء الراشدين في أرض الشام.

٧. ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد ابن أعثم (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م)، كتابه "الفتوح"، ويلاحظ أن الكتاب يحمل في طياته أخبار الفتوح التي تمت على أيدي الخلفاء الراشدين منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، حتى بداية خلافة المعتصم بالله العباسي سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م)، ومن خلال ذلك فقد أفاد البحث بمعلومات قيمة عن الفتوح، ومواضعها، والطبيعة الجغرافية للأراضي، وذلك لأنه يسترسل بالتفصيلات.

٨. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وهو كتاب تاريخي جغرافي، في أربعة أجزاء، تحقيق: كمال حسن مرعي، وقد بدأه بذكر الخليقة، ثم تناول أخبار الملوك قبل الإسلام، وبحث أيضاً في سيرة الرسول والخلفاء الراشدين، وتحدث عن تاريخ الدولتين الأموية والعباسية حتى سنة (٣٣٦هـ/٩٤٧م)، وفيه معلومات وافرة لا غنى للباحث عنها فيما يخص الفتوح حيث يذكر إشارات مهمة لم يتطرق إليها بعض المؤرخين وهي معلومات نادرة توضح أثر الجغرافية الطبيعية.

٩. المقدسي، مطهر بن طاهر (ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م)، كتابه "البدء والتاريخ"، تناول فيه كتابه فترات حكم الخلفاء كل واحد على حدا، وأفاد البحث في كثير من المعلومات عن الحملات التي كانت تحدث في عهد كل خليفة.

١٠. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، كتابه "الكامل في التاريخ"، يتألف من مجموعة من الأجزاء، واعتمد في معظم أخباره على الطبري، وقد بدأ كتابه عن تاريخ البشرية منذ أول الزمان حتى سنة

(١٢٢٨هـ/١٢٣٠م)، وقد تمت الاستفادة منه في كل فصول الرسالة لما يجده الباحث من سهولة في عرض المادة التاريخية وذكر الأحداث، بعد أن اختصر الروايات التي أسهب الطبري في ذكرها.

١١. ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن عبد الله (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، وكتابه "مرآة الزمان في تواريخ الأعيان"، من أهم المصادر التي أفادت البحث بمعلومات عن المعارك وأماكنها ودور المياه فيها في العصر الأموي، حيث تكثر الإشارة إليه في الفصل الذي يتحدث عن العصر الأموي.

١٢. ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، كتابه "البداية والنهاية"، أفاد البحث كثيراً في أجزائه، وساعد على استخلاص أثر العوامل الجغرافية في أحداث التاريخ كالحط والجفاف وغيرهم.

١٣. المقرئ، تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، وكتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، من أهم المصادر التي تتحدث عن تاريخ مصر وجغرافيتها وموقع عاصمتها في العصر الإسلامي، وقد أفاد البحث في تقديم تعريفات للتاريخ ودلالاته، فضلاً عن احتواءه على معلومات جغرافية ترتكز على الملاحظات الشخصية للمقرئ، وقد أفاد البحث في الكثير من المعلومات التي تخص البحث.

١٤. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، وكتابه "المقدمة" من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، أفاد البحث بشكل كبير في التعريف بالتاريخ، كما تمت الاستفادة منه أثناء الحديث عن البحار وأثرها وكيف أن المسلمين قد تمكنوا من صناعة السفن وبذلك استطاعوا مواجهة دولة الروم البيزنطيين.

١٥. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م)، كتابه "الإعلان بالتوبخ لمن ذم التاريخ"، من الكتب التي تبين فضل المسلمين وجهدهم في تدوين التاريخ والعناية به وتأصيله، وقد أفاد البحث أثناء التعريف بعلم التاريخ وميادينه وفوائده، وتكثر الإشارة إليه في الفصل الأول من الباب الأول.

١٦. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، كتابه "الشماريخ في علم التاريخ"، وهو كتاب يتألف من ثلاثة أبواب في مبتدأ التاريخ، الباب الثاني في فوائد التاريخ، والثالث في فوائد شتى تتعلق به، وقد أفاد البحث عند تقديم معلومات عن التاريخ وتعريفه ونسبته إلى الزمن وما يتعلق به.

كما أن كتب الطبقات والتراجم، لا تقل في أهميتها عن المصادر، حيث أنها تحوي على معلومات قد لا ترد في المصادر أو المراجع ولا سيما فيما يخص الأعلام وأهم أعمالهم وما قاموا به من معارك، كما أنها تورد معلومات جغرافية تخدم البحث وتغنيه، وأهمها:

١٧. ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) وكتابه "الطبقات الكبير"، الذي حوى عدة أجزاء حملت في طياتها معلومات جغرافية أثناء الحديث عن سيرة الرسول الأكرم ومغازيه، والخلفاء الراشدين والأمويين وأخبارهم، ولاسيما في عصر الرسول الأكرم ﷺ، ذاكراً أثر الأمطار والرياح في أكثر من موقع.

١٨. ابن عساکر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) وكتابه "تاريخ دمشق"، فيه معلومات لا يمكن الاستغناء عنها أثناء فتح مدينة دمشق، فقد ذكر أهم مرويّات الفتح للمدينة، وكتب الأمان التي عقدت، وتراجم لرجال العالم الإسلامي مشرقه ومغربيه، فشكل مصدراً مهماً بمادته الغنية.

١٩. ابن الأثير، كتابه "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، فيه ترتيب أبجدي لأهم القادة والأعلام من صحابة الرسول والتابعين لهم، وفيه سبع آلاف وخمسمئة ترجمة، ويقع في عدة أجزاء أفاد البحث كثيراً بمعلومات لا بأس بها من خلال التعريف بأعلام البحث وقواد المعارك، لا سيما الأمراء الذين أمرهم الرسول لقيادة الغزوات، ومعاركهم وأماكنها الجغرافية.

٢٠. ابن خلکان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وكتابه "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، هو كتاب تراجم أكثر منه كتاب تاريخ، ويلاحظ في كتابه ندرة في الترجمة للصحابة والتابعين، وما يهم أنه أفاد البحث في الترجمة للعديد من الشخصيات التي وردت في ثنايا البحث.

٢١. أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، وكتابه "المختصر في أخبار البشر"، وفيه اختصار لمطولات كتب التاريخ الإسلامي حتى زمانه، ورتب السنين حسب ما رتب ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، وقد أفاد البحث في المعلومات المتعلقة بأماكن الغزوات ووصف جغرافيتها.

٢٢. العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، وكتابه "الإصابة في تمييز الصحابة"، رتبهم بحسب حروف المعجم، وقد ترجم لمجموعة كبيرة من صحابة الرسول الأكرم بشكل مفصل من حيث نسبهم وأوضاعهم وأعمالهم، وقدم للبحث معلومات وفيرة وتعريفاً بالقادة والأفراد الذين شاركوا بالفتوح وأعمالهم، وهو من أكثر كتب التراجم جمعاً.

٢٣. الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن محمد بن أحمد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، وكتابه "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، أرّخ فيه لحقبة زمنية طويلة تمتد عشرة قرون، واعتمد على الترتيب الزمني للأحداث، وأفاد البحث في معلومات معينة عن نشأة الدولة العربية الأولى، وما ارتبط بها من أحداث، كما قدم معلومات قيمة بما يخص أسماء القادة للفتوح والمعارك.

٢ - كتب اللغة.

لا بد لأي بحث مهما كان من الاستعانة بمعاجم اللغة وذلك لورود كلمات تكون غريبة لفظاً، وصعبة الفهم بالمعنى، وعليه فقد استعان الباحث ببعض من كتب اللغة أهمها:

١. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، وكتابه "لسان العرب"، وقد قسم كتابه إلى عدة أجزاء فيه تعريف للكلمات ذات التركيب اللغوي المعقد، وقد تمت الاستفادة منه في توضيح كثير من المفردات اللغوية.

٢. الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تم من خلال كتابه توضيح معاني الكلمات وكثرت الإشارة إليه في المفردات التي تخص عصر الرسول الأكرم، وغيرها من المفردات الغريبة، حيث يعدُّ من أهم المصادر التي توضع المعاني الغريبة لفظاً، أفاد البحث في شرح بعض المصطلحات التي تحتاج إلى شرح في ثنايا البحث.

٣. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ/١٤١٥م)، وكتابه "القاموس المحيط"، وليس جديداً أن الإفادة منها كانت في توضيح معاني الكلمات الغامضة لغوياً.

٣ - المعاجم الجغرافية.

بما أن موضوع البحث له علاقة بالجغرافية فقد دعت الحاجة إلى استخدام معاجم جغرافية من أجل التعريف بالأماكن والمواقع التي جرت عليها الأحداث وكان من أهمها:

١. البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، وكتابه "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، وقد تمت الإشارة إليه أثناء تعريف الكثير من أسماء البلدان والمواضع التي جاءت في البحث.

٢. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، كتابه "معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمران والسهل والوعر في كل مكان"، رتب الكتاب على الحروف الهجائية، وتميز باتساعه وشموليته لاحتوائه على مادة جغرافية وتاريخية واقتصادية أفادت البحث كثيراً، وخاصة في التعريف بالمواضع ووصف أخبارها وكيفية فتوحها.

٣. الحميري، محمد عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار"، فيه معلومات جغرافية قيمة جداً، لا يمكن الاستغناء عنها.

٤. وقد تمت الاستفادة من كثير من المصادر التاريخية الجغرافية ومنها: الاصطخري في كتابه "المسالك والممالك"، وابن حوقل النصيبي في كتابه "صورة الأرض"، وغيرهم كثير.

٤- المراجع العربية الحديثة.

إذا كانت المصادر تعد مصدراً أولاً للأحداث التاريخية التي وردت في البحث، فإن المراجع لا تقل في أهميتها عن المصادر، لأنها تبسط وتوضح ما ورد في المصادر، وتتضمن وجهات نظر الباحثين وآراءهم، ولا يمكن للباحث الاستغناء عنها، ومنها:

١. الزركلي، خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) وكتابه "الأعلام"، من المراجع الحديثة الذي لا يمكن للباحث الاستغناء عنه، فقد أورد معلومات قيمة جداً عن أعلام البحث، وأفاد البحث في كل الفصول كما أورد معلومات جغرافية أثناء الترجمة للقادة والأمراء، ولا يخلو اسم علم من أعلام البحث من الإشارة إليه.

٢. حسونة، محمد أحمد. وكتابه "أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية" كان من أهم المراجع التي ذكرت أثر الجغرافية في أعمال المسلمين العسكرية، إلا أنه تحدث بشكل عام الإطار الجغرافي للتوجه بالفتوحات ولم يذكر مواقع المعارك والأثر المباشر لجغرافية المنطقة على الحدث التاريخي.

٣. باشميل، محمد أحمد. وموسوعته الموسومة بـ "موسوعة الغزوات الكبرى"، من أروع ما ألف في غزوات الرسول الأكرم ﷺ، حيث فصل أحداث كل غزوة على حدى في كتاب مستقل حمل اسم الغزوة وموقعها وأحداثها بالتفصيل، وقد أفاد البحث في كثير من المعلومات التاريخية والجغرافية، بما يخص عصر الرسول ﷺ.

٤. وتر، محمد ضاهر. وكتابه "الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق ﷺ"، ومن خلال العنوان تحدث فيه عن مجريات حروب الخليفة أبي بكر مع أهل الردة وكيفية الانتصار عليهم، وقدم معلومات قيمة جداً أفادت البحث في مواقع المعارك مع أهل الردة.

٥. الجنرال، أ. أكرم. وكتابه "سيف الله خالد بن الوليد"، تحدث فيه عن القائد خالد بن الوليد منذ زمن الرسول الأكرم، ثم تحدث عن أعماله في ظل الإسلام، وكان فيه معلومات مفيدة جداً، في حروبه مع الروم والفرس وكيفية استغلال عامل الصحاري والسهول في معاركه.

٦. النجار، عبد الوهاب. وكتابه "الخلفاء الراشدون"، هذا الكتاب أفاد البحث كثيراً، فيما يتعلق بعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، حيث ذكر كثيراً من أخبار الفتوح والمعارك التي جرت في عهد الخلفاء الراشدين حتى عهد الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ.

٧. طهوب، صلاح. وكتابه "موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر الأموي"، خصص كتابه للحديث عن العصر الأموي، بدأه منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ، لكن أهميته بالنسبة للبحث هو ما ذكره في الفصل الرابع من كتابه، فقد تحدث عن الفتوحات وبشكل عام قدم معلومات قيمة للبحث.

٨. طقوش، محمد سهيل. وكتابه "تاريخ الدولة الأموية"، تناول فيه الجانب السياسي للدولة الأموية أفادت الفصل الأخير للبحث، حيث كان للخلفاء الأمويين معارك عدة برز من خلالها أثر العامل الجغرافي.

٩. الخصري، محمد. وكتابه "محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -"، جاء كتابه مقسماً إلى محاضرات تؤلف كتاب، شرح من خلالها أهم الأحداث في عهد الدولة الأموية، وقد أفاد البحث في كثير من المعلومات عن تاريخ الفتوحات.

٥ - الأطالس الجغرافية للمعارك والغزوات.

لا تنفك أهميتها عن بقية المصادر والمراجع، وكان لابد من وجودها لأهميتها الكبيرة بالنسبة للبحث، حيث لا تخلو صفحة من صفحات البحث من الإشارة إلى أحد الأطالس المستخدمة لعظم أهميتها للبحث، وأهمها:

المغلوث، سامي بن عبد الله بن أحمد. وكتبه "الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ"، وكتاب "أطلس الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ"، و "أطلس الخليفة عثمان ﷺ"، و "أطلس الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ"، كما أنه ألف كتاباً بعنوان "أطلس تاريخ الدولة الأموية"، وقد أفاد البحث في معرفة أماكن الغزوات ومواضعها، واستخدم الباحث معظم الخرائط الواردة في البحث من تلك الأطالس.

٦ - المراجع المعربة.

أهم المراجع المترجمة التي أفادت البحث، وأغنته بمعلومات قيمة هو كتاب "الفتوح العربية الكبرى" تأليف: كنيدي، هيو. وقد تمت ترجمته من قبل الدكتور قاسم عبد قاسم، من أهم الكتب التي تتحدث عن الفتوح، وقد أفاد البحث كثيراً في الحصول على معلومات عن أثر مياه البحار.

كراتشوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش. وكتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، ترجمة صلاح الدين هاشم، من أهم الكتب التي أفادت البحث في الفصل الأول لأنه تحدث عن الأدباء الجغرافيين وحياتهم وأبرز إسهاماتهم، ويعتبر كتاب قيم جداً.

أتزو، سون. وكتابه "فن الحرب"، تقديم: أحمد ناصيف، من أروع الكتب التي تقدم مبادئ أساسية في الحرب، تفيد القادة في التخطيط والتنظيم للمعارك الحربية، وقد أفاد البحث في كثير من المعلومات.

من خلال ما ذكر من مصادر ومراجع، تمكن البحث ولو بصورة جزئية من استخلاص عوامل النصر أو الهزيمة التي كانت تنتج عن استغلال أحد العوامل الجغرافية.

٧- الرسائل الجامعية والأبحاث.

كان من أهم الرسائل الجامعية التي أفادت البحث بشكل كبير جداً، وأغنت الموضوع بمعلومات قيمة، وأنارت الطريق للاهتمام إلى عدد لا بأس به من المصادر والمراجع الخاصة بموضوع البحث: الدوري، وإل كليب مطلق. ورسائله "أثر العوامل الجغرافية في الفتوحات الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي"، وهي رسالة قدمت إلى مجلس كلية التربية في جامعة تكريت بإشراف د. غامس خضير الدوري.

وهي شديدة الاتصال بموضوع البحث، وقد توصل الباحث إليها بعد أن تم اختيار موضوع البحث وتسجيله فعمد إلى إضافة عدد من المراجع والمصادر المتنوعة التي لم تذكرها الرسالة في سبيل إضافة عنصر التنوع، وكان اختلاف المباحث على الرغم من التشابه في معلومات الرسالة من أجل التمييز بين الباحثين، فقد عمد الباحث في رسالته المذكورة إلى تقسيمها لثلاثة فصول، مرتبة حسب جبهات الفتح أي: جبهة شبه الجزيرة العربية، ثم جبهة العراق، وأخيراً جبهة بلاد الشام، وكان في كل فصل من الفصول يتناول أثر العوامل الجغرافية الطبيعية والمناخية.

وانطلاقاً من الالتزام بمبدأ الأمانة العلمية، لا يمكن للباحث إغماط حقه، وأن لا يشير إلى رسالته في كثير من معلومات البحث، والتتويه إليه، لا بل وترجيح رأيه في كثير من الأحداث الحاصلة. وقد توصل الباحث أيضاً إلى بحث منشور في جامعة الكويت، كلية العلوم الاجتماعية- قسم الجغرافيا، للباحث:

دبس، عبد الرحمن بن مصطفى. وبحثه "أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ"، من الأبحاث التي تناولت غزوات الرسول المصطفى ﷺ، مع التركيز على جغرافية مواقع الغزوات وتوقيتها، مع تحليل للعوامل الجغرافية التي استخدمها الرسول ﷺ في غزواته، وقد أفاد البحث بكثير من المعلومات الجغرافية فيما يخص عصر الرسول ﷺ.

ذاك بيان لأهم المصادر والمراجع الخاصة بموضوع البحث، والله المستعان.

مختصة

هوية التاريخ والجغرافية

الفصل الأول: التاريخ؟

الفصل الثاني: الجغرافية؟

الفصل الثالث: علاقة التاريخ والجغرافية.

الباب الأول:

هوية التاريخ والجغرافية

★ الفصل الأول:

التاريخ

أولاً- تعريف التاريخ.

عمل المؤرخون جاهدين في محاولات عديدة لوضع تعريفات للتاريخ، وكان كل من المؤرخين القدامى والمحدثين يقدم رأيه بهذا المجال محاولاً تدعيم آرائه، وعليه فقد تنوعت تعريفات التاريخ، وأصبح المؤرخ الحديث يجد نفسه أمام فيضٍ من التعريفات والآراء والمصطلحات التي تهدف إلى إعطاء لفظة التاريخ هوية خاصة، وعليه- المؤرخ- أن يختار ويوفق بينها، وذلك في سبيل الوصول إلى تعريف دقيق يعطي التاريخ حقه وفيه بغرضه.

وقد درج أغلب المؤرخين على ذكر التاريخ ومحاولة تعريفه وذلك في اتجاهين رئيسيين هما تعريف التاريخ لغةً، وتعريفه اصطلاحاً، ومهما كان عمل الباحث في التاريخ لا بد له من التطرق إلى التاريخ بتعريفه أو ذكر شيء من خصائصه، وذكر أهميته، كونه المجال الذي يشكل هوية الباحث ويشغل الجانب الأكبر من اهتمامه وتفكيره.

ولعل فيما ذكره كبار المؤرخين من تعريفات للتاريخ وأهميته وموضوعه، ما يمكن اعتباره الشعاع الأول من شمس المعرفة والإحاطة بهذا العلم على اختلاف جوانبه وميادينه، فكان ذلك الشعاع النور الذي أضاء للباحثين الطريق والنهج للخوض في مضمار التاريخ، واكتشاف ميادينه، والتعرف على مدى أهميته، ولعل من الأهمية إيراد مجموعة من التعريفات التي تناولت التاريخ، وذلك لبيان جمال تلك النظرة التي نظرت الى التاريخ، رغم اختلافها من مؤرخ لآخر ومن باحث لآخر.

١- التاريخ لغةً.

تعريف الوقت^(١)، وبيانه، وتاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه^(٢). ويقول الجوهري^(٣): "التاريخ تعريف الوقت، والتورخ مثله".

ويقال: "أَرَخْتُ الكتابَ وَرَخَّْتُ" ^(٤). وقيل: "اشتقاقه من الأَرخ بفتح الهمزة وكسرهما" ^(٥).

ويفسر أحد الباحثين ذلك باحتمال وإمكانية وجود ارتباط بين الوليد ولفظ التاريخ، وأن الوليد قد تمت ولادته، ودخل الزمن وبدأت حياته، ومن خلال ذلك يمكن القول أن التاريخ يهتم بالميلاد، والنشأة، والتطور عبر الزمن، ما يمكن أن يسمى (الحوادث) سواءً كانت هذه الحوادث صغيرة أم كبيرة، وعلى اختلاف تأثيرها الفاعل على الوسط الذي تحدث فيه، حيث تضفي عليه طابعاً خاصاً، وهذه الحوادث هي كل ما يطرأ على حياة البشر من تغيير؛ إلا أن البعض الآخر من المؤرخين ينكر هذه الصلة مفسرين ذلك بصعوبة الربط بين لفظ التاريخ وبين الولادة لبعد العلاقة بينهما^(٦).

(١) الكافيجي، محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد الرومي الحنفي (ت ٨٧٩هـ/١٤٧١م): المختصر في علم التاريخ، تح: محمد كمال الدين عز الدين، دار عالم الكتب، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ١٦.

(٢) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ١٨. روزنثال، فرانز: علم التأريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٣٨٤.

(٣) الجوهري: اسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر أول من حاول الطيران، ومات في سبيله، لغوي من الأئمة، وخطه يذكر مع خط ابن مقلة، أشهر كتبه الصحاح في عدة مجلدات، وله كتاب في العروض، ومقدمة في النحو، أصله من فاراب، دخل العراق صغيراً، قتل أثناء محاولة الطيران في نيسابور عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. الزركلي، خير الدين: الأعلام - قاموس تراجم، الأجزاء: ٨، دار العلم للملايين، ط: ١٥، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج: ١، ص ٣١٣.

(٤) الجوهري، اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م): الصحاح، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط: ٢، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج: ١، ص ٤١٨.

(٥) روزنثال: علم التأريخ عند المسلمين، ص ٣٨٢-٣٨٣. السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ١٦.

(٦) الشيخ، عبد الرحمن عبد الله: المدخل الى علم التاريخ، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ١٧. مؤنس، حسين: التاريخ والمؤرخون - دراسة في علم التاريخ ومدخل الى فقه التاريخ، دار الرشاد، ط: ٢، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٢٣.

ولعل ما أورده المؤرخ الشهير السخاوي في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" ما يؤكد على أن التاريخ يعني الوقت حيث يقول: "التاريخ في اللغة يعني الإعلام بالوقت، وتعود أصل الكلمة إلى وَرَخَ، ويقال: "أَرَخْتُ الكتاب، و وَرَخْتُهُ: أي بَيَّنْتُ وقت كتابته"^(١).

فالتاريخ دون شك هو حياة الشعوب، وهو نبضٌ حيٌّ يتجدد بتجدد حياة المجتمعات، كما يسجل تفاعل الإنسان مع بيئته بوجود الزمن بما يتضمن ذلك عصارة فكره، ونتاج تجاربه، وتناغمه مع ما حوله من الظواهر بمعنى أن التاريخ هو الزمان.

وفي قول الكافيجي^(٢) ما يشير الى ذلك، من خلال ما أورده في كتابه "المختصر في علم التاريخ" عن التاريخ حيث قال: "علم التاريخ هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته"^(٣)، وهو تسجيل حوادث الأمم، والأخبار مرتبة حسب العصور^(٤).

كما قيل: إن كلمة "تاريخ" ليست عربية صرفة، بل هي معربة عن كلمة "ماه- روز" الفارسية حيث أن كلمة ماه تعني (القمر)، وكلمة روز تعني (اليوم)، ومن هنا كان التاريخ يعني:

التوقيت بالقمر وذلك من خلال ملاحظة القمر^(٥)، وهذا ما ذهب إليه بعض المؤرخين المؤيدين لهذا الرأي^(٦)، وقيل في بعض الآراء أنها مأخوذة من أصل سرياني معناه الشهر^(٧).

ومن الجدير بالذكر رأي المؤرخ السيوطي عندما عرّف التاريخ مؤكداً على أنه يختص بالزمن؛ فقال: "هو تعيين وقت لينسب إليه زمان يأتي عليه، أو مطلقاً يعني سواء أكان ماضياً أو مستقبلاً"^(٨).

(١) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣٨٢. السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن التاريخ، ص ١٦.

(٢) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣١٨. الكافيجي: المختصر في علم التاريخ، ص ٩-١٠.

(٣) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢٦ و ٣٢٧. الكافيجي: المختصر في علم التاريخ، ص ١٦.

(٤) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م): مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، (مادة: أرخ)، ص ١٣.

(٥) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣٨٣. السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ١٧.

(٦) ترحيني، محمد أحمد: المؤرخون والتأريخ عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص ٧-٨.

(٧) هرنشو: علم التأريخ، ترجمة وإضافة: عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م، ص ٥١.

(٨) الفالوجي، أكرم بن محمد: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، الدار الأثرية، عمان، الأردن، (د.ت)، ص ١٢.

وقال ابن دريد: "وَرَّخْتُ الكتابَ وأَرَّخْتُهُ، ومتى أَرَّخَ كتابك؟ أي متى كتب؟"^(١).

وفي الوقت الذي جهد فيه المؤرخون في محاولات لوضع تعاريف للتاريخ، اتجه الكثير منهم إلى محاولة اكتشاف أصل لفظة التاريخ ومتى ظهرت، وماهي مدلولاتها، وفي هذا الأمر ما يمكن ترجيحه وعلى الأغلب أن العرب لم يستعبروا هذه الكلمة لا من الفارسية، ولا من العبرية أو الآرامية^(٢)، كما أشار إلى ذلك بعض المؤرخين الذين عنوا بالكشف عن أصل هذه الكلمة ومنشأها، وتتبع تطورها عبر الأزمنة والعصور المتتالية.

ويرجح السبب أن أدلة اللغات السامية لا تمكن من اتخاذ قرار حاسم ومؤكد بهذا الشأن^(٣)، وخاصة في العبرية التي وجدوا فيها أن أصل الكلمة يرخ، وفي اللغة الأكديّة التي وجدوا فيها استعمال لفظ أرخو، ولم يكن شائع استعمال هذه الكلمة في العبرية^(٤)، بل إن بعض الدلائل تقول بأن الجذور الأولى للفظ "التاريخ" بصيغتها العربية مشتقة من لفظ (Arc)، إذ ليس صحيح اشتقاقها من العبرية، وهذا ما شهد به روزنثال وهو يهودي^(٥)، وربما كان ينطق في اليونانية بلفظ أرخ، ومعناه "القديم أو القدم"، أو (إيستوريا) أي تاريخاً، ولكن لم تكن تحمل معنى التاريخ المعروف اليوم، وكانت شؤون الجنس البشري أولى المواضيع التي اهتموا بها^(٦).

وجميع ما أطلق على لفظ "التاريخ" في جميع البلدان الأوروبية كانت مشتقة من (storia) ومعناه: "الحكاية"^(٧).

(١) الفالوجي: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، ص ١١.

(٢) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٧. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢١.

(٣) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٩.

(٤) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة ليبزك، ألمانيا، ألمانيا، ١٤٣١هـ/ ١٩٢٣م، ص ٢٩. ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٧. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢٠-٢١.

(٥) الوافي، محمد عبد الكريم: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب، دار الكتب الوطنية، ط: ٣، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٨م، ص ١٤.

(٦) هرنشو: علم التأريخ، ص ٢٧.

(٧) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٩.

وبهذا المعنى دخل إلى العربية في أيام العرب قبل الإسلام بمعنى يطابق "حكاية أو قصة" ^(١)، أو "خبر" ^(٢)، وكانت الأخبار هي لفظة صيغة الجمع لكلمة خبر، أما أصل الكلمة "خبر" فليس واضح تماماً، وليس هناك ما يؤكد على الأصل العربي للكلمة ^(٣).

ولعل في الحكايات والأخبار ما يمكن اعتباره الجذور الأولى في أصل التعبير الفني عن فكرة التاريخ ^(٤)، ويؤكد ذلك آيات القرآن الكريم التي أشارت إلى أخبار الماضين على أنها قصص كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نُقِصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ ^(٥).

كما يلاحظ كثرة ورود لفظ "أساطير الأولين" في القرآن الكريم بمعنى الأخبار والقصص والحكايات ^(٦).

إذاً يمكن من خلال ذلك الاستدلال على أن "التاريخ" كان مطابق للأخبار من حيث المفهوم على أنه روايات أو قصص أو حكايات ^(٧)، على الرغم من أن الأخبار التي طابقت التاريخ لم تكن تهتم بتحديد الزمن، وتسجيله.

ويرجح كثير من المؤرخين أن لفظ "التاريخ" مأخوذ من اللهجات التي كانت تتكلم بها الأقوام التي سكنت مناطق شبه الجزيرة العربية في مناطق الجنوب وعلى الوجه الأخص بلاد اليمن، حيث أن في هذه المنطقة وجد مركزاً ثقافياً لعله أنتج مثل هذا التعبير الفني الذي يربط التاريخ بالتقويم ^(٨)، وعليه

^(١) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٧. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢٠. مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٩.

^(٢) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٩.

^(٣) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٧. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٩.

^(٤) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٧. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٩.

^(٥) سورة يوسف، الآية: ٣.

^(٦) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٩.

^(٧) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٧.

^(٨) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢١.

يحتمل أن يكون لفكرة التقويم لدى اليمنيين أثر في إحداث تاريخ ثابت هو التاريخ الهجري فيما بعد^(١).

من خلال ما تقدم ذكره يمكن استخلاص تعريف للتاريخ بعد صهر جميع التعريفات في بوتقة واحدة وهو: التعريف بالوقت، أي القيام بتعريف الحدث- الواقعة- من خلال الوقت الذي حدث فيه، أي الزمن الذي وقع فيه الحدث، وإذا كانت الأحداث بطبيعتها التغيرات التي تنشأ خلال الزمن، يمكن القول أن التاريخ هو الزمن أو العلم الذي يبحث في وقائع الزمن من حيث تعيين ذلك الحدث وتوقيته. ولعل هذا التعريف الأنسب للتاريخ^(٢)، واستعمل لفظ التاريخ- بدون همز- للتاريخ المكتوب والمقصود، أما لفظ التأريخ- بالهمز- لصناعة التاريخ وتأليفه^(٣).

٢- التاريخ اصطلاحاً.

لعل كثرة الموضوعات التي تدخل في دائرة التاريخ ومباحثه، جعلت آراء العلماء والمؤرخين- المسلمين- تتنوع وتختلف وتتباين في تحديد تعريف له^(٤)، ومازال الشك والنقاش قائماً بينهم حول حقيقة (التاريخ)، ومكانته بين العلوم ، وطبيعته، وفائدته^(٥).

ومن الجدير بالذكر أنه خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة كان المؤرخون يبدؤون مؤلفاتهم بالإلماع لفوائد التاريخ وأغراضه، وبما أنه من الممكن تعريف العلم بذكر غاياته أو فوائده؛ فلم يدونوا تعريفاً كاملاً ومحددًا للتاريخ^(٦)، ربما لأن فكرة التعريف بالتاريخ كانت تتضمن حصره ضمن نطاقات معينة؛ أو أن الإحاطة بهذا العلم بشكل كامل لم يكن قد وصل إليها فكر العلماء المسلمين بعد.

وبناءً على ذلك يلاحظ أن كل من المؤرخين كانت له نظريته الخاصة التي نظر بها إلى التاريخ، ومن الأهمية إيراد بعض الآراء للمؤرخين الذين حاولوا تعريف التاريخ (اصطلاحاً):

(١) الدوري، عبد العزيز: نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ٢١.

(٢) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٢٤.

(٣) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٧.

(٤) السلمي، محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي، ط: ١، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٥٠.

(٥) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ١٣.

(٦) السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٥٠.

فقد عرفه الكافيجي بأنه: "تعيين وقت لينسب إليه زمان مطلق، سواءً كان قد مضى، أو كان حاضراً، أو سيأتي"^(١). وعليه يستدل أن نظرة الكافيجي إلى التاريخ جعلته على ارتباط بالزمان، وقال أيضاً: "مدة معلومة بين حدوث أمر ظاهر، وبين أوقات أخرى"^(٢).

ومن خلال هذا يمكن تعريفه بأنه: "تكوين معرفة عامة عن مختلف الوقائع والحوادث والأحوال من (أعمال - أفكار - مشاعر - حروب - زلازل - براكين - الخ) التي عاشها الإنسان في حياته وخلال عصوره المتتالية"^(٣)، وعن جهود ونشاطات الإنسان في الماضي سواءً لحكام أو زعماء أو أفراد عاديين^(٤)، وهذه الحوادث والوقائع والجهود كان لابد من تسجيلها لحفظها من الاندثار والضياع، لكي تستذكرها الأجيال وتقوم باستعادتها، ربما - تحليلًا وتمحيصًا - على اعتبار أن أحداث التاريخ لا تستعاد كما كانت بالضبط.

كما قال خليفة بن خياط^(٥): "هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عدد نساءهم ومحل ديونهم". وهذا ما يؤكد على أنه المنهج الذي يقتدي به المسلمون في تسيير شؤونهم الدينية والحياتية^(٦).

ومن المهم ذكر دلالات الكلمة وتطورها بشكل مبسط، فقد كانت كلمة تاريخ في بداية العصر الإسلامي تستعمل على أنها تقويم وتوقيت على أساس القمر^(٧)، وانتقل المعنى من التوقيت بالقمر إلى الحقبة أو التاريخ، وهذا ما أجمع عليه بعض المؤرخين^(٨)، وقد كان العرب قبل ظهور التأريخ الإسلامي يؤرخون بعض الحوادث المهمة ويتخذونها مبدأ للتوقيت، وكانت كلما تأتي حادثة يهمل ما قبلها ويؤرخ بها مثل بناء الكعبة، وبعضهم أرّخ من عام الفيل أو ما شابه ذلك^(٩).

(١) الكافيجي: المختصر في علم التاريخ، ص ١٦. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣٢٦.

(٢) الكافيجي: المختصر في علم التاريخ، ص ١٦. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣٢٦.

(٣) الصباغ، ليلى: دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبوعات جامعة دمشق، سورية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٥.

(٤) الشيخ: المدخل الى علم التاريخ، ص ١٩.

(٥) خليفة بن خياط الشيباني العصفري البصري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م): أبو عمرو، محدث ونسابة إخباري، صنف "التاريخ" عشرة أجزاء، طبع جزء منه، و"الطبقات" ثمانية أجزاء، كان مستقيم الحديث، من متقضي رواته. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ٣١٢.

(٦) ابن خياط، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م): تاريخ خليفة بن خياط، تح: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢، الرياض، السعودية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٤٩. السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٥٠.

الفالوجي: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، ص ٢١.

(٧) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٨. الفالوجي: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، ص ١٣.

(٨) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ٨.

(٩) الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، ص ٢٠. الفالوجي: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، ص ١٤.

وعندما ظهر الإسلام عدّ حداثاً فاصلاً^(١)، وذلك بين مرحلتين قبل الإسلام وبعده، وبالتالي ظهرت نظرات جديدة، لا سيما أنه غيّر الكثير من المفاهيم التي كانت سائدة قبله، وجاء القرآن بنظرة عالمية في التاريخ، وشعر العرب المسلمون أنهم أصحاب رسالة عظيمة^(٢).

ذلك لأن الإسلام كان ثورةً فجّر في العقلية العربية مخزوناتا في مجالات عديدة، وقدم نمطاً متطوراً لأوجه الحياة، وتبلور الحس التاريخي اتجاه الأحداث مدفوعاً بأسباب جوهرية أهمها الدين الإسلامي الذي قدم تفسيراً للحياة، والتنظيم السياسي للدولة الإسلامية التي أصبحت ذات وعي خاص بذاتها الحضارية^(٣)، وتقاليدهم التي برزت من خلال اهتمامهم بالنسب والمفاخرات، وما دعا وأشار إليه القرآن الكريم من إشارات إلى الاهتمام بأحوال الماضين من الأمم، والمكانة السامية التي امتاز بها الرسول والصحابه بين الناس^(٤)، كل ذلك انعكس على فكرة التاريخ وأعطاه أبعاداً متنوعة.

ومع مرور الزمن والتطور في استعمال الكلمة اكتسبت معنى جديد وهو تدوين أخبار الأحداث والوقائع^(٥)، وقد كانت من حيث الظاهر "عملية شفوية" مدفوعة بأسباب أهمها توخي الدقة، والحرص على عدم التزوير والتزييف، فكان التاريخ في جوهره يعني "الرواية الشفوية" في القرن الأول الهجري وأواسط الثاني الهجري/السادس وأواسط السابع الميلادي؛ إلا أن هذا لا ينفي وجود صحف ونصوص مكتوبة بين أيدي الرواة الأوائل^(٦)، ثم بعد ذلك - ولعله بدايات القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد - أطلقت الكلمة على المعرفة بأحداث التاريخ والإمام بأخبار الرجال والمحدثين، وهذا يعني أن التاريخ نشأ ضمن العلوم الشرعية وعلى أيدي رجال الحديث^(٧).

ولأن الصدق كان هو الهدف المرجو من تدوين أحداث التاريخ وأخبار الرجال، فقد كان معظم يذكر أسماء رواته وأسانيده^(٨)، ثم أصبحت تطلق على عملية التدوين التاريخي وحفظ الأخبار^(٩)،

(١) ترحيني: المؤرخون والتاريخ عند العرب، ص ٢٥.

(٢) الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، ص ٢٠.

(٣) الشرقاوي، عفت محمد: أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص ١٥٩-١٦٠.

(٤) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٢.

(٥) السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٩. الفالوجي: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، ص ١٣.

(٦) ترحيني: المؤرخون والتاريخ عند العرب، ص ٣٤.

(٧) السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٥. الفالوجي: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، ص ١٤. هرنشو:

علم التأريخ، ص ٦٥.

(٨) ترحيني: المؤرخون والتاريخ عند العرب، ص ٣٣. السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص ٩.

(٩) الفالوجي: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، ص ١٣.

بمعنى تحديد زمن حادث ما^(١)، ولعل الاهتمام الفكري عند العرب في ذلك الوقت كان ذو أثر في توجيه الحركة الفكرية في العالم الإسلامي^(٢)، وقد كان الغالب على الكتابات التاريخية الطابع الشخصي، أو الفضول العلمي وذلك في المراحل الأولى من التدوين^(٣).

وفي هذا المجال لابد من ذكر تعريف المؤرخ ابن خلدون، لأن الوعي والثقافة وسعة الاطلاع لهذا المؤرخ يستدعي أن يكون له في كل علم موطئ قدم، إذ يلاحظ من خلال تعريفه للتاريخ الإدراك الواعي، والفهم الدقيق، والعلم بماهيته، فيقول في المقدمة:

"أما بعد: فإن التاريخ فن من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشَدُّ إليها الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأنديّة إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيقة، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لهذا أصيل في الحكمة عريق، وجدير أن يعد في علومها وخليق"^(٤).

وفي قول المؤرخ السخاوي في كتابه "التبر المسبوك في ذيل الملوك" ما يؤكد على صلة التاريخ بعلم الحديث: "فاعلم التاريخ؛ فنّ من فنون الحديث النبوي، وزين نقر به العيون، حيث سلك فيه المنهج القويم المستوي؛ بل وقعه من الدين عظيم، ونفعه متين في الشرع، بشهرته غني عن مزيد البيان والتفهيم،... وينتفع به في الاطلاع على أخبار العلماء والزهاد، والفضلاء، والملوك، والأمراء، والنبلاء، وسيرهم، ومآثرهم في حربهم وسلمهم، وما أبقى الدهر من فضائلهم، أو رذائلهم بعد أن

(١) كب: علم التاريخ، ترجمة: دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٢٧.

(٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٢.

(٣) ترحيني: المؤرخون والتاريخ عند العرب، ص ٣٥.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): المقدمة - من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (د.ت)، ص ٣. خضر، عبد الكريم عبد الرحمن: المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: ١، هيرندن، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٢٩. مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ١٥.

أبادهم الحدثان، وأبلى جديدهم الأوان،... ويعتبر بما فيه من المواعظ النافعة، واللطائف المفيدة لترويح النفوس الطامعة، مع ما يلتحق به من المسائل العلمية، والمباحث النظرية...^(١).

أما المقرئزي^(٢)، فقد نظر إلى التاريخ على أنه علم الأخبار، حيث قال في مقدمة كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" ذاكراً سبب تصنيفه الكتاب:

"بها- علم الأخبار والمقصود هنا التاريخ- عرفت شرائع الله التي شرعها، وحفظت سنن أنبياء الله ورسوله، ودون هديهم الذي يقتدي به من وفقه الله إلى عبادته، وهداد إلى طاعته، وحفظه من مخالفته.."^(٣).

كما ويعرف الصدق والكذب في الأخبار والروايات المنقولة إذ أنه من الطرق التي تستخدم في معرفة النسخ والنقل في أحد الخبرين المتضادين المتعذر الجمع بينهما^(٤)، ويؤكد ذلك سفيان الثوري^(٥) الذي قال: "لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ"^(٦).

أما في التعريفات الحديثة لمصطلح التاريخ ومدلوله؛ فيلاحظ أن أغلب التعريفات جاءت لتؤكد على العلاقة الوثيقة بين التاريخ وبين معرفة الماضي ولعل أهمها:

(١) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن شمس الدين (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م): التبر المسبوك في ذيل الملوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص ٢.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك في ذيل الملوك، ص ٢١.

(٣) المقرئزي، نقي الدين المقرئزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، ط: ٢، القاهرة، مصر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج: ١، ص ٤.

(٤) روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣٨٥. علي، أحمد اسماعيل: تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، دار دمشق للنشر والتوزيع، ط: ٣، دمشق، سورية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٣. الفالوجي: ترسيخ المدخل إلى علم التاريخ، ص ١٨.

(٥) سفيان الثوري (٩٧-١٦١هـ/٧٧٨-٧١٦م): سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل قومه في الحديث وعلوم الدين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة، خرج منها سنة (١٤٤هـ/٧٦٢م)، وسكن مكة والمدينة، وانتقل إلى البصرة فمات فيها متخفياً، له من الكتب "الجامع الصغير" و"الجامع الكبير" كلاهما في الحديث، وله كتاب في الفرائض، كان آيةً في الحفظ حيث قال: ما حفظت شيئاً فنسيته، ولابن الجوزي كتاب في مناقبه. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ١٠٤.

(٦) السيوطي: الشماريخ في علم التاريخ، ص ١٨.

أنه معرفة ماضي البشرية، وتسجيل ووصف وتحليل الأحداث التي جرت في هذا الماضي، على أسس علمية محايدة، منذ أصولها الأولى وحتى الوقت الحاضر، وذلك للوصول إلى حقائق وقواعد تساعد على فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل^(١).

ويؤكد هرنشو^(٢) على أن التاريخ يعني الماضي من حيث أنه: دراسة للماضي بالتركيز على الأنشطة الإنسانية منذ أقدم العصور، وحتى الوقت الحاضر، وكل ما يمكن تذكره من الماضي أو تم الحفاظ عليه بصورة ما يعد سجلاً تاريخياً، فقال: "سجل العصور الغابرة، وديوانها الحافظ لأخبارها"^(٣).

إذاً التاريخ هو القيام بدراسة تعتمد على حقائق الماضي وتتبع سوابق الأحداث، ودراسة ظروف السياقات التاريخية وتفسيرها.

وإذا كان الأمر كذلك، فالباحث يجد نفسه إذن أمام جميع الأحداث والوقائع التاريخية التي راكمها الإنسان منذ الماضي إلى الحاضر سواءً تعلق الأمر بالآثار، أو الوثائق، أو المخطوطات، أو الكتب، أو الفنون، أو المعالم الدينية، أو الهجرات، أو الحروب، أو الغزوات، أو المجاعات، أو الحرائق، أو اجتياح الأوبئة، أو الاكتشافات الجغرافية، أو العلوم، أو الصناعات، أو الاختراعات،..... أي كل حدث إنساني حصل في الماضي وأصبحت لدى الإنسان معرفة عنه.

وهذا ما أكدته هرنشو بقوله عن التاريخ أنه: "يبحث فيما أوجده الماضي وتركه من آثار وسجلات وغير ذلك مما يعين على جلاء الحضر وتوضيحه"^(٤).

وفي قوله عن التاريخ أنه: "المعرفة التي يتوصل إليها من طريق البحث"^(٥)، ما يبرهن ويؤكد على أن التاريخ علم نقد وتحقيق واكتشاف، وعلم بحث وراء الحقيقة وتمحيص لها^(٦).

ورأى بعض الكتاب في التاريخ أنه يشمل في مفهومه العام كل المعلومات التي يمكن معرفتها عن الكون كله، وما يحتويه هذا الكون من أفلاك وكواكب وأجرام ومن بينها كوكب الأرض، وما جرى

(١) الصباغ: دراسة في منهجية البحث التاريخي، ص ١٥.

(٢) هرنشو: الأستاذ هرنشو، وليّ فيما وليّ من المناصب العلمية أستاذية التاريخ الوسيط بجامعة لندن من عام ١٩١٣م إلى عام ١٩٤٣م، والذي له من التأليف ما يشهد له بفسوخ القدم وطول الباع في علم التاريخ. هرنشو: علم التاريخ، مقدمة الكتاب ذكر فيها تعريف له.

(٣) هرنشو: علم التاريخ، ص ٢٣.

(٤) هرنشو: علم التاريخ، ص ١٣ بتصرف.

(٥) هرنشو: علم التاريخ، ص ١٠-١٢.

(٦) الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، ص ٧.

للإنسان من حوادث على أرضها^(١)، ولأنه من أهم فروع المعرفة الإنسانية، أو العلم الذي من اختصاصه معالجة القضايا الإنسانية، وإظهارها على حقيقتها؛ فقد خصَّ بنصيب كبير من الاهتمام^(٢). ويمكن من خلال ذلك القول بأن كتابة التاريخ هي تسجيل للجهد الذي بذلته البشرية، وللتجربة الإنسانية خلال عصورها المتتالية، بهدف تكوين معرفة ووعي بما ينتج عن هذا الجهد والتجربة من الخبرات الناتجة عن التفاعل مع الطبيعة، والعلاقة فيما بين البشر^(٣)، وذلك من أجل تطوير الحياة الحالية والمجتمع تطويراً يسمح بتنظيم هذا المجتمع، وحل المسائل المحيطة به، ويلاحظ أن هذه التجربة سلسلة من الحلقات متصلة، وعليه فإن التاريخ يشمل الماضي والحاضر والمستقبل^(٤).

(١) عثمان، حسن: منهج البحث التاريخي، دار المعارف، ط: ٨، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص ١١.

(٢) النجار، حسين فوزي: التاريخ والسير، دار القلم، القاهرة، مصر، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ص ٩.

(٣) الكوثراني، وجيه: تاريخ التأريخ - اتجاهات - مدارس - مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص ١٧.

(٤) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٢٦-٢٧.

★ الفصل الثاني:

الجغرافية

أولاً- تعريف علم الجغرافية.

ليس من المبالغة القول بأن الدارسين والباحثين والجغرافيين، لم يستطيعوا بعد الوصول إلى تعريف جامع وشامل لعلم الجغرافية، ويرجح أن السبب هو الطبيعة المركبة والماهية المعقدة لهذا العلم التي تجعل من الصعب حصره ضمن إطار تعريفي هذا من جهة، وبسبب التطورات والتحولات المختلفة التي شهدتها الفكر الجغرافي، وعلم الجغرافية من جهة أخرى^(١).

ومن المتفق عليه أن لفظ الجغرافيا ليس عربياً، بل هو معرب، وقد ذكر أغلب المؤرخين الجغرافيين والجغرافيين المختصين أن أصل كلمة جغرافية مكون من لفظين يونانيين هما: (Geo) ويعني "الأرض"، و (Graphy) ويعني "الوصف"، أو "الصورة"^(٢)، وهي بهذا المعنى تعني الكلمة: "علم وصف الأرض"، أو العلم الذي يهتم بدراسة الأرض، وظواهرها الطبيعية الموجودة فيها، بما تشمل من غلاف صخري، وغلاف مائي، وغلاف جوي، وغلاف حيوي، وهذه الأغلفة شكلت فيما بعد جوهر فرع هام جداً من فروع الجغرافيا هو "الجغرافيا الطبيعية"^(٣)، ويعد المهتمون أن الفلاسفة اليونان كانوا أول من استخدم كلمة جغرافية Geography بهذا اللفظ، وقد ذكرت المصادر أن إيراتوستون (Eratoston) المتوفى سنة ١٩٦ ق.م، هو أول من استخدم هذا المصطلح^(٤).

(١) عبد الحكيم، محمد صبحي: دراسات في الجغرافيا العامة، دار النهضة العربية، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ١٨. الزيايدي، حسين عليوي ناصر: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، مجلة أورو، جامعة المثني، العراق، مج: ٧، عدد: ١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص ٢.

(٢) الدفاع، علي بن عبد الله: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة التوبة، الظهران، المملكة العربية السعودية، (د.ت)، ص ١١. غلبي، عاطف: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتيكا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ١٧. الرديسي، سمير علي حسن وعبد المحمود علي أحمد جهينة: مقدمة في الجغرافية البشرية، مجلة كلية التربية، جامعة الخرطوم، السودان، (د.ت)، ص ٥.

(٣) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٢٧.

(٤) الفراء، محمد علي عمر: مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية، وكالة المطبوعات، ط: ٣، الكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٣٢.

أما في اللغة العربية وإن كانت كلمة الجغرافيا حديثة^(١) أو دخيلة على اللغة العربية^(٢)؛ فالمعنى الذي استخدمت به الكلمة عند العرب في الفترة الإسلامية - فترة العصور الوسطى - بعد أن أخذوا لفظها من أسلافهم وأقبلوا عليها^(٣)، هو ما دل على إحدى فروعها، بعد أن اتسعت وتشعبت موضوعاتها مثل "صورة الأرض" و"مسالك وممالك" و"تقويم البلدان"^(٤)، بدلاً من كلمة جغرافيا^(٥)، وكان هذا يتمحور حول موضوع معين هو "الوصف" - الطبوغرافيا (Topography) - بما تضمن دراسة الأرض وتضاريسها^(٦)، وغيرها من الموضوعات التي تقدم وصفاً لفظياً للمناطق والأقاليم والمدن والبلاد، والجبال، والطرق، والمسالك، ووصف مكوناتها البشرية والطبيعية^(٧)، وتشير باختصار إلى الجغرافية الرياضية^(٨)، لأن المسلمين كانوا يؤثرون - يفضلون - الكتابة بهذا النمط وهو الوصف^(٩)، وكان هو الهدف من وراء هذه الموضوعات التي أصبحت فيما بعد فروع تدخل في دائرة علم الجغرافيا^(١٠)، وقد وجد عدد كبير من الجغرافيين الذين انتقدوا هذا التعريف كونه ينفي عن الجغرافيا الصفة العلمية^(١١) بعد أن وجدوا أن الاختصار على الجانب الوصفي في الدراسات الجغرافية سيشكل عائقاً في طريق التوصل إلى قواعد علمية وقوانين تحكم الظواهر الجغرافية، وهذا ما يباعد

(١) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٧.

(٢) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٢.

(٣) مقبل، فهمي توفيق محمد: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية الفكر الجغرافي نموذجاً، جامعة البترا، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ٢٤.

(٤) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٢. مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٢٤. وهيبه، عبد الفتاح: جغرافية العرب في العصور الوسطى، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، مصر، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص ٤٩.

(٥) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٧.

(٦) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتيكا، ص ١٧.

(٧) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٢. مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٢٤.

(٨) حميدة، عبد الرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، ط: ٣، دمشق، سورية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٣٧.

(٩) عبد علي، هشام حسون: المقدسي وأثره في الفكر الجغرافي، جامعة القادسية، كلية الآداب، العراق، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، ص ١.

(١٠) مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٢٤. وهيبه: جغرافية العرب في العصور الوسطى، ص ٤٩.

(١١) الزوكة، محمد خميس: الجغرافيا الاقتصادية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ١٧.

بين الجغرافيا وتقنياتها العلمية^(١)، ويحصر الجغرافيا في أطر ضيقة جداً، ولعله من الخطأ بعد ذلك تعريف الجغرافيا بوصف الأرض فقط^(٢).

فابن حوقل^(٣) وهو من رحالة القرن الرابع الهجري^(٤) الذي يقدم وصف لعلم الجغرافية في فاتحة كتابه "صورة الأرض" قائلاً:

"...عملت كتابي هذا بصفة أشكال الأرض، ومقدارها في الطول والعرض، وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام...إنه علم يتفرد به الملوك الساسة، وأهل المروآت، والسادة من جميع الطبقات"^(٥)، ومن خلال ما قدمه ابن حوقل تتبين أهمية علم الجغرافيا في معرفة ثروات الدولة ومقدار أموالها، ولا يستبعد أثر الجغرافيا في تسيير شؤون الدول^(٦)، كما أنه جانب من جوانب الدراسات الاجتماعية والسياسية^(٧).

وكتب الجغرافي الشهير ياقوت الحموي معجمه "معجم البلدان" ذاكراً فيه الفوائد الجلية التي يستخلصها القارئ والباحث من علم الجغرافيا، ومعرفته، والإحاطة بشيء من علومه، ومنها تحديد الأسماء بدقة، ومعرفة أماكن الأئمة والأعيان، والأمراء والوزراء، إذ يقول:

(١) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ١٩.

(٢) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ١٥.

(٣) ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م): محمد بن حوقل البغدادي الموصلية، أبو القاسم، رحالة، من علماء البلدان، كان تاجراً، رحل من بغداد سنة ٣٣١هـ، دخل المغرب وصقلية، وجاب بلاد الأندلس وغيرها، ويقال: كان عيناً للفاطميين - جاسوساً - له كتاب "المسالك والممالك"، وهو ممن جعل التجارة وسيلة لتفهم خصائص الإقليم، وطبائع الشعوب، وقد اطلع على كتاب "المسالك والممالك" للاصطخري، فكتبه من جديد محتفظاً بعنوانه، ونسبه إلى نفسه. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٦، ص ١١١. ابن حوقل، أبي القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م): صورة الأرض، مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ٦.

(٤) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ١١.

(٥) ابن حوقل، أبي القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م): صورة الأرض، مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ١٠.

(٦) وهيبه: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ١١.

(٧) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ١١.

"وكم إمام جليل، ووجه من الأعيان نبيل، وأمير كبير، ووزير خطير، يُنسبُ إلى مكان مجهول، فتراه عند ترجيم الظنون على كل محتمل محمول، فإن سُئِلَ عنه أهل المعارف أخذوا بالوجه الأرذل من العلم وهو لا أدري... لإغفالهم هذا الفن من العلم الخطير مع جلالته..."^(١).

المهم أن الجغرافيا بصورتها الوصفية ظهرت إرهاباتها مع ظهور الإسلام، وهذا يستدعي القول أن الجغرافيا الوصفية وليدة البيئة العربية الإسلامية وهذا ما سيتوضح في مكان لاحق^(٢).

وعلم الجغرافيا شأنه شأن علم التاريخ فهو من أقدم العلوم التي حظيت باهتمام الإنسان، والدافع الأكبر لهذا الاهتمام هو حب الاستطلاع والمغامرة التي وجدت مع وجود الإنسان نفسه على هذه الأرض ومحاولته التعرف عما حوله من ظواهر طبيعية وكونية^(٣)، لتجنب أخطار هذه الظواهر ومحاولة الاستفادة من منافعها^(٤)، وبدأ الاهتمام مع أولى خطوات الإنسان في إعمار هذه الأرض، وهذا ما أعطاه ملكة الملاحظة، وبالتالي حاول تفسير هذه الظواهر من خلال معرفته المحدودة آنذاك، ولعل تلك كانت البدايات الأولى لنشوء علم الجغرافية، وفي ذلك يقول حسين مؤنس:

"في بداية التاريخ - أي: في عصور توحش الإنسان الأولى - كان الإنسان يعيش تحت رحمة الزمان والمكان، فلما نما ذهنه، واتسعت تجاربه، بدأ يتأمل من حوله، وأخذ يحاول التحكم في الزمان والمكان، ولكي يحمي نفسه من عبث الزمان، وتحكم المكان تعلم كيف يتخذ أسلحة وأكسية (أغطية)، وسكن المغارات، ثم تعلم كيف يبني الكوخ، وعندما اهتدى إلى فضل النار، وعرف كيف يوقدها خطأ خطوة فسيحة إلى الأمام... ومضى في طريق التحكم في ظروفه الزمانية والمكانية عن طريق التفكير والتجربة"^(٥).

أما روجر منشل^(٦) (R. Minshull)، فقد نظر إلى الجغرافية نظرة خاصة فحدد مجالها قائلًا:

(١) الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، مج: ١، ص ٨.

(٢) وهيب، عبد الفتاح محمد: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، إهداءات جامعة بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ١٤.

(٣) عبد العال، أحمد: نقاط التجديد في الفكر الجغرافي، مجلة المجمع العلمي المصري، جامعة الفيوم، مصر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص ٢.

(٤) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٤.

(٥) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٢٦.

(٦) روجر منشل: من أعلام الجغرافيا الحديثة، لم أجد له ترجمه وافية لعله من اليهود.

"إن الجغرافيا تبحث في مميزات المجال الذي نعيش فيه بالنسبة إلى بيئات العالم، وكيف نستغل هذا المجال الآن؟ وكيف كان استغلاله في الماضي؟ كيف استطعنا أن نخطط نشاطنا في هذا المجال؟ ومدى استجابتنا إلى هذا الحيز من مجالنا؟ وكيف نستطيع أن نستغله بطريقة أفضل لحياة أفضل؟"^(١).

والملاحظ من هذا التعريف أن روجر منشل قد حصر مفهوم الجغرافيا بالإقليم وهو أحد فروع الجغرافيا، ولعل السبب في ذلك هو أن الاختلافات المكانية في ظروفها ومواردها بين المناطق على سطح الأرض؛ وقد أسهم في التفسير العلمي لعلم الجغرافيا، ما جعل بعض العلماء يؤكدون على أنه علم المكان^(٢)، وهو ما يؤكد اتساع وتشعب مواضيع الجغرافيا.

وقد ذكر ريتز^(٣) الجغرافيا قائلاً: "ذلك الفرع من العلم الذي يتعامل مع الكرة الأرضية بجميع صفاتها، وظواهرها، وعلاقتها كوحدة مستقلة، والذي يظهر العلاقة ما بين هذا الكل الموحد مع الإنسان ومع خالق هذا الإنسان"^(٤).

وبناءً على ما تقدم يمكن القول إن البذرة الأولى في نشأة علم الجغرافية كانت مع محاولة الإنسان ذو الطبع الجغرافي^(٥) التعرف عما حوله من الظواهر، والتكيف والانسجام معها، ومحاولة التحكم فيها من خلال المغامرة - أولى مراحل الجغرافية^(٦) - وحب الاستطلاع^(٧) على الرغم من صعوبة تحديد

(١) منشل، روجر: **تطور الجغرافيا الحديثة**، تر: محمد السيد الغلاب ودولت أحمد صادق، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م، ص ١٧٥.

(٢) الزيايدي: **تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة**، ص ٢٢. سعيد، إبراهيم أحمد وممدوح شعبان دبس: **تطور الفكر الجغرافي**، منشورات جامعة دمشق، سورية، ١٤٣٢-١٤٣١هـ/٢٠١٠-٢٠١١م، ص ٤٥٤. الزيايدي: **تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة**، ص ٢٢.

(٣) كارل ريتز: **أرسي قواعد الجغرافيا الحديثة وأصولها**، وارتقى بها إلى مستوى العلم الأصولي المنظم بالبحث عن القوانين، واستمداد البيانات من الطبيعة، وكان منهجه مقارن يهدف إلى إيجاد ارتباط بين التاريخ والطبيعة، وأدخل مبدأ السببية في الجغرافيا والذي أدى إلى ظهور الحتمية، كتابه الأول "دراسة الأرض". عبد العال: **دراسات في الفكر الجغرافي**، هوامش الكتاب حيث لا يوجد ترقيم صفحات.

(٤) M. Husain: **Evolution of Geographical Thought**, Rawat publication, New Delhi, 1984 A.D, p117.

(٥) عبد الحكيم: **دراسات في الجغرافيا العامة**، ص ٣.

(٦) كلوزيه، رينيه: **تطور الفكر الجغرافي**، تر: عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٩.

(٧) عبد العال: **نقاط التجديد في الفكر الجغرافي**، ص ٢.

أصول هذه البذرة- بمعنى أصل النشأة- للفكر الجغرافي^(١)، لأنه منذ بدء الخليقة والحس الجغرافي ملازم للإنسان، والذي ظهرت إرهاباته الأولى مع بداية الإنسان الرسم على جدران الكهوف والمغاور، ثم تطور الفكر الجغرافي تطوراً أوسع مع اكتشاف النار والزراعة، ومع توسع الاهتمام والاكتشاف زاد التطور^(٢)، ويكفي الجغرافيا أهمية وعظمة أن أقدم الحضارات نشأت في بيئات جغرافية مهدت السبيل لوجودها، وربما لولاها لما وجدت تلك الحضارات^(٣)، على أن هذه المعارف الجغرافية كانت غاية في الأهمية لأنها تساهم في تكوين الإنسان المثقف بالإضافة لما كان يلم به من علوم وآداب^(٤).

ثانياً- أهم ميادين علم الجغرافية.

نتيجة اتساع آفاق علم الجغرافيا وتطوره خلال عصور متتالية، حيث أنه علم قديم وليس حديث، فقد ظهر مع نشأة الإنسان^(٥)، وظهرت له عدة فروع، إذاً فروعه لم تنشأ دفعةً واحدة بل تطورت، وتغيرت، واتخذت عدة مصطلحات أطلقها عليها المهتمون بهذا المجال وكانت تلك المصطلحات تناسب خصائص الفرع الذي هو موضع الاهتمام^(٦)، وتبرز أهمية علم الجغرافيا وأصالته من خلال ما ما يندرج تحت دائرته من تنوع الفروع وتعددتها وكثرتها، والتي درج أغلب الباحثون في ميادين الجغرافيا على ذكرها، على الرغم أن هذه الفروع غير محددة التخصص بدقة^(٧).

حيث يلاحظ في هذا المجال أن العلماء والباحثين اتفقوا على تقسيم علم الجغرافيا إلى فروع أساسية أصيلة، بسبب التنوع في المواضيع التي تقوم بدراستها من ظواهر طبيعية وبشرية وتفاعلاتها، ونتائج التفاعلات التي تحدث فيما بينها^(٨)، وهي الجغرافيا العامة وتضم: (الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية)^(٩)، وعلم الخرائط، وطرق إنشائها، و (الجغرافيا الإقليمية) وتشمل كل من هذه التقسيمات

(١) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣.

(٢) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ١٦.

(٣) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٤. عطيتو، عباس حربي: الفكر الشرقي القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص ٦٠.

(٤) وهيبه: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٩.

(٥) اسماعيل، أحمد علي: الجغرافيا العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، مصر، ١٤١٥-١٤١٦هـ/ ١٩٩٥-١٩٩٦م، ص ٦.

(٦) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٢.

(٧) الجوهري: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ٩.

(٨) الرديسي: مقدمة في الجغرافية البشرية، ص ٧.

(٩) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتيكا، ص ٤١.

فروعاً خاصة تندرج تحت عنوانها، وفي العصور الحديثة أضيف إليها فرع نظم المعلومات الجغرافية^(١)، وفيما يلي ذكر لأهم ميادين علم الجغرافية وهو الجغرافيا الطبيعية والتاريخية بما أن البحث اختصّ بدور الجغرافيا الطبيعية في أهم المعارك العسكرية، ولارتباط البحث بالجغرافية التاريخية.

١ - الجغرافيا الطبيعية (Physical Geography)^(٢):

هي التي تهتم بالبيئة الطبيعية باعتبارها وثيقة الصلة مع البيئة الإنسانية، ثم تركز على أشكال سطح الأرض - التضاريس - وتوزيعها، والأحوال الجوية، وأنماط المناخ، إلى جانب التربة وما يصاحبها من غطاء نباتي^(٣)، أي خارج متناول الإنسان ولا دخل له فيها^(٤).

كما وتتناول دراسة المكان^(٥)، حيث يذكر بعض الجغرافيون أنها علم المكان الذي يختص بالسلوك المكاني (Spatial Behavior) للإنسان^(٦)، وبناءً على ذلك تضمنت كتابات المهتمين بالجغرافيا الطبيعية الكثير من خصائص المكان والمفاهيم الجغرافية الطبيعية التي تتنوع اتجاهاتها من فلكية، ورياضية، ومناخية، وجغرافية البحار، والنباتات^(٧).

ومنهم من صنّف الجغرافيا الطبيعية ضمن شعبة رئيسية أطلق عليها "الجغرافيا العامة"، وأضاف إلى الجغرافيا العامة فرع الجغرافيا البشرية، واعتبر أن الجغرافيا العامة تدرس الأنماط وتبحث في جميع القوانين التي تحكم علاقات هذه الأنماط وتحليلها، من حيث أنها لا تقارن أي ظاهرة إلا بظاهرة أخرى تماثلها في العنوان^(٨)، وشكلت الجغرافية الطبيعية والبشرية ما عرف باسم "الجغرافيا الأصلية" (Systematic Geography)^(٩).

(١) الرديسي: مقدمة في الجغرافية البشرية، ص ٧.

(٢) جاد الرب، حسام الدين: الجغرافيا البشرية، منتدى مكتبة الاسكندرية، الاسكندرية، مصر، (د.ت)، ص ٥.

(٣) الجوهري: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ١١.

(٤) جاد الرب: الجغرافيا البشرية، ص ٥.

(٥) جورج، هـ.ت كميل: علم الجغرافيا (آفاق تتسع في عالم يضيق في كتاب آفاق المعرفة)، تر: عبد الهادي المختار، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد - نيويورك، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ١٩١.

(٦) الجوهري: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ١٢.

(٧) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتيكا، ص ٤١. الجوّاري، رائد راكان قاسم: جهود الشريف الشريف الإدريسي في الفكر الجغرافي العربي، مجلة كلية التربية، جامعة الموصل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، مج: ١١، العدد: ٣، ص ٣٦٨.

(٨) الرديسي: مقدمة في الجغرافية البشرية، ص ٧.

(٩) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٢٧.

فالجغرافيا الطبيعية تهتم بدراسة جميع المظاهر الطبيعية المحيطة بالإنسان، من بيئة جيولوجية والتضاريس، والمناخ، والغطاء النباتي، والحيواني الطبيعي والبري^(١)، أي تقوم بدراسة العلاقات بين المجتمعات الإنسانية وبيئاتها الطبيعية التي تعيش ضمن نطاقها^(٢)، وتفسرها وتحللها وتسعى إلى تكوين معرفة عما ينشأ من اختلاف مكاني ناتج عنها^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن الجغرافية الطبيعية تعدُّ فرع من فروع الجغرافيا العامة، وتحتوي العديد من الاختصاصات^(٤)، حيث أن هذه الفروع نفسها قد تفرعت إلى تخصصات أدق وأضيق^(٥)، ومنها الجغرافيا الفلكية التي تعنى بدراسة شكل الأرض وحجمها وكرويتها وعلاقتها بالكواكب الأخرى^(٦)، فهي التي تهتم بشكل عام بدراسة مكونات الأرض الطبيعية ولها فروع ثانوية وهي:

★ جغرافية المناخ.

تهتم بأنواع المناخ، والدورات الموسمية^(٧)، وتتناول بالدراسة الغلاف الجوي^(٨)، والمناطق المناخية، المناخية، وأثرهما في عناصر المناخ من حرارة، ورياح، وضغط جوي، وأمطار ومدى تأثيرها الفاعل على سطح الأرض، وتفاعلها مع بعضها البعض، وتحليل العوامل المؤثرة في هذه العناصر ونتائج ذلك التفاعل^(٩)، وبذلك تؤدي خدمة كبيرة في الحركة السياحية نظراً لارتباط المناخ بالسياحة، وأثره الفاعل على الحركة السياحية^(١٠).

(١) الرديسي: مقدمة في الجغرافية البشرية، ص ٨. عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٢٧.

(٢) الجوهري: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ٩.

(٣) عبد علي: المقدسي وأثره في الفكر الجغرافي، ص ١٣.

(٤) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتكا، ص ٤١.

(٥) خصباك، شاكر: الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية (بحوث المؤتمر الجغرافي الأول)، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الملك محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، مج: ٣، ص ١٦٩.

(٦) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١١.

(٧) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتكا، ص ٣٠.

(٨) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٢٨.

(٩) الرديسي: مقدمة في الجغرافية البشرية، ص ٨.

(١٠) اسماعيل: الجغرافيا العامة، ص ١٤.

★ جغرافية حيوية.

يدخل ضمن نطاق اهتمامها مختلف صور الكائنات الحية من نبات طبيعي^(١)، وحيوان^(٢)، سواءً على اليابس أو في الماء والهواء^(٣)، والتفاعل فيما بينها وبين الإنسان، وما ينتج عن التفاعل الحاصل بين هذه العناصر^(٤)، وأحياناً تقسم إلى جغرافيا النبات وجغرافيا الحيوان، كما ويدخل في نطاقها علم الترب (pedology)^(٥) من حيث الخصائص والمكونات للتربة، باعتبار أن التربة من المبادئ الأساسية لجغرافيا النبات، ولا يمكن إغفال الأهمية والدور الكبير للتربة في رفد علم الجغرافيا بالمنفعة والأهمية.

★ جغرافيا البحار والمحيطات.

تختص بدراسة جغرافية البحار، والمحيطات، والبحيرات، والمجاري المائية^(٦)، وامتدادها، والمساحة التي تشغلها^(٧).

وقد يركز بعض الجغرافيون اهتماماتهم على بعض نواحي البيئة الطبيعية، أو المجتمعات الإنسانية كـ مجال لتخصصهم^(٨)، وتبرز أهمية الجغرافيا الطبيعية على اختلاف مجالاتها من خلال ما تقدمه من معلومات عن إمكان استثمار الإنسان للبيئة أو المجال الذي يعيش فيه، بمعنى ماهي المقومات التي تقدمها البيئة للإنسان ليتمكن من استثمارها على الوجه الأمثل؟^(٩).

وقد تطورت الجغرافيا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، حيث تبلورت فروعها بشكل خاص، وكل ذلك ساعد على وجوده تشكل المدارس الجغرافية، ونشوء الوعي الجغرافي، وتكامله^(١٠).

(١) الزوكة: الجغرافية الاقتصادية، ص ١٨.

(٢) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتيكا، ص ٣٠.

(٣) اسماعيل: الجغرافيا العامة، ص ١٢-١٤.

(٤) الرديسي: مقدمة في الجغرافية البشرية، ص ٨.

(٥) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٢٨.

(٦) اسماعيل: الجغرافيا العامة، ص ١٢.

(٧) محمد، صفاء أحمد خضر و سحر عادل عجیل: رواد علم الجغرافية الإسلامية في القرن السابع الهجري (دراسة في الفكر الجغرافي)، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج: ١٠، العدد: ٣٤، شعبان ١٤٣٩هـ/أيار ٢٠١٨م، ص ٤٨١.

(٨) الجوهري: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ١١.

(٩) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٢٩.

(١٠) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتيكا، ص ٢٩.

وانتهت الجغرافيا الطبيعية - أواسط القرن الرابع عشر الهجري/القرن العشرين الميلادي - إلى التركيز على دراسة القشرة الأرضية بشكل خاص، من حيث البيئة الجيولوجية، والمظاهر التضاريسية^(١)، وبرز وبرز في هذا المجال تياران أولها التآكل لمجاري المياه، وثانيها تيار الطبقات الأرضية، وتعنى بالقوانين الناطمة لحركة القشرة الأرضية، وتركيبها من الداخل والخارج^(٢).

٢- الجغرافيا التاريخية (Historical Geography).

وهذا الفرع يختص بدراسة الظواهر في الماضي، سواء كانت ظواهر جغرافية طبيعية أم ظواهر جغرافية بشرية^(٣)، حيث أنه جغرافيا الماضي بجميع جوانبه - إلا أنه لا ينتمي إلى الجغرافيا الطبيعية والبشرية بشكل خاص ومحدد^(٤)، ويتم ذلك حين إدخال البعد الزمني في الدراسات الجغرافية، ويعدُّ هذا الفرع من الفروع الهامة في الدراسات الجغرافية^(٥)، كدراسة مناخ في عصر جيولوجي قديم، أو دراسة مكان بشري في عصر من العصور، أو حتى دراسة الهجرات البشرية^(٦).

ومما يجب ذكره أنها تمثل أحد الفروع الرئيسية في الجغرافية، خاصة إذا ما علم الباحث أن عملها يختص بالرجوع إلى حقائق الماضي ووقائعه، لدراستها والاستفادة منها في جغرافية الحاضر، وهنا يلتقي المؤرخ مع الجغرافي^(٧).

وقد تحدث محمد صبحي عبد الحكيم مبيناً أهمية فرع الجغرافيا التاريخية قائلاً: "يقسم بعض الكتاب علم الجغرافيا إلى قسمين كبيرين أولهما جغرافيا الحاضر أو الجغرافيا المعاصرة، وثانيهما جغرافيا الماضي أو الجغرافيا التاريخية"، فهي حتى وإن كانت فرعاً من فروع الجغرافية، يمكن القول أنها تشكل مجموعة جغرافية قائمة بذاتها^(٨).

(١) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١١.

(٢) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوبوليتيكا، ص ٤١.

(٣) اسماعيل: الجغرافيا العامة، ص ٢٣.

(٤) جاد الرب: الجغرافيا البشرية، ص ٣١.

(٥) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٦.

(٦) جاد الرب: الجغرافيا البشرية، ص ٣١.

(٧) فاعور، علي: جغرافية تاريخية - المدينة العربية نشأتها وموقعها في كتابات الجغرافيين العرب، مجلة الفكر العربي المعاصر/مركز الإنماء القومي للنشر، العدد: ١٢، رجب - ١٤٠١هـ / أيار - ١٩٨١م، ص ١٠٦.

(٨) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٦-٣٧.

أما (فاوست) فقد عرف فرع الجغرافية التاريخية بقوله: "أنها ذلك الجزء الأساسي من الجغرافيا الذي نتناول فيه دراسة تأثير الحوادث على الحقائق الجغرافية"^(١).

وقد عدَّ بعض الكتاب أن الجغرافية التاريخية تدخل ضمن فروع الجغرافيا البشرية؛ إلا أن الحقيقة تبدو واضحة جلية عندما نتناول الجغرافية التاريخية الظواهر الطبيعية قبل نشأة الإنسان على سطح الأرض، وما طرأ على القشرة الأرضية من تغييرات في العصور الجيولوجية القديمة، وهذا كله من ضمن الجغرافيا الطبيعية كما تمت الإشارة سابقاً إلى فروع الجغرافيا الطبيعية.

من خلال ما ذكر يمكن القول أنه لجميع فروع الجغرافيا سواءً طبيعية أو بشرية جغرافية تاريخية، أي تجمع بين الميدانين الطبيعي والبشري^(٢)، وهذا ما تم ذكره بأنها جغرافيا الماضي، ولا يمكن تحديدها ضمن فرع معين، ويجد الباحث أن للجغرافيا التاريخية منهجين، أحدهما موضوعي، والآخر إقليمي^(٣).

وهي من أقوى الفروع علاقةً بالكشوف الجغرافية، حيث بقيت فترة قاصرة على دراسة تاريخ الكشوف الجغرافية، ولعله من الصحيح الاعتقاد بأن الكشوف تعتبر فرع من فروع الجغرافيا التاريخية^(٤)، ومن الأهمية القول بأن الهدف الذي يرام من فرع الجغرافية التاريخية التي أصبح الاهتمام الاهتمام بها يزداد بشكل كبير منذ النصف الثاني للقرن الحالي، يتلخص في عدة أمور ومنها:

- دراسة المظهر الخارجي المتغير للبيئة.
- التغير الجغرافي خلال الزمن.
- توضيح أثر الجغرافية في التاريخ^(٥).
- إعادة بناء جغرافية الماضي في الحاضر^(٦).

(١) الجوهري، يسرى: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ١٤. نقلاً عن فاوست.

(٢) الزوكة: الجغرافية الاقتصادية، ص ١٨.

(٣) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٩.

(٤) إبراهيم، عيسى علي: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ٨.

(٥) إن البحث في هذه الرسالة يندرج ضمن هذا البند، وهو توضيح أثر الجغرافية في التاريخ وأهميتها.

(٦) فاعور: جغرافية تاريخية - المدينة العربية نشأتها وموقعها في كتابات الجغرافيين العرب، ص ١٠٦.

وختاماً لابد من التنويه إلى أن الجغرافية التاريخية التي عرفها أ. عدي مخلص في بحث له عن الجغرافية التاريخية قائلاً: "نعني بالجغرافية التاريخية أثر العوامل الجغرافية على حياة الإنسان، ونشاطه عبر العصور التاريخية منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، كما أن الجغرافية التاريخية تعنى بدراسة آثار العوامل الجغرافية كالتضاريس الأرضية من جبال وهضاب وصحارى وأنهار وبحار ومستنقعات وغابات ونباتات وتربة ودراسة المواقع الجغرافية وأسباب قيام المدن أو اضمحلالها..."^(١). ما يؤكد على أن البحث يندرج في نطاق فرع الجغرافية التاريخية، حسب هذا التعريف.

(١) مخلص، عدي يوسف: المدخل إلى الجغرافية التاريخية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، العدد: ٨١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص ٣٧٠.

★ الفصل الثالث:

علاقة التاريخ والجغرافية

أولاً- ارتباط التاريخ بالجغرافيا.

منذ أن اهتم الإنسان بدراسة تاريخه الأول، وطبيعة المجتمع البشري، أدرك العلاقة القائمة بين التاريخ الذي يمثل علم الزمان (الوقت)، والجغرافية التي تمثل علم المكان (البيئة)، وكانت العلاقة فيما بينهما من الموضوعات التي شغلت ذهن الإنسان وتفكيره^(١)، وذلك في محاولة منه للإجابة على بعض الأسئلة ومنها:

- هل بالإمكان فهم التاريخ ودراسته بمعزل عن الجغرافية؟
- هل يمكن فصل التاريخ عن الجغرافية؟
- ما مدى علاقة التاريخ بالجغرافية؟

وفي الواقع جاءت جميع الإجابات لتؤكد على أنه لا يمكن فصل التاريخ عن الجغرافية باعتبار أن الأول هو عامل الزمن الذي تجري وتدور الأحداث من خلاله، والثاني هو عامل المكان الذي لا بد من وجوده لتجري عليه الأحداث، وعليه فإن دراسة كل منهما، وإدراك العلاقة والتأثير المتبادل بين التاريخ والجغرافية كعلمين مترادفين يشكل أمراً غاية في الأهمية؛ فقد ذكر موريس شربل أن الحضارات القديمة التي قامت ونشأت منذ أقدم العصور لم يكن ليصل تاريخها لولا الشروط الجغرافية التي ساعدت على نشوء تلك الحضارات وتطورها واستمرارها، وبناءً على ما سلف استطاع الإنسان أن يستقر في بيئات معينة وينشأ الحضارات العظيمة^(٢) التي يقوم الإنسان المعاصر بدراسة تاريخها.

ويجد الباحث في تعريف التاريخ عند الكافيجي كما ذكر سالفاً:

(١) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٧.

(٢) شربل، موريس: التاريخ، جروس برس، ط: ١، طرابلس، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ٩.

"علم التاريخ هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته"^(١)، ما يؤكد على الارتباط الوثيق بين التاريخ الذي يختص بالزمان، والجغرافية التي تختص بأحوال ما يتعلق بهذا الزمان من حيث التعيين.

وعليه فإن مقولة "بيتر هايلين": "التاريخ بدون جغرافية كالجثة الميتة لا حياة فيها ولا حراك". لاشك أنها حقيقة لا جدال فيها، لاسيما أن الحادثة التاريخية تحدث في إطارها الزمني بين الأزلي والأبدي، ولا بد لها من إطار مكاني يضيف على الحادثة التاريخية سمتها الجغرافية ويعطيها هوية تميزها عن أي حادثة أخرى، كما أن الجغرافية بغير التاريخ لا حياة فيها أو حركة^(٢).

وهذا ما أكد عليه حسن عثمان عندما قال: "والجغرافيا من العلوم المساعدة في دراسة التاريخ والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافية، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ، وهي ذات أثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنساني، فهي التي أطعمت الإنسان وأنشأته وعيّنت واجباته، وأوجدت المصاعب والعقبات الطبيعية التي تشدّ قريحته للتغلب عليها وللتأثير بدوره في البيئة التي يعيش فيها والعمل على استغلالها، وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير في الإنسان وبالتالي في التاريخ وذلك تبعاً لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها"^(٣).

كما قال محمد أحمد ترحيني في كتابه المؤرخون والتاريخ عند العرب: "يبدو للدارسين بأن أقدم الذين كتبوا في التاريخ العربي، هم أنفسهم من كتبوا في الجغرافيا العربية، وذلك لأن التاريخ والجغرافية كانا في نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف العامة التي كانوا يطلقون عليها اسم الأدب بوجه عام"^(٤)، ومما لا شك فيه أن التاريخ كونه أحد فروع المعرفة الإنسانية التي تبحث في ماضي الإنسانية، وما تركه الإنسان من آثار متنوعة وعلى اختلاف مادتها^(٥)، من نقشٍ على الصخر أو على جدران الكهوف والمغاور بتسجيلٍ أو وصفٍ للأحداث التي طرأت على الشعوب، كان لا بد له من أن يكون على صلة وثيقة بغيره من فروع هذه المعرفة التي شملت جميع المعارف والعلوم والتي بلغت الأوج والازدهار في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

(١) الكافيحي: المختصر في علم التاريخ، ص ١٦. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢٦ و ٣٢٧.

(٢) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٧.

(٣) عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٣٢-٣٣.

(٤) ترحيني: المؤرخون والتاريخ عند العرب، ص ١٦٩. مؤنس، حسين: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مج: ١٠، مدريد، إسبانيا، ١٣٨٠-١٣٨١هـ/١٩٦١-١٩٦٣م، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٥) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٢ مقدمة المترجم.

وبما أن الفكر الجغرافي كان فرعاً من فروع هذه الحركة الإنسانية العلمية، حيث تطور من خلال زيادة الرحلات والاستكشاف، فكان لابد من أن ينعكس هذا التطور على الفكر التاريخي بصورة أو بأخرى وعلى طريقة تحليل الأحداث وتوضيحها، لأن دخول المعارف الجغرافية إلى التاريخ كان مصدره الرغبة في المعرفة وسعة الاطلاع، وتنوع المصادر^(١)، ولم تعد المعلومة التاريخية تعتمد على الرواية كما كان الحال في القرون الأولى للإسلام، بل اعتمدت على عدة عناصر تاريخية، جغرافية، سياسية، اقتصادية^(٢)، حيث يلاحظ أنَّ المؤرخين وجدوا مادة عقلية جديدة في تلك الفروع العلمية التي تمثل في جوهرها خلاصة الحركة العلمية وأصلها في العصور الوسطى عند العرب، تسهم في ازدهار المنهج المتبع في التاريخ وتعمل على تدعيم طرائقه وتمتين قواعده وتزيد في يقينية الأحداث وصحتها.

وقد شهد الفكر الجغرافي تطوراً ملموساً خلال العصور المتتالية، لأن القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كان قرن الازدهار الحضاري للدولة العباسية، حيث شهد نشاطاً تجارياً حضارياً تمثل بانتقال التجارة والحضارة عبر البلدان والأمصار والاختلاط فيما بينها، وشهد ذروة الإنتاج الثقافي والعلمي، حيث توزعت مراكز الثقافة من الأندلس حتى تخوم الصين^(٣)، فكان علم الجغرافية أحد تلك العلوم التي شهدت تطوراً ملموساً في ذلك القرن.

وفي ذلك يقول شاكر مصطفى: "وإذا كان القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي فيما يذكرون هو قرن الجغرافية، لأن كافة الكتب الأساسية فيها إنما ظهرت في هذا القرن، فإنه كذلك قرن التاريخ وقرن تأثر التاريخ بهذا الفيض من المعلومات الجغرافية، مما نجم عنه ظهور جيل من المؤرخين الجغرافيين"^(٤).

وفي غمرة هذا التطور والازدهار، ظهر كثير من المؤرخين الذين عنوا بالجغرافيا أيضاً، فكانوا مؤرخين وجغرافيين عرف عنهم سعة المعرفة والثقافة والاطلاع، ومنهم المسعودي^(٥) الذي يجد المؤرخ والجغرافي في مؤلفاته القيمة ما يؤكد علاقة التاريخ بالجغرافية، فقد ذكر معلوماته الجغرافية مندمجة مع الموضوعات التاريخية في كتاب واحد، معتمداً على تدوين الأحداث دون إغفال الطرف الجغرافي

(١) مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج: ١، ص ٣٤٤.

(٢) بيضون: مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية، ص ٣٩.

(٣) ترحيني: المؤرخون والتأريخ عند العرب، ص ١٧٠.

(٤) مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج: ١، ص ٣٤٤.

(٥) حسن، زكي محمد: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٣٦-٣٧. الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١١٤-١١٥.

لها، وهو بهذه الصفة يشبه هيرودوت من مؤرخي الإسلام^(١)، وتلاه الكثيرون ممن سار على هذا النهج والمنوال.

ويلاحظ أن المؤلفات التي تركها المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون كانت تعطي نوعاً هاماً من المصادر الغنية التي تلتقي وتتمازج فيها النظرية التاريخية والجغرافية، وعليه من الصعوبة بمكان الاعتماد على كلية المصادر التاريخية مع إغفال المصادر الجغرافية، فإذا وضع الباحث في حسبانته أن الجغرافية توجه التاريخ في كثير من الأحيان، والتاريخ ما هو إلا وجه من أوجه الصراع على الجغرافية، أدرك أهمية المؤلفات الجغرافية ودورها في الإدراك العام والشامل للحدث التاريخي^(٢).

ولعل فيما قاله حسين مؤنس في كتابه "التاريخ والمؤرخون" ما يؤكد على علاقة التاريخ بالجغرافية عندما قال: "ما هو التاريخ؟ الجواب: هو دراسة الحوادث أو هو الحوادث نفسها"، والحوادث: جمع حادث، والحادثة: كل ما يطرأ من تغيير على حياة البشر، وكل ما يطرأ من تغيير على الأرض أو في الكون متصلاً بحياة البشر، والحادثة قد يكون مفاجئاً كوقوع الزلازل التي تهدم المدن، أو عنيفاً كقيام حرب..^(٣).

هنا يجد الباحث آخذاً بالحسبان أن الحوادث الجغرافية تحدث على الأرض التي يعيش عليها الإنسان، وتتصل بتاريخه على أرضه، ما يؤكد حقيقة الارتباط بين دراسة التاريخ والجغرافية، والعلاقة التي تجعل كل منهم علماً مكماً للآخر.

وقد رأى الباحثون المهتمون فيما ذكره ميشيليه (Micheleh) في كتابه عن تاريخ فرنسا عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م، أبلغ ما يصور قوة العلاقة بين التاريخ والجغرافية حيث ذكر قائلاً:

"بغير الأساس الجغرافي يبدو لنا أن الناس الذين يصنعون التاريخ كما لو كانوا يمشون في الهواء، أشبه بالصورة الصينية تتحرك على غير أرض. ويجب ألا ننظر إلى المكان على أنه مجرد مسرح لحوادث التاريخ. فالمكان له تأثير يتجلى في أشكال عديدة. مثل الطعام والمناخ، وهو يؤثر في الجماعات البشرية كما يؤثر في الأفراد"^(٤).

(١) أدهم، علي: بعض مؤرخي الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص ٦٤.

(٢) عوض، محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، ط: ١، السعودية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٧.

(٣) مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٢٣.

(٤) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٧.

بمعنى أنه لا يمكن فهم الكثير من الحقائق والوقائع التاريخية حتى يتم إلقاء الضوء عليها من خلال تتبع الوضع الجغرافي القائم والبيئة المكانية في الحقبة المدروسة التي حصلت فيها تلك الوقائع، فإذا ما تم ذلك بطريقة صحيحة وموضوعية فإن الحقيقة التاريخية عندها تظهر واضحة جلية؛ فالجغرافية هي التي تجعل للتاريخ معنى واضح، حيث أن الباحث في هذا المجال يلاحظ أن الإنسان عبر تاريخه الطويل منذ أقدم العصور مروراً بالعصور الوسطى وانتهاءً بالعصر الحديث ونهضته، أدرك أثر العامل الجغرافي في تقويم وتحديد مسار التاريخ وتطوره، وأدرك علاقة العوامل الجغرافية بالنظم الاجتماعية والثقافة البشرية، ويتبين ذلك من إشارات الجغرافيين والمؤرخين القدماء إلى الفيلسوف اليوناني (أبقراط) الذي عدّوه أول من كتب بهذا الموضوع^(١)؛ لأنه أدرك أن البقاع تؤثر في الطباع والأرض هي المسرح الذي تمثل فيه الأحداث.

فكما أن المؤرخ لا يستغني عن الجغرافية فإن الجغرافي أيضاً لا بد له من الاعتماد على التاريخ بشكل أو بآخر حتى يستمد منها الحقائق والمعلومات والمادة التي تخدم أبحاثه^(٢).

والجدير بالذكر أن بعض الجغرافيين يعتقدون بأن الجغرافيا وعلاقتها بالتاريخ لا تعني مصطلح "الجغرافية التاريخية" إذا لا تعني كلمة تاريخية الصلة بالتاريخ؛ بل تعني الصلة بالماضي. أي دراسة فروع الجغرافية الأصولية من بشرية: كالإنسان ومظاهر نشاطه، وطبيعية: كالمناخ والتغيرات التي طرأت للأرض في أي عصر من العصور^(٣)، وتبرز أهمية الجغرافية التاريخية كونها تحلل ماضي موقع جغرافي، ليسهل على المؤرخ فهم التطورات الحاصلة فيه.

وقد أدلى العديد من الجغرافيين والمؤرخين بأرائهم في هذا المجال ومنهم حسن حلاق الذي قال: "من المعلوم أن هنالك فرعاً خاصاً من العلوم الجغرافية يعرف باسم- الجغرافية التاريخية- وهي التي تهتم بدراسة التطور التاريخي وحركات السكان المختلفة"^(٤).

بينما كانت الجغرافية التاريخية من وجهة نظر آخرين مختلفة، ومنهم الجغرافي هالفورد ماكندر "الجغرافية التاريخية التي تقوم أساساً على دراسة الحاضر التاريخي"، بينما الجغرافية التاريخية من وجهة نظر الجغرافي الكبير جلوبرت، تتدرج تحت خمسة تعريفات على الأقل وهي:

(١) بارنز، هاري إلمر: تاريخ الكتابة التاريخية، تر: محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٩٤٧هـ/١٩٨٧م، ج: ٢، ص ١٩٤.

(٢) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٨.

(٣) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٣٧.

(٤) حلاق، حسن: مقدمة في مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٧٨.

- ١- دراسة الجغرافية الإقليمية في الماضي.
 - ٢- دراسة تغييرات الحدود السياسية بين الدول.
 - ٣- دراسة تاريخ الكشوف الجغرافية.
 - ٤- دراسة تأثير البيئة على مجرى الحوادث التاريخية.
 - ٥- دراسة تاريخ علم الجغرافيا^(١).
- وختاماً يمكن القول تأكيداً على ارتباط التاريخ بالجغرافية: "إن الجغرافيا، منظوراً إليها من فوق، في علاقتها بالإنسان، ليست شيئاً آخر سوى التاريخ عبر المكان، مثلما يكون التاريخ هو الجغرافيا عبر الزمان"^(٢). بمعنى أن التاريخ والجغرافية علمين مترادفين وذلك لأن التاريخ هو الذي يمتلك الخاصية الزمنية التي تعطي الجغرافية الحركة الديناميكية، والجغرافية تعطي الحدث التاريخي هويته المكانية التي تميزه عن غيره من الأحداث وتؤثر عليه بعد أن تضع بصماتها الخاصة عليه.

(١) السيد، رضا محمد: أساسيات الجغرافية السياحية، الأكاديميون والرمال للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص ٥٩-٦٠.

(٢) بريتون، رولان: جغرافيا الحضارات، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط: ١، بيروت/باريس، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ١٣.

ثانياً- إسهامات المؤرخين الجغرافيين العرب والمسلمين في إثراء الفكر الجغرافي التاريخي.

إن من أهم الأمور بالنسبة للباحث الجغرافي هو معرفة الكيفية التي تطور بها الفكر الجغرافي في جميع مراحلها وعبر العصور، وإلقاء الضوء على ذلك العلم وخاصة في أوقات ازدهار العلوم الإسلامية التي تعدّ من أهم الحلقات في تاريخ علم الجغرافيا وتطوره^(١).

ويجب ألا ينكر دور الجغرافيين القدماء في التطور الفكري لعلم الجغرافيا، حيث ذكر بعض الجغرافيين أن الإنسان في تاريخه القديم كانت لديه بعض المعلومات والمعارف الجغرافية، حتى وإن لم يكن يطلق عليها لفظة "جغرافية" في ذلك الوقت، وهذه المعارف كانت تتمحور حول الوصف للأماكن والناس^(٢)، وبالوصف وجدت بدايات التفكير الجغرافي، ونشأت في أيام اليونان على أيدي العديد من المفكرين أمثال (هيرودوت وهيكايتوس وأيراتوستون)، حيث كان لهم في كل مرحلة من مراحل تطور هذا العلم إسهامات، ثم تطور في أيام الرومان على أيدي الجغرافيين أمثال (سترابو ومارينوس الصوري وبطليموس)^(٣).

إلى أن جاء العرب الذين كانوا على دراية كبيرة بالجغرافيا أيضاً والدليل أن الأجداد الفينيقيين كان لهم السيادة في البحار والمحيطات ووصلوا إلى أماكن بعيدة^(٤)، ولعل علم الخرائط الذي ظهر في تاريخ علم الجغرافيا كان من إبداعات العرب الأقدمين، لأن أقدم المحاولات في رسم الخرائط كانت زمن العرب، مما يدل على صلة العرب بعلم الجغرافيا منذ ما قبل الإسلام^(٥).

ولا شك أن الباحث الجغرافي يلاحظ أن الاهتمام بالجغرافيا كان حاضراً في أعمال الإغريق الأوائل الذين كان لهم قصب السبق في الاهتمام بهذا المجال، وخاصةً في مجال تقسيم العالم إلى نطاقات

(١) غلاب، محمد السيد: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي (بحوث المؤتمر الجغرافي الأول)، مج: ٣، ص ١٢٩.

(٢) غلبي: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية، ص ١٧.

(٣) خصباك: الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية القديمة (بحوث المؤتمر الجغرافي الأول)، مج: ٣، ص ١٦٢.

(٤) مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ١٦.

(٥) مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ١٩.

وأقاليم سبعة^(١) ومحاولة تحديد الأجزاء المعمورة من العالم^(٢)؛ فقد اعتقد الإغريق أن العالم يشكل ربع الأرض فقط^(٣)، واهتموا بالتركيب الطبيعي للأرض، ورسموا خطوط الطول والعرض، وماهية الأنشطة البشرية التي مارسها الإنسان على الأرض^(٤)، وهنا يبرز تأثير الجغرافيا اليونانية والرومانية على الجغرافيا العربية الوسيطة، ويؤكد ذلك اصطباغ الجغرافيا العربية في أولى مراحلها بالصبغة الفلكية اليونانية، وكانت الجغرافيا عند اليونان تنقسم إلى قسمين:

الجغرافيا الفلكية: التي تعنى بالأرض وحركتها، وأبعادها وخطوط الطول والعرض، أما الجغرافيا الوصفية أو الإقليمية: التي تصف البلدان والأقاليم^(٥).

وقد كان العرب فيما يخص المبادئ العامة لهذا العلم، متمسكين بنظريات الإغريق، ولم تكن أبحاثهم تتعدى الإطار الرئيسي الذي رسمه الكتاب الإغريقيون ولا سيما بطليموس^(٦)، الذي يعد من أشهر الجغرافيين في العصر الإغريقي^(٧)، الذي وضع مجلدين في الجغرافيا كان لهم أثراً كبيراً على الجغرافيين العرب أحدهما عرف باسم "الجامع" عند علماء العرب والمسلمين^(٨)، والآخر باسم "المدخل إلى الجغرافيا"^(٩)، ويمكن اعتبار الأول منهما رسالة في الفلك، ضمنه الكثير من المعلومات الجغرافية القيمة^(١٠) وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم المجسطي، أما الآخر يعد أول محاولة لدراسة المكان على

(١) كراتشوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جزأين، القاهرة، مصر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ج: ١، ص ٢٣. الجوهري: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ٨.

(٢) عبد العال: دراسات في الفكر الجغرافي، ص ٧.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج: ١، ص ٢٣.

(٤) الجوهري: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ٨.

(٥) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٣٥.

(٦) كلاوديوس بطليموس (Ptolemy)، اشتهر بالقلوذي (١٠٠-١٦٥م): جغرافي وفلكي يوناني، أمضى معظم حياته في الاسكندرية، ومن أهم مؤلفاته "المجسطي" أقدم كتاب في الفلك وصل إلى العرب، ظهر سنة (١٤٨م)، ومعناه الأكبر، ونعت بذلك لأهميته، وقد نقله من اليونانية إلى العربية اسحق بن حنين (ت ٢٩٨هـ/٩١١م). ماجد، عبد المنعم: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: ٤، القاهرة، مصر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٢٣٧-٨٣٨.

(٧) المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ): كتاب الجغرافيا، تح: اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص ٥٢.

(٨) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٥١.

(٩) غلاب: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي (بحوث المؤتمر الجغرافي الأول)، مج: ٣، ص ١٣٣.

(١٠) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٢.

أساس علمي، حيث يلاحظ أن جغرافيته كانت تتألف من قوائم لأسماء الأمكنة والأقطار، مع إشارات إلى العروض والأطوال^(١)، ومما يجب ذكره أن بطليموس زود كتابه بخرائط عن العالم، ومنها خريطة بطليموس للعالم، كما قسم العالم إلى سبعة أقاليم مناخية، وبذلك اعتبر الرائد في الدراسة الجغرافية الإقليمية^(٢)، وأول من كتب في علم الجغرافيا كتابة علمية^(٣).

ومما لا شك فيه أن المؤرخين والجغرافيين العرب، وليس من المبالغة أن يكونوا أدباء وعلماء، ظهرت على أيديهم طلائع المؤلفات الجغرافية العربية^(٤)، وقد أسهموا بشكل أو آخر في إثراء المعرفة الجغرافية العربية^(٥)، دون أن يكونوا أنفسهم جغرافيون مختصون^(٦)، بسبب سمات العصر الذي لم يكن يشهد التخصص الدقيق المعروف الآن في العلوم سواءً أكانت تاريخية، أم جغرافية، أم فلسفية^(٧).

وعندما ظهر الإسلام غير الكثير من المفاهيم التي كانت سائدة قبل الإسلام، وأحدث تطورات جذرية في تلك المعلومات والمعارف^(٨)، وقد كانت البدايات الأولى للجغرافية العربية عند المسلمين ذات طابع وصفي إبان القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، على أيدي اللغويين^(٩)، ويلاحظ بأنَّ هناك هناك مؤرخين اهتموا في مجال الجغرافيا ونافسوا الجغرافيين في مجالهم أمثال هشام الكلبي (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)^(١٠).

(١) كلوزيه: تطور الفكر الجغرافي، ص ٣٦.

(٢) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ١٦-١٧.

(٣) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٢.

(٤) خصباك، شاكر: الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٨.

(٥) وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٩.

(٦) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٧.

(٧) وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٩.

(٨) خصباك: الجغرافيا عند العرب، ص ٧.

(٩) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٧. وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٩.

(١٠) هشام الكلبي (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م): هشام بن محمد بن أبي النصر بن السائب الكلبي، أبو المنذر، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، له تصانيف كثيرة، من أهل الكوفة وتوفي فيها، له نيف ومئة وخمسون كتاباً، ومنها "جمهرة الأنساب" و"الأصنام" و"نسب الخليل" و"كتاب الأقاليم" و"أخبار بكر وتغلب". ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ج: ٦، ص ٨٢. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٨، ص ٨٧-٨٨.

وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)^(١)، وقد كانوا محافظين على هذا الطابع الوصفي وتقاليد مرحلة معينة معينة من الزمن^(٢)، إلى أن تطورت المعارف الجغرافية، وتحررت من النمط الوصفي^(٣)، وذلك انطلاقاً انطلاقاً من الالتزام بتعاليم الإسلام، والتأثر بها، كونه قدم منظومة حياتية للمجتمع الإنساني^(٤)، وقد حضّ على تحصيل العلم^(٥)، كما خصّ العلماء بمكانة سامية ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٦).

المهم أن العرب والمسلمين فهموا وحلّلوا وفسروا ما ورد إليهم من معلومات ومعارف^(٧)، ونقلوا ثقافات تلك الشعوب إلى اللغة العربية، واهتموا بتدقيق ما وصل إليهم في محاولة الفهم والاستيعاب لهذه الثقافات والإضافة عليها^(٨)، وبدأت مرحلة الإبداع العظيم الذاتي الخاص بالعرب والمسلمين، وبدأ معها علم الجغرافيا والفلك والرياضيات بالتطور^(٩)، وصنعوا من خلال مراحل متتالية حضارة الإسلام وكونوا معرفة جغرافية بالغة الأهمية^(١٠)، وهذه المعارف الجغرافية الإسلامية لم تكن وليدة العصر الذي اتخذت فيه الجغرافيا العربية الإسلامية طابع العلم الذي يتكون من أصول وقواعد وفروع عديدة ومتنوعة، بل إن الجذور الأولى تعود إلى مرحلة مبكرة جداً.

ولم تكن الجغرافيا تعني ما نعرفه الآن عن علم الجغرافيا، حيث يلاحظ أن الجغرافية العربية الإسلامية كانت موسوعية، والغاية منها تجميع المعلومات عن الأماكن ووصفها^(١١)، وهذا ما جعلها في البداية ذات سمة تركيبية تسعى إلى مجرد الوصف بين المناطق، وتجميع المعلومات عنها، وكان

(١) ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م): عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد، ومن أئمة الأدب، ومن المصنفين، ولد ببغداد وسكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها، وتوفي ببغداد، ومن كتبه "تأويل مختلف الحديث" و"النبات" وغيرها. ابن خلكان: وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج: ٣، ص ٤٢. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ١٣٧.

(٢) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٧. وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٩.

(٣) كلوزيه: تطور الفكر الجغرافي، ص ٤٨.

(٤) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٧.

(٥) الجوهرى: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ٥.

(٦) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٧) الجوهرى: المضمون البشري في الجغرافيا، ص ٨.

(٨) وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٦.

(٩) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٤٧.

(١٠) وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٣.

(١١) عبد العال: دراسات في الفكر الجغرافي، ص ٧.

من دوافع الاهتمام بها أنها من بين الفنون التي يرغب المثقف المسلم في الإحاطة بشيء منها، لأنها لا تقل أهمية في تكوين المثقف المسلم بالإضافة إلى إحاطته بعدة علوم كالآداب والتاريخ والشعر وغيرها^(١)، ولعل أهم ما قام الجغرافيون المسلمون في بناء صرح الثقافة الجغرافية الإسلامية بخاصة، هو ما قاموا به من دور عظيم في توسيع المعرفة الجغرافية بجهات واسعة من العالم غير الإسلامي أيضاً في العصور الوسطى، ساعدهم على ذلك الاتصال التجاري بالشعوب الأخرى، حيث وصلت تجارتهم إلى مناطق مختلفة من العالم؛ فقد جابوا قارة أفريقيا والشرق الأقصى حتى وصلوا إلى الصين، واتجهوا شمالاً وغرباً وجنوباً^(٢).

وعليه فقد كان اتساع نطاق التجارة في جهات مختلفة من العالم هو العامل الأكبر في تقدم العرب والمسلمين في مجال الجغرافيا، وذلك أنهم كانوا مهرة بتجارة القوافل، منذ حقب تاريخية قديمة، والتي أوصلتهم إلى كل أصقاع الأرض^(٣)، ويمكن القول أن العامل الاقتصادي - التجارة وشراء البضائع - كان من الدوافع التي أفادت الفكر الجغرافي وأسهمت في تطوره، منذ ما قبل الإسلام وبعد ظهوره^(٤).

وكانت الفتوحات التي قامت بها الدولة الإسلامية وسيلة هامة في التعرف إلى صفات الأقطار وأقسام البلاد التي فتحها المسلمون^(٥)، وكان من وظائف الجغرافية عند ظهور الدولة الإسلامية خدمة هذه الدولة التي اتسعت حدودها، وضمت إليها بلاداً وشعوباً غير عربية، وذلك بتقديم معلومات عن الشعوب التي دخلت الإسلام وخصائص أقاليمها^(٦)، وظهر ذلك من خلال رغبة الخلفاء في معرفة شيء عن جغرافية البلاد التي فتحها المسلمون^(٧)، لأن الفتوحات الإسلامية أوجبت على المسلمين الاطلاع عن كثب على المسالك، والمناطق الزراعية في البلاد، وأحوالها السياسية والاقتصادية، وذلك طمعاً في حسن إدارة البلاد وسياستها، وتقدير الخراج، وتموين الجيوش، ومعرفة المناطق الحصينة من أجل درء الأخطار^(٨)، فساهموا بشكل فعال في صناعة الخرائط والعلوم الجغرافية وربطوها

(١) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ٧. وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٩.

(٢) وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٣.

(٣) مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٢٣.

(٤) الزيايدي: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، ص ١٤.

(٥) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٤٥.

(٦) محمد: رواد علم الجغرافية الإسلامية في القرن السابع الهجري، ص ٤٨٥.

(٧) وهيبة: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ١١.

(٨) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٥٠ - ٥٨.

بجغرافيا الفلك، ومنهم من اختص بالأماكن وبالمناطق مثل ياقوت الحموي، والإدريسي^(١) صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"^(٢)، وكانت تلك الأسباب الأساسية في تشكل أفق الجغرافية الإسلامية في ذلك الوقت^(٣).

وفي ذلك ذُكر أن الخليفة عمر بن عبد العزيز في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي كتب إلى واليه بالأندلس أن يوافيه بصفة الأندلس وأنهارها^(٤)، وكانت الجغرافية الوصفية هي الفرع الذي اهتم به الجغرافيون المسلمون اهتماماً بالغاً كما مر سابقاً^(٥).

وقد ذكر محمد عبد الفتاح وهيب أن الجاحظ^(٦) الذي يعد من أعظم الأدباء والمفكرين، ضمن كتبه الكثير من المعلومات الجغرافية، كما أنه أصدر كتاباً في الجغرافيا الإقليمية سماه "كتاب البلدان"، وكتب رسالة قيمة في الجغرافيا التجارية أطلق عليها "التبصّر بالتجارة"، كما ذكر أن إخوان الصفا ضمنوا في رسائلهم العديد من المعلومات الجغرافية وهذا ما يؤكد على سعة المعارف وتنوعها لدى العلماء المسلمين الأوائل^(٧).

(١) الإدريسي (٣٩٣-٥٦٠هـ/١١٠٠-١١٦٥م): محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي، أبو عبد الله: مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية، من أدارسة المغرب الأقصى، ولد في سبتة، ونشأ وتعلم في قرطبة، ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية، فنزل على صاحبها روجر الثاني، ووضع له كتاب سماه "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" وترجم إلى عدة لغات، وله كتاب "الجامع لصفات أشتات النبات" واستفاد منه ابن البيطار، ويرجح أن وفاته بسبتة في المغرب. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢٤.

(٢) مجلين، محمد محمود: التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم، ط: ٣، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٤٦.

(٣) عبد العال: دراسات في الفكر الجغرافي، ص ٧.

(٤) وهيب: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ١١.

(٥) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٥٠.

(٦) الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء (١٦٣-٢٥٥هـ/٧٨٠-٨٦٩م): أبو عثمان، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة، وפלج آخر عمره، كان مشوه الخلقة، له عدة تصانيف "البيان والتبيين" و"الحيوان" و"الأصنام" و"الجواري" غيرها من الكتب المتنوعة. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج: ٣، ص ٤٧٠. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٥، ص ٧٤.

(٧) وهيب: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ٩. وهيب: الجغرافيا والثقافة الإسلامية مج: ٣، ص ٤١٢.

وهذا الأمر ساعد على ظهور كتب متنوعة تعالج موضوع المسالك والممالك مثل كتب ابن خرداذبة^(١)، والاصطخري^(٢)، ويضاف ابن حوقل^(٣) وغيرهم.

وعندما ظهر الأمويون وازداد في عصرهم اتساع الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً من الهند شرقاً إلى المغرب والأندلس غرباً، ازداد اهتمامهم بالبريد حيث كان من الضروري بالنسبة لهم إعداد رسوم توضيحية وتخطيطية لمختلف المدن والطرق لمعرفة مواقعها^(٤)، وازدادت معها الدراسات الجغرافية التي تتعلق بشعوب تلك المدن، ويلاحظ أنه ازداد التطور في رسم وصناعة المصورات والخرائط التي استفاد منها قادة الجيوش الإسلامية^(٥)، ومما يجب ذكره أن المسلمين العرب توسعوا على نحو غير مسبوق في أعمال الملاحة بعد أن أنشأوا إلى جانب السفن التجارية أساطيل حربية قوية جابت المحيط الهندي والبحر المتوسط وخصوصاً بعد حركة الفتوحات^(٦).

وفي ذلك قال محمد الصياد: "كان المسلمون في العصور الوسطى أكثر أهل الأرض جوباً للآفاق وتقلباً في البلاد. كان دينهم قد انتشر في سرعة لم ينتشر بها دين من قبل ولا من بعد، فشرّق حتى بلغ الصين، وغرّب حتى انتهى إلى شواطئ بحر الظلمات،... وعلى الرغم أن الدولة الإسلامية فقدت وحدتها بعد حين إلا أن روابط الدين، واللغة، والثقافة الجديدة بقيت توحد بين المسلمين في مختلف الأقطار، فظلوا أمة واحدة وإن حكمتها عديد من الحكومات"^(٧).

(١) ابن خرداذبة (٢٠٤-٢٨٠هـ/٨٢٠-٨٩٣م): عبيد الله بن أحمد بن عبد الله، أبو القاسم، مؤرخ جغرافي، فارسي الأصل، من أهل بغداد، جده كان مجوسياً وأسلم على يد البرامكة، من مصنفاته المشهورة "المسالك والممالك" و "جمرة أنساب الفرس" و "أدب السماع" وغيرها. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج: ٣، ص ٤٥. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ١٩٠.

(٢) الاصطخري (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): إبراهيم بن محمد، أبو اسحق، ويعرف أحياناً بالكرخي، رحالة من العلماء الرواد المعروفين بالمعروفين عند العرب المسلمين، وأول من وجه اهتمامه إلى وصف الأرض، عشق العلم وطلبه، ودفعه عشقه إلى الطواف في بلاد العرب وبلاد الهند، وصولاً إلى سواحل المحيط الأطلسي، وبحث في كل صقع وصل إليه عن العلماء فيه، واشتهر الاصطخري بكتابه النفيس "مسالك الممالك" وقسم فيه ممالك العالم إلى أربعة، وتناول فيه ذكر بلاد الإسلام مفصلة. مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٥١.

(٣) محمد، رواد علم الجغرافية الإسلامية في القرن السابع الهجري، ص ٤٨٥. المغربي: كتاب الجغرافيا، ص ٥١.

(٤) العدوي، إبراهيم ونايف السهيل: الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٢٠٤.

(٥) وهيبه: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، ص ١١.

(٦) مقبل: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية، ص ٢٩.

(٧) الصياد، محمود محمد: ابن بطوطة - شيخ الجوايين (٧٠٣-٧٧٩هـ/١٩٠٤-١٣٧٧م) من الوجهة الجغرافية، دراسة في التراث العربي، جامعة بيروت اللبنانية، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٥٥.

وبناءً على ما سلف يمكن القول إن التطور الذي طرأ لمفهوم الجغرافيا بجميع فروعهِ وميادينه (الطبيعية والبشرية والإقليمية) كان نتاجَ جهود الكثيرين من العلماء الذين تركوا بصمات خاصة ميزت هذا العلم^(١)، فكانت جهودهم قفزة نوعية حققها الآباء والأجداد في الدراسات الجغرافية، بعد أن فهموا الأهمية الخاصة لهذا العلم، وأضفت عليه سمة الاستقلال عن غيره من العلوم.

وهكذا فقد أسهم الجغرافيون والمؤرخون العرب المسلمين في تطور الفكر الجغرافي العالمي، وأنقذوه من الكثير من الخرافات والأوهام التي اعتقد بها السالفون لهم^(٢)، وكان لهم الفضل في إرساء أسس علم الجغرافيا المتينة^(٣)، ولا سيما جهدهم المتواصل في هذا المجال وغيره، وبالتالي أنتجت مناهج جديدة مبدعة مبتكرة في مجالات البحث العلمي ومنها "المنهج الإقليمي" ويعد من أهم المناهج في الجغرافيا التطبيقية العملية^(٤)، كما أضافوا بجهدهم المتواصل وعملهم المستمر والدؤوب إضافات عظيمة، وتطورات جوهرية أصيلة إلى الفكر الجغرافي، هيأت السبيل أمام النهضة التي شهدتها أوروبا في علومها وكان منها علم الجغرافيا، بمعنى أنهم استطاعوا المحافظة على مسيرة التطور الحاصل لعلم الجغرافية خلال العصور المتتالية^(٥).

(١) عبد علي: المقدسي وأثره في الفكر الجغرافي، المقدمة.

(٢) الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٥٠.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج: ١، ص ٣٩٠. محمد: رواد علم الجغرافية الإسلامية في القرن السابع الهجري، ص ٤٨١.

(٤) حسن، كمال عبد الله: أصالة الجغرافيا الإقليمية عند المقدسي، جامعة المستنصرية، كلية الآداب، العراق، ٢٧/١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص ٣٥.

(٥) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٧.

الباب الأول

دور العامل الجغرافي في الطبيعي في أهم

المعارك العسكرية خلال عصر

الرسول ﷺ

(١-١١هـ/٦٢٢-٦٣٢م)

الفصل الأول: أثر التضاريس.

الفصل الثاني: أثر المياه.

الفصل الثالث: أثر المناخ.

الباب الأول:

دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال عصر

الرسول الأكرم ﷺ

(١-١١١هـ/٦٢٢-٦٣٢م)

★ الفصل الأول:

أثر التضاريس

من المعلوم أن التضاريس هي الساحة التي تجري عليها المعارك والأحداث بكافة أشكالها وعلى اختلافها، وليست ثمة حملة عسكرية أو معركة أو أي حدث على اختلاف نوعه، لم يكن فيه لوضع التضاريس (الأرض والمنظومة الثقافية والتضاريس والمياه وأثر عاملي الطقس والمناخ) الأثر البالغ، والدور الحاسم في النتائج المترتبة على ذلك الحدث، ولا سيما إذا كان الأمر عسكري حيث تفرض التضاريس نفسها كقوة مهيمنة على اتخاذ القرار العسكري وبرمجته بما يتلاءم مع وضع المنطقة وتضاريسها؛ فقد يتحتم على القادة العسكريين تخطيط العمليات العسكرية بما يناسب الأوضاع الطبيعية للمنطقة^(١).

وقد يتساءل القارئ والباحث معاً كما طرح الكاتب المهم بالدراسات العسكرية جمال الدين محفوظ سؤاله في كتاب له: "هل يقبل العقل أن تكون الشجاعة وقوة العقيدة وحدهما وراء النجاح في العمليات الحربية للمسلمين دون أن يكون معهما شيء من الكفاية الحربية في القيادة وأساليب القتال ومعرفة

(١) سبيتان، سمير ذياب: الجغرافيا العسكرية، الجنادرية للنشر والتوزيع، ط: ١، عمان، الأردن، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ٢٩. دبس، عبد الرحمن بن مصطفى: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية/ جامعة الكويت، العدد: ٣٦٤، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١١.

كيفية استغلال الظروف الطبيعية والمناخية في المعركة؟"، وقد اتبعه بسؤال آخر هو: "هل يقبل العقل أن يكون من العرب رواد في كل نواحي العلوم الطبيعية والاجتماعية ولا يكون منهم رواد في فن الحرب؟" (١).

ويأتي الرد من أي مجيب سواءً من أهل العلم المختص، أو من العامة "بالنفي" والتأكيد على ذلك. وجاء ذلك الجواب مشفوعاً بالكثير من المبررات التي ستتم ملاحظتها خلال دراسة أثر العوامل الجغرافية على سير الأحداث التاريخية العسكرية في عصر الرسول باعتباره عصرًا عسكرياً، تلك العوامل التي غيّرت الكثير من النتائج وحولتها بالنسبة للطرفين - المسلمين أو غير المسلمين - فكانت لصالح جيش على الآخر.

وبالبحث يجد أن تاريخ معارك الإسلام في عصر النبوة وحده يشهد للمسلمين بقدرتهم وكفاءتهم العالية على القيام بجميع أشكال العمليات العسكرية كالدفاع والهجوم والمطاردة والتخلص من المعركة، وأعمال الاستطلاع والمخابرات، والحرب النفسية ودوريات القتال، ويشهد بقدرتهم على استغلال التضاريس بكافة عناصرها (٢).

فالتضاريس بعناصرها المختلفة من جبال، سهول، وديان، هضاب، أودية، صحارى، منحدرات، وممرات جبلية، لها اليد الطولى والحاسمة في سير المعارك سواءً في عمليات الدفاع أو التحصن، أو حتى الهجوم، والقادة العسكريين الذين يتقنون استخدام هذه العناصر الطبيعية، ويعرفون كيفية مواءمتها واستخدامها لصالحهم في العمليات الحربية بشكل جيد سيكون النصر حليفهم وبجانبهم، وهذا ما يجده الباحث في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين من بعده؛ لأن عصر الرسول كان عصرًا عسكرياً بامتياز برزت فيه براعة الرسول المصطفى ﷺ العسكرية ومقدرته الحربية وقدرته على الاستفادة من الظروف الطبيعية المحيطة به وتسخيرها لصالح المسلمين وتحقيق النصر لهم.

وقد اقتفى أثره وسار على نهجه الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، فتمكنوا من تحقيق النصر في الكثير من المعارك التي وسمت ذلك العصر بسمة الجهاد ضد الشرك ومحاولة ضم المشركين إلى حظيرة الدولة العربية المسلمة.

(١) محفوظ، محمد جمال الدين: العسكرية في الإسلام - سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ٦-١٠.

(٢) محفوظ: العسكرية في الإسلام، ص ٦-٧.

فقد بدأ الرسول الأكرم محمد ﷺ، خلال السنة الأولى من الهجرة، بالتحضير الجيد للمرحلة المستقبلية التي سيكون الصراع فيها عسكرياً مع المشركين، خاصةً بعد أن نزل أمر الله تعالى بتشريع الجهاد- القتال في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته- في السنة الثانية للهجرة، بعد أن تقاوم أذى قريش للرسول محمد ﷺ ولصحابته الذين معه، وقد شرع الله تعالى الجهاد في آيات بعضها نزل بمكة والآخر في المدينة^(١)، وذلك بعد أن أصبح للمدينة كياناً سياسياً خاصاً رسمه الرسول المصطفى ﷺ، تجلّى هذا الكيان في عدة أمور من أهمها: قيام دولة إسلامية لأول مرة في التاريخ- حكومة نظامية في المدينة-^(٢) تأتمر بأمر القائد الأعلى وهو الرسول ﷺ، وعدّ مصدر التشريع الوحيد لها هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأن المدينة المنورة هي عاصمة الدول^(٣)، ومحط أنظار القبائل العربية، حيث سميت "بمدينة النبي"^(٤).

وعليه انطلق الرسول الأعظم في تنفيذ هدفه السامي، ورسالته الإلهية السمحاء، من خلال إعلاء كلمة الله تعالى^(٥)، وبناء الدولة الإسلامية وتجلّى ذلك من خلال إرساله العديد من السرايا والغزوات، وكانت معظمها في منطقة الحجاز وشبه الجزيرة العربية، وكانت جميعها بهدف القضاء على بؤرة الشرك وعبادة الأصنام، وبناء ركائز الدولة الإسلامية العربية الفتية، وقد بلغت حوالي الخمسين سرية والثلاثين غزوة^(٦). وهنا سيتم إلقاء الضوء على دور العامل الجغرافي الطبيعي من (جبال وأودية وصحراء وآبار وأنهار) وأثره المميز في نجاح تلك الغزوات، لبيان مبلغ أثرها في التخطيط ووضع البرامج العسكرية للغزوات التي جرت في ذلك العصر.

^(١) حسن، ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي- الدولة العربية في الشرق ومصر ومغرب الأندلس، دار الجيل/بيروت ومكتبة النهضة المصرية/القاهرة، ط: ١٤، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج: ١، ص ٨٩.

^(٢) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٨٥.

^(٣) المزيني، علي بن عائش: الأحوال الاجتماعية والسكانية والاقتصادية والسياسية للمدينة المنورة قبيل غزوة الأحزاب، ق ٢، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، الرياض، السعودية، العدد: ٢٥، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص ٥٥.

^(٤) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٨٥.

^(٥) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، ص ٢.

^(٦) لقد أورد المسعودي في كتابه "التنبيه والإشراف" أن عدد غزوات الرسول التي غزاها بنفسه بلغت سبعاً وعشرين غزوة، ومن الناس من يذهب إلى أنها ثمان وعشرين غزوة، وذكر المسعودي إنفاق الواقدي وابن اسحاق في عدد الغزوات، أما عدد السرايا عنده فقد بلغ (٧٣) سرية، وابن اسحاق (٣٥) سرية، الواقدي (٤٨) سرية. المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦-٩٥٦م): التنبيه والإشراف، مطبعة ليدن، ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، ص ٢٧٨.

أولاً- أثر الجبال.

من المعلوم أن للتضاريس الأرضية أثر على سير المعارك العسكرية وخاصة المرتفعات كالجبال والهضاب^(١)، ويظهر ذلك في بعض المعارك التي خاضها الرسول محمد ﷺ ضد المشركين وكان فيها للجبال الأثر الأكبر في نتائج المعركة، وقد استفاد منها المسلمون من أجل تحقيق النصر على المخالفين للعقيدة الإسلامية.

وهنا لابد من الالتفات إلى قول المفكر الصيني "سون اتزو" (Sun Tzu) في كتابه الشهير القيم "فن الحرب" حيث يذكر ما يدل على أهمية الاستفادة من الظروف الطبيعية وفعاليتها المؤثرة في المعارك والأحداث؛ فيذكر قائلاً:

"إن أولئك الذين لا يعرفون أحوال الجبال والغابات والأودية الخطرة والسبخات والمستنقعات لا يمكنهم قيادة جيش. إن دراسة العلاقات والروابط بين عدد من العمليات العسكرية المختلفة ومكوناتها وعناصرها الجغرافية ستوضح أنَّ الأرض بتضاريسها والطقس والمناخ، والتربة والغطاء النباتي، والأنهار والمياه هي عوامل مؤثرة بل وأحياناً حاسمة في الصراع"، ويقول في موضع آخر: "إذا عرفت عدوك وعرفت نفسك، فالنصر لن يصبح محل شك. إذا عرفت طبيعة السماء وطبيعة أرض المعركة، فأنت تجعل انتصارك كاملاً"^(٢).

ولعل فيما يلي ما يبرهن على أن المسلمين حاولوا الاستفادة من الظروف الطبيعية الموجودة في أماكن الغزوات والمعارك، وقد ظهر ذلك في أكثر من معركة أو غزوة لعل أهمها:

سنة (٢٢٤هـ/٦٢٤م) في غزوة "بدر الكبرى"^(٣)؛ فقد قام المسلمون ببناء عريش^(٤) للرسول الأكرم محمد ﷺ، في مكان مرتفع من الأرض بعد أن اختاروا مكان التجمع لملاقاة العدو، وكانت الغاية من هذا المكان المرتفع هو الإشراف على المعركة عن كثب^(٥)، ويروي صاحب موسوعة الغزوات الكبرى كيفية الاهتمام إلى بناء العريش قائلاً:

(١) الفراء، طه بن عثمان: دور الجغرافيا في المعارك الحربية، مجلة كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، مج: ١، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ٢٤٨.

(٢) أتزو، سون: فن الحرب، تقديم: أحمد ناصيف، دار الكتاب العربي، ط: ١، حلب، سوريا، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١٣٨. دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، ص ١٠.

(٣) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ج: ٢، ص ٢٢٦. التنبيه والإشراف، ص ٢٣٧.

(٤) العريش: ما يستظل به. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٠.

(٥) الدوري، وائل كليب مطلق: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، جامعة تكريت، كلية التربية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٢٥.

"فقد قال سعد بن معاذ، يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؟ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحبنا، وإن كانت الأخرى جلست إلى ركائبك فلحقت بمن ورائنا من قومنا، فقد تخلف عنك قوم يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فوافق الرسول ﷺ على هذا الاقتراح ودعا للقائد الأنصاري بخير، وتم بناء مقر القيادة، عريشاً بناه جنود الإسلام في مكان مناسب، وهو مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة"^(١).

من خلال ما تقدم يمكن الذهاب إلى القول بأن فطنة المسلمين في اختيار مكان القيادة كانت موجودة منذ أولى المعارك التي وقع فيها القتال كيف لا والقائد هو الرسول الأعظم محمد ﷺ؟ القائد الذي يهتدي بأمر الله تعالى ويعمل من خلال وحيه.

وعليه فقد كان العريش للإشراف على المعركة والسيطرة على مجرياتها، ولإبداء التوجيهات لأن موقع القيادة المشرف على ساحة المعركة يعد أمراً ضرورياً ويترك أثراً إيجابياً على حركة الجنود وتنقلاتهم. راجع الخريطة (١).

وفي غزوة "أحد"^(٢) التي وقعت سنة (٣٣هـ/٦٢٥م)^(٣)، ذكر أغلب المؤرخين والباحثين تفاصيل تلك الغزوة وكيفية مسير الرسول ﷺ إلى مكان المعركة، إلا أنه يُلاحظ دور العامل الجغرافي في كثير من أحداثها منذ بدء المسير إلى أحد التي كان الرسول ﷺ يجهل مسالكها وطرقها، إلى نهاية أحداث تلك الغزوة ودور جبل عينين^(٤) في التفات قوات خالد بن الوليد^(٥) - الذي لم يكن قد أسلم بعد - على قوات قوات المسلمين وإنزال الخسائر بهم.

(١) باشميل، محمد أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة بدر الكبرى، المكتبة السلفية، ط: ٨، القاهرة، مصر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٥١.

(٢) أحد: بضم الهمزة والمهمل، جبل بينه وبين المدينة المنورة أقل من فرسخ، وهو الذي قال فيه الرسول الأكرم محمد ﷺ: "أحد جبل يحبنا ونحبه". العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م): فتح الباري - بشرح صحيح الإمام محمد بن اسماعيل البخاري -، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، الجيزة، مصر، (د.ت)، ج: ٧، ص ٣٤٥.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٢٧. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٢.

(٤) جبل عينين: اسمه تنثية لاسم عين، ولعصمهم يتلفظ به على جميع أحواله بهذا الاسم، ذكره الأزهرى قائلاً: "عينين جبل صغير بمنطقة أحد". وقد عين عليه الرسول (٥٠) من الرماة يوم أحد. الحموي: معجم البلدان، ج: ٤، ص ١٨٠.

(٥) خالد بن الوليد المخزومي: أبا سليمان، ويكنى أبا الوليد، كان ناقماً على الإسلام والنبي ﷺ، وبالتالي كان حريصاً على محاربة الإسلام والمسلمين، ورغم شدة عداؤه للإسلام والمسلمين إلا أنه أسلم في (صفر ٨هـ/يونيو ٦٢٩م). المغلوث، سامي بن عبد الله بن أحمد: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر، شركة البيكان للأبحاث والتطوير، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٨٤.

وكان عدم معرفة الرسول محمد ﷺ وحداثة عهده بالمنطقة التي سيتوجه إليها لملاقاة العدو، السبب الذي أدى به إلى الاستعانة بالدليل الخبير بطبيعة تلك المنطقة قائلاً ﷺ: "مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كُتُبٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ؟"^(١).

فقال أبو خيثمة أخو بني الحارث^(٢): "أنا يا رسول الله"^(٣).

وقد تحرك جيش المسلمين بقيادة الدليل أبي خيثمة؛ فسلك طريقاً قصيراً ملتوياً بين الأشجار والبساتين لكي لا يلاحظ تحركهم أحد من المشركين^(٤)، ووصل به إلى الشعب من جبل أحد دون أن يمر على معسكر المشركين الذين نزلوا في وادي القناه وعسكروا فيه بالسبخة^(٥)، بين الغابات والبساتين على ضفاف هذا الوادي، ولكن لماذا اختار المشركون هذا الوادي مكاناً لكي يتجمعوا فيه؟ ولماذا نزلوا به دون غيره من المناطق؟

قد يسأل سائل هذه الأسئلة، والإجابة تكمن في جغرافية هذا الوادي المنخفض السهلية والمنبسطة المحاطة بالأشجار والبساتين، ولعل الهدف من ذلك محاولة الاختباء عن المسلمين وجيوشهم، فيحفظوا عنصر المباغته لأنفسهم، وكان هذا الوادي هو مدخل المدينة الوحيد المحاطة بالحرث^(٦) - المناطق التي تغطيها صخور بازلتية - والجبال من جميع الجهات والنواحي^(٧)، مما فرض عليهم اختيار هذا المكان لمحاولة الهجوم على المدينة.

وقد مر الدليل بهم في حرّة بني حارثة وبين المزارع متجهين شمالاً نحو جبل أحد، وتاركاً جيش المشركين شماله في ناحية الغرب^(٨).

(١) بإشميل، محمد أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة أحد -، تقديم: محمود شيت خطاب، المكتبة السلفية، ط: ٥، القاهرة، مصر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٧٩.

(٢) ورد عند الطبري اسمه: أبو حثمة الحارثي. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٠٦.

(٣) بإشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة أحد -، ص ٧٩.

(٤) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، ص ٤٨.

(٥) السبخة: واحدة السباح، الأرض التي بها ماء وملح. وقيل الأرض الملحة النّازة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ١٨١.

(٦) تحيط الحرث البازلتية بالمدينة المنورة من جميع جهاتها، عدا المنطقة الشمالية، فالحرّة الغربية تسمى بحرة الوبر، والشرقية تسمى بحرة واقم، والجنوبية بحرة شوران، وتعد الحرّة الجنوبية والشرقية أكثرها وعورة لحدائتها، أما الغربية فأقلها وعورة. الخطيب، حامد موسى عيسى: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، الرياض، العدد: ٣٦، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ١٠.

(٧) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، ص ٤٨.

(٨) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٣٨.

ثم "مضى رسول الله ﷺ حتى نزل بالشعب من أحد في عدوة- بطن- الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد"^(١). وهذا ما يدل على أن الرسول الأكرم محمد بن عبد الله لم يعسكر في هذا المكان بشكل اعتباطي ولم يكن اختياره بمحض الصدفة؛ بل أراد الاستفادة بشكل كامل من تضاريس المنطقة التي عسكر فيها- جبل أحد- وذلك بإسناد ظهره ومحاولة حمايته بالمانع الطبيعي الموجود، وهو الجبل، فجعل معسكره على سفحه المواجه للمدينة^(٢)، والمنحدر إلى بطن الوادي الذي عسكرت فيه قريش^(٣). انظر الخريطة (٢-٤).

ومما يجب الانتباه إليه أن الرسول ﷺ أدرك أهمية جبل عينين، وأنه من الممكن أن يلتفت حوله المشركون فتتقلب الكرة على المسلمين؛ فحاول قبل حصول المعركة تلافي الخطر المتمثل بالجبل الصغير الموجود بالقرب من جبل أحد إلى الجنوب منه وهو جبل عينين^(٤).

وهنا مرة أخرى تظهر عبقرية الرسول المصطفى محمد ﷺ في اتخاذ القرار العسكري الملائم وذلك من خلال وضعه الخطة المحكمة التي من خلالها يقطع الطريق على المشركين في محاولة استغلال تلك الثغرة والالتفاف على المسلمين، فعين خمسين من رماة السهام وكلفهم بحراسة المنطقة من الجبل^(٥)، وقد أمر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه^(٦)، وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم، وألا يفارقوه، وأن ينضحوا المشركين بالنبل، لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم قائلاً:

(١) ابن اسحاق، محمد بن اسحاق (ت ١٥١هـ/٧٦٩م): السير والمغازي، تح: د. سهيل زكار، دار الفكر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٣٢٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٠٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٦. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١هـ/١٣٥١م): زاد المعاد في هدى خير العباد، تح: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: ٣، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج: ٣، ص ١٧٤.

(٢) ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م): الطبقات الكبير، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج: ٢، ص ٦٣.

(٣) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٩٤.

(٤) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، ص ٤٧.

(٥) العسقلاني: فتح الباري، ج: ٧، ص ٣٥٠.

(٦) عبد الله بن جبير: عبد الله بن جبير ابن النعمان الأنصاري، صاحبي جليل شهد العقبة وبدر، كان أمير الرماة يوم أحد، واستشهد يوم أحد سنة (٣هـ/٦٢٥م). الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٠٧. ابن الأثير، علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج: ٣، ص ١٩٤. الذهبي، الحافظ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م): تجريد أسماء الصحابة، تح: صالح عبد الحكم شرف الدين، بومباي، الهند، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ج: ١، ص ٢٠١-٢٠٢. الزركلي: الأعلام- قاموس تراجم، ج: ٤، ص ٧٦.

"انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، اثبت مكانك لا تؤتينا من قبلك" (١). راجع الصورة (٣).

إذا يُستدل من خلال الأوامر التي وجهها الرسول الأكرم للمسلمين وخاصة الرماة الذين أمرهم بالبقاء في أماكنهم وعدم مغادرتها مهما حصل قائلاً: "وإن رأيتموهم ظهرُوا علينا". أهمية استغلال الجبل من أجل حماية ظهور المسلمين.

وفي رواية العسقلاني نقلاً عن الطبراني أن الرسول قال لهم: "احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تتصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا" (٢). يلاحظ أن الرسول ﷺ أدرك أهمية الجبل، وفطن إلى ما قد يخطر ببال العدو من استغلال أهمية جبل عنين، حيث أحس بذلك الخطر المحدق إذا ما تم للمشركين استغلال الجبل؛ فحذر المسلمين من مغبة ترك أماكنهم على الجبل مهما كانت الأسباب، لحساسية الموقع وأهميته بالنسبة لساحة المعركة حيث يشرف على المعركة، وفضلاً عن ذلك حمايته للجناح الأيسر من قوات المسلمين من أي حركة التفاف (٣).

وقد بدأت المعركة بالمبارزة جرياً على عادة العرب القديمة في القتال، والتقى الجيشان وكانت الغلبة للمسلمين في بادئ الأمر، على جيش المشركين بقيادة سفيان بن حرب وعلى الخيالة خالد بن الوليد (٤)، فأنزل الله نصره وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم، وجعلوهم منهزمين لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالعويل، وقد تبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر (٥)، وكانت هزيمة المشركين ستتحقق من دون أدنى شك، إلا أن القدر هيمَن على مجريات الأمور وجعل مالم يكن بالحسبان (٦).

فما إن رأى المسلمون هزيمة المشركين، ونساؤهم مشمّرات هوارب، ما دون أحداهن قليل كثير (٧)، حدثت الزلة الكبرى التي كانت السبب الأول في ضياع نصر المسلمين (٨)، وذلك عندما أهمل الرماة

(١) ابن اسحاق: السير والمغازي، ص ٣٢٦.

(٢) العسقلاني: فتح الباري، ج: ٧، ص ٣٥٠.

(٣) آل يحيى، سيف الدين سعيد: الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفتي ميزان، الدار العربية للموسوعات، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج: ١، ص ٢٢٠-٢٢١. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٦.

(٤) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٩٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٣٩.

(٦) ابن اسحاق: السير والمغازي، ص ٣٢٧.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥١٣. العسقلاني: فتح الباري، ج: ٧، ص ٣٥٠.

(٨) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٧.

وصية الرسول ﷺ، وتركوا مواقعهم من الجبل، وأخذوا يجمعون ما تركه العدو وراءهم من الغنيمة والأسلاب^(١)؛ فلم يبق إلا دون العشرة مكانهم وأميرهم عبد الله بن جبير فانتكشف جناح المسلمين لقائد الخيالة خالد بن الوليد، الذي كان بحنكته العسكرية يراقب الجبل الذي عليه رماة المسلمين^(٢)، مدركاً لأهمية الالتفاف حول الجبل والانقضاض على المسلمين، وعندما شاهد نزول الرماة الذين خالفوا أوامر الرسول ﷺ من أعلى الجبل انتهز الفرصة وفاجأ السلمين من الخلف، واعمل الرماح في ظهورهم^(٣). انظر الخريطة (٤).

وفي ذلك يقول ابن الأثير: "فلما فارق الرماة مكانهم رأى خالد بن الوليد قلة من بقي من الرماة فحمل عليهم فقتلهم، وحمل على أصحاب النبي ﷺ من خلفهم فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل تبادروا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم"^(٤).

وهنا أيضاً برزت عبقرية الرسول ﷺ وشخصيته الحكيمة، وقدرته على معالجة الموقف ببسالة وشجاعة نادرة؛ فقد استعان مرة أخرى بالعامل الجغرافي من أجل حماية المسلمين فانسحب بقواته إلى شَعْبٍ - انفراج وطريق بين جبلين - جبل أحد وذلك لتجنبهم خطر الإحاطة والتطويق من جديد^(٥)، واعتصم بالصخرة التي هي بأعلى الجبل، بعد محاولات عديدة من المشركين لإعاقة هذا الانسحاب، فحال دون ملاحقة قوات المشركين للمسلمين.

وقد ذكر ابن الأثير أن أبو سفيان ومعه جماعة من المشركين صعد الجبل فقال الرسول ﷺ: "ليس لهم أن يعلونا"^(٦) فقاتلهم عمر رضي الله عنه وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوهم^(٧)، ونهض الرسول الأكرم ﷺ إلى الصخرة ليعلوها، وكان عليه درعان فلم يستطع من إثر جراحه، حتى أصعده طلحة، وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين الذين خالفوا الرسول في أوامره.

(١) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٩٤.

(٢) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة أحد -، ص ١١٩.

(٣) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٩٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٨.

(٥) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة أحد -، ص ١٥٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٥٢.

(٧) الخصري بك، محمد: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، تح: الشيخ محمد العثماني، دار القلم، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٥٢.

أما في غزوة الخندق سنة (٥٥هـ/٦٢٧م)^(١)، عندما وصل خبر اجتماع قريش في مكة وتجهيزها جيشاً مؤلفاً من قبائل غطفان ويهود خيبر وغيرها إلى الرسول ﷺ^(٢)، وأنها تريد الهجوم على المدينة المنورة بهدف القضاء على المسلمين، عقد الرسول اجتماعاً مع قواده للبحث والتشاور في أمر ملاقة المشركين في المدينة أم خارجها؟^(٣)، وبعد المشاورات تم الاتفاق على التحصن داخل المدينة نظراً لكثرة عدد المشركين الذي بلغ (٢٤) ألفاً وقلة عدد المسلمين الذي بلغ (٣) آلاف على حد تعبير المسعودي^(٤).

والمهم أنه تقرر أن يقوم المسلمون بحفر الخندق بناءً على مشورة الصحابي سلمان الفارسي^(٥)، حيث ذكر ابن كثير قائلاً: "قلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة"^(٦). وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان^(٧).

ولكن أين حفر رسول الله ﷺ الخندق؟ وما الهدف من حفره في رقعة جغرافية معينة اختارها له وهي الطرف الشمالي من المدينة المنورة؟

قد تخطر هذه الأسئلة للباحث والقارئ، والإجابة تكمن أيضاً في العامل الجغرافي الذي أراد الرسول المصطفى ﷺ أن يسخره لصالح المعركة وهو جبل سلع^(٨)؛ فالملاحظ أن الرسول ﷺ، حفر الخندق

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٨. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٧٠.

(٣) باشميل، محمد أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة الأحزاب -، المكتبة السلفية، ط: ٦، القاهرة، مصر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٢٧.

(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٥٠. دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٥٢.

(٥) سلمان الفارسي (ت ٣٦هـ/٦٥٦م): صحابي جليل، كان يسمى نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان، واختلفوا في تفاصيل حياته، وعندما علم بخبر النبي، قصد النبي في قباء وسمع كلامه، هو الذي دل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، حتى اختلف عليه المهاجرون والانصار، كلاهما يقول سلمان منا. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ١١٢.

(٦) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ١، مصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج: ٥، ص ١٣.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٦٦.

(٨) سلع: السلوع: الشقوق في الجبال، واحدها سلع وسلع، وقال أبو زياد: الأسلاع طرق في الجبال يسمى واحدها سلعاً، وهو أن يصعد الإنسان بين الشعب، وهو بين الجبلين، وسلع: جبل بسوق المدينة، وهو جبل ثواب، عبارة عن كتلة صخرية ضخمة ذات أشكال غير منتظمة، يشبه في شكله الأخطبوط، يرتفع عن منسوب الأرض المجاورة له، بنحو ٨٠ متر تقريباً. ياقوت: معجم البلدان، مج: ٣، ص ٢٣٦-٢٣٧.

في شمالي المدينة وذلك لأن الجهات الأخرى من المدينة كانت محصنة بالجبال والنخيل والبيوت^(١)، وبعد استطلاع المكان وبنظرة فاحصة، رأى الرسول ﷺ أن أنسب مكان للتمركز هو أن يجعل جبل سلع خلف ظهره، وهذا كان له أكبر الأثر في حسم نتيجة المعركة بغض النظر عن عامل الرياح التي سخرها الله عليهم كما سيتم ذكره لاحقاً^(٢). انظر الخريطة (٥) و(٦) و(٧).

وما يؤكد ذلك رواية الواقدي في المغازي: "لما فرغ رسول الله من الخندق...، ونزل رسول الله ﷺ دُبرَ سلع، فجعله خلف ظهره والخندق أمامه، وكان عسكره هناك، وضرب قبة من أدَم، وكانت القبة عند المسجد الأعلى الذي بأصل الجبل"^(٣).

وقيل: "وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون وجعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم..."^(٤).

وبعد عمليات الحفر الشاقة كان الخندق يمتد من المذاد^(٥) إلى ذباب^(٦) ثم إلى راتج^(٧)، أي من الحرّة الشرقية إلى الشمال فالغرب، ثم إلى الجنوب قليلاً^(٨)، وقد وزع الرسول ﷺ الحفر في الخندق على أصحابه الكرام (رضي الله عنهم)، وكان ذلك عاملاً لتنافس المسلمين فيما بينهم من أجل الإسراع في إنجاز هذه المهمة^(٩).

وبعد الانتهاء من حفر الخندق أصبحت المدينة محمية من جميع جوانبها بالحرث والحواجر الطبيعية الصعبة بالإضافة إلى الخندق الذي أتم عملية التحصين، فكانت خندق المسلمين في هذه

(١) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٩٨.

(٢) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٥٢.

(٣) الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، ص ١٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٧٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٣٤.

(٥) المذاد: اسم المكان من زاده، وقال الأعرابي: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق النبي ﷺ، وقيل: المذاد وادٍ بين سلع وخندق المدينة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٨٨.

(٦) ذباب: جبل بالمدينة له ذكر في المغازي والسير. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ٣.

(٧) راتج: أطم من أطام اليهود بالمدينة، وله ذكر في كتب المغازي والسير. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ١٢.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٦٨. الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، ص ٢٥. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٩.

(٩) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٩٨.

(١٠) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٣٠.

النقطة لتحصين المدينة وحمايتها، فضلاً عن الآطام والزروع^(١)؛ فقد كان الجبل يسندهم من الخلف خشية مجيء منافقي المدينة واليهود والخندق يحول بينهم وبين الأعداء. انظر الخريطة (٧).

والذي يستخلص من غزوة الخندق أن النبي ﷺ استفاد من جغرافية المدينة المنورة؛ فكيف استفاد من جغرافية المدينة؟ وبماذا تجسدت تلك الاستفادة؟

يمكن القول أن معرفة النبي ﷺ بجغرافية المدينة أثرت في اختيار مكان الخندق؛ فلم يحفر الخندق من ناحية الجنوب، لوجود جبل عير ولم يخندق من الشرق لوجود حرة واقم وجبل بني عبيد^(٢)، مما يعيق الحركة والمناورة؛ وإنما اكتفى بالمنطقة الشمالية^(٤)، وذلك لأنها منطقة مكشوفة تسمح لجيش الأحزاب بدخول المدينة، كما أن النبي محمد ﷺ أفاد من جبل سلع الذي يقع بمقابل منطقة الخندق، فنزل في السفح وجعل منه درعاً لحماية لظهور المسلمين.

وبالتالي فقد كان لجبل سلع ارتباط وثيق الصلة بغزوة الخندق وأحداثها، حيث حرص الرسول على استخدامه كقلعة حصينة يحيط بها الخندق، وسهلت سفوح ذلك الجبل عمليات الاستكشاف والرمي بالنبال^(٥)، فكان حصناً منيعاً، وملاًزماً أمنياً، ونقطة مراقبة، ولاسيما في مقدمته من الجهة الغربية والشمالية^(٦)، وقد ظهرت فاعليته في أحداث الغزوة ومقدرة المسلمين على الاستفادة من ظروف الطبيعة لصالحهم، ولم يتمكن جيش الأحزاب من تحقيق غايتهم، لأن الرسول ﷺ عرف كيف يختار ويحدد أرض المعركة.

وهنا لابد من ذكر قول الهرثمي في أهمية الاستفادة من العوارض الطبيعية؛ قائلاً:

"وتحرّ أن تسندَ ظهور أصحابك إلى الجبال والتلال والأنهار وما أشبهها، من كل موضع تأمن منه الكمين والبيات"^(٧).

(١) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة الأحزاب -، ص ١٤٢.

(٢) جبل بني عبيد: هو أحد الجبلين الصغيرين غرب وادي بطحان، ويطلق عليه أحياناً بضليع فتي، نزلت إلى جواره بنو عبيد من بني سلمة. الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، ص ٣٣.

(٣) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٣٣.

(٤) الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، ص ٢٤.

(٥) الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة، ص ٢٥.

(٦) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٥٥.

(٧) الهرثمي، أبو سعيد الشعراني صاحب المأمون (ت ٢٠٠هـ/٨١٦م): مختصر سياسة الحروب، تح: عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، (د.ت)، ص ٣١.

ولابد من التنويه إلى أن المصادر غالباً ما ذكرت عدداً من الغزوات أو السرايا التي خرجت لملاقاة الأعداء إلا أنها لم تعطي شيئاً عن نتائج تلك المعارك، ولو تساءل الباحث ما سبب عدم ذكر النتائج والتطرق إليها؟ لوجد أن الإجابة تكمن في الجبال التي كانت تحول دون وقوع معارك باتخاذها موئلاً للفرار والتحصن والتخفي عن العدو، سواءً من قبل جيش المسلمين أو جيش المشركين. والأدلة فيما يلي:

ففي سنة (٦٢٤هـ/٦٢٤م) غزا الرسول ﷺ غطفان بذي أمر^(١)، فسار إلى بني ثعلبة في أربعمئة وخمسين رجلاً، وعندما اجتمع الرسول بأحد رجالهم ودعاه إلى الإسلام فأسلم، أخبر النبي ﷺ أن بني ثعلبة عندما سمعوا بقدوم رسول الله ﷺ هربوا إلى رؤوس الجبال واعتصموا فيها فعاد ولم يلق كيداً - أي لم يواجه مقاومة -^(٢)، بعد غيبة عشرة أيام^(٣).

وفي سنة (٦٢٥هـ/٦٢٥م) وفيها غزوة الرجيع، عندما غدر أهل بنو لحيان إثر استجداد بنو عضل والقارة بهم ضد المسلمين، المهم أن المسلمين هربوا إلى جبل كان بتلك المنطقة، فاستنزلوهم وأعطوهم العهد؛ إلا أن المسلمين أبوا ورفضوا العهد مع المشركين فكان سبب قتل بعضهم^(٤).

وفي غزوة ذات الرقاع سنة (٦٢٥هـ/٦٢٥م)^(٥)، التي سميت بذلك كما أورد الطبري نقلاً عن الواقدي: "وإنما سميت ذات الرقاع؛ لأن الجبل الذي سميت به ذات الرقاع جبل به سواد وبياض وحمرة، فسميت الغزوة بذلك الجبل"^(٦).

وفيها علم الرسول محمد ﷺ أن أنماراً وثعلبة وغيرهم من الأعراب قد أجمعوا على حربه فمضى حتى أتى ديارهم في ذات الرقاع فلم يجد أحداً في محالهم^(٧)، لأنهم هربوا إلى رؤوس الجبال^(٨)، واختبأوا فيها.

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٨.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٤٠. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٦. ابن الأثير: الكامل في

التاريخ، ج: ٢، ص ٥٩.

(٥) وردت عند المسعودي في التنبيه والإشراف أنها عام (٦٢٦هـ/٦٢٦م). المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٣٨.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٥٦.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٥٧.

(٨) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٨.

أما غزوة بني لحيان سنة (٦٢٧هـ/٦٢٧م) التي خرج فيها الرسول ﷺ، يظهر أنه يريد الشام لكي يصيب من القوم غرة^(١)؛ حتى نزل بأرضهم - بني لحيان - في غران^(٢) قرب عسفان، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال^(٣). وقد أثبتت هذه الغزوة ضعف الأعداء وعدم قدرتهم على مواجهة المسلمين بقيادة الرسول محمد ﷺ، فقد هربوا إلى رؤوس الجبال للاحتباء بها^(٤). كما أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى القارة فاعتصموا أيضاً بالجبال واحتما فيها^(٥).

وفي سنة (٦٢٧هـ/٦٢٧م) أرسل الرسول محمد ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة^(٦)؛ فساروا ليلتهم مشاةً، ووافوا ذا القصة فجراً؛ فأغاروا عليهم فأعجزوهم هرباً في الجبال^(٧).

وقد أرسل الرسول محمد ﷺ أبا بكر رضي الله عنه في سرية إلى بني فزارة^(٨) سنة (٦٢٨هـ/٦٢٨م) إلى نجد^(٩)، لمحاربتهم فأغاروا عليهم في الصباح، بعد أن نزلوا على ماء، فقتل من قتل وفر الباقيون هرباً.

(١) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٣٥.

(٢) غران: وادٍ ضخم بالحجاز، بين ساية ومكة، وقال عرام بن الأصبغ: وادي رهاط يقال له غران. وقال: "فيه غريبه قرية يقال لها الحديدية". وحسب ابن اسحاق: "واد بين أمج وعسفان إلى بلد يقال له ساية". الحموي: معجم البلدان، ج: ٤، ص ١٩١.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٧٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٩٥. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٥١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٥٥٢.

(٤) حمد، مروان أسود: تدابير الرسول ﷺ في شمالي المدينة، جامعة بغداد، كلية الآداب، العراق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ١٥١.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٥١.

(٦) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٥٢.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٨٢. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٦٤١.

(٨) ورد عند ابن سعد أن غزوة أبي بكر رضي الله عنه كانت إلى بني كلاب في نجد. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١١١.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٢٢. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٦١.

وذكر الباحث وائل الدوري في بحثه رواية ابن كثير عن سلمة بن الأكوع الذي كان في الحملة وعانين تفاصيلها وأهمية الجبل في تلك السرية؛ فقال:

"ثم نظرت إلى عنق من الناس فيهم من الذرية والنساء، نحو الجبل وأنا أعدو في آثارهم، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فادركتهم فرميت بسهم فوقهم وبين الجبل.. فجنّت أسوقهم إلى أبي بكر عليه السلام"^(١).

أما في عمرة القضاء^(٢) للرسول الأكرم عليه السلام التي حدثت في سنة (٦٢٨هـ/٧٠٠م)، فعندما علم القرشيون بوجود الرسول بممر الظهران؛ فزعوا وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال وخلّوا مكة^(٣).

وفي سنة (٦٢٩هـ/٧٠١م) في غزوة مؤتة^(٤) عندما قتل شرحبيل بن عمرو الغساني الرسول الذي بعثه بعثه النبي الأكرم إليه، فغضب الرسول عليه السلام وندب الناس فعسكروا بالجرف^(٥)، وهم ثلاثة آلاف وعند عودة الجيش بعد استشهاد أمراء الحملة خرج أهل المدينة ولقوهم أيضاً بالجرف^(٦).

وفي سرية أسامة بن زيد^(٧) سنة (٦٢٣هـ/٧٠٤م)، بعد أن أمره الرسول الأكرم عسكر بالجرف وأقبل عليه المهاجرين الأولين والأنصار فلم يبق منهم أحد إلا وانتدب لتلك الغزوة^(٨).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١١١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٦، ص ٣٥٥. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٣٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٢٣. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٦٢.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١١٤.

(٤) مؤتة: موضع من أرض الشام من عمل البلقاء، وتقع شرق البحر الميت إلى الجنوب من الكرك بـ (١١ كم)، اشتهرت بصناعتها للسيوف المشرفية، وكان اللقاء في مشارف في البداية على القرب منها، ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٢١٩-٢٢٠.

(٥) الجرف: هو ما تجرفه السيول فأكلته من الأرض، وقيل الجرف: عرض الجبل الأملس. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ١٢٨.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١١٩-١٢٠.

(٧) أسامة بن زيد بن حارثة (ت ٦٧٤هـ/٧٥٤م): أبو محمد، صحابي جليل، ولد بمكة ونشأ على الإسلام، كان رسول الله يحبه حباً جماً، هاجر إلى المدينة، وأمره الرسول عليه السلام قبل أن يبلغ العشرين من عمره. توفي بمنطقة الجرف. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ١، ص ٢٩١.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٧٠.

وعلى الرغم من كثرة ما ذكر من السرايا وأخبارها، إلا أنه كان للجبال تأثيراً واضحاً، ووظيفة هامة حيث استخدمت لأجل الحماية والاعتصام عن العدو، وتبرز أهميتها باعتبارها مناطق مناسبة للمباغلة ونصب الكمائن^(١).

وبناءً على ما تقدم يمكن القول أن الجبال تعد وسائل طبيعية يمكن الاحتماء بها والالتجاء إليها عند الضرورة، وأنه من الصعب على سرايا الرسول ﷺ ولاسيما المكلفة بواجبات محددة أن تتعقب أولئك الفارين في رؤوس الجبال لما يتطلبه ذلك من وقت وجهد وقوة. وأخيراً، يمكن القول:

إن الدور الكبير الذي أسهمت به في السرايا والغزوات التي حصلت في عهد الرسول الأكرم محمد ﷺ، لا يعني أنها توقفت عن شغل ذلك الدور المهم والأساسي في المعارك والفتوحات التي حصلت في عهد الخلفاء الراشدين؛ فقد انتبه الخلفاء رضي الله عنهم والمسلمون معهم إلى أهمية الاستفادة من عوارض الطبيعة بجميع أنواعها. كيف لا؟ وقد كان الرسول ﷺ صاحب الفضل الأكبر في سيرهم على هذا النهج؛ فلم يغفل المسلمون الدور الذي تلعبه الجبال في معاركهم ضد أعدائهم ولعل فيما يلي يجد الباحث ما يبرهن صحة القول.

ثانياً- أثر الأودية والخنادق والسهول.

لقد ورد سالفاً أن الجبال تؤثر إما سلباً أو إيجاباً على سير العمليات العسكرية فتكون إما عاملاً مساعداً على تحقيق النصر والاحتفاظ بالقوة الجيوسياسية على أرض المعركة، وإما أن تكون عاملاً مسبباً للإخفاق والهزيمة والخسارة. وقد ورد كيف أن المسلمين استفادوا من الجبال كعنصر هام في المعارك؛ لكن لو طرح أحدهم السؤال التالي، هل يكمن التأثير فقط في عنصر الجبال؟ وهل وحدها تسهم بالدور الأساسي في النصر أو الهزيمة؟

ينتهي القول بأصحاب الخبرة والمقدرة العسكرية إلى أن جميع عوارض الطبيعة لها دور فاعل؛ فالأودية لها تأثير أيضاً على العمليات العسكرية لا يقل عن تأثير الجبال، باعتبارها من هيئات الأرض الطبيعية التي تجري عليها المعارك^(٢)؛ إلا أنه قد ينحصر تأثيرها في طول الوادي وقصره، وفي عرضه وضييقه، وفي استواءه على الأرض أو عمقه، وفي وجود الغابات أو عدمها، وفي طبيعة

(١) الفراء: دور الجغرافيا في المعارك الحربية، ص ٢٤٨.

(٢) سبيتان: الجغرافيا العسكرية، ص ٢٩. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٣٧.

أرض الوادي ومكونات تربتها سواء كانت رملية، أو طينية، أو صخرية فهي تؤثر على الحركات العسكرية تأثيراً كبيراً ومباشراً نوعاً ما.

ولعل فيما يلي ما يدل على دور الأودية في العمليات العسكرية وأثرها الفاعل في كسب النصر وتحقيقه، لصالح الطرف المسلم ضد المشرك أو بالعكس.

فقد برز دور الوادي بتربته الرملية في غزوة بدر الكبرى سنة (٦٢٤/هـ)^(١)، وكان له أثراً كبيراً على المعركة؛ كما أنَّ إحاطة الرسول الأكرم محمد ﷺ بأرض المعركة وجغرافيتها عند وصوله إلى بدر وقبل بدء المعركة، هذا ساعد على توفير أهم المعطيات الكفيلة لترجيح كفة المسلمين في القتال، ومن ذلك نزوله في العدو الدنيا والوصول إلى أدنى ماء من القوم^(٢). انظر الخريطة (١).

فقد كانت طبيعة الأرض رملية، ولكي تتبين الحقيقة لابد من وصف أرض المعركة التي نزل عليها كلا الجيشين؛ وقد ذكر ذلك ابن سعد ذلك نقلاً عن ابن اسحاق، بقوله:

"ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى^(٣) من الوادي خلف العقنقل^(٤) وبطن الوادي، وهو ليليل^(٥)، بين بدر وبين العقنقل، الكثيب الذي خلفه قريش، والقلب^(٦) ببدر، في العدو الدنيا من بطن ليليل إلى المدينة^(٧)."

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص: ٤٢١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص: ١٤. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص: ٢٣٧.

(٢) الفراء، طه عثمان: جغرافية موقعة بدر - دراسات في تاريخ الجزيرة العربية -، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٤/هـ-١٩٨٤م، ص: ١١٧.

(٣) العدو القصوى: كثيب رملي في الجهة الجنوبية من بدر، يطلق عليه اسم العقنقل وهو أقل ارتفاعاً، وأكثر انبساطاً من كثيب الحنان، يبلغ طوله حوالي ٧٠٠ متر، وارتفاعه حوالي ٥٠ متراً. الدوعان، محمود بن إبراهيم: الخصائص الطبيعية لموقع معركة بدر وأثرها في أحداث الغزوة، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ٢٠٠٦م، العدد: ١٦، ص: ٩٣.

(٤) العقنقل: أصل العقنقل الرمل المتراكم. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٥، ص: ٧٦.

(٥) ليليل: اسم قرية قرب وادي الصفراء من المدينة، وفيه عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أغزر ما يكون من العيون، ووادي ليليل يصب في البحر. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص: ٤٤١.

(٦) القلب: جمع قليب، وهو: البئر. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص: ٤٣٩.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٥، ص: ٧٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص: ٤٣٩.

فالعُدوة القصوى هي كَثِيب العقنقل ويقع جنوب أرض المعركة بين وادي يليل وجبل كراش^(١)، والعُدوة الدنيا هي كَثِيب الحنان^(٢)، وإلى جواره من جهة الغرب جبل الملائكة وهما يمثلان معسكر جيش المسلمين، وبين هاتين المنطقتين وقعت المعركة في سهل بدر بين العريش ومقبرة الشهداء^(٣).

المهم أن أرض الوادي الرملية أثرت على المعركة بعد أن سقطت الأمطار التي غيرت النتائج وحولتها، وفي قول الطبري ما يبرهن ذلك: "وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً"^(٤)، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبّد لهم الأرض؛ ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدرُوا على أن يرتحلوا معه"^(٥).

وأصبح بطن الوادي هو الحد الفاصل بينهم بعد أن استغله الرسول الأكرم لوجود الماء وفي ذلك قول ابن الأثير: "وإنما بينهم قوْزٌ - مرتفع - من الرَّمْل فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به"^(٦).

ودون الخوض في تفاصيل المعركة، تقدمت قريش عبر الوادي وكانت جغرافية الوادي الحيوية غير مناسبة أبداً؛ فقد تقدموا يخوضون الكثبان الرملية التي جعلت أرض الوادي طينية موحلة تسوخ فيها الأقدام وتتعثّر^(٧)، وهذا ما أرهقهم قبل بدء المعركة، أما بالنسبة إلى المسلمين فقد كان الأمر مختلف تماماً حيث كان المسلمون ثابتين في مواقعهم محافظين على قوتهم، وذلك لأن الأرض قد تلبدت بفعل السماء لكونها رملية أما قريش فقد وصلت أرض المعركة مرهقة^(٨).

(١) جبل كراش: يمثل الحد الجنوبي لمنطقة بدر. الدعان: الخصائص الطبيعية لموقع معركة بدر وأثرها في أحداث الغزوة، ص ٨٨.

(٢) كَثِيب الحنان: معناه ذو الرحمة، كَثِيب رملي كبير كأنه جبل، ممتد من الشرق إلى الغرب بطول (١) كم، وارتفاعه حوالي سبعة أمتار عن سطح الأرض. الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، ص ٩٢.

(٣) الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة، ص ٨٧-٨٨.

(٤) دهساً: الدهس كل مكان لين لم يبلغ أن يكون رملًا. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٣٩.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٣٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٤.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٤.

(٧) اليماني، محمد عبده: غزوة بدر الكبرى - المدينة والغزوة، دار القبة للثقافة الإسلامية، ط: ٢، جدة، السعودية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٠٧.

(٨) كلوب، جون جوت: الفتوحات الإسلامية الكبرى، تعريب وتعليق: خيرى حماد، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت)، ص ٩٨.

ولعل من أهم ما ذكر في المصادر والتي برز فيها أثر الأودية هو ما حصل سنة (٨هـ/٦٢٩م) عندما أرسل الرسول الأكرم محمد ﷺ سرية غالب بن عبد الله الليثي^(١) إلى بني الملوح، حيث يلاحظ أثر الوادي الذي نزلوا فيه بعد الغروب - وادي الكديد^(٢) - في مساعدتهم على الاختفاء عن أعين العدو، والمباغلة في الهجوم؛ فقد ورد أنهم كمنوا في الوادي حتى مطلع الفجر حين انتهى الخصم من حلب الماشية؛ فباغتوهم وشنوا الغارة عليهم، وانتهت بتحقيق النصر المظفر.

وقد أورد الطبري في سنده عن جندب ابن مكيث الجهني تفاصيل ما جرى بقوله:

"فأهلناهم حتى راحت رائحتهم، حتى إذا احتلبوا وعطنوا سكنوا، وذهبت عتمة من الليل شننا عليهم الغارة، فقتلنا من قتلنا واستقنا النعم"^(٣).

وعليه كان الوادي مساعداً لأخذ الأعداء على غفلة من أمرهم ومباغتتهم؛ فقد حقق لهم عنصر المفاجأة^(٤)، وبالتالي الظفر في هذه السرية.

وفي نفس السنة حصلت غزوة الرسول ﷺ إلى هوازن بوادي حنين^(٥)، والمسافة بينه وبين مكة ثلاثة أيام^(٦)، وقد حصلت هذه الغزوة بعد أن علم الرسول ﷺ بخبر اجتماع هوازن وثقيف ورئيسهم مالك بن عوف النصري^(٧)، وإقامتهم على حربه بعدما فتح الله عليه من أمر مكة، وأنهم قد نزلوا وادي حنين يريدون القتال؛ "فلما أجمع مالك المسير إلى الرسول ﷺ، نزل بأوطاس^(٨)، واجتمع إليه الناس؛

(١) غالب بن عبد الله الليثي (ت بعد ٤٨هـ/٦٦٨م): قائد صحابي، من الولاة، بعثه النبي ﷺ سنة (٥هـ) إلى الكديد فظفر، وأرسله سنة (٨هـ) إلى فذك فعاد غانماً، ولاه زياد ابن أبيه ولاية خراسان سنة ٤٨هـ. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٥، ص: ١١٤.

(٢) الكديد: التراب الدقاق المركل بالقوائم، وقيل: الكديد ما غلظ من الأرض، وقال أبو عبيدة: الكديد من الأرض خلق الأودية أو أوسع منها. وهو موضع بالحجاز. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص: ٤٤٢.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص: ٢٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص: ١٠٨.

(٤) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص: ٣٦.

(٥) حنين: هو واد قبل الطائف، وقيل واد بجانب ذي المجاز. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص: ٣١٣.

(٦) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص: ٢١٩.

(٧) مالك بن عوف النصري: مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن وائلة بن دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن النصري. كان رئيس المشركين يوم حنين، لما انهزم المسلمون وعادت الكرة على المشركين. ثم أسلم بعد هزيمة المشركين. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٥، ص: ٣٨.

(٨) أوطاس: وادٍ في ديار هوازن كانت فيه وقعة حنين للنبي ﷺ ببني هوازن. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص: ٢٨١.

وفيهم دريد بن الصمة؛ فقال: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل! لا حَزَنٌ^(١) ضرس^(٢)، ولا سهل دهس^(٣)^(٤).

يستدل من قول دريد بن الصمة أنه كان على علم ودراية بطبيعة أرض الوادي، وأنه فطن إلى أهميته في المعركة وإمكان استغلاله لما يحقق النصر لصالحهم ولهذا السبب أبدى إعجابه في اختيار الوادي والنزول فيه، لما يحتويه من شعاب ومكامن تساعد على إخفاء المقاتلة فيه.

وللتأكيد على أن المشركين استخدموا الوادي في سبيل تحقيق النصر لابد من ذكر قول ابن الأثير الذي وصف عن جابر بن عبد الله طبيعة الوادي، وحالهم أثناء مباغته العدو لهم بعد أن كمنوا في الوادي؛ فقال: "فلما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادٍ أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا لنا"^(٥). انظر الخريطة (٩).

ومن خلال ذلك يتبين أن المشركين قد كمنوا للمسلمين في الوادي بعد أن علموا عن طريق أعوان مالك بن عوف بتحريك الرسول ﷺ؛ فتجهزوا وتحركوا نحو الوادي ولما كان الليل ورَّع مالك القوات في الوادي وعبأهم في المضائق والشعب والأحناء الموجودة في الوادي^(٦)، حيث اختبأوا خلف الصخور وثنيات الأرض، التي ساعدت على الاختفاء^(٧)؛ فلما كان الصباح وانحطَّ الرسول ﷺ في الوادي، ثارت في وجوههم الخيل، وشدت عليهم^(٨).

(١) حَزَنٌ: ما غلظ من الأرض، وكَصُرْدٌ: الجبال الغلاظ. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٥م): القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط: ٨، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ١١٨٩. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، مج: ١، ص ٣١٠.

(٢) ضرس: الحرة المغروسة بالحجارة كأضراس الكلاب. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٥٥٣.

(٣) الدهس: كل مكان لين لم يبلغ أن يكون رملاً، إلا أنه كثير التراب. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٣٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٧١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٣٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٧، ص ٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٣٦.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٣٩.

(٧) الجنرال، أ. أكرم: سيف الله خالد بن الوليد - دراسة عسكرية تاريخية -، تر: صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، ط: ٧، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ١٢٦.

(٨) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٥، ص ٣٨.

وهذا ما ذكره الطبري عن جابر بن عبد الله؛ فقال: "قو الله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شددت علينا شدة رجل واحد فانهمز الناس أجمعون لا يلوي أحد على أحد"^(١).

لكن لم يكن مالكا ليذهب بهذا النصر، خاصة وأن الخصم هو الرجل الأول في الدولة العربية الإسلامية هو الرسول محمد ﷺ؛ فماذا فعل الرسول حتى يضيع على مالك نصره؟

إن ما تحدثت به المصادر أعطى صورة لما فعله الرسول ﷺ، حيث عمد إلى استغلال ظروف الطبيعة؛ فماذا فعل الرسول الأكرم محمد ﷺ في سبيل تحقيق النصر للمسلمين؟

عندما رأى الرسول هزيمة مقدمة المسلمين انحاز ذات اليمين^(٢) في بروز صخري^(٣)، وقرر أن يذهب بثمرة نصر مالك وأعوانه من المشركين الذين باغتوا المسلمين بالكمون في بطن الوادي، وعندما تحرك الرسول باتجاه البروز الصخري على طرف الوادي أمر العباس بالنداء على المسلمين في المعركة^(٤)؛ فأجابه المسلمون "لبيك لبيك"^(٥)، وبدأ المسلمون بالتجمع حتى إذا بلغوا المائة شنّ هجوماً معاكساً عليهم، ودارت رحى المعركة حتى قال الرسول ﷺ: "لقد حمى الوطيس"^(٦). واشتدت المعركة فهزم الله أعداء الرسول والمسلمين من كل ناحية، واتبعهم المسلمون يقتلونهم^(٧). انظر الخريطة (٨).

إذاً مما تقدم يستدل على أن للأودية أثر كبير في تحقيق عامل النصر إذا أحسن القادة استغلالها وعرفوا مضائيقها وتضاريسها، وكيفية توزيع القوات عليها، وقد كانت هزيمة المسلمين في بادئ الأمر بسبب كمن المشركين لهم في الوادي، وقد تحقق النصر للمسلمين فيما بعد عندما تدارك الرسول الموقف وصعد إلى إحدى جنبات الوادي ليكون مشرفاً على المعركة.

ومما يجب ذكره أن معظم الغزوات والسرايا التي لم تذكر المصادر نتائجها حصلت في الأودية، وكان لها أثر في الاختباء والتخفي والكمين، وموئلاً للفرار أيضاً في حال الهزيمة، وقد ذكر الباحث مصطفى دبس مواضع الغزوات التي حدثت في عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ، ومنها:

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٧٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٣٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٣٦.

(٣) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ١٢٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٧٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٣٧.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٧٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٧، ص ٢٦.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٧، ص ٢٦.

- غزوة الأبواء سنة (١٢٣هـ/٦٢٣م): التي حدثت في قرية تدعى الأبواء في بطن وادي القاحه^(١).
- غزوة بواط سنة (١٢٣هـ/٦٢٣م): وقعت في شرق جبل رضوى في بطن وادي بواط، ولم يلق كيداً^(٢).
- غزوة العشيرة سنة (١٢٣هـ/٦٢٣م): وقعت في قرية مندثرة تدعى العشيرة، في وادي المرخية، ولم يلق كيداً^(٣).
- غزوة سفوان (بدر الأولى)^(٤) سنة (١٢٣هـ/٦٢٣م): حدثت في بطن وادي سفوان، حيث تنتشر فيه آبار المياه والنخيل.
- غزوة قرقرة الكدر سنة (١٢٤هـ/٦٢٤م): حدثت في مكان عبارة عن ماء لبني سليم ويقع في وادٍ خصب، ولم يلق كيداً.
- غزوة السويق سنة (١٢٤هـ/٦٢٤م): في مكان قرقرة الكدر، وهي وادٍ خصب، وراء سد معونة^(٥).
- غزوة ذي أمر سنة (١٢٥هـ/٦٢٥م): وهو ماء لبني غطفان، يدعى ذو أمر، يقع في وادٍ كبير، شرق المدينة المنورة، ولم يلق كيداً^(٦).
- غزوة ذات الرقاع سنة (١٢٦هـ/٦٢٦م): حدثت في مكان يدعى نخلا، وهو وادٍ يقع جنوب غرب الحناكية.
- غزوة بنو المصطلق سنة (١٢٨هـ/٦٢٨م): حدثت في مكان عبارة عن ماء لبنو خزاعة، ويقع في وادي الكديد.
- غزوة وادي القرى سنة (١٢٩هـ/٦٢٩م): بعد عودة الرسول ﷺ من غزوة خيبر، حدثت في وادي القرى، شمال غرب المدينة المنورة^(٧).
- غزوة حنين سنة (١٢٩هـ/٦٢٩م): ذكرت سالفاً وقد وقعت في واد حنين، ويعرف الآن بوادي الشرائع^(٨).

(١) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٤٣.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٥٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٣.

(٤) القرطبي، يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١هـ): الدرر في اختصار المغازي والسير، تح: شوقي ضيف رئيس

لجنة إحياء التراث الإسلامي، دار التحرير للطباعة والنشر، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ١٠٦.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٠.

(٦) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٢.

(٧) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٥٨.

(٨) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٧٥-٨٨. دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٤٣-٦٢.

أما ما يخص دور العامل الجغرافي المتمثل بالسهول؛ فيمكن القول أنَّ وقوع الغزوات التي حصلت في هذا العصر في بطون الأودية والصحارى وقرب آبار المياه، جعل الأخبار التي وردت في بطون المصادر والمراجع والتي تشير إلى حدوث الغزوات في السهول نادرة؛ باستثناء معركة بدر التي حصلت في سهل بدر الذي يشكل بطناً للوادي، وفيها برز أثر لهذا السهل الرملي عقب هطول الأمطار عليه مما أعاق تقدم المشركين، بينما كان الأمر مختلف بالنسبة للمسلمين من حيث ثبات موقفهم وشد أزهم.

وفي عمرة الحديبية سنة (٦هـ/٦٢٨م)^(١)، وصل الرسول الأكرم إلى سهل الحديبية؛ وكان للبئر أثراً بارزاً بالإضافة للسهل الذي اختاره الرسول ﷺ من أجل أن ينزل أصحابه فيه، وقد كان عددهم كبيراً بلغ ألفاً وأربعمئة راكب^(٢)، ويبدو أن الرسول ﷺ اختار السهل من أجل ضمان حرية تحرك الجيش إذا تم رفض الصلح، باعتبار وجود البئر الذي يمكن من خلاله تأمين حاجات الجيش من الماء وتقوية موقفهم.

إذاً وقوع المعارك في بطون الأودية وقرب الآبار لا يعني أن أثر السهول لم يكن موجوداً، ولكن كان لتلك العوامل أثراً برز بشكل أكبر.

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ٨١.

(٢) باشميل، محمد أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى - صلح الحديبية، المكتبة السلفية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٤٩.

ثالثاً- أثر الصحراء.

يلاحظ أن معظم حروب الرسول الأكرم محمد ﷺ كانت في شبه الجزيرة العربية المعروفة بصحاريها الواسعة، وأراضيها القاحلة من صحراء النفوذ المترامية الأطراف في الشمال^(١)، إلى صحراء الربع الخالي في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وتقع إلى الشرق والشمال منها صحراء الدهناء التي تعتبر أقل خطورة من صحراء الربع الخالي؛ إلا أنها قليلة الماء والعشب ولها أثرها الفاعل بشكل أو آخر على أحداث التاريخ^(٢).

وبما أن أرض الجزيرة العربية كانت صحراوية يغلب عليها الرمال التي لا تثبت تحت أقدام الرجال وحوافر الخيول؛ فقد تركت أثراً بالغاً^(٣) في العمليات العسكرية وهذا ما يفسر انتقاء المسلمين لمكان المعارك ومواقعها قرب آبار المياه ووجود الينابيع، وقلة حصول المعارك في الصحاري البعيدة القاحلة قليلة الماء والكلأ^(٤).

وكما قال المفكر الصيني (سون أتزو): "إذا عرفت عدوك وعرفت نفسك، فالنصر لن يصبح محل شك. أما إذا عرفت طبيعة السماء وطبيعة أرض المعركة، فأنت تجعل انتصارك كاملاً"^(٥). وعليه حاول المسلمون الاستفادة من مظاهر الطبيعة بما فيها الصحراء وغيرها.

وبما أن العرب المسلمين عدّوا أن الصحراء ملازمهم يعتصمون بها، ويستندون إليها في معاركهم، ويتخذونها حاجزاً بينهم وبين أعدائهم؛ فقد قاتلوا على أطراف الصحراء التي كانت عوناً لهم في سبيل تحقيق النصر على الأعداء في أكثر من موقع من مواقع القتال^(٦).

وأهم ما يمكن ذكره في سبيل توضيح أثر الصحراء هو ما جرى سنة (٦٢٩م/٥٨هـ) في معركة مؤتة، عندما أرسل الرسول محمد ﷺ جيشاً من المسلمين إلى أطراف صحراء شبه الجزيرة العربية الشمالية- إلى أقصى الجنوب من بلاد الشام- مكوناً من ثلاثة آلاف مقاتل^(٧)، وتقدموا "حتى نزلوا

(١) حسونة، محمد أحمد: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، دار نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص ٥.

(٢) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٧.

(٣) راجع فقرة أثر الأودية حيث تناولت طبيعة الوادي الرملية وأثرها في أحداث غزوة بدر الكبرى.

(٤) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٦٦.

(٥) أتزو: فن الحرب، ص ١٣٨. دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ١٠.

(٦) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٢.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٦. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٦٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١١٢.

على معان^(١) من أرض الشام^(٢)، بينما نزل الروم "مآب"^(٣) من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم^(٤).

ووصل المسلمون في بادئ الأمر إلى قرية من قرى البلقاء^(٥) يقال لها مشارف^(٦)، وهنا حصلت أول مواجهة دون قتال^(٧)، ولكن ما السبب الذي جعل المسلمين ينحازون إلى قرية مؤتة بعد أن نزلوا مشارف؟ هل كان ذلك بدافع جغرافي طبيعي أم بدافع جغرافي مناخي؟

على ما يبدو وما يمكن ترجيحه أن طبيعة مشارف لم تكن لتحظى بالقبول لدى الأمراء الثلاثة سواءً المناخية أو الطبيعية؛ فقد خرجوا في جمادى الأولى^(٨) أي ما يوافق الشهر الخامس في التقويم الميلادي، وهو من أشهر الصيف الحار والجاف؛ كما أن طبيعة المنطقة الجبلية جعلت من انحيائهم أمراً لا بد منه حيث يصعب على المسلمين لقاء عدوهم، خاصةً وأن أعدادهم لا تسمح لهم بالابتعاد عن بعضهم، وعدا عن ذلك؛ فقد كان الفارق كبير في العدة والعتاد بين جيش المسلمين والبيزنطيين الذين "وافوا المسلمين بما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكرام والديباج والحريير والذهب"^(٩). وعلى ما سبق يرجح أن المسلمين تحصنوا بمؤتة حمايةً لهم من خطر الإبادة، وبسبب طبيعة المنطقة الجغرافية التي لا تناسب تحركات الجيش.

(١) معان: مدينة في طرف البادية تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ١٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١١٢.

(٣) مآب: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣١.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٧.

(٥) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبته عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وبجودة حنطتها يضرب المثل. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٤٨٩. المغلوث: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر، ص ٣٧.

(٦) مشارف: جمع مُشَرَف، قرى قرب حوران، إليها تنسب السيوف المشرفية. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ١٣١.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٢٠.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١١٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٧.

(٩) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٢٠. باشميل، محمد أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة مؤتة، المكتبة السلفية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٨٣.

وبعد الاقتتال الشديد الذي استشهد فيه الأمراء الثلاثة^(١) الذين عهد إليهم النبي ﷺ بقيادة الجيش الذهاب إلى مؤتة، أخذ الراية ثابت بن أرقم^(٢)؛ فقال: "يا معشر المسلمين: اصطلحوا على رجل منكم"^(٣). وانتهى الأمر بالاتفاق على اختيار خالد بن الوليد ﷺ، وهنا برز دور القائد المخضرم الذي استطاع الاستفادة من العوارض الطبيعية التي تخدم الجيش والتي تكون عاملاً مساعداً على تحقيق النصر إذا تم استغلالها بشكل صحيح.

ويواجه الباحث السؤال التالي، كيف تصرف خالد بن الوليد ﷺ حتى تمكن من الاستفادة من العوارض الطبيعية؟ وكيف تم له النجاة بالجيش من هزيمة ساحقة وفناء محقق؟

يمكن القول أن القائد خالد بن الوليد ﷺ استفاد من أمرين:

أولاً: استفاد من عامل الظلام حيث انتظر حتى أظلم الليل الذي تصعب معه الرؤية، وقام بتغيير نظام الجيش.

ثانياً: استفاد من عامل الصحراء حيث نشر قواته بشكل واسع لتحتل أكبر جزء من المكان وأمرهم أن يحدثوا أصواتاً، وأن يثيروا الغبار بالخيول التي معهم لإيهام العدو بأن قوات جديدة وصلتهم خلال الليل، واستطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بجيشه متجهاً صوب الصحراء، بعد أن جعل الساقة تحمي القلب وجعلها في المقدمة^(٤)، وكذلك فعل باليمين والميسرة؛ فقد عمد إلى سحب الجناحين بحماية القلب ولما أصبح الجناحان بمأمن عن العدو عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين إلى أن أتم عملية الانسحاب.

ولم يستطع الروم البيزنطيون ملاحقة جيش المسلمين، وذلك لأسباب جغرافية إن صح التعبير؛ لأن الصحراء كانت مجهولة بالنسبة إلى الروم البيزنطيون الذين لا يعرفون بدروبها ومسالكها وطرقها^(٥)، وهذا جعلهم يتخوفون من ملاحقة المسلمين خوفاً من كمين قد ينصبه المسلمون لهم.

(١) وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة الذين عينهم الرسول ﷺ، قاتلوا حتى استشهدوا. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٩. الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي بن عماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج: ١، ص ١٢. خطاب، محمود شيت: قادة فتح العراق والجزيرة، دار القلم، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص ٦٧-٦٨.

(٢) ثابت بن أرقم: شهد بديراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ثم شهد غزوة مؤتة، فدفعته إليه الراية بعد قتل عبد الله بن رواحة، فدفعها إلى خالد بن الوليد وقال: "أنت أعلم بالقتال مني".

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١١٥. خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ص ٦٧.

(٤) خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ص ٦٨-٦٩.

(٥) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٤.

وعليه استطاع خالد بن الوليد رضي الله عنه ضمان سلامة الجند، باستغلاله عامل الصحراء وجعلها أرضاً جديدة للمعركة تخدم مصالح الجيش في القتال وتحقيق النصر، وهي أرض يندحر فيها العدو إذا ما لاحق المسلمين العدو؛ لأن العرب يحسنون فيها قتال الكرّ والفرّ وتحمل العطش. وكانت هذه المعركة بداية الصراع مع الروم البيزنطيون الذي توج بتحرير الشام فيما بعد^(١).

وفي سرية عيينة بن حصن الفزاري^(٢) إلى بني تميم عندما أرسله الرسول الأكرم محمد ﷺ سنة (٦٣٠هـ/٦٣٠م)، كان يكمن النهار ويسير في الليل فهجم عليهم في الصحراء، ولما رأوا الجمع ولّوا هرباً في الصحراء وأخذ منهم أحد عشر رجلاً.

هنا كان للصحراء دور في الفرار والابتعاد عن العدو إلا أنها لم تحقق لهم ما أرادوا، وأسر المسلمون منهم أحد عشر رجلاً^(٣).

وعلى الرغم من حصول أكثر المعارك والغزوات ضمن صحراء شبه الجزيرة العربية التي كانوا يختارون مواقعها قرب مياه الآبار والأنهار؛ إلا أن أثر الصحراء يبقى واضحاً وملموساً في تلك المعارك وقد ظهر في محاولة التغلب على العطش والجفاف والحر في أكثر من موقع ومعركة.

(١) حمد: تدابير الرسول في شمال المدينة، ص ٢١.

(٢) عيينة بن حصن الفزاري: عيينة بن حصن بن بدر بن عمرو بن جوية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس الفزاري، أسلم قبل الفتح، وشهد الفتح مسلماً، وشهد حنيناً والطائف أيضاً. كان من المؤلفة قلوبهم، وكان ممن ارتد واتبع طليحة بن خويلد الأسدي، وقاتل معه؛ فأخذ أسيراً، وعاد إلى الإسلام في عهد أبي بكر فأطلق سراحه. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٥، ص ٣١٨-٣١٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤٧.

★ الفصل الثاني:

أثر المياه

بما أن عصر رسالة الإسلام كان عصراً عسكرياً بامتياز حيث شهد نشاطاً عسكرياً من أجل نشر الإسلام وجهاد المشركين؛ فلا عجب إن كان البحث يختص "بالجغرافيا العسكرية" في عصر رسول الإسلام ﷺ والتي يمكن تعريفها بأنها: "فن استغلال الظروف البيئية في خدمة المعارك الحربية"^(١).

فقد كان الرسول ﷺ الرجل الأول في الدولة العربية الإسلامية الناشئة بحنكته السياسية ومقدرته عالمياً بشؤون الحرب والتكتيك العسكري، برز ذلك في كل محطة من محطات الجهادية ضد المشركين، وكان يحسن استغلال الظروف البيئية والطبيعية.

وهنا سيتم بيان كيفية استغلال المسلمين لأهم عناصر الطبيعة وهي المياه، التي تعتبر من أهم العناصر في الحرب، كونها عنصر الحياة بالنسبة لأفراد الجيش، ومنفذ الدولة للهجوم على الأعداء^(٢)، وكيفية تسخيرها لصالحهم من خلال الوقوف على أهم ما ورد في المصادر التي أظهرت أثر المياه سواء الآبار أو الأنهار أو حتى البحار.

(١) الفراء: دور الجغرافيا في المعارك الحربية، ص ٢٥٢.

(٢) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ١١.

أولاً- أثر مياه الآبار.

لقد كان لمياه الآبار أثر كبير في سير المعارك الحربية العسكرية التي وقعت في شبه الجزيرة العربية، والتي تكاد تنعدم فيها المياه والنبات، إذ لا بحيرات فيها ولا أنهار، ويندر فيها وجود البرك الطبيعية والخزانات التي تحفظ مياه الأمطار عقب هطولها^(١)، وبالتالي تصبح الحاجة ماسة إلى المياه من أجل سقاية الجند والخيول والإبل والماشية، وفضلاً عن ذلك إن السيطرة على مصادر المياه يعزز من قيمة المعركة لصالح الطرف المسيطر عليها.

ويؤكد ذلك قول الهرثمي، مشيراً إلى ضرورة استغلال عامل الماء في الحروب من أجل ضمان قوة الموقف، وثباته: "لا تنزلن من عدوك منزلاً أبداً حتى تعرفه، وارتهه ذا ماء ومحتطب وكلاً ومرتق، بحيث إن أردت أن تتقدم منه إلى عدوك قدرت على ذلك، وإن أردت التأخر عنه أمكنك ذلك"^(٢).

وهذا ما حصل في غزوة بدر الكبرى سنة (٦٢٤هـ/٦٢٤م)، عندما علم الرسول ﷺ بقافلة قريش القادمة من الشام^(٣)، وأنها ستمر ببدر تستقي من ماءها وتريح فيها، وما إن دخلت التراب الحجازي، ندب الرسول ﷺ أصحابه وتحركوا من المدينة إلى أرض المعركة^(٤)؛ إلا أنه بعد تطور الموقف وسماع المسلمين بخروج جيش مكة بعد استجداد أبا سفيان صاحب القافلة بأهل مكة، عقد الرسول الأكرم ﷺ مجلساً استشارياً^(٥) تبادل فيه الرأي مع القواد انتهى بإجماع القادة من المهاجرين والأنصار الذين حددوا موقفهم بإعلان القتال والمشاركة فيه^(٦)، فاستبشر الرسول خيراً وقال:

"سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم"^(٧).

ثم تتقرر مواصلة المسير نحو بدر، ليسبق المشركين إليه وقد اتخذ في بادئ الأمر منزلاً بعيداً من ماء بدر، إلا أنه لم يكمن مطمئناً إلى صلاح حال المكان لنزول الجيش فيه؛ فاستشار الرسول ﷺ أصحابه عملاً بمبدأ الشورى في الموضع الذي اختاره، فرأى أحد القادة أنه ليس من المصلحة الحربية

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٦.

(٢) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣١.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٢٧.

(٤) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة بدر الكبرى -، ص ١٢١.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٣.

(٦) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة بدر الكبرى -، ص ١٣٦-١٣٨.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٧٠.

النزول في هذا المكان وهو الحباب بن المنذر بن الجموح^(١)، فأشار بعدم البقاء في هذا الموضع لبعده عن الماء.

ويروي ابن الأثير والقرطبي تفاصيل ما جرى قائلاً: "فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزله؛ فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال الرسول ﷺ: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة".

قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء سواه من القوم، فإني عليم بها وبقلبها^(٢)، فنزله ثم نغور^(٣) ما وراءه من القُلب^(٤) ثم نبني عليه حوضاً ونملأه ماء فنشرب ماء ولا يشربون ثم نقاتلهم^(٥). فقال الرسول ﷺ: "لقد أشرت بالرأي"^(٦). ففعل ذلك.

وقد نزل جبريل عليه السلام؛ فقال للرسول ﷺ: "الرأي ما أشار به الحباب"^(٧). فأخذ الرسول ﷺ برأي الحباب لما فيه مصلحة المسلمين، وهنا اطمئن الرسول إلى حال المسلمين بعد أن نزل جبريل عليه السلام، وقد أورد الطبري الإجراءات التي قاموا بها قائلاً:

(١) الحباب بن المنذر بن الجموح: الحباب بن المنذر بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجي السلمي: أبو عمر، صحاب، من الشعراء الشجعان، وقيل: هو صاحب المشورة يوم بدر، أخذ النبي برأيه، وشهد بدر وكان يقال ذو الرأي، وهو القائل: "وليس المقاتل يوم السقيفة انا جديلاً المحنك وعذيقها المرجب". توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٦٦٥. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ١٦٣.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤.

(٣) غُور: غار الماء غوراً أي ذهب في الأرض فهو غائر. الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ج: ٢، ص ٤٥٦.

(٤) القُلب: جمع قلب: البئر. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٢٧.

(٥) الواقدي، محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٦هـ/٨٢٥م): المغازي، تح: مارسدن جونس، مطبعة عالم الكتب، ط: ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٥٣. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٤٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٠. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٨١.

(٦) القرطبي: الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١١٣. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ١، ص ٦٦٥.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤.

"فسار حتى أدنى ماء من القوم؛ فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فغُورِت - هَدِمَتْ، وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الأنية"^(١).

ويلاحظ أن ابن كثير أضاف على رواية الطبري أن الرسول ﷺ نزل والمسلمون ليلاً بقوله:

"نزلوا القلب الذي يلي المشركين نصف الليل، وأنهم نزلوا فيه، واستقوا منه، وملئوا الحياض، حتى أصبحت ملئ وليس للمشركين ماء"^(٢).

أما البئر الذي نزل به الرسول الأكرم ﷺ فقد حدد موقعه الطبري حيث قال: "والقلب ببدر في العودة الدنيا من بطن ليليل^(٣) إلى المدينة"^(٤).

وهو المكان الذي نزل به الرسول ﷺ، وجعل مقر قيادته داخل العودة الدنيا حيث توافرت المياه، والأشجار مما جعله مكاناً مناسباً للتمركز والاستراحة^(٥).

وقد يتساءل البعض ما هو الأثر الذي أحدثه تغيير - هدم - الآبار؟ وكيف تجلت الفائدة مما أقدم عليه المسلمون؟

بعد الاستعراض لما حدث بقي أن يتم تسليط الضوء على فاعلية استغلال مصادر المياه؛ فقد ترك أثراً كبيراً جداً على معسكر المشركين لما أصابهم من العطش والجهد، وهذه النتيجة الطبيعية لسيطرة المسلمين على آبار المياه، مما أدى إلى اضطراب أحوالهم، وإرباك صفوفهم، وهذا ما تحدث عنه الطبري واصفاً حراجه الموقف الذي آل إليه حالهم واستماتتهم في سبيل الحصول على الماء: "وقد خرج الأسود بن عبد الله المخزومي - كان رجلاً شرساً سيء الخلق - فقال:

"أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولأهدمته أو لأموتن دونه؛ فلما خرج، خرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطن^(٦) قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض، ... واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض"^(٧).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٤٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٨٣.

(٣) ليليل: اسم قرية قرب وادي الصفراء من المدينة، وفيه عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أغزر ما يكون من العيون، ووادي ليليل يصب في البحر. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٤٤١.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٢٩.

(٥) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله، ص ٤٤.

(٦) أطن ساقه: قطعها، وبترها. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٢١٣.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٤٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٢.

وعليه؛ فقد كان استيلاء الرسول الأكرم ﷺ على مصادر الماء في بدر أول عمل عسكري يقوم به النبي ﷺ لتحقيق النصر في معركة بدر، فوجود الماء خلفهم أكسبهم روحاً معنوية عالية في القتال، وأثناء المعركة حافظوا على وجود الماء من خلفهم، فكان العدو أمامهم والماء خلفهم^(١)، بينما المشركين حرّموا من هذا العامل الحيوي الذي لا يمكن الاستغناء عنه في مثل هذه البيئة الصحراوية القاسية ذات المصادر المائية القليلة^(٢)، مما زاد في حراجه أمر المشركين ومعاناتهم، كما أن المسلمين أدركوا أن المعركة في بدر هي معركة مياه؛ فقاتلوهم بسلاح العطش الفتاك الذي لا يقدر على مقاومته أحد^(٣).

ومن هنا يتضح أنّ الرسول الأكرم محمد ﷺ وصحابته رضي الله عنهم اتخذوا إجراءات منعت المشركين من الوصول إلى الماء والاستفادة منها وحدّت من تحركهم، مما يبرهن على أنهم درسوا جيداً أرض المعركة قبل الخوض في غمارها، وعرفوا تضاريسها ومظاهرها الطبيعية سواءً جبالاً، أو أودية، أو حتى مصادر المياه.

وفي غزوة أحد سنة (٦٢٥هـ/٦٢٥م)، يلاحظ دور الماء أيضاً إلا أنه هنا لم يكن عاملاً للنصر بل كان عاملاً للاستعانة على العطش الذي وقع به النبي ﷺ ومن معه^(٤)؛ فبعد أن كرّ جيش المشركين وفرّ جيش المسلمين، وقام الرسول في خطوة استراتيجية بالانسحاب إلى جبل أحد في إحدى شعابه بعد احتدام القتال، للتحصن في شعابه، وهو شق في هضبة من هضاب جبل أحد، أصابه عطش شديد، وكان قد جرح؛ فذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى المهراس^(٥)، فجلب له الماء فغسل به وجهه الشريف.

وعليه فإن الماء كان عاملاً مساعداً على استعادة القوى ورأب الصدع، بعد أن أنهكها العدو بالمباغلة والهجوم.

(١) حنفي، محمد رجاء: عوامل النصر في موقعة بدر الكبرى، مجلة المنهل، الرياض، السعودية، مج: ٥٤، العدد: ٥٠٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ١٠٣.

(٢) الخطيب: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، ص ٩٧-٩٨.

(٣) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٦٣.

(٤) لقد أورد الطبري أن الرسول ﷺ رغم عطشه لم يشرب من الماء بعد أن وجد له ريحاً فعافه إلا أن أغلب الروايات ربطت جلب الماء للرسول بسبب عطشه، إذاً هل شرب الرسول من الماء أم لم يشرب؟. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥١٩.

(٥) المهراس: ماء بجبل أحد، وقيل الحجر المستطيل يتوضأ منه. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٢٣٢.

وفي هذا ذكر ابن الأثير: "فلما عرفه المسلمون، نهضوا إلى الشعب ومعه علي، وأبو بكر، وعمر... ولما جرح رسول الله ﷺ جعل علي ينقل له الماء في درقته من المهراس، ويغسله"^(١).

وهنا يظهر السؤال التالي، لماذا اختار الرسول الأكرم محمد ﷺ، في أثناء غزو بني قريظة سنة (٦٢٧هـ/١٢م)^(٢) أن ينزل على ماء لهم يقال له بئر أنى^(٣)؟

بنظرة فاحصة تبدو الإجابة واضحة جلية؛ فلو لم يكن الماء عاملاً مهماً جداً في الحروب والمعارك ولو لم يحاول الرسول ﷺ الاستفادة من هذا العامل، لما اختار أحد آبار بني قريظة للنزول عليه، وهذا ما رواه الطبري في سنده عن ابن شهاب الزهري: "فلما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة، نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم، يقال لها بئر أنا؛ فلاحق به الناس..^(٤) وجعل مقر قيادته هناك، بغض النظر عن النتائج التي كانت في صالح المسلمين.

ويتكرر الأمر أثناء عمرة الحديبية سنة (٦٢٨هـ/١٢م)، عندما وصل الرسول ﷺ إلى سهل الحديبية، وبركت ناقته فلم تتقدم إلى مكة؛ فقال أصحابه: "خلأت". فقال الرسول لأصحابه: "ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل"^(٥).

المهم أن الرسول ﷺ أمر أصحابه بالنزول في الحديبية، وقرر عدم اجتياز حدود الحرم حتى إشعار آخر وعدم التعجل في دخول مكة، فنزلوا على بئر في الحديبية، مما يعني أن حال المسلمين بوجود الماء ليس فيه أي حرج، ومن الممكن سد حاجات الجيش الذي خرج من المدينة يريد مكة دون أي مشاكل.

وفي رواية الطبري ما يدل على أن المسلمين نزلوا في بادئ الأمر بمكان ليس فيه ماء؛ إلا أن الرسول ﷺ ببركته و معجزاته التي خصه الله بها، جعل للمسلمين ماء يرتوون به، وهذا ما أورده قائلًا: "ثم قال للناس: انزلوا، فقل: يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥١٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٥١-٥٢.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٥١.

(٣) بئر أنى: هو بئر بالمدينة من آبار بني قريظة، وهناك نزل النبي ﷺ، لما فرغ من غزوة الخندق. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٢٥٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٨٢.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٦٢٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٦، ص ٢٠٩. باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - صلح الحديبية -، ص ١٤٦.

رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب فغرز في جوفه، فجاش^(١) الماء بالري حتى ضرب الناس عليه بعطن^(٢)»^(٣).

وبناءً على ما سلف يمكن القول أنَّ مصادر المياه كالآبار والعيون قد أسهمت بشكل كبير وأساسي في عدد من الغزوات والحملات العسكرية، ولاسيما في الصحراء التي كان الجيش بأعداده الكبيرة يقوم باجتيازها مع ما يحمله من أسلحة وعتاد، وما يرافقه من نساء ومرافقين وأدلاء بالإضافة إلى الخيل والجمال والماشية، فضلاً عن السير لمسافات طويلة يجوبون الصحارى في مناخ حار وجاف، وهذا ما يفرض على أي جيش مقاتل أن يتزود بالماء اللازم، وأن يسير في بطون الأودية والممرات الجبلية على الآبار والعيون من أجل التزود بالماء اللازم للشرب والغسيل والوضوء وغير ذلك، وما ذكر سالفاً لعله يبرهن هذا القول.

(١) جاش الماء: ارتفع، وجاشت العين: فاضت. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٥٨٨.

(٢) العطن: وطن الإبل، ومبركها حول الحوض، ومريض الغنم حول الماء، وعطنت الإبل: رويت ثم بركت، وأعطنها: حبسها عن الماء. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٢١٦. ولعله أراد التعبير هنا عن زيادة الماء بشكل وافر.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٦٢٤-٦٢٥.

ثانياً- أثر مياه الأنهار.

إن الباحث في جغرافية شبه الجزيرة العربية يلاحظ أن بلاد العرب في مجموعها عبارة عن صحراء تندر فيها الأنهار، وهذا ما ذكره الجغرافي فتحي محمد في كتابه "دراسات في جغرافية شبه جزيرة العرب"، فقد قدم وصفاً لجغرافية شبه الجزيرة العربية وبيئتها قائلاً:

"كانت البيئة في جزيرة العرب بيئة تحدي، فهي بيئة صحراوية قاسية، تدعو السكان إلى العمل الذي يتحدى الظروف الطبيعية، وإن كانت في الوقت ذاته توحى لهم بالأمل في قهر الصعاب، فالصحراء تتحدى من يحاول أن يقطعها لكنها تضم الواحات الطبيعية التي يعرف عابر الصحراء أنه يستطيع أن يفئ- يلتجأ- إليها كمراحل على الطريق..."^(١).

ومن خلال ما سلف يبدو واضحاً أن أثر الأنهار كان محدوداً جداً في عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ، وإن أغلب المصادر والأبحاث التي ذكرت الغزوات ومواضعها أشارت إلى أنها حصلت قرب الآبار، والأودية، وفي الصحراء، لأن السمة الغالبة على مظاهر سطح شبه الجزيرة العربية هي الصحراء الجافة، وبالتالي فإن ندرة تأثير الأنهار في أحداث ذلك العصر هي نتيجة طبيعية لقلة وجود الأنهار فيها.

وعلى الرغم من ذلك إلا أنه لا يمكن عدّها كالصحاري التي لا زرع فيها ولا ماء أبداً، حيث يلاحظ فيها تنوع بسيط في مظاهر سطحها وتضاريسه، فهو مختلف الأجزاء بعضها مغطى بالكثبان الرملية، وبعضها الآخر بالجبال والآكام، وبعضها غور منخفض، وبعضها نجد مرتفع^(٢).

ومن المهم ذكره أن الغزوات التي ذكرت سالفاً والتي حصلت في بطون الأودية، يلاحظ فيها اشتراك عامل المياه فهي إن وقعت في بطون الأودية؛ إلا أنها كانت غنية بالآبار والينابيع التي لعبت دوراً في طول أمد الحصار، أو التحصن والمقاومة، أو تحقيق النصر، أو إنزال الهزيمة.

ومن خلال ذلك يمكن القول أن الينابيع هي التي كان لها دور في الغزوات ومواضعها بشكل عام، وليس الأنهار على وجه خاص، ومنها:

(١) أبوعيانة، فتحي محمد: دراسات في جغرافية شبه جزيرة العرب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ٣.

(٢) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج: ١، ص ٩.

- غزوة بواط سنة (١٢٣هـ/٦٢٣م)^(١): وقعت في شرق جبل رضوى في بطن وادي بواط، توجد في هذا الموقع الينابيع، وآبار المياه وبساتين النخيل.
- غزوة العشيّرة سنة (١٢٣هـ/٦٢٣م): وقعت في قرية مندثرة تدعى العشيّرة، في وادي المرخية، وتنتشر في هذا الوادي آبار المياه، وبعض العيون وبساتين النخيل أيضاً.
- غزوة سفوان سنة (١٢٣هـ/٦٢٣م): حدثت في بطن وادي سفوان، تنتشر فيه آبار المياه والعيون والنخيل.
- غزوة قرقرة الكدر سنة (١٢٤هـ/٦٢٤م): حدثت في مكان عبارة عن ماء لبني سليم ويقع في وادي خصب.
- غزوة بني قينقاع سنة (١٢٤هـ/٦٢٤م): غزا فيها الرسول منازل بني قينقاع الواقعة على طرف وادي مهزور، وهي منطقة خصبة، فيها آبار مياه.
- غزوة حمراء الأسد سنة (١٢٥هـ/٦٢٥م): بعد غزوة أحد، تنتشر في المكان آبار المياه وبساتين النخيل^(٢).
- غزوة بني النضير سنة (١٢٥هـ/٦٢٥م): حدثت في منطقة العالية، في مكان آبار المياه والنخيل^(٣).
- غزوة ذات الرقاع سنة (١٢٦هـ/٦٢٦م): حدثت في مكان يدعى نخلا، وهو وادي يقع جنوب غرب الحناكية، وفي هذا الوادي تنتشر آبار المياه والأراضي الزراعية.

هذا كان أهم ما ورد في المصادر عن الغزوات والسرايا التي حصلت قرب آبار المياه والعيون، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يؤكد على أن الغزوات كانت تحدث قرب الآبار والعيون لأهميتها، وذلك بعد دراسة لمكان اختيار الغزوة أو السرية، لتحقيق الغاية والهدف في استغلال تلك العوامل وتسخيرها لتحقيق النصر.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١١.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٥.

(٣) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٤٣-٦٢. ابن خياط: تاريخ خليفة، ص ٧٥-٨٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٦٤.

★ الفصل الثالث:

أثر المناخ

فيما سلف تناول البحث دور العوامل الجغرافية الطبيعية وأثرها على العمليات العسكرية التي ميزت عصر الرسول الأكرم ﷺ، وصبغته بالصبغة العسكرية، وفي هذا المبحث سيتم توضيح آثار المناخ ودور عناصره المتعددة من (أمطار، وسيول، وجفاف، وقحط، ورياح، وحرارة وشمس..) على العمليات العسكرية والغزوات في عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ، حيث يأتي المناخ في المرتبة الثانية بعد التضاريس من حيث "حجم وقوة التأثير" على العمليات العسكرية، ويلعب دوراً هاماً في تحويل النتائج لصالح أحد الطرفين المتنافسين.

أولاً- أثر الأمطار والسيول.

لقد كان للمطر أثر كبير على أحداث التاريخ منذ بدء الخليقة وحتى اليوم، وهنا لابد من الإشارة إلى أثر مياه الأمطار في أحداث هذا العصر، وبشكل عام توضيح دور الأمطار التي سقطت أثناء الغزوات والمعارك في منطقة شبه الجزيرة العربية، وكما هو الحال سيتم ذلك من خلال استعراض نماذج تعطي صوراً عن مدى أهمية هذا العامل المناخي وأثره البالغ.

يبدو للباحث أن غزوة بدر (١٢هـ/٦٢٤م)، كانت من أهم الغزوات في تاريخ المسلمين على جميع النواحي، وقد برز فيها أثر العوامل الجغرافية المختلفة من مرتفعات وأودية ومياه وأمطار، فقد ذكرت المصادر التاريخية^(١) مشيرة إلى أن الأمطار أدت دوراً كبيراً في تحقيق النصر للمسلمين على جيش المشركين، وأنها حدثت من حركة العدو وشلّت قوته، وجعلته في حيرة وقلق.

ويطالع الباحث بعض الأسئلة بخصوص هذا الشأن ومنها: كيف تجلّى أثر الأمطار؟ وما هي النتيجة التي ظهرت بسببها؟ وإن كانت المعطيات تشير إلى نصر المسلمين فما هي الحوادث الطبيعية التي حصلت على أرض الواقع وأثرت بالنتائج وغيرها؟

للإجابة يمكن القول أن النتيجة قد ظهرت على طبيعة أرض الوادي السهلية التي أصبحت ضحلة بفعل المطر لا يمكن اجتيازها من قبل المشركين، في حين أن المطر كان عاملاً مساعداً للمسلمين على إزالة الغبار وتلييد الأرض^(٢)؛ فقد تلبدت الأرض بفعل الأمطار التي سقطت قبل حدوث المعركة، وهذا ما وصفه المؤرخون في مؤلفاتهم، وقد جاء في رواية ابن كثير والطبري ما يدل على ذلك؛ فذكروا ذلك بقولهم:

"وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض؛ ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء؛ حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به"^(٣).

(١) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م): الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تح: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م، ج: ٥، ص ٩٧-٩٨. الواقدي: المغازي، ج: ١، ص ٥٤. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٢٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٧٩.

(٢) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٣٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٧٩.

وفي هذا نزل قول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿إِذْ يُشِيقُ الْفُجَاءُ أَمْنَهُمْ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(١).

ومن المهم ذكره أن أرض بدر أرضاً رملية، وأمطارها قليلة ومحدودة، ومتوسط التساقط السنوي فيها يتراوح (٤١,٠٤ ملم)، ويهيمن عليها السمة الصحراوية شديدة الجفاف، وهي نادرة التساقط خلال أشهر الصيف^(٢)، وأمطارها تأخذ الصفة الصحراوية حيث تتميز بالعشوائية وعدم الانتظام.

وقد نزل المطر في ليلة المعركة التي حدثت في أشهر الصيف، وفي وقت لم يكن طبيعياً لنزول المطر مما يدل على أن الله تعالى أرسل المطر لنصرة المسلمين ولشد أزهم^(٣)؛ فكان المطر بأثره الكبير نعمة ومصدر للقوة بالنسبة لجيش المسلمين، ونقمة ومصدر للقلق بالنسبة لجيش المشركين^(٤).

والدليل نزول جيش المشركين على ضفة الوادي الجنوبية خلف تلة من الرمل - الكتيب - وأمامهم بطن الوادي والتي تختلف بطبيعتها عن ضفة الوادي الشمالية حيث أصبحت الأرض موحلة يتعذر المسير عليها، وقد ذكر ذلك في قوله تعالى:

﴿إِذِ اتَّسَعِ بِالْمُؤْمِنِينَ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالنُّجُودِ الْقُصُورِ وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ﴾^(٥)؛ فقد ساعد المطر في جبهة المسلمين الذين نزلوا على مقربة من ضفة الوادي الشمالية على تليد الأرض الرملية وإطفاء الغبار، لأن الأرض تلبدت وقست، حتى ثبتت عليه أقدامهم وحوافر خيولهم فلم تَسْخُ - تغوص - في الرمال^(٦).
إذاً كان للمطر أثر كبير في انتصار المسلمين على جيش المشركين بفعل عوامل الطبيعة المناخية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، حيث يلاحظ في سرية غالب بن عبد الله الليثي الذي أرسله

(١) سورة الأنفال، الآية: ١١، ص ١٧٨.

(٢) الأحمدى، فهد سالم: معلومات لبعض سجلات السيول بمنطقة المدينة المنورة - سلسلة الأبحاث الهيدرولوجية، وزارة الزراعة - المديرية العامة للزراعة والمياه بمنطقة المدينة المنورة، السعودية، مج: ٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ١٥.

(٣) آل عابد، أبو بدر محمد زكريا: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ، دار الغرب الإسلامي، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ٨٩.

(٤) الغضبان، منير محمد: المنهج الحركي للسيرة النبوية، الأجزاء: ٣، مكتبة المنار، ط: ٦، الأردن، الزرقاء، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج: ٢، ص ٤١٨.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٢، ص ١٨٢.

(٦) الدرة، محمود: تاريخ العرب العسكري، دار الكاتب العربي، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ص ٨٤.

الرسول ﷺ إلى بني الملوح بوادي الكديد بين عسفان وقُديد سنة (٨هـ/٦٢٩م)^(١)، وأمره بالغارة عليهم كما أورد الطبري^(٢)، أثراً كبيراً لمياه الأمطار أيضاً بغض النظر عن الوادي ودوره كما ذكر سابقاً.

فبعد أن كمنوا في الوادي، انتظروا حتى انتهى الخصم من حلب الماشية ثم أغاروا عليهم وباغتوهم، ما يهم هنا هو الإجابة عن الدور الفاعل للأمطار في هذه السرية؟ وهل للطبيعة أثر في نصر المسلمين؟

إن في وصف جندب ابن مكيث الجهني الذي كان أحد أفراد الحملة ما يجيب السائل عن ذلك، حيث يقول:

"..شننا عليهم الغارة، فقتلنا من قتلنا واستقنا النعم؛.. وخرج صريخ القوم إلى القوم مغوّثاً،... فجاءنا ما لا قبل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادي من قديد، بعث الله عز وجل من حيث شاء سحاباً ما رأينا قبل ذلك مطراً ولا خالاً، فجاء بما لا يقدر أحد أن يقدم عليه؛ فلقد رأيناهم ينظرون إلينا، ما يقدر أحد منهم أن يقدم أو يتقدم،... فأعجزنا القوم بما في أيدينا، وقدمنا المدينة.."^(٣).

أما ابن سعد في طبقاته فيروي أن الله لم يبعث مطراً أو سحاباً وإنما جعل الوادي يمتلأ بالسيل الذي ملأ جنبتي الوادي ماءً من دون سحاب يروه ولا مطر، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه؛ فقال: "فأدركنا القوم حتى نظروا إلينا ما بينا وبينهم إلا الوادي، ونحن موجهون في ناحية الوادي إذ جاء الله بالوادي من حيث شاء يملأ جنبتيه ماء، والله ما رأينا يومئذٍ سحاباً ولا مطراً فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه فلقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا.."^(٤).

ويستدل من خلال ما سلف أن الله سبحانه وتعالى أراد نصر المسلمين وإحقاق الحق؛ فبعث سحاباً ثقلاً كان له الدور الأكبر في إحداث سيل كبير في تلك المنطقة، مما أدى إلى امتلاء الوادي بالماء فحال بين المسلمين وعدوهم، ولعله لو لم يكن الأمر كذلك لكانت الدائرة على المسلمين والنصر للمشركين، لعدم تكافؤ القوى بين الطرفين، إذاً كان نصر المسلمين في تلك السرية نصراً إلهياً بتأثير الطبيعة.

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٦٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٢٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٢٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٠٨.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٧.

وقد تعددت السرايا والغزوات التي سقطت فيها الأمطار وهذا ما دلت عليه المصادر^(١)؛ إلا أنها لم تذكر مقدار التأثير الذي تركته على المعارك، وأثرها في تغيير النتيجة لصالح أحد الطرفين، لكن من خلال مناخ منطقة شبه الجزيرة العربية التي كانت تجري عليها المعارك والغزوات يمكن القول بأن الأمطار قد أسهمت بدور مهم، وتركت أثراً سلباً أو إيجاباً على نتائج المعارك للطرفين المتخاصمين.

ففي سنة (٢٤/٥٣م) غزا الرسول ﷺ غطفان بذي أمر، وقد مطر المسلمون حسب ما أورد الواقدي في مغازيه، حيث ذكر أن الرسول ﷺ: "نزل بذي أمر من ناحية النخيل وعسكر بها يريد غطفان فأصاب المسلمين مطراً كثيراً"^(٢).

وفي عمرة الحديبية سنة (٦٢٧/٦هـ) نزل الرسول ﷺ في سهل الحديبية بمكان قليل الماء، حتى نزح الناس عنه وقد جاءت الناس لرسول الله ﷺ يشكون قلة الماء، فكان سهم الرسول ﷺ الذي غرزه في قلب البئر هو الحل للمشكلة، كما أن المطر ساعدهم على التخلص من تلك المشكلة الملحة.

فقد ذكر ابن سعد قائلًا: "نزل الرسول ﷺ على ثمد"^(٣) - بئر - من أثماد الحديبية ظنون قليل الماء، فانتزع سهماً من كنانته فأمر به فغرز فيها فجاشت لهم بالرواء حتى اغترفوا بأنيتهم جلوساً على شفير البئر، ومطر رسول ﷺ بالحديبية مراراً وكرت المياه"^(٤). وقد أرسل الله السماء حتى كثرت المياه مراراً وتكراراً^(٥).

وقد سقطت الأمطار في غزوة حنين سنة (٦٢٩/٨هـ)، وهذا ما جعل المسلمين يصلون في الرحال^(٦)، بعد أن أمر الرسول ﷺ مناديه أن ينادي على الصلاة. وغيرها كثير من السرايا والغزوات التي سقطت فيها الأمطار.

ومن خلال ما تقدم تبدو الصورة واضحة جلية في أن عوامل الطبيعة تؤدي دوراً كبيراً ومؤثراً لا يمكن إغفاله، ومنها عامل الأمطار الذي يبقى له أثراً واضحاً على الأحداث.

(١) الواقدي: المغازي، ج: ١، ص ١٩٥. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٣١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٢٥.

(٢) الواقدي: المغازي، ج: ١، ص ١٩٥.

(٣) الثمد: الماء القليل الذي لا مادة له. الواقدي: المغازي، ج: ٢، ص ٥٨٧.

(٤) الواقدي: المغازي، ج: ٢، ص ٥٨٧. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٩٢.

(٥) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٦م): كفاءة الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج: ٢، ص ٣٩٩.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤٤.

هذا كان استعراض لبيان أثر الأمطار على سير الأحداث في عصر الرسول ﷺ، لكن لو طرح أحدهم السؤال التالي، هل يترك الجفاف وانحباس المطر أثراً كما يتركه سقوط الأمطار والسيول المتشكلة؟

للإجابة على ذلك لابد من الالتفات إلى أثر الجفاف والقحط.

ثانياً- أثر الجفاف والقحط.

عندما يذكر على مسمع أحد كلمة "جفاف"^(١) والتي وردت في معان متعددة^(٢)، يتبادر إلى الذهن بشكلٍ ديناميكي آثارها السلبية على الإنسان والمجتمع، ويخيل للقارئ معاناة الناس في ظل هذه الكلمة التي تشكل حالة اقتصادية سيئة أبرز مظاهرها شحّ الغلات وزيادة الأسعار ونقص الموارد، وخير ما يدل على ذلك قول الله تعالى في كتابه العزيز ذاكراً حال آل فرعون وكيف أنه ابتلاهم بالنقص في الموارد والشح في الخيرات؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(٣).

إذاً كما كانت الرياح المسخرة في بعض الأحيان لعذاب المشركين، كان الجفاف والقحط عبرةً ليوظظ قلوب المشركين الغافلة أيضاً، وعاملاً مساعداً لأحد الأطراف المتنافسة من أجل التفوق الاقتصادي على الآخر.

(١) الجفاف - جُفُوفاً وَجَفَافاً: نَشَفٌ، يَبَسٌ، ذَوَى، وما جَفَّ من الشيء: أي نقص وانتهى. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ٧٩٧. جرجس، جرجس وأنطوان نصري: المعجم المدرسي للطلاب، دار صبح، ط: ٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص ٢٣٦.

(٢) وردت عند ابن سيده بعدة معاني كان منها: السنة المجذبة العجفاء، والجائحة، وكلها تدل على الجفاف. ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م): المخصص، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديد، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج ٣، ص ١٦٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠. عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية للطباعة، القاهرة، مصر، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م، ص ٥١٥.

ولو لم يكن لهذا العامل أثره الكبير ووقعه المتين لما دعا الرسول الأكرم محمد ﷺ على كفار قريش عندما ازداد أذاهم له وللمسلمين؛ فرأى الرسول ﷺ أن يدعي الله لتسخير القحط والجفاف عليهم؛ فقال مناجياً شاكياً مستنصراً ربه:

"اللهم أعني عليهم بسني كسنيين يوسف"^(١). وكان قصد الرسول الأكرم بسني كسنيين يوسف أن يحل القحط والجذب عليهم، بمعنى أن تتقطع الأمطار عنهم، وتجف المياه في آبارهم، وتهلك مزروعاتهم، وتموت حيواناتهم، وتقل الأطعمة والخيرات عليهم^(٢).

وبما أن منطقة الجزيرة العربية هي منطقة صحراوية قليلة المجاري المائية حيث لا عيون فيها ولا آبار، ويندر فيها وجود البرك الطبيعية، والخزانات التي تحفظ مياه الأمطار عقب هطولها^(٣)؛ فقد كانت أكثر المناطق عرضة لحصول القحط والجذب، وبرز أثر الجفاف بشكل كبير لأنها كانت تعتمد على مياه الأمطار من أجل ري المزروعات، وسقايتها وري الحيوانات وغيرها، أما في المناطق القريبة من مياه الأنهار والبحار فإن أهلها لا يخشون الجذب، وذلك ما ذكره ياقوت الحموي الذي قال على لسان الجاحظ أن أهل البصرة لا يخافون الجذب "لا يخافون المحل ولا يخشون الحطمة"^(٤)، بسبب موقع مدينتهم على النهر وقرب ساحل الخليج.

ومن خلال استعراض أثر العوامل الجغرافية في عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ من الممكن القول بأن شبه الجزيرة العربية تعرضت لعدد من حالات الجفاف والقحط والجذب التي كان لها أثرها بشكل أو بآخر على سير العمليات العسكرية، وأهمها:

حالات نقص الموارد والخيرات التي عانت منها المدينة المنورة منذ أن هاجر إليها المهاجرون في بدايات الدولة الإسلامية الناشئة، والتي كانت السبب المباشر لعدم وجود بيت المال في بادئ الأمر^(٥) إن صح التعبير.

(١) ابن الأثير، مجد الدين بن محمد الجزري (ت ٥٤٤هـ/٦٠٦هـ): النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود الطناحي وظاهر الزاوي، المكتبة الإسلامية، ط: ١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ج: ٢، ص: ٤١٤.

(٢) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص: ١٦.

(٣) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص: ٦.

(٤) الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص: ٤٣٩.

(٥) العمري، أكرم: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة، دار إشبيلية، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص: ٦٨.

ففي مقدمات غزوة بدر سنة (٦٢٤هـ/٦٢٤م)، كان فقراء المهاجرين يشكون قلة الطعام ونقصه واقتصار طعامهم على التمر فقط^(١)، وكثيراً ما كانت تظهر آثار القحط والجفاف على الرسول الأكرم محمد ﷺ وأصحابه^(٢)، ومع أنه ظهرت عدة تشريعات^(٣) تؤمن للدولة موارد جديدة تنهض بالوضع الاقتصادي إلا أن ظروف الجذب والقحط كانت هي المتحكمة في زيادة هذه الموارد أو نقصها.

وفي سنة (٦٢٦هـ/٦٢٦م) كانت غزوة بدر الآخرة^(٤)، حيث خرج الرسول ﷺ بعد أن علم بخبر خروج أبو سفيان لطلب الرسول ﷺ وملاقاة المسلمين في بدر القتال، وعندما انتهى أبو سفيان إلى مجنة من ناحية مر الظهران^(٥) ومعه أهل مكة، رجع إلى مكة بعد أن قال لأصحابه موضحاً صعوبة الظروف بسبب القحط والجذب وأنهم لا يستطيعون البقاء والاستمرار في انتظار المسلمين؛ فقال كما أورد الطبري: "يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن؛ وإن عامكم هذا عام جذب؛ وإنني راجع فارجعوا. فرجع ورجع الناس"^(٦).

من الممكن القول أن أحوال القحط والجذب وقلة الخيرات كانت هي السمة الغالبة على مجتمع المدينة المنورة ولم تتحسن إلا بعد غزوة خيبر سنة (٦٢٩هـ/٦٢٩م).

ففي غزوة الخندق سنة (٦٢٧هـ/٦٢٧م)^(٧)، ذكرت المصادر أن الرسول الأكرم محمد ﷺ وأصحابه الذين معه كانوا يعانون من نقص الغذاء ومن شدة الجوع بالإضافة إلى البرد الشديد؛ فقد كان المسلمون يعملون في حفر الخندق وهم يشدون الحجارة على بطونهم من الجوع بما في ذلك الرسول الأكرم محمد ﷺ^(٨)؛ "فقد أصاب المدينة في ذلك العام مجاعة مع برد قارس، وكان طعام الجيش قليل

(١) ابن الدريس، عبد الله: مجتمع المدينة، مطبعة جامعة الملك سعود، ط: ٢، الرياض، السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) بطاينة، محمد: الحياة الاقتصادية في صدر الإسلام، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٧٣.

(٣) من التشريعات التي فرضت: تشريع أخذ الزكاة في العام الثاني للهجرة، وزكاة الفطر مع صيام شهر رمضان، وكانوا يشكلون دخل سنوي ثابت للدولة الإسلامية الناشئة. العمري، أكرم: المجتمع المدني خصائصه وتنظيماته الأولى، مطابع الجامعة الإسلامية، ط: ١، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٥٥.

(٤) وقد اختلفت المصادر في تسميتها فوردت بعدة أسماء مثل: غزوة السويق، غزوة بدر الموعد، غزوة بدر الثانية.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٦٨. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٥، ص ٥٧٣.

(٥) مر الظهران: موضع قريب من مكة المكرمة. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٦٨.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٥٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٥٩.

(٧) المسعودي: التنبيه والإشراف، ٢٥٠.

(٨) العمري: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة، ص ٧٣.

من الشعير يخلط بدهن قديم قد تغيرت رائحته، يطبخ فيأكلونه رغم طعمه الكريه ورائحته المنتنة لفرط الجوع، وأحياناً لا يجدون سوى التمر، وقد يلبثون ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً..^(١)

وقد أورد المسعودي أن الرسول الأكرم محمد ﷺ استسقى بالناس في سنة (٦٢٨/هـ)، وذلك بسبب القحط والجذب الذي لحق بالمسلمين وأثر سلباً عليهم^(٢).

كما أنه في سنة (٦٣٠/هـ) التي حصلت فيها غزوة تبوك^(٣) عانى المسلمون من جذب شديد وقحط وجفاف، حيث كان "الحر شديد والبلاد مجدبة والناس في عسرة"^(٤)، جعلت المسلمين يتقاعسون عن الجهاد^(٥)؛ فقد ذكرت المصادر أن الرسول محمد ﷺ علم أن الروم البيزنطيون قد تجمعوا بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، فندب الرسول الأكرم محمد ﷺ الناس للخروج، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وذلك في حرٍ شديد؛ فقال قائل من المنافقين: "لا تتفروا في الحر" فنزل قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾^(٦).

وجاء البكاؤون والمعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فاعتذروا إلى الرسول ﷺ فلم يعذرهم^(٧)، فتجهزوا في كره، وكان ذلك الجيش يسمى "بجيش العسرة" بسبب الجذب والضيق والعسرة^(٨)، ويروي ابن سعد عن عقيل بن أبي طالب: "أن قوله تعالى في كتابه العزيز:

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾^(٩)، قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير وخرجوا في حرٍ شديد فأصابهم يوماً عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها، فكان ذلك عسرة من الماء وعسرة من الظَّهر، وعسرة من النفقة"^(١٠).

(١) العمري: المجتمع المدني، ص ١١٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٢٧.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٧٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٤٩.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٧١.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٨١.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٥٢-١٥١.

(٨) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٧١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٧، ص ١٤٦.

(٩) سورة التوبة، الآية: ١١٧.

(١٠) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٥٣.

وفي سنة (١١٠هـ/٦٣٢م) دعا رسول الله ﷺ على أهل مضر فقحطوا، وكان نتيجة ذلك أن قامت قريش بطلب العطف من الرسول؛ فدعا لهم فزال القحط عنهم^(١).

من خلال ما تقدم ذكره يستنتج أنَّ جغرافية المناخ أثرت بشكل كبير على الموارد الاقتصادية، وكان القحط والجفاف السبب الأول لقلة الموارد في الدولة الإسلامية، وهذا كان له آثار كبيرة على الأحداث التي جرت في تلك الفترة.

ثالثاً- أثر الرياح والشمس.

قال الهرثمي في اختيار موضع المصاف للقاء الزحف: "تَوَخَّ أن تكون الرِّيح والشمس من وراء ظهرك، فإن لم يمكنك ذلك فاحرص على أخذ الرِّيح^(٢) بكل حيلة، فإن امتنع ذلك فتتكب استقبالها واطلب أن يكون مجراها من طرف ميمنتك إلى ميسرة عدوك^(٣)، فإن لم يمكنك ذلك بالإجماع على أخذها من العدو- فكن- بمنزلة الظمان يكابر على الماء بأشد اجتهاد، فإن لم يمكنك ذلك فاحرص على انحرافها ليأخذ العدو منها بنصيبه، فإن لم يكن استقبالها وأنت في المصاف فاحرص على ترك اللقاء في تلك الساعة وذلك اليوم، فإن لم يمكن ذلك وألح العدو عليك والريح مشتدة، فليترجل فرسانك ويقاتلوا رجالة مع رجالتك مترافقين كأنهم رجل واحد، وليتمسكوا بمواضعهم، ويردوا العدو عن التورد إليهم"^(٤).

هنا يظهر السؤال التالي، هل كان المسلمون العرب استراتيجيون في حروبهم؟ أي هل عرفوا كيفية استغلال عامل الرياح المناخي وتسخيره لصالحهم في المعركة؟ وإن كان الأمر كذلك أين تجلت مواطن استغلالهم له؟ وكيف؟

(١) اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مراجعة: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج: ١، ص ٣٣.

(٢) أي احرص على أن تحرف بقواتك في مواقعهم، بحيث لا يواجهون هبوب الرياح فتؤذي عيونهم برمالها، وببريق سلاح العدو فيها.

(٣) وذلك لأن هبوب الرياح في وجه العدو يعد مساعداً لك عليه. الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣٣-٣٤.

(٤) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣٣-٣٤.

من الممكن القول أنَّ العرب المقاتلين حرصوا على استغلال ذلك العامل كغيره من العوامل ذات الفاعلية المؤثرة في الحروب والغزوات، وعرفوا كيفية استغلاله بما يحقق لهم النصر ويبعد عنهم الهزيمة؛ فقد حرصوا على أن يكون هبوب الرياح واتجاه الشمس في موضع مساعد لهم على الاستمرار والتقدم في معاركهم.

وعليه حاولوا أن تكون الشمس والرياح وراء ظهورهم مستقبليين الأعداء بقوتهم وقوة الطبيعة المناخية المشاركة لهم في ذلك، وقد كان الرسول الأعظم محمد ﷺ سباقاً إلى هذا الأمر وهو أول من عمل على ذلك، ودرج العرب من بعده في تطبيق هذه المبادئ في حروبهم ضد أعدائهم، واستخدامها بشكل أساسي في خوضهم المعارك حتى أضحت قواعد راسخة لا يحدون عنها، وفي سبيل إيضاح ذلك، سيتم ذكر لمعاً من الأمثلة التي تجلت فيها تلك العبقرية العسكرية العربية الإسلامية التي عرفت أهمية العوامل الجغرافية المناخية في أحداث التاريخ ومعاركه.

ففي غزوة بدر الكبرى سنة (٢/٥٦٢٤م) توجَّ الرسول المصطفى ﷺ أن تكون الرياح واتجاه الشمس من وراء ظهره؛ فقد استقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركين فاستقبلوا الشمس والرياح^(١)، حيث كانت الرياح السائدة هي رياح الصبا^(٢).

وفي هذا ذكر الواقدي قائلاً: "ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف فاستقبل المغرب، وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس، فنزل الرسول ﷺ بالعدوة الشامية، ونزل المشركون بالعدوة اليمانية"^(٣).

وقد أشار عليه رجل من أصحابه أن يصعد أعلى الوادي وذلك بسبب الرياح الهائجة في أعلاه من أجل استغلالها لنصرهم، معللاً ذلك بقوله: "إني أراها قد بعثت لنصرك"^(٤).

وقد يسأل أحد الباحثين هذا السؤال، ما هو الدور الذي تسهم به الرياح والشمس إذا تم استغلالها في المعارك بشكل صحيح؟

تكمن الإجابة في أن عامل الرياح سيكون مساعداً بشكل حتمي في إيصال النبال التي يقوم الطرف المستغل للرياح برميها، كما أنها تساعد في نقل الأتربة والغبار، وتساعد في لفح أوجه العدو بها.

(١) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٣.

(٢) ريح الصبا: وهي القبول ما هب من مطلع الشمس، وهي رياح يابسة جافة. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٧. وهيبة: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، ص ٤٦.

(٣) الواقدي: المغازي، ج: ١، ص ٥٦.

(٤) الواقدي: المغازي، ج: ١، ص ٥٦.

وهذا ما حصل في أكثر غزوات الرسول ﷺ حيث ذُكِرَ أن الرسول ﷺ كان يقبض قبضةً من تراب ويرمي بها في وجه العدو فتصيبهم ولا تبقى أحد إلا وأصابته ذرة من ذرات التراب المرمي.

فقد جاء في حديث الطبري متحدثاً عن غزوة بدر سنة (١٥٢هـ/٦٢٤م): "ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنةً من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: شأهت الوجوه، ثم نفحهم بها، وقال لأصحابه: شدوا، فكانت الهزيمة..."^(١).

كما تكرر الأمر في غزوة حنين سنة (١٥٨هـ/٦٢٩م)؛ فقد ذكر ابن سعد دور الرياح في المعركة بقوله في سنده عن أبي عبد الرحمن الفهري: "ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه فأخذ كفاً من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال: شأهت الوجوه، فهزمهم الله". وقال: "لم يبق منهم أحد إلا امتلأت عيناه وفوه تراباً"^(٢).

أما دور الشمس فيبدو واضحاً في المعارك من خلال جعل بريق السلاح لامعاً في أعين الأعداء، كما تصبح رؤية النبال التي تسقط على جيش الطرف المواجه للشمس صعبة إن لم تكن محالة، وتزيد من حالات إرباك العدو بأثرها الكبير.

وظهرت آثار الرياح والشمس في غزوة أحد سنة (١٥٣هـ/٦٢٥م)^(٣)، حيث اختار الرسول ﷺ أن يعسكر على سفح جبل أحد واستفاد من جبل عينين أيضاً، وقد كانت الرياح في صالح المسلمين في بادئ الأمر طالما أنهم كانوا ملتزمين بخطة الرسول الأكرم محمد ﷺ.

ويلحظ أن الرسول ﷺ قطع وادي قناة حتى إذا وصل إلى فم الشعب من جبل أحد عسكر بجيشه مستقبلاً المدينة وجاعلاً الشمس وجبل أحد خلف ظهره^(٤)، أما المشركين فقد استقبلوا الشمس فكانت في وجوههم واستدبروا المدينة في الوادي^(٥)، وكانت الرياح السائدة في ذلك الوقت الصبا التي تهب من مطلع الشمس^(٦) أي تهب في وجوه المشركين.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٤٤٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ١٤٤.

(٣) الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج: ١، ص ١٢٠.

(٤) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة أحد-، ص ٨٠.

(٥) الواقدي: المغازي، ج: ١، ص ٢٢٠.

(٦) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٧. وهيبه، محمد عبد الفتاح: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٤٦.

وهذا كان له الأثر الكبير في إيصال سهام المسلمين إلى أهدافها بدقة عملاً بوصية الرسول الأكرم ﷺ "انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا"^(١). ولا يمكن إغفال دورها في عدم إمكانية الرؤية للمشاركين بسبب نقلها للتربة ولفحها وجوهم.

وما يؤكد أهمية الشمس والرياح قول الهرثمي كما ذُكر سالفاً: "تَوَخَّ أن تكون الرياح والشمس من وراء ظهرك، فإن لم يمكنك ذلك فاحرص على أخذ الرياح بكل حيلة"^(٢).

ولما عصى الرماة الرسول ﷺ وأخلوا بوصيتهم له، وتركوا أماكنهم من على جبل عينين، كرَّ المشركون على المسلمين من الخلف، وانتقضت صفوفهم، أصبحت رياح الصبا دبوراً^(٣)، وهذا برواية ابن سعد في طبقاته قائلاً: "وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم، وحالت الرياح فصارت دبوراً، وكانت قبل ذلك صبا"^(٤).

وغالباً ما تكون للرياح المسخرة وظائف، إما أن تختص بالعذاب وإما أن تختص بالرحمة، ويجد الباحث أن الرياح في غزوة الخندق - الأحزاب - سنة (٥٥/٦٢٧م) كان لها دور حاسم في نصر المسلمين، بعد أن كانت تختص بالعذاب للمشاركين، وهي التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٥).

وقد أشار الطبري في تفسيره إلى أن الجنود هم الأحزاب من قريش وغطفان ويهود بني النضير^(٦)، وأن الله تعالى أرسل عليهم الرياح - رياح الصبا - في ليال باردة وشتائية، كفأت قدورهم على أفواهها ونزعت فساطيطهم^(٧)، وقوله تعالى:

(١) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة أحد -، ص ٨٤.

(٢) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣٣.

(٣) الدبور: هي الرياح التي تهب من المغرب، من دبر من استقبال المشرق فلذلك سميت الدبور. المسعودي: التنبيه

والإشراف، ص ١٧. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٤.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج: ٢، ص ٣٩.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٩.

(٦) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٤.

(٧) الواقدي: المغازي، ج: ٢، ص ٤٧٦.

﴿وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ دلت على الملائكة^(١)، فكانت هذه الرياح الربانية مسوغاً لخسارة المشركين، وانهزامهم أمام الخندق.

وفي الوصف الذي ذكره الطبري في روايته عن غزوة الأحزاب حيث وصف حال المشركين وكيف أن الرياح التي سخرها الله أثرت عليهم بشكل كبير، ما يعطي صورة واضحة عن أثر الرياح حيث قال: "وبعث الله عز وجل عليهم الرياح في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم،.." ^(٢).

وقد برهن على ذلك حديث حذيفة بن اليمان^(٣)، عندما طلب منه الرسول الأكرم ﷺ أن يذهب إلى معسكر المشركين خفيةً، وأن يأتيه بخبر الأقوام وماذا يصنعون فقال: "فذهبت فدخلت في القوم والرياح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً"^(٤).

وأمام هذا الحال والوضع المناخي القاسي والبارد، أمضى أبو سفيان وقتاً طويلاً أمام الخندق دون أن يتمكن من اجتيازه، والرياح الهوجاء لا تقر لهم قراراً وتفعل بهم ما تشاء، وقد قلعت خيامهم وطرحت أبنيتهم^(٥)؛ فخطب أبو سفيان في قومه بعد أن يؤس من تحقيق هدفه قائلاً:

(١) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م): التفسير من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: بشار معروف وعصام الحرساني، مؤسسة الرسالة، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، مج: ٦، ص ١٦٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٧٩.

(٣) حذيفة بن اليمان: هو حذيفة بن حسيل له حسيل بن جابر بن عمرو بن ربيعة، واليمان لقب حسل بن جابر، صحابي جليل، وصاحب سر الرسول ﷺ في المنافقين لم يعلمهم أحد إلا حذيفة أعلمهم بهم رسول الله، وكان عمر ﷺ إذا مات ميت يسأل عن حذيفة فإذا حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر ﷺ، شهد حذيفة معركة نهاوند فلما قتل النعمان بن مقرن أمير الجيش، أخذ الراية وكان فتح همدان والري والدينور على يده، شهد مع النبي غزوة أحد والخندق، وقد أرسله رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلى معسكر المشركين يأتيه بالأخبار، توفي قبل الخليفة عثمان بن عفان سنة (٣٦هـ). ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ١، ص ٧٠٦-٧٠٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٨٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٧٤. الكلاعي، ابن الربيع سليمان بن موسى (٦٣٤هـ/١٢٣٧م): الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول ﷺ والثلاثة الخلفاء، تح: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج: ٣، ص ٢١٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٦٨.

*الخُف: تعني الإبل. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٧٤.

"يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخُفَّ*... ولقينا من هذه الرياح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء؛ فارتحلوا فإنني مرتحل.."(١).

وهذا يقطع الشك باليقين في أن الرياح أثرت تأثيراً مباشراً في عدم صمود جيش الأحزاب أمام المدينة المنورة، وفي ردهم على أعقابهم خائبين، ورغم طول أمد الحصار الذي دام أربعة وعشرين ليلة^(٢)، كانت الرياح بأثرها القوي قد زعزعت قوات المشركين، وأرغمتهم على الرحيل.

فكان الانسحاب بسبب الرياح عامل نصر للمسلمين وأكد ذلك قول الرسول الأكرم محمد ﷺ: "تُصِرْتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور"^(٣).

وفي سنة (٦٢٩/هـ) غزا الرسول ﷺ بني المصطلق^(٤) عندما علم بتجمعهم، فلما بلغه ذلك خرج إليهم فلقاهم على ماء المريسيع^(٥)، إلا أن أحد المسلمين وهو هشام بن صبابه قتل على يد رجل من رجال الأنصار المسلمين من رهط عبادة بن الصامت بالخطأ^(٦).

فلو طُرِحَ السؤال التالي، ما هو المسوغ الكامن في عدم رؤية الأنصاري لهشام بن صبابه؟ ولماذا ظن أنه من العدو رغم قرب المسافة بينهما؟ وهل كان للرياح أثر في ذلك؟

يمكن القول أنه لربما الرياح الشديدة جعلت من الرؤية صعبة وضبابية، فلم يتمكن الرجل من التعرف على هشام فقتله بعد أن ظن أنه من العدو.

أما في صلح الحديبية (٦٢٩/هـ) كان للرياح أثر في نقل شعر المسلمين إلى الحرم لتأدية مناسك العمرة؛ فقد ذكر ابن سعد عن أبي يعقوب:

"لما صدر رسول الله ﷺ، وأصحابه وحلقوا بالحديبية، ونحروا بعث الله ريحاً عاصفاً فاحتملت أشعارهم فألقتها في الحرم"^(٧).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٥٨٠. القرطبي: الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٨٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٧٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٦٩.

(٣) أبي الحسين، مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١/هـ-٨٧٥م): صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، (د.ت)، باب في ريح الصبا والدبور، ص ٦١٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٦٠٤.

(٥) القرطبي: الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٢٠٠. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٤٩.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٢، ص ٦٠٤.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٢، ص ٩٩.

ومن خلال ما تقدم من أمثلة يمكن استشفاف أثر الرياح ودورها بشكل عام، لكن ماذا بالنسبة للشتاء والبرد؟ وهل كان لهما أثر؟

رابعاً- أثر الشتاء والبرد.

يجد الباحث أنه من الضروري قبل الحديث عن أثر الشتاء المحدود في التاريخ في عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ، الالتفات إلى موقع شبه الجزيرة العربية الفلكي - على درجات العرض وخطوط الطول - الذي جرت عليها أحداث ذلك العصر، والذي لا ينفك في تأثيره على مناخ شبه الجزيرة العربية، ولتوضيح ذلك يمكن القول:

إن الباحث في موقع شبه جزيرة العرب الفلكي يلاحظ أن ثمة اتفاق بين آراء الفلكيين والجغرافيين في تحديدهم للموقع الفلكي الذي تحتله شبه الجزيرة العربية بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض حيث ذكر أغلب الجغرافيون أنها تقع بين درجتي عرض (١٢°، ٣٢°) درجة شمالاً، وبين (٣٠°، ١٢°) جنوباً.

وبهذا الموقع فهي تمتد على عشرين درجة من درجات العرض، كما أنها تمتد بين خطي الطول (٤٠°، ٣٤°) و(٤٠°، ٥٨°) شرقاً. وهي بهذا الموقع الفلكي تمتد من الشرق إلى الغرب^(١).

وهذا الموقع الفلكي جعل من شبه الجزيرة العربية قريبة من خط الاستواء، وبالتالي كان له الأثر الأكبر في جعل مناخها صحراوي جاف من أشد الأقاليم حرارة وجفاف، حيث تقع ضمن العروض المدارية الحارة أو إقليم الصحاري الحارة^(٢) الذي ينحصر بين خطي عرض (١٨°، ٣٠°) شمالاً وجنوباً بصفة عامة.

والملاحظ مما سلف أن إقليم شبه الجزيرة العربية يقع ضمن الإطار العام لهذا الإقليم المناخي، وبالتالي فإن هذا الإقليم يشتمل على الصحراء العربية في شبه الجزيرة العربية وصحراء الشام^(٣).

(١) أبو العلا، محمود طه: جغرافية شبه الجزيرة العربية، القاهرة، مصر، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، ج: ١، ص ٥-٧. بيومي،

محمد مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص ٩٣.

(٢) بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ١٢٠.

(٣) عبد الحكيم: دراسات في الجغرافيا العامة، ص ٧٨.

ويضاف إلى ذلك بعدها عن المسطحات المائية التي تعمل على تلطيف درجة حرارة الجو، وهذا ما جعل عرب الجزيرة العربية منذ أقدم العصور يعيشون في بيئة تحدي وظروف مناخية قاسية، أثرت على السكان وطبيعتهم فبدت عليهم الخشونة والتعود على شظف العيش وقلة تنوع الموارد بالمقارنة مع غيرها من الأقاليم^(١).

وبهذه الصورة يمكن القول أن المناخ الصحراوي هو المسيطر في إقليم شبه الجزيرة العربية والحجاز، ومن أبرز مظاهر تلك السيطرة ارتفاع درجات الحرارة معظم أيام فصل الصيف، وهذا كان له أثر كبير في توقيت الحملات والغزوات التي قام بها الرسول ﷺ، حيث قلت الغزوات في فصل الصيف بدرجة كبيرة، لأن المنطقة يزداد تعرضها لأشعة الشمس، مما يزيد في شدة التبخر، وبالتالي تكون درجات الحرارة مفرطة، وذلك بمعدل سنوي للحرارة يتراوح ما بين (٣٧،٦) درجة مئوية^(٢). وقد انخفضت الغزوات في معظم أيام فصل الشتاء، وهذا ما تحدث عنه الباحث عبد الحفيظ السقا^(٣).

وبما أن أثر الشتاء هو المقصود، فيلاحظ أن عدد الغزوات في فصل الشتاء كان قليلاً بالمقارنة مع عدد الغزوات التي جرت في فصل الربيع، وفصل الخريف، وذلك بالاعتماد على بحث قام به مصطفى دبس، حيث حوّل الغزوات المذكورة بالأشهر الهجرية إلى أشهر ميلادية بناءً على الجدول التالي^(٤):

التسلسل	الشهر	عدد الغزوات
١.	آذار/ مارس - ربيع الأول	٦ غزوات
٢.	أيلول/ سبتمبر - رمضان	٥ غزوات
٣.	تشرين الأول/ أكتوبر - شوال	٤ غزوات
٤.	كانون الثاني/ يناير - محرم	٤ غزوات

(١) بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٣.

(٢) طلبية، شحاتة سيد أحمد: مناخ المدينة المنورة وآثاره الاقتصادية، النادي الأدبي بالمدينة المنورة - دراسة علمية محكمة، ط: ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٨٠.

(٣) السقا، عبد الحفيظ: الجغرافية الطبيعية للملكة العربية السعودية، دار كنوز المعرفة، جدة، السعودية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص ٩٨-١٢١.

(٤) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٦٨.

٥.	نيسان/ أبريل - ربيع الثاني	٣ غزوات
٦.	آب/ أغسطس - شعبان	٣ غزوات
٧.	أيار/ مايو - جمادى الأولى	٢ غزوة
٨.	كانون الأول/ ديسمبر - ذو الحجة	١ غزوة
٩.	شباط/ فبراير - صفر	١ غزوة
١٠.	تشرين الثاني/ نوفمبر - ذو القعدة	١ غزوة
١١.	حزيران/ يونيو - جمادى الآخرة	٠ غزوة
١٢.	تموز/ يوليو - رجب	٠ غزوة

ومن خلال ما تقدم يبدو واضحاً أن عدد الغزوات الأكبر كانت في فصل الربيع في شهور (آذار ونيسان وأيار/ ربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأولى) وسُجِّلَت فيه (١١ غزوة)، فإذا كانت هذه الشهور توافق فصل الربيع، ينتهي الباحث إلى نتيجة أن المسلمين اختاروا أن تكون أغلب غزواتهم في هذا الفصل لأن درجات الحرارة تكون معتدلة، وتمنح القوة والنشاط للجنود، بمعنى أن فصل الربيع بمناخه المعتدل يعدُّ مثالياً ومشجعاً لحدوث الغزوات، حيث لا تحد درجات الحرارة المرتفعة من حركة الجيوش، وتنقلهم.

ثم يأتي فصل الخريف في شهور (أيلول وتشرين الأول و تشرين الثاني/ رمضان وشوال وذو القعدة) وسُجِّلَت فيه (١٠ غزوات)، وذلك لأن الخريف في شبه الجزيرة العربية معتدل الحرارة، ويمكن أن تتم فيه الغزوات بشكل يسير، فكان عدد الغزوات تقريباً يماثل عدد غزوات الربيع.

أما فصل الشتاء في شهور (كانون الأول و كانون الثاني وشباط/ ذو الحجة ومحرم وصفر)، فقد سُجِّلَت فيه (٦ غزوات) وهذا أمر طبيعي، لأن المناخ الصحراوي الذي تتميز به شبه الجزيرة العربية

جعلها منخفضة الحرارة في الشتاء، فكان البرد السبب الأساسي والمؤثر على قلة عدد الغزوات في عصر الرسول الأكرم ﷺ، وهذا كان له أثر كبير ترافق مع سقوط الأمطار أثناء المعارك والغزوات^(١).

فالشتاء يترك أثره على الجيش، ويحد من الحركة، ويقلل النشاط، ويجمد الأطراف، وخاصة في المناطق الصحراوية الجافة، حيث يكون الأثر مضاعفاً، ولهذا كانت الغزوات قليلة في هذا الفصل نسبياً.

وكان في فصل الصيف في شهور (أيار وحزيران وتموز وآب/جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان) أقل عدد سُجِّل من الغزوات في عصر الرسول لأكرم (٣ غزوات)، وبرهان ذلك أن الحرارة المرتفعة، والجفاف الذي يسود المدينة الحجاز على حد سواء، وهذا ما يؤثر سلباً على قوة الإنسان وحركته، ونشاطه، وبالتالي ليس في صالح الجيش الذي يسير في الصحراء، وعلى الرمال الملتهبة أن يقوم بالغزوات في هذا الفصل^(٢).

وبناءً على ما سلف لا يمكن إلا التأكيد على دور العوامل الجغرافية في صلب الحدث التاريخي بالصبغة الخاصة، وتغير نتيجته، إما سلباً أو إيجاباً لصالح أحد الطرفين المتنافسين.

ومن خلال ما تقدم يمكن القول أن العوامل الجغرافية تكون في كثير من الأحيان عوامل قاهرة تفرض نفسها بقوة على الحدث وتؤثر في ديناميكيته، وبالتالي تؤثر في النتائج المترتبة عليه.

وختاماً، لابد من ذكر قول المفكر الفرنسي (هنري بر): "إن الدور المفترض أن تلعبه الطبيعة لم يعد بحاجة إلى تأكيد، فهو لا ينقصه سوى التحديد... فالمناخ والتربة والغذاء، تمارس كلها تأثيراً فيزيائياً ونفسياً مباشراً، ولعل طبيعة الأرض وأسلوب العيش الذي تفرضه البيئة ينعكس على الطبائع ونتائج الأحداث.."^(٣).

(١) السقا: الجغرافية الطبيعية للملكة العربية السعودية، ص ٩٨-١٢١.

(٢) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول، ص ٦٩.

(٣) بولس، جواد: أهمية التاريخ والجغرافيا في نشوء الأمم والشعوب (مقال مأخوذ من كتاب جواد بولس)، موقع

شهادتنا، تاريخ إضافة المقال ١٠/٥/٢٠١٤م. Chahadatouna.wordpress.com

الباب الثاني

دور العامل الجغرافي في الطبيعي في أهم

المعارك الإسلامية خلال عصر الخلفاء

الراشدين

(١١ - ٤١ هـ / ٦٣٢ - ٦٦٢ م)

الفصل الأول: أثر التضاريس.

الفصل الثاني: أثر المياه.

الفصل الثالث: أثر المناخ.

الباب الثاني:

دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال عصر الخلفاء الراشدين

(١١ - ١٤١هـ / ٦٣٢ - ٦٦٢م)

★ الفصل الأول:

أثر التضاريس

إذا كان عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ عسكراً بامتياز لكثرة الغزوات والسرايا التي صبغت ذلك العصر بالصبغة العسكرية الخاصة؛ فإن عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين يعد امتداداً لعصر الرسول الأكرم محمد ﷺ على الأقل من الناحية العسكرية، حيث انتقلت فيه الأمة الإسلامية من مرحلة التحالف القبلي إلى مرحلة الدولة الإسلامية التي كان الفضل الأكبر في تأسيسها للرسول الأكرم محمد ﷺ، وحدد نهج الخلفاء الراشدين ما قام به الرسول من أعمال^(١)؛ لأن معظم الأحداث التي جرت في هذا العصر كانت كلها فتوحات، والتي يمكن عدّها متممةً لمرحلة عصر الرسالة وتاليةً لها في نشر الدين الإسلامي وإيصاله إلى أصقاع عديدة، جرت على جبهتين إن صح التعبير جبهة العراق وفارس، وجبهة بلاد الشام^(٢).

وقبل البدء بأثر العوامل الجغرافية الطبيعية والمناخية المتنوعة، قد يتساءل أحدهم ماهي العوامل الجغرافية التي كانت السبب الأساسي في جعل المسلمين يتوجهون في فتوحاتهم الإسلامية نحو الشمال وبشكل خاص نحو العراق وبلاد الشام؟ وكيف ساعدت تلك العوامل الجغرافية في نجاح

(١) طقوش، محمد سهيل: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م، ص ٥.

(٢) وتر، محمد ضاهر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ٢٦٠-٢٧٧.

عمليات الفتوح؟ وماهي الأسباب التي جعلت الرسول المصطفى ﷺ يضع بلاد الشام- دون غيرها- نصب عينيه منذ أن قام بصلح الحديبية عام (٦٢٧هـ/٦٢٢م)؟

للإجابة بوضوح عن هذه الأسئلة يمكن القول أنَّ الطبيعة الجغرافية لأرض العراق وبلاد الشام والتي كانت امتداداً لأرض الجزيرة العربية بتضاريسها وتقارب مناخها، هي السبب الأساسي في توجه الفتوحات نحو الشمال، وبما أنَّ عرب الجزيرة العربية منذ أقدم العصور عاشوا في بيئة تحدي وظروف مناخية قاسية فرضتها عليهم الصحراء، كان لهذا أثر على السكان وطبيعتهم حيث ظهرت عليهم الخشونة والتعود على شطف العيش^(١) والجوع والعطش، واجتزاؤهم بالقليل مما يمسك الرمح^(٢)؛ فلم يكن غريباً عليهم التوغل في هذه البلاد؛ فالعربي قد اعتاد على أرض الجزيرة العربية ورمالها وجفافها وقلة المياه فيها، وارتفاع درجة الحرارة صيفاً واختلافها في الليل والنهار، وانبساط المسرح للعمليات العسكرية وانكشافه، كما لم يكن العراق أو بلاد الشام بطبيعته يختلف اختلافاً جوهرياً عن هذه الطبيعة؛ فقد انتقل المقاتل إلى مكان وجد فيه مسرحاً يختلف قليل الاختلاف عن الأول من حيث الطبيعة الجغرافية كالمستنقعات، وزيادة البرودة، والأنهار، والتضاريس، وكان واجباً عليه أن يختار المنطقة التي تؤمن له شروط القتال والمناورة، وعليه فقد كان اختيار مواضع القتال والأرض والمسرح بما يلائم المسرح الذي اعتادوا فيه القتال في شبه الجزيرة العربية^(٣)، وهذا ما ساعد العرب في فتوحاتهم للعراق وبلاد الشام. انظر الخريطة (٩).

لقد قدم محمد أحمد حسونة برهاناً على النقاط التي تم طرحها لا يمكن إلا الاعتراف به وترجيحه، حيث ذكر أن العرب لم يخرجوا عن نطاق بيئتهم الطبيعية حين شرعوا في فتح العراق؛ فقد وجدوا أنفسهم في بيئة صحراوية الأرض، قاسية المناخ، لا تختلف عن طبيعة أرضهم وموطنهم بل كانت بلاد متممة لبلادهم، فعَدُّوا أن الصحراء ملاذهم يعتصمون بها، ويستندون إليها في معاركهم ويتخذونها حاجزاً بينهم وبين أعدائهم^(٤).

أما فيما يخص نظرة الرسول الأكرم ﷺ لبلاد الشام ومحاولة فتحها ونشر الدين الإسلامي فيها؛ فيمكن تأويل ذلك بعدة أسباب مجتمعة دينية، وسياسية، واقتصادية، وجغرافية وهي الأهم.

(١) بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٣.

(٢) النجار، عبد الوهاب: الخلفاء الراشدون، تح: الشيخ خليل الميس، دار القلم، ط: ٤، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٧٥.

(٣) وتر: الريادة في حروب وفتوح أبي بكر الصديق، ص ٦١.

(٤) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٢.

تمثلت الدينية في بروز قوة المسلمين وخاصة بعد المعارك والغزوات التي قاموا بها، وبالتالي كان هناك رغبة لدى الرسول في إظهار قوة المسلمين ضد الأعداء الذين مارسوا الضغط عليهم، فبثّ الرسول ﷺ الحماسة الدينية بين المسلمين لنشر الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية، لأن الإسلام دين البشر كافة وليس قاصراً على شبه الجزيرة العربية^(١) وفي ذلك قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وكانت بلاد الشام بمكانتها الدينية ومقدساتها حاضرة في ذهن الرسول الأكرم محمد ﷺ لهذا كان التوجه إليها قبل غيرها من أجل وضعها تحت السيادة العربية.

أما السياسية؛ فقد تمثلت في رغبة الرسول الأكرم محمد ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده في طرد الروم البيزنطيين من الأرض العربية التي احتلوها وعاثوا فيها فساداً وخراباً، وكانت البداية من الأراضي المجاورة لشبه الجزيرة العربية والمتاخمة لها التي كانت خاضعة لحكم الروم البيزنطيين والفرس، خاصة وأن الروم البيزنطيين حاولوا إخضاعها لحكمهم منذ ما قبل الإسلام. راجع الخريطة (٩).

ويمكن استشفاف الأسباب الاقتصادية من خلال الوضع الاقتصادي الذي شهدته المدينة المنورة خلال السنوات الأولى للدعوة الإسلامية؛ فقد كانت الدولة بحاجة إلى اقتصاد قوي يوفر للدولة الناشئة مقومات القوة والصمود، وقد أصاب اقتصاد المدينة حالة من الضعف نتيجة الحروب والغزوات^(٣)، في حين أن بلاد الشام كانت بأسواقها التي اعتاد العرب ارتيادها منذ القدم توفر قاعدة مادية كبيرة من الممكن أن تخدم الجيش الإسلامي في فتوحاته المستقبلية^(٤)، وهذا ما ذكره أرنولد توماس الذي قال:

"يعدّ توسع الجنس العربي على أصح تقدير هجرة جماعية نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجذبة وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد حظاً منهم"^(٥).

(١) الشامي، أحمد: الخلفاء الراشدون، دار النهضة العربية، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٧٢.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٣) الشامي: الخلفاء الراشدون، ص ٨٢.

(٤) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ١٤٤.

(٥) توماس، أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، تر: حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص ٦٤.

إلا أن هذا القول لا يخلو من المغالاة والمبالغة لأن الجزيرة العربية لم تكن على هذا الوضع السيء الذي يدفع بالفاتحين للخروج في هجرات على حد تعبير المستشرقين، كما أنه رأيٌ غربيٌ هدفه إخراج حركة الفتوح الإسلامية عن هدفها الحقيقي وهو نشر الدعوة الإسلامية^(١).

وقد ظهرت الأسباب الجغرافية في أن بلاد الشام كانت أرضاً معروفة للعرب حيث وصلوها تجاراً وتعدُّ الأقرب جغرافياً إلى شبه جزيرة العرب^(٢)، وما بادية الشام إلا امتداد لصحراء النفوذ ولا يوجد بينهم أي فاصل طبيعي، حيث رأى الرسول ﷺ أن الجيوش يجب أن لا تطأ أرضاً غير عربية مجهولة المسالك والبلدان؛ وعليه كان اختيار بلاد الشام دون غيرها.

وما يعني البحث في هذا الفصل هو إلقاء الضوء على الآثار التي خلفتها العوامل الجغرافية على سير الأحداث التاريخية ونتائجها سواء سلباً أو إيجاباً، والتي تعدُّ سلسلة متصلة الحلقات في سيرورة التاريخ منذ زمن الرسول وحتى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي.

أولاً- أثر الجبال.

ورد أن العرب المسلمين في غزواتهم كانوا يحاولون استغلال عوامل الطبيعة بكل أشكالها بما فيها عامل الجبال، والسؤال هنا هل أغفل العرب المسلمون في العصر الراشدي دور الجبال في معاركهم ضد أعدائهم؟ وإذا كانوا لم يغفلوا آثارها فهل تمكنوا من استغلال ذلك العامل بما يحقق لهم النصر؟ وكيف تجلّى أثر الجبال في المعارك؟

يمكن القول أن العرب المسلمين لم يغفلوا أثر الجبال في معاركهم ضد أعدائهم، كما أن أعداء المسلمين أدركوا أهمية الجبال؛ فقد حاول الطرفان في بعض الأحيان انتقاء أرض المعركة في بعض الأجزاء المرتفعة لكي يتمكن القائد من الإشراف على أرض المعركة، ويكون الجبل خلف ظهورهم يحميهم ويستتر تحركهم^(٣)، أو لكي يتخذوه موئلاً للفرار إذا ما تمت الهزيمة، وقد تمثل ذلك في عدة مواطن وأهمها:

(١) سالم، عبد العزيز: التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٢٠٠.

(٢) شكري، فيصل: حركة الفتوح العربي الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملايين، ط: ٦، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٧.

(٣) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٦٨. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٦٦.

اختيار الخليفة القائد أبو بكر الصديق رضي الله عنه موقع "ذي القصة"^(١)، مكاناً لعقد الألوية وانطلاق جيوشه لمحاربة المرتدين؛ فقد أورد المغلوث في أطلسه أن جغرافية ذي القصة تلفها الجبال من جميع جهاتها باستثناء الجهة المفتوحة على المدينة المنورة، والملفت للنظر أنه يوجد جبل صغير يتوسط تلك المنطقة المحاطة بالجبال، ومن هذا المكان وجّه أبو بكر رضي الله عنه ألويته من أجل قتال المرتدين، وعليه يستدل أن الخليفة بحسب العسكري رأى أن هذا المكان يمكن أن يكون محمي بالجبال، وعزز من هذا الأمر وجود الجبل الصغير الذي يمكن أن يعتليه الخليفة ويعطي توجيهاته ونصائحه للقواد وينظم الألوية ويتقدها على مرأى ومسمع من الجميع^(٢). انظر الخريطة (١٠).

وقد برز أثر الجبل فيما حصل في سنة (١١١هـ/٦٣٢م) في معركة بزاجة^(٣) عندما قام طليحة بن خويلد الأسدي^(٤) بادعاء النبوة في منطقة ذي القصة والتي تعرف اليوم بجبل شمر^(٥)، فقد ذُكر أنه اختار منطقة جبلية من أجل التحصن فيها ليستعد لملاقاة المسلمين الذين عهد إليهم الخليفة أبو بكر رضي الله عنه بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يقوموا بهذه المهمة، وقد وضع النساء في مكان آمن على مرتفع لئلا يقعن في السبي إذا دارت الدائرة عليه^(٦)، وبدأت صعوبة ذلك بالنسبة للمسلمين الذين كان عليهم التوجه إليهم والسير مئات الأميال في الأودية والجبال، وقد شُغِلَت نجد كلها بهذه المعركة^(٧).

(١) ذو القصة: تقع على بعد أربعة وعشرين ميلاً شرقي المدينة المنورة، مكانها معروف فقط بالنسبة لمسافتها عن المدينة، وكان ذلك على الطريق من المدينة إلى العراق. الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ١٥٧. المغلوث: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، ص ٥٤-٥٩. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٠.

(٢) المغلوث: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، ص ٥٤.

(٣) بزاجة: ماء لطى بأرض نجد، وقيل: ماء لبني أسد كانت فيه وقعة عظيمة في أيام أبي بكر الصديق في حروب الردة مع طليحة بن خويلد الأسدي. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٤٠٨. المغلوث: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، ص ٨٢.

(٤) طليحة بن خويلد الأسدي (ت ٢١هـ/٦٤٢م): من أسد خزيمة، متنبئ، يقال له "طليحة الكذاب" ادعى النبوة بعد وفاة النبي ﷺ، غزاه أبو بكر رضي الله عنه، وقاتله خالد بن الوليد رضي الله عنه، فانهزم إلى بزاجة ففر إلى الشام، ثم أسلم واستشهد في نهاوند. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٣، ص ٩٤-٩٥. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٢٣٠. المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ٨٦. النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٥٤.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٨٥.

(٦) للمزيد عن تحركات وتموضع الجيشين راجع، المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ٩١.

(٧) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ٦٩.

وصل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى جبلي أجأ^(١) وسلمى^(٢) أشهر الجبال المعروفة في تلك المنطقة^(٣)، حيث التقى مع طليحة فهزمه بعد أن تخلت عنه قبائل طيء وعادت إلى نصرة المسلمين؛ فكانت معركة بزاجة معركةً توفرت فيها الشروط المناسبة للقتال مثل الجبلين الذين جرت بينهما^(٤) والمراعي والثبات والاتساع في الموقع- وهي من الشروط الجغرافية التي حرص المسلمون على الاستفادة منها. انظر الخريطة (١١) و(١٢).

لقد حدثت المعركة في منطقة نجد^(٥)، وبعد معركة بزاجة استخدم القائد خالد بن الوليد الجبال من أجل التخلص من المرتدين فقام برمي بعضهم من الجبال بعد أن أربهم^(٦)، وقتل بعضهم جزاءً بما كانوا قد عملوا في ردتهم.

قد يطرح أحدهم السؤال التالي لماذا سميت جبال سلمى بهذا الاسم؟ وهل كان لها دور في المعارك؟

يمكن القول إن جبال سلمى أسهمت بدور كبير في تحصن الفارين الذين خسروا في معركة بزاجة والتجأوا إليها، حيث انضموا إلى جيش سلمى^(٧) وذلك عام (١١١هـ/٦٣٢م)^(٨)؛ فقد كانت تعف

(١) أجأ: هو اسم علم مرتجل لرجل سمي به الجبل، ويجوز أن يكون منقولاً، ومعناه: الفرار، وقال ابن الأعرابي: يقال أجأ الرجل إذا فرّ، وقال الزمخشري: أجأ وسلمى جبلان على يسار سميراء، وقد رأيتهما شاهقان، وهو أحد جبال طيء، وهو غربي فيد. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٩٤-٩٥. المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ٩٣.

(٢) جبال سلمى: يقع جبل سلمى في الجنوب الشرق ويقابله في الشمال الغربي جبل أجأ وبينهما مياه وشجر وبالقرب منهما بزاجة. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٩، ص ٤٥٢.

(٤) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧١.

(٥) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٦٦.

(٦) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ١٥٩. المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ٩٢.

(٧) سلمى: ابنة مالك بن حذيفة تكنى بأم زمل، أبوها مالك بن حذيفة، وأمها أم قرفة التي حاربت في زمن النبي ضد المسلمين، تم أسرها في المعركة وقتلت، وبعد موت والديها أصبحت واحدة من زعماء المرتدين الذين ناصبوا العداء للمسلمين، وقادت جيشاً التقى مع المسلمين في معركة ظفر سنة ١١١هـ/٦٣٢م. الترماني، عبد السلام: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، دار طلاس للنشر، ط: ٢، دمشق، سورية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مج: ١، ص ٢٢٤. الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ١٨٠.

(٨) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٣٩.

المرتدين وتحرضهم على المسلمين، ويعتقد أن جبال سلمى السوداء الوعرة التي تقع على مسافة (٤٠) ميلاً^(١) جنوب شرق مدينة (حيل) سميت بذلك نسبة إلى سلمى التي قتلت في معركة ظفر^(٢).

ويجد الباحث في تاريخ حروب الردة أن القائد الكبير خالد بن الوليد ؓ أدرك أهمية العوارض الطبيعية في المعارك وبرز ذلك أثناء توجهه إلى محاربة مسيلمة الكذاب^(٣) في منطقة العقرباء^(٤) بناحية اليمامة^(٥)، بعد أن كلفه الخليفة أبو بكر الصديق ؓ بتدمير قوات مسيلمة الذي عسكر في منطقة العقرباء^(٦) سنة (١١هـ/٦٣٢م)^(٧)، وذلك لأن مسيلمة كان هو وأتباعه من بني حنيفة على علم بطبيعة المنطقة الجغرافية يعرفون مواطن ومكامن الكرّ والفرّ فيها من أجل القضاء على القوات الإسلامية^(٨).

وصل خالد بن الوليد ؓ إلى الوادي في شمال اليمامة^(٩) إلا أنه بفكره الثاقب وجد أنه من الأفضل اختيار منطقة مرتفعة تمكنه من الإشراف على الوادي الموجود وهو وادي عقرباء؛ فقام باختيار أرضاً مرتفعة واقعة على بعد ميل واحد غرب عقرباء مقابل مدينة جبيلة - كثيب يشرف ويطل على

(١) الميل: يساوي أربعة آلاف ذراع، والفرسخ يساوي ثلاثة أميال. هنتس، فالتر: المكايل والأوزان الإسلامية، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، د.ت، ص ٩٥. خطاب، محمود شيت: قادة فتح بلاد فارس، دار الفتح، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص ٣٤٣.

(٢) المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ٩٦.

(٣) مسيلمة الكذاب: هو مسيلمة بن حبيب الحنفي، أبو شامة، ولد ونشأ باليمامة في الجبيلة قرب العين، بوادي حنيفة في نجد، ادعى النبوة منذ حياة الرسول ﷺ، وقد قتل في معركة العقرباء في حديقة الموت بعد أن حاصره المسلمون فيها. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٢٣١. المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ١١١.

(٤) عقرباء: منزل من أرض اليمامة في طريق النجاج قريب من قرقرى، وهو من أعمال العرض. خرج إليها مسيلمة لما بلغه تقدم قوات خالد بن الوليد باتجاهه وجعل ريف اليمامة وراء ظهره. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ١٣٥.

(٥) اليمامة: منقول عن اسم طائر يقال له اليمام واحدته اليمامة، واختلف فيه فقال الكسائي: اليمام من الحمام التي تكون في البيوت والحمام البري، وقال الأصمعي: اليمام ضرب من الحمام برّي، ويجوز أن يكون من أمّ يؤمّ إذا قصد ثم غير، لأن الحمام يقصد مساكنه في جميع حالاته، واليمامة في الإقليم الثاني، وكان فتحها وقتل مسيلمة الكذاب في أيام أبي بكر الصديق ؓ، وتقع في الجزء الشرقي من شبه جزيرة العرب، قريبة من الخليج العربي، وكانت ذات خير كثير وشجر ملتق. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٤٤١-٤٤٥. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٦٩.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٩، ص ٤٦٦.

(٧) ورد عند المسعودي أن معركة اليمامة حصلت عام ١٢هـ/٦٣٣م. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٨٥.

الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٠٣.

(٨) المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ١١٦.

(٩) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٠٧. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٠.

اليمامة^(١) - وذلك لكي يتمكن من رؤية السهل في بطن وادي عقرباء، ولكي يوزع القوات على رقعة جغرافية واسعة كانت موجودة شمال غرب جبال مصيقرة وتسمى على الأغلب "الراحة"^(٢)، دون أن يزج بقواته في منطقة الوادي المحاط بالارتفاعات من الشمال والجنوب، ومن المهم ذكره أن المسلمين جعلوا جبل مصيقرة^(٣) خلف ظهورهم لكي يحميهم من الخلف. انظر الخريطة (١٣).

إذاً كان للعامل الجغرافي أثراً كبيراً في اختيار معسكر المسلمين في أرض مرتفعة وهي أباض^(٤) التي جرت فيها أحداث الجولة الأولى من المعركة، وفي اختيار المرتدون منطقة عقرباء للتحصن فيها، ومناهزة المسلمين في معركة راح ضحيتها ألف ومائتا رجل من المرتدين على حد تعبير المسعودي^(٥)، وبرز أثر المكان في أنهم عندما هزموا في الجولة الأولى انسحبوا، ولجأوا إلى عقرباء (الجبيلة) فلاحق فلولهم المسلمون.

وقد كان للجبال دور كبير في التحصن والاحتماء بها ضد الأعداء والأمثلة التالية توضح ذلك؛ فبعد أن ثار أهل اليمن وارتدوا بقيادة الأسود العنسي^(٦) الذي قُتل فيما بعد داخل قصره من قبل رجاله الذين كرهوه وهمّوا بقتله، وهم قيس بن عبد يغوث - قيس بن مكشوح - الذي عينه الأسود أميراً لجنده، وفيروز الديلمي وداؤويه اللذان أوكل إليهما أمر الأبناء، وبعد أن تم قتل الأسود العنسي بمشاركة آزاد التي كانت زوجة أمير صنعاء شهر بن باذان وقد تزوجها الأسود بعد أن قتل زوجها، حاول قيس بن مكشوح قتل حلفائه بسبب تولية أبي بكر الصديق ﷺ لفيروز الديلمي عليهم وبعد أن قتل داؤويه تنبه فيروز إلى المؤامرة وما كان منه إلا الهروب إلى الجبال^(٧) في منطقة (خولان)^(٨) حيث وجد مكاناً آمناً،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٩، ص ٤٦٧.

(٢) المغلوث، سامي بن عبد الله بن أحمد: أطلس الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤، ص ٥٤.

(٣) المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ١٢٠.

(٤) أباض: بضم الهمزة وتخفيف الباء، اسم قرية بالعرض، لها نخل لم يُرَ نخل أطول منها، وعندها كانت وقعة خالد بن الوليد مع مسيلمة الكذاب. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٦٠-٦١.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٢٨٥.

(٦) الأسود العنسي: هو عبهلة بن كعب، ظهر في كهف حُبان، وقدم نفسه لأهلها على أنه نبي فآمنوا به ثم آمنت قبيلة مذج الكبيرة، وتوجه بجيشه إلى نجران فضمها، وبعد أن قتل شهر بن باذان عامل صنعاء ضمها أيضاً وجعلها عاصمةً له، ولم يمض على خروجه الأسابيع حتى تملك اليمن. وقتل على يد الزعماء الذين ولاهم قيادة الجند والأبناء. المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ٢٠٢.

(٧) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٢٨.

(٨) المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ٢٠٤.

آمناً، وبقي مدة شهر في ملجأه الجبلي الحصين، وقد انضم إليه آلاف المسلمين في سبيل إعادة الحكم الإسلامي إليها وجرت معركة هرب فيها قيس إلى أبين منهزماً^(١).

وفي مقدمات معركة دبا^(٢) التي جرت بين المسلمين وجيش المرتدين في عمان عام (١٢هـ/ ٦٣٣م) حيث قام لقيط بن مالك الأزدي بإعلان ارتداده وعامل أبناء الجلندي معاملة ذل محاولاً إخضاعهم له، بعد أن كانوا أمراء عمان منذ عهد الرسول الأكرم محمد ﷺ، وهما (جيفرا وعباد) فهربا إلى رؤوس الجبال في المنطقة للتحصن والاحتباء بها^(٣)، وأخذاً بعدها بالانتقال من رؤوس الجبال إلى الساحل العماني بعد أن أرسلوا إلى الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ^(٤)، يخبروه بالأمر وما آل إليه حال عمان وبالأخص منطقة دبا، وهكذا تحصنوا بالجبال ريثما تصل قوات المسلمين إلى المنطقة من أجل نجاتهم.

وبعد الانتهاء من معركة دبا، اتجه عكرمة بن أبي جهل^(٥) إلى منطقة مَهْرَة^(٦) من أجل القضاء على المرتدين فيها بناءً على أوامر الخليفة أبي بكر ﷺ، وبعد أن استمال أحد زعماء المرتدين وهو شخريت الذي كان مرتداً يتمركز في الواجهة البحرية ضد المصباح الذي كان زعيماً منافساً لشخريت^(٧)، اتجه عكرمة بن أبي جهل وشخريت وحاصروا المصباح في الجبال؛ فقد اتخذ المصباح من الجبال موئلاً للاحتباء بها ولكي يستطيع من خلالها أن يرمي المسلمين بالسهام من مكان مرتفع

(١) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٢٩.

(٢) دبا: قال الأصمعي: "دبا: سوق من أسواق العرب في عمان، وكانت قديماً قسبة عمان المشهورة، وهذه السوق المشهورة فتحها المسلمون في أيام أبي بكر ﷺ، سنة ١١هـ وأميرهم حذيفة بن محصن، فقتل وسبى. وتقع جغرافياً في أقصى الشمال العماني، وتفصل بينها وبين بقية مناطق السلطنة دولة الإمارات العربية المتحدة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٤٣٥. المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ١٧١. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧١.

(٣) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٦٧.

(٤) المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ١٧٣.

(٥) عكرمة بن أبي جهل (ت ١٣هـ): عمرو بن هشام القرشي المخزومي، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام. أسلم عكرمة بعد فتح مكة، وحسن إسلامه فشهد الوقائع وولي الأعمال لأبي بكر ﷺ، واستشهد في اليرموك، وعمره ٦٢ سنة. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ٢٤٤.

(٦) مَهْرَة: بالفتح ثم السكون، قال العمراني: "بلاد مهرة تنسب إليها الإبل، قلت: هذا خطأ إنما مهرة قبيلة وهي مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاة، تنسب إليها الإبل المهرية، وباليمن لهم مخلاف وبينه وبين عمان حوالي شهر، وتقع في الإقليم الأول، ومن أهم مدنها الغيضة، قشن، سيحوت، دمقوت، حبروت، منعر الدبين ومرعيت.

الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٢٣٤.

(٧) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٦٨.

فيحقق بذلك النصر؛ إلا أن لجوئه للجبال لم يحقق له ما أرادته وقُتِلَ بعد معركة ضارية جرت بينه وبين المسلمين والحليف شخريت^(١).

واستمر تأثير الجبال على المعارك التي خاضها العرب في المسارح التي وقعت في المناطق الجبلية أو بالقرب منها، ولأن مسرح العراق كان مسرحاً ظهر فيه أثر الصحراء ومياه الأنهار وضافها بشكل كبير^(٢) فلم يكن للجبال دور كبير في فتوح العراق بسبب طبيعة المنطقة التي تشبه جغرافية منطقة شبه الجزيرة عدا الأنهار والمستنقعات^(٣).

وإن كانت الفقرة تعنى بأثر عامل الجبال فإن أثرها ظهر بعد أن بسط العرب نفوذهم على السهل الواقع إلى الشرق من دجلة حتى وصلوا إلى سفوح الجبال التي تفصل بين سهل العراق والهضبة الفارسية^(٤) في سنة (١٧هـ/٦٣٨م)^(٥)؛ فقد أراد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما وصلوا إلى تلك المنطقة أن يكون الجبل حداً فاصلاً طبيعياً يفصل بين العرب والفرس وتجلي ذلك بقوله:

"وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم"^(٦). كما قال لأهل الكوفة: "وددت أن بينهم وبين الجبل جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه، ولا نصل إليهم"^(٧).

لكن ما هو السبب والدافع الذي جعل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمنى أن يكون الجبل حاجزاً بينه وبين الفرس؟ وهل للجغرافية أثر في هذا القول؟

يلاحظ أن العرب عندما بلغوا سفوح الجبال التي تفصل العراق عن الهضبة الفارسية أصبحوا في منطقة ذات طبيعة جغرافية جبلية عرفت بأسمائها المتعددة ومنها جبال زاغروس وخوزستان وجبال فارس وجبال حمير^(٨)، التي شكلت فاصل طبيعياً جغرافياً رأى فيه عمر بن الخطاب بفكره الثاقب أنها من الممكن أن تكون الحاجز الذي يقف عنده العرب، كما أن العرب لم يألفوا تلك البلاد الجبلية الشاهقة والتي تكون بمناخها أقسى، كما أن الفرس الذين انسحبوا إلى تلك المناطق لن يتركوها دون حماية خاصة وأنها شكلت موطنهم ومكان تجمعهم ومنبت دولتهم؛ فحاول الفرس استغلال العوامل

(١) المغلوث: أطلس حروب الردة، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) انظر فقرة: أثر المياه من هذا البحث.

(٣) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٣-٧٤.

(٤) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٨٢. الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج: ١، ص ١٦٤.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٧٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٨٢. حسونة: أثر

العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٦.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٧٩. القاضي، النعمان عبد المتعال: شعر الفتوح الإسلامية في صدر

الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص ١٤٤.

(٨) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٥.

الجغرافية في بلادهم بما يخدم مصالحهم حيث هيأت لهم الطبيعة أماكن جغرافية لم يستطع العرب معرفتها والتكهن بها وهي أودية الأنهار التي يمكن للفرس من خلالها الهجوم على العرب والانقضاض عليهم، وهذا لم يكن خفياً على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١)، مما دفعه إلى ذلك القول الذي كان للعامل الجغرافي الأثر الأكبر فيه. انظر الخريطة (٢٢). وهذا ما عبّر عنه أحد المجاهدين مشيراً إلى أوامر الخليفة عمر رضي الله عنه بالوقوف وعدم الانسياح فيما وراء النهر بقوله:

غداة أَدفع الأوباش دفعاً
إلى السند العريض والمداني
فلولا ما نهى عنه أميري
قطعناه إلى البلد الزواني^(٢)

وعندما بلغ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن حرقوص بن زهير^(٣) نزل في جبل من جبال الأهواز "كؤود يشق على من رامه"، بعد أن انتصر على "الهرمزان" أدرك الخليفة أثره الكبير على تحرك الجيش وطلب من حرقوص قائلاً: "بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتي فيه إلا على مشقة، فاسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد.." ^(٤).

يستدل من طلب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحرقوص نزوله في منطقة سهلية أن الجبل كان ذو أثر سلبي على المسلمين ومن الممكن أن يسبب لهم المشقة والتعب والإنهاك، بينما السهل ذو طبيعة اعتاد العرب على القتال فيها؛ فأمره بالنزول في السهل والقتال فيه.

وبعد معركة جلولاء التي انتصر فيها العرب واستولوا عليها، فرضت التضاريس والجغرافية نفسها كقوة فاعلة ومؤثرة في معركة نهاوند التي حصلت سنة (٢١١هـ/٦٤٢م)^(٥)، حيث وقف الفرس مرة أخرى في قلب الجبال - زاجروس أو زاغروس - وأشد أجزاءها وعورة وخطر، وفي موقع أكثر منعة وقوة من جلولاء، وكان ذلك موقع معركة نهاوند؛ وهنا التقى العرب بالطبيعة الفارسية الخالصة،

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٦.

(٢) القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ص ١٤٤.

(٣) حرقوص بن زهير السعدي (ت ٣٧٧هـ/٦٥٧م): الملقب بذي الخويصرة، صحابي من بني تميم، أمره الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتال الهرمزان فاستولى على سوق الأهواز ونزل بها، شهد حرب صفين مع الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبعدها صار أحد أشد الخوارج على علي بن أبي طالب وقتل بالنهروان. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ١٧٣. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ١، ص ٧١٤.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٧٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٨٩.

(٥) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٤٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤١١. الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٦٦.

طبيعة جبال شاهقة تزخر بالخنادق السحيقة، وتسودها ظروف مناخية تختلف بحق عما ألفوه في بلادهم^(١)؛ فكان انتصار العرب في هذه المعركة بقيادة النعمان بن مقرن^(٢) نصراً سياسياً عسكرياً وجغرافياً، والتوغل في بلاد فارس أصبح سهلاً نسبياً يتماشى مع أثر العوامل الجغرافية التي أخضعت عمليات الفتوح لسلطانها وجبروتها^(٣). انظر الخريطة (٢٣).

وبعد ذلك استمرت الفتوحات الإسلامية على قدم وساق، فتقدموا من فارس إلى أفجانا - أفغانستان الحالية، وذلك عبر ظروف جغرافية صعبة جداً فوصلوا إلى قلب أفجانا، لاسيما وأنه كان أول عهد المسلمين بحرب الجبال، وظروف أفجانا الجغرافية لا تقل في صعوبتها وقسوتها من ظروف بلاد فارس، فهناك جبال هندوكوش والسلاسل المتفرعة منها^(٤)، كل ذلك كان له أثره في إطالة عمليات الفتوح.

كما برز أثر الجبل والنهر - سيتم ذكر أثر النهر لاحقاً - في سنة (٢٢٢هـ/٦٤٣م) في وقائع ومقدمات معركة مرو الروذ التي حصلت بين الفرس وبين المسلمين من أجل فتح خراسان^(٥). فعندما علم الأحنف بن قيس^(٦) بتجمع العدو له، خرج في عسكره ليلاً يلتمس الأخبار^(٧)، وقد مرَّ برجلين فسمع أن أحدهما يقول للآخر حسب ما أورد الطبري: "لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل، فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً؛ وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله"^(٨).

(١) يوسف، أبو الحجاج: مسالك انتشار الإسلام، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، مج: ٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٣٩.

(٢) النعمان بن مقرن (ت ٢١١هـ/٦٤٢م): أبو عمرو، صحابي فاتح، من الأمراء القادة الشجعان، سكن البصرة ثم تحول عنها إلى الكوفة، ووجهه سعد بن أبي وقاص لمحاربة الهرمزان، ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتال أهل أصبهان وهمذان والري وأذربيجان ونهاوند، فتجهز في الكوفة وفتح أصبهان، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها عام ٢١١هـ/٦٤٢م. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٨، ص ٤٢.

(٣) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٧.

(٤) يوسف: مسالك انتشار الإسلام، ص ٣٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٣٤.

(٦) الأحنف بن قيس (ت ٧٢هـ/٦٩١م): الأحنف بن قيس أبو بحر، سيد تميم، شهد الفتوح في خراسان، اعتزل الفتنة يوم الجمل، شهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم ولي خراسان وكان صديقاً لمصعب بن الزبير، أخباره كثيرة جداً. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ١، ص ١٧٩. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ١، ص ٢٧٦.

(٧) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٧٧.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٦٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٣٥.

وهذا ما يدل على أن المقاتلين وغيرهم من القادة كانت لهم نظرة خاصة تسعى إلى استغلال عوامل الطبيعة الجغرافية وتسخيرها لصالحهم في المعارك وقد تمثل ذلك بالجبل والنهر. ولو لم يكن لهذا الحديث وقعه وتأثيره في نفس الأحنف بن قيس لما أخذ بحديث ذلك الرجل وعمل به؛ فقد أورد الطبري أن الأحنف "جمع الناس" و"ذهب بهم إلى سفح الجبل"^(١)، وقال: "ارتحلوا من مكانكم هذا، فاسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم، وقاتلوهم من وجه واحد. ففعلوا."^(٢).

وعليه كان حرص العرب على جعل الجبل وراء ظهورهم ومقاتلة الأعداء من وجه واحد من أهم أسباب النصر الذي حققوه عليهم خلال المعركة.

وعندما بلغ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه غلبة الأحنف بن قيس على المرو روزيين في معركة مرو الروز سنة (٢٢هـ/٦٤٣م) - حيث انتصر على أهل مرو الروذ ومرو الشاهجان وبلخ - نهاه عن العبور إلى ما وراء النهر، وقال:

"فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتكم بأي شيء دخلتم خراسان، فداوموا على الذي دخلتكم به خراسان يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتقوضوا"^(٣)، ويتضح من وصية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للأحنف بن قيس رضي الله عنه أهمية الاستفادة من العوامل الجغرافية المتمثلة في الجبل بإسناد ظهورهم إليه حتى لا يأتيهم العدو من خلفهم، وأن يجعلوا النهر خندقاً بينهم وبين عدوهم، وأن يقاتلوهم من وجه واحد حتى يبقى ظهرهم آمناً من أي حركة التفاف يقوم بها العدو.

ومن الجدير ذكره أن ما روي عن خبر سارية بن زنيمة^(٤) وذلك في سنة (٢٣هـ/٦٤٤م)، يعطي صورة واضحة عن أهمية الجبل وأثره في المعارك إذا أحسن القادة استغلاله كعامل يحمي ظهر الجيش المستند عليه؛ وللتوضيح لابد من ذكر الرواية التي أوردها الطبري بسنده عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو حيث قال:

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٣٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٦٩.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٦٨.

(٤) سارية بن زنيمة (ت ٣٠هـ/٦٥٠م): سارية بن زنيمة بن عبد الله بن جابر بن محمية بن عبد بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة الكناني: صحابي، من الشعراء، القادة، الفاتحين، جعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه أميراً على جيش، وسيره إلى بلاد فارس سنة ٢٣هـ ففتح بلاداً منها أصبهان، وهو المعني في رواية يا "سارية الجبل". ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٦، ص ١٥٣. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٣٨٠-٣٨١. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٦٩-٧٠.

"قصد سارية بن زنيم فسا^(١) ودار ابجرء.. فرأى عمر في تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من نهار، فنادى من الغد: الصلاة الجامعة، وكان أريهم والمسلمون بصحراء؛ إن أقاموا فيها أحيط بهم، وإن أرزوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد. ثم قام فقال: يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين - وأخبر بحالهما - ثم قال: يا سارية بن زنيم الجبل، يا سارية بن زنيم الجبل! ثم أقبل عليهم، وقال: إن لله جنوداً، ولعل بعضها أن يبلغهم؛ ولما كانت تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل، ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد؛ فهزمهم الله لهم؛ وكتبوا بذلك إلى عمر.."^(٢).

تبرز الرواية أهمية الجبل في تحقيق النصر إذا تم التحصن فيه؛ فلا يتم مهاجمتهم من خلفهم بل تنحصر المواجهة في وجه واحد، وتشير إلى أهمية التعرف على المواقع واختيار الأماكن الحصينة بالجبال وغيرها لحماية الجيش، وكان ذلك من أهم عوامل النصر في تلك الواقعة. وبعد أن تم فتح مَكْرَانَ^(٣) في سنة (٢٣هـ/٦٤٤م)^(٤) على يد الحكم بن عمرو التغلبي^(٥) إثر معركة انتصروا فيها على أهل مكران، كتب الحكم إلى عمرو يخبره بالفتح ولما سأله عمر عن مكران وحالها؛ فقال في وصف حالها ما يبعث على الاشمئزاز: "يا أمير المؤمنين أرض سهلها جبل، ومأوها وشل^(٦)، وتمرها دقل.."^(٧). وعندما سمع الخليفة بهذا الوصف قال: "والله لا يغزوها جيش لي أبداً"^(٨).

(١) فسا: مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي في الإقليم الرابع، وقيل: أما كورة دارابجرء فإن أكبر مدنها فسا. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٧٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٤١.

(٣) مكران: ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى بفارس، غربها كرمان، وشمالها سجستان، وجنوبها البحر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٤٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٨١.

(٥) الحكم بن عمرو التغلبي (ت ٥٠هـ/٦٧٠م): الحكم بن عمرو بن مجدع بن حذيم بن الحارث بن نعيلى الغفاري، صحب النبي ﷺ حتى توفي وسكن البصرة، واستعمله زياد ابن أبيه على خراسان، كان صالحاً مقداماً؛ فغزا وغنم، وأقام بمرور ومات بها. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٥١-٥٢. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ٢٦٧.

(٦) الوشل: الماء القليل.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٨٢.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٤٤.

إذاً كانت طبيعة أرض مكران الجبلية هي الدافع الأكبر في اتخاذ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرأي الثاقب والبصيرة المتقدمة لمثل هذا القرار، وأصدر أمره بأن لا يجعلوا أحد من الجنود يجتاز مكران، وأن يقتصروا على ما دون النهر.

والصورة نفسها تتكرر في أحداث سنة (٣٢هـ/٦٥٣م) التي حصل فيها فتح مروالروذ^(١) والطالقان^(٢) والفارياب^(٣) والجوزجان^(٤) وطخارستان^(٥)؛ فقد ذكر الطبري في سنده عن مقاتل بن حيان أن:

"ابن عامر أرسل الأحنف بن قيس إلى طخارستان ونزل في موضع قصر الأحنف، بعد أن جمع له أهل طخارستان، وأهل الجوزجان والطالقان والفارياب، فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفاً... فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر ويستمع حديث الناس، فمر بأهل خباء ورجل يعجن؛ وهم يتحدثون ويذكرون العدو؛ فقال بعضهم: الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح؛ حتى يلقي القوم حين لقيهم فيناجزهم. فقال صاحب العجين: إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم؛ أتأمرونه أن يلقي حدَّ العدو مُصْحِراً في بلادهم، فيلقى جمعاً كثيراً بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلمونا! ولكن الرأي أن ينزل بين المرغاب^(٦) والجبل، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه. فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال؛ فضرب عسكره.." ^(٧).

ويستدل من قول الرجل أنه من الأفضل أن يتم استغلال الأمير لعوامل الطبيعة من أجل تحقيق النصر على الأعداء، ولكن هل قام الأمير بالعمل كما سمع من الرجل أم أنه أعرض عن ذلك؟ وإذا كان قد أخذ بما تحدث عنه الرجل فما الأثر الذي تركه الجبل والنهر على سير المعركة؟

(١) مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان، بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم لذلك سميت بهذا الاسم، وهي صغيرة بالنسبة إلى المرو الأخرى، ومات المهلب بن أبي صفرة بمرور الروز. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ١١٢.

(٢) الطالقان: بدتان إحدهما بخراسان بين مرو الروز وبلخ، وقال الإصطخري: أكبر مدينة بطخارستان طالقان، وهي مدينة في مستوى من الأرض بينها وبين الجبل غلوة سهم، ولها نهر كبير وبساتين. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٨-٦.

(٣) الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جوزجان، قرب بلخ وغربي جيحون، وينسب إليها جماعة من الأئمة، ومنها إلى طالقان ثلاث مراحل. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٢٢٩.

(٤) الجوزجان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، تقع بين مرو الروز وبلخ، ويقال لقصبته اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب، وافتتحت الجوزجان عنوة عام ٣٣هـ/٦٥٤م. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ١٨٢.

(٥) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، وهي طخارستان العليا والسفلى. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٢٣.

(٦) المرغاب: اسم نهر بمرور الشاهجان، وهو اسم نهر بالبصرة أيضاً. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ١٠٨.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٣١١-٣١٢.

تبرز الإجابة من خلال حديث الطبري الذي قال: "فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال"^(١). وهكذا عمل الأمير على الأخذ بالرأي، وقد ترك الجبل والنهر أثره في أن الأمير جعل نهر المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره فلم يقاتل إلا من وجه واحد، وبالتالي أمّن ميمنة وميسرة الجيش من أي حركة التفاف يمكن أن يقوم بها العدو؛ والنتيجة الطبيعية للتخطيط الصحيح هي النصر دون شك؛ فقد انتصر عليهم بفضل استغلاله لعاملي النهر والجبل. إن ما ذكر سابقاً يؤكد على استمرار تأثير عوامل الطبيعة على سير الأحداث التاريخية عبر العصور.

ثانياً- أثر الأودية والخنادق والسهول.

مما سلف يلاحظ أنّ الوادي والخنديق ينحصر تأثيرهما في طول الوادي والخنديق وقصرهما، وفي عرضهما وضيقهما، وفي استواءهما على الأرض أو عمقهما، وفي وجود الغابات أو عدمها^(٢)، وفي طبيعة أرض الوادي ومكونات تربتها سواء كانت رملية، أو طينية، أو صخرية فهي تؤثر على الحركات العسكرية تأثيراً كبيراً ومباشراً نوعاً ما وفيما يلي بعض النماذج التي تبرهن ذلك.

كان للوادي أثره بعد معركة فلسطين التي قام بها المسلمون ضد الروم البيزنطيين بقيادة عمرو بن العاص سنة (١١١هـ/٦٣٢م)، فقد قام خالد بن سعيد في محاولة للتأثر من وفاة ابنه بطلب مجموعة من الروم البيزنطيين، وهنا سمح له عمرو بن العاص، وبينما هو في الوادي من أجل أن يقدم العلف للدواب وإذا به رأى مجموعة من الروم على ذروة جبل مقابل للوادي الذي هم فيه، وهنا اختار البقاء في الوادي والتخفي عن أعين الروم البيزنطيين ريثما تسنح لهم الفرصة في الهجوم فقال لأصحابه: "إنني أرى أشباحاً على ذروة هذا الجبل ونحن في هذا الوادي، كونوا في أماكنكم، وأعلموا أن القوم ما علموا بنا ولو نظروا إلينا ما ثبتوا في أماكنهم"^(٣).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٣١١-٣١٢.

(٢) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٣١.

(٣) الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م): فتوح الشام، تح: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، ط: ١،

١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج: ١، ص ٢١.

وهنا كمنوا في الوادي لكي لا يلاحظ وجودهم الروم البيزنطيين ثم طافوا في الجبل حتى أشرفوا على القوم وهم على أماكنهم، وقتل المسلمون منهم ثلاثين وأسر أربعة وتم لهم ما أرادوا، فقد كان للوادي أثره في التخفي عن أعين العدو والاحتفاء ريثما يتم الهجوم على العدو.

ومما يجب ذكره أن الوادي كان عاملاً مساعداً في التخفي عن أعين الروم عندما قام باستغلاله رافع بن عميرة الطائي^(١) الذي اختاره القائد خالد بن الوليد من أجل تحرير ضرار بن الأزور^(٢) الذي أسره الروم، فقد كان على علم بطبيعة المنطقة وأوديتها ومسالكها، فكمن في وادي الحياة وبينما هم كذلك جاءت جماعة من الروم وهم محدقين بضرار فلما رأى ذلك كبر المسلمون وحملوا على الروم وتمكنوا من تحرير ضرار من الأسر^(٣).

وفي معركة العقرباء - اليمامة - سنة (١١١هـ/٦٣٢م)^(٤) أسهم الوادي إسهاماً كبيراً في تموضع قوات المشركين بقيادة مسيلمة الكذاب، وتموضع قوات الجيش الإسلامي بقيادة القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد وصل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الوادي في شمال اليمامة^(٥) إلا أنه بفكره الثاقب وجد أنه من الأفضل اختيار منطقة مرتفعة تمكنه من الإشراف على المنخفض الموجود وهو وادي حنيفة؛ خاصة بعد أن تموضع مسيلمة الكذاب على الضفة الشمالية بمواجهة المسلمين^(٦)؛ فقام باختيار أرضاً مرتفعة واقعة على بعد ميل واحد غرب عقرباء مقابل مدينة جبيلة - كثيب يشرف ويطل على اليمامة^(٧) - وبذلك أصبح وادي حنيفة حداً فاصلاً بين الجيشين، وكانت ضفة الوادي الشمالية ترتفع نحو مائة قدم وعندها قرية الجبيلة، أما عند الجانب الجنوبي ترتفع حتى مائتي قدم، وهنا عسكر القائد خالد بن الوليد، وذلك لكي يتمكن من رؤية السهل في بطن الوادي، وكان الحد الأممي للمسلمين كان يمتد ثلاثة أميال على طول ضفة الوادي الجنوبية، كما اختار مسيلمة الكذاب أن يعسكر قرب جبيلة حيث يبدأ سهل عقرباء وبهذا الموقع يستطيع أن يدافع عن سهول اليمامة الخصبة، ويكون في

(١) رافع بن عميرة الطائي: رافع بن أبي رافع الطائي ونسبه ابن الكلبي، كان دليل خالد بن الوليد لما سار من العراق إلى الشام فسلك به البر، فقطعه في خمسة أيام، وشهد غزوة ذات السلاسل، وصحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه وتوفي سنة ثلاث وعشرين قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٢٤١.

(٢) ضرار بن الأزور: الأزور مالك بن أوس بن جذيمة، وكان ضرار فارساً شاعراً، وكان شهد يوم اليمامة فقاتل أشد القتال حتى قطعت ساقاه جميعاً، وقبل أن يرحل خالد بيوم مات ضرار. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٦، ص ١٥٩.

(٣) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٤٣.

(٤) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٠٣.

(٥) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٠.

(٦) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٠٦.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٩، ص ٤٦٧.

نفس الوقت على طرف الطريق الذي سيتقدم من خلاله القائد خالد وقواته، وقد تجهز مسيلمة وعسكر في سهل عقرباء مع أربعين ألفاً من المرتدين^(١)، وهنا جرت وقائع المعركة التي انتهت بانتصار المسلمين على المرتدين في سهل عقرباء ولاحقوا فلول المرتدين، "ووضعوا السيوف في رقابهم حيث شأؤوا"^(٢) حتى وصلوا إلى الحديقة التي سميت بحديقة الموت حيث تم قتل مسيلمة^(٣). راجع الخريطة (١٣).

وقد اختاروا تلك الأرض لتمييزها بالارتفاع وهي "أباض"^(٤) التي جرت فيها أحداث الجولة الأولى من المعركة، كما كان للوادي أيضاً أثراً في اختيار المرتدين منطقة عقرباء للتحصن فيها، لأنهم عندما هزموا في الجولة الأولى انسحبوا ولجأوا إلى عقرباء الجبيلة وهي أرض سهلية؛ فلاحق فلولهم المسلمون، وبعد انتهاء المعركة أقام خالد بن الوليد في وادٍ من أودية اليمامة يقال له "الوبر"، ينظم الأمور ريثما يصله أمر الخليفة أبي بكر الصديق^(٥).

وفي سنة (١٥هـ/٦٣٦م) في معركة اليرموك^(٦)، كان للسهل والوادي^(٧) أثراً واضحاً في اجتماع المسلمين والمشركون في اليرموك، حيث أمر الإمبراطور هرقل بطارقه وجيوشه فنزلوا الواقوصة- وهي على ضفة اليرموك- وصار الوادي خندقاً لهم من الناحية الغربية^(٨)، واجتمعوا "فيما بين دير أيوب إلى ما يليها من نهر اليرموك بينهم النهر"^(٩). حيث حاول الروم البيزنطيين الاستفادة من جغرافية المنطقة. إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستفادة من جغرافية المنطقة حيث كان العرب بقيادتهم الحكيمة أقدر على استغلال ذلك الوادي ونزلوا بالقرب منهم على طريقهم، وليس للروم البيزنطيين طريق إلا عليهم^(١٠).

(١) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٠٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ٩، ص ٤٦٩.

(٣) الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٥٥. سويد، ياسين: معارك خالد بن الوليد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: ٤، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ١٩٧.

(٤) أباض: بضم الهمزة وتخفيف الباء، اسم قرية بالعرض، لها نخل لم يُرَ نخل أطول منها، وعندها كانت وقعة خالد بن الوليد مع مسيلمة الكذاب. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٦٠-٦١.

(٥) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٦١.

(٦) الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٦١.

(٧) تم التطرق إلى ذكر أثر الوادي أثناء تناول أثر السهل في هذه المعركة لذلك وجب الاختصار هنا.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٩٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٥.

(٩) ابن عساکر، علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله (ت ٤٩٩هـ/٥٧١م): تاريخ مدينة دمشق، تح: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج: ٢، ص ١٤٦.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٩٣.

وهنا هتف عمرو بن العاص^(١) قائلاً: "أبشروا خُصرت الروم، وقلّ ما جاء محصور بخير"^(٢).
انظر الخريطة (١٩-٢٠).

أما عن الخنادق؛ فقد برز أثر **الخنق** عندما توجه القائد خالد بن الوليد إلى الأنبار^(٣) سنة (١٢هـ/٦٣٣م) بعد أن تم فتح الحيرة، وكان قد استخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو^(٤)، حيث وجد أنّ القوم قد امتنعوا بحصونهم وحفروا خندقاً على أنفسهم ظناً منهم أنه سيجمهم من حصار المسلمين وأشرفوا من أعالي الحصون^(٥)، فكيف تصرف القائد خالد في سبيل اقتحام الخندق؟ وهل كان للخنق الذي أحاط به الفرس أنفسهم أثر في نجاحهم؟

إن قائداً بشجاعة القائد خالد بن الوليد ذو الانتصارات العظيمة لم يكن يثنيه مثل هذا الأمر، وعلى الرغم من أن الخندق قد أطل أمد الحصار وحقق لهم الحماية المؤقتة، لكنه لم يحقق لهم النصر؛ فقد أصدر القائد خالد بن الوليد أمره إلى الرماة أن يقصدوا عيون الأعداء فرشقوهم بالنبال فأصابوا منهم ألف عين وسميت تلك الوقعة "ذات العيون"^(٦)، ثم عمد إلى تصرف من شأنه تحقيق النصر لهم واقتحام الخندق؛ فقد اختار أضيق مكان في الخندق يمكن أن يتم ردمه، وعمد إلى الضعاف من الإبل في جيشه ونحرها وملاً الخندق بجثثها، واقتحمه المسلمون^(٧)، فاجتمع المسلمون والفرس فيه، وجرت المعركة وانتهت بالصلح بين الطرفين بعد أن رأى العدو استحالة تحقيق النصر.

(١) عمرو بن العاص: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي، يكنى أبا عبد الله، قيل: كان إسلامه في صفر سنة ٨هـ، بعثه الرسول الأكرم أميراً على سرية إلى ذات السلاسل فسار في ثلاثمئة واستمد الرسول الأكرم فأمدته، واستعمله رسول الله على عمان وبقي عليها إلا أن توفي الرسول ﷺ، وسيره ابو بكر أميراً إلى الشام، وهو أحد الحكمين والقصة مشهورة. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص ٢٣٢-٢٣٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٦.

(٣) يذكر ابن الأثير أن سبب تسميتها بالأنبار، لأن أهراء الطعام كانت بها أنابيب. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤٥.

(٤) القعقاع بن عمرو: هو أخو عاصم بن عمرو، كان من الشجعان الفرسان، أسلم سنة ٩ هجرية وشهد وفاة النبي ﷺ وشهد فتح مدينة دمشق وواقعة اليرموك وله تاريخ زاهر في فتوح العراق، قال عنه ابو بكر الصديق ﷺ "صوت القعقاع في المعركة خير من ألف رجل". وله في قتال الفرس في القادسية وغيرها بلاء عظيم. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص ٣٩٠.

(٥) المغلوث: أطلس الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، ص ٨١.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤٦.

(٧) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٩٠.

أما في حصار دمشق ومحاولة فتحها سنة (١٤هـ/٦٣٥م)^(١) كان للخنق أثراً في حماية المدينة؛ فقد كان حول المدينة سور عظيم يحيط به من الخارج خندقاً يملأ بالماء في حالة الحصار، صنعه الروم البيزنطيين لحماية المدينة، وهنا كان على القائد خالد أن يعتمد إلى خطة تمكنه من اجتياز الخندق والوصول إلى السور، فكيف تم ذلك؟ وهل بقي الخندق عائقاً أمام تقدم القوات وحصارها للمدينة؟

من حسن حظ المسلمين أنه وُلِدَ لبطريق المدينة ولِدٌ في تلك الأثناء، فاحتفل الروم وشربوا الخمر، وهنا اغتتم القائد الفرصة، وخلال فترة الحصار درس القائد خالد حالة السور والخندق وأماكن الضعف فيها، وبكل شجاعة انطلق ومن معه، فاجتازوا الخندق ورموا الحبال على السور، وتسلقوه وقتلوا الجنود خلفه^(٢). وبالتالي تم فتح المدينة بفضل دراسة القائد للمنطقة، ومعرفة أثر الخندق الذي كان من الممكن أن يشكل عائقاً ويمنع الفتح لو لم يحسن خالد بن الوليد كيفية اجتيازه واختراقه.

وفي سنة (١٦هـ/٦٣٧م)^(٣) حدثت معركة **جلولاء**^(٤) التي برز فيها أثر الوادي والخندق معاً، وهنا تواجه الباحث الأسئلة التالية، لماذا انسحب الفرس إلى داخل بلادهم بعد هزيمتهم وخسارتهم المدائن؟ وهل للجغرافية أثر في هذا الانسحاب؟ ولماذا اختاروا جلولاء مكاناً للتحصن وملاقاة العرب؟ وكيف تجلّى أثر الوادي والخندق في المعركة؟

يمكن القول أن الفرس بعد انهزامهم في المدائن، انسحبوا إلى داخل هضبتهم لأسباب جغرافية بالمقام الأول، فقد أدركوا أن خير وسيلة للانقضاض على العرب هي التحصن في وديان الأنهار، حيث تؤمن لهم الطبيعة الجغرافية طرقاً لا طاقة للعرب في التكهّن بها ومعرفتها، وعليه كان اختيارهم لحصن جلولاء في منطقة وادي نهر ديانة الذي يهبط نحو العراق، على طريق القوافل بين العراق وكرمنشاه^(٥)، وأخذ الفرس ينقضون على العرب من هذه المنطقة المنيعة التي كانت تتمتع بموقع جغرافي استراتيجي جعلها من أقوى أبواب إيران من الواجهة الاستراتيجية، فحشدوا جيوشهم فيها في

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٧٨. الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٦٠.

(٢) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٣٤٧-٣٥٠.

(٣) ورد عند ابن خياط أنها حصلت في سنة ١٧هـ/٦٣٨م. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٤.

(٤) جلولاء: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا، ويحمل السفن إلى باجسرا، وبها كانت وقعة المسلمين على الفرس سنة ١٦هـ، وسميت بجلولاء الواقعة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ١٥٦.

(٥) يوسف: مسالك انتشار الإسلام، ص ٣٩.

محاولة الانقضاض على العرب^(١)، وهذا ما يبرهن اختيارهم لمنطقة وادي نهر ديالة من أجل التحصن. انظر الخريطة (٢١).

أما الخندق فكان محاولة من الفرس لأجل تحقيق الحماية، وصد العرب عنهم بعد أخفاقهم في معارك متعددة معهم؛ فبعد أن اتفقوا على الاجتماع والاستماتة في القتال^(٢)، "احتفروا الخندق، واجتمعوا فيه على مهران الرازي،... فأقاموا في خندقهم، وقد أحاطوه بحسك^(٣) الخشب،... ثم استبدلوه بحسك الحديد إلا طرقهم"^(٤).

وبعد أن أخبر القائد سعد الخليفة عمر بن الخطاب بأمرهم، أمره بتوجيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص^(٥) إليهم؛ فحاصروهم هاشم؛ وأخذت الإمدادات من القائد سعد تتوافد على المسلمين الذين يحاصرون جلولاء، وهنا شعر الفرس بحرجة الموقف فاعتزموا على القتال، فخرجت الفرس واقتتلوا، ثم بعث الله الريح فتحاجزوا وسقط فرسانهم في الخندق^(٦)؛ فجعلوا في خندقهم طرقاً لخيولهم فأفسدوا حصنهم، واقتتلوا قتلاً شديداً مع المسلمين، وهذا كان له الأثر الأكبر في اقتحام المسلمين للخندق^(٧)، وما صار الليل إلا والمسلمون قد اقتحموا الخندق، وفرّ الفرس يميناً ويسرة، بعد أن وقعت خيولهم بتأثير الحسك؛ فعُقرت وسقط أغلب الفرسان في الخندق، وأصبح الناجون رجالاً حاولوا الهرب والفرار^(٨)، وأتبعهم المسلمون قتلاً بالسيوف^(٩).

إذاً حاول الفرس من خلال الخندق تحقيق عنصر الحماية والردع لجيش العرب إلا أن أثره كان لصالح المسلمين، وليس في مصلحة الفرس، فقد جاء عن أحد شهود المعركة أنه قال: "لقد رأيتني أعبر الخندق مشياً على الرجال الذين قتل بعضهم بعضاً"^(١٠).

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٦.

(٢) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ١٧٦.

(٣) الحسك: يعمل على مثال شوكة، كأداة للحرب من حديد أو من قصب، فيلقى حول العسكر. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٩٣٦. الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٥. الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٢٩١.

(٥) هاشم بن عتبة (ت ٣٧٧هـ/٦٥٧م): هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، صحابي، خطيب، من الفرسان، يلقب بالمرقال، أسلم يوم فتح مكة، ونزل الشام بعد فتحها، شهد معركة القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وأصيب عينه يوم اليرموك، وفتح جلولاء، وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حروبه. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٨، ص ٦٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٦٥.

(٧) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ١٧٧. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٦.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٦٥.

(٩) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ١٧٧-١٧٨.

(١٠) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣٢.

ومن الجدير بالذكر أن الذي عزز نصر المسلمين هو حلول الظلام الذي جعل الفرس يهيمنون على وجوههم، دون المعرفة الدقيقة بمكان وجود الحسك، فكانوا هم الضحية لما أعدوه للعرب المسلمين وقتل منهم يومئذٍ "مائة ألف" ^(١)، ولاحق المسلمون فلولهم حتى خانقين ^(٢) وأقبلوا حتى دخلوا جلولاء، فجعلوا يجمعون الأموال والغنائم حتى جمعوا شيئاً كثيراً ^(٣)، وحقق المسلمون النصر على الفرس أصحاب الخندق ^(٤).

كما أن الفرس حاولوا الاحتماء بالخندق في عدة معارك ذكرتها المصادر والمراجع، ومنها ما حصل في فتح تكريت ^(٥) سنة (١٦٦هـ/٦٣٧م) ^(٦)، حيث عمد الفرس إلى حفر خندق في تكريت ليحتموا به، فسار إليهم عبد الله بن المعتم ^(٧) في جيش قوامه خمسة آلاف ^(٨)، فحاصروهم في تكريت وفيها جمع من الفرس والروم البيزنطيين والعرب - قبائل عربية من تغلب وإياد والنمر - وقد خندقوا بها فحصرهم أربعين يوماً ^(٩)، إلا أن خندقهم لم يحقق لهم الحماية، واضطرت القبائل العربية إلى الاستسلام وأعلنت إسلامها، بل وحاصرت الفرس والروم من ناحية النهر بالاتفاق مع القائد أن يحاصروهم بجنده من ناحية البر ^(١٠)، وعليه تم افتتاح تكريت عنوةً رغم وجود الخندق الذي لم يكن له أثر سوى إطالة أمد الحصار ليس إلا..

(١) لا ريب أنه رقم مبالغ فيه إلا أن الطبري أورد ذلك، وقد ذكره الطبري. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٦.

(٢) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد. الكوفي، محمد أحمد بن أعثم (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م): كتاب الفتوح، تح: علي شيري، دار الأضواء، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج: ١، ص ٢١٤.

(٣) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ١، ص ٢١٥.

(٤) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٢٩١.

(٥) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، وبينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، افتتحها المسلمون المسلمون في أيام عمر بن الخطاب في سنة ١٦هـ/٦٣٧م، بقيادة عبد الله بن المعتم ففتحها عنوة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٣٨-٣٩. المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ص ٩٧.

(٦) ورد عند ابن خياط أنه في عام ١٩هـ/٦٤٠م. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٤١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٦٨.

(٧) عبد الله بن المعتم: كان على إحدى المجنبتين يوم القادسية، وسيره سعد بن أبي وقاص من العراق إلى تكريت، ومعه عرجة ابن هرثمة، وفيها جمع من الروم والعرب، ففتح تكريت. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٣، ص ٣٩٣.

(٨) المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ص ٩٥. النجار: الخلفاء الراشدون، ص ١٧٩.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٣٥.

(١٠) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ١٧٩.

ويتكرر الأمر في فتح هيت^(١) وقرقيسياء سنة (١٦٦هـ/٦٣٧م)؛ فبعد أن انتهى هاشم بن عقبة من جلولاء بعث أهل الجزيرة بجند إلى أهل هيت^(٢)، فوجه إليهم سعد بناءً على أوامر الخليفة عمر رضي الله عنه، القائد عمر بن مالك بن عقبة^(٣) فسار عمر حتى نزل على هيت، فوجد أن أهل هيت قد خندقوا على أنفسهم طلباً للحماية واعتصموا بهذا الخندق^(٤)، فكيف تجلى أثر الخندق؟

لقد ظهر أثر الخندق في طول أمد الحصار، وهذا ما جعل القائد عمر بن مالك يترك الأخبية ويقوم بالتوجه في نصف الجيش إلى قرقيسياء وأخذها عنوة، ولو لم يكن للخندق أثره في المعارك لما أمر القائد عمر بن مالك القائد الذي تركه يحاصر - الحارث بن يزيد - هيت بقوله:

"إن هم استجابوا فخلّ عنهم فليخرجوا، وإلا فخذق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك حتى أرى رأيي"^(٥)؛ فسمحوا بالاستجابة وانضم الجند المحاصرين إلى عمر^(٦).

وبناءً على ما تقدم يمكن القول أن القيام بحفر الخنادق كان من عادة الفرس وإجراءاتهم الدفاعية قبل ملاقات العدو.

وكما كان للأودية والخنادق أثراً، كان للتلال والهضاب والجبال أثراً هاماً، وقد ذكر الهرثمي أهمية الاستفادة من المرتفعات في المعارك قائلاً:

"وتحر أن تسند ظهور أصحابك إلى الجبال والتلول والأنهار وما أشبهها، من كل موضع تأمن منه الكمين والبيات"، وذكر في موضع آخر قائلاً: "أحرص أن يكون موضع القلب على جبل أو شرف، وما أشبه ذلك من أرض صلبة غير ذات غبار"^(٧).

(١) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الأنبار ذات نخل كثير، وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية، أنفذ إليها إليها سعد جيشاً في أنفذ إليها سعد جيشاً في ١٦هـ، ومنها تجه نحو قرقيسياء. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٤٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٧٠.

(٣) عمر بن مالك بن عقبة: عمر بن مالك بن عقبة بن نوفل بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، أدرك حياة النبي، وشهد فتح دمشق، وولي فتوح الجزيرة، بعثه القائد سعد بناءً على أوامر الخليفة عمر بن الخطاب، إلى هيت ففتحها عنوة بعد أن أعطوه الجزاء. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ١٨٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٧٠.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٣٨.

(٧) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣١-٣٣.

وقد برز وتجسد أثر التلال بشكل واضح في موقعة اليرموك سنة ١٥هـ/٦٣٦م^(١)، وذلك عندما حاول العرب الاستفادة من التلال الموجودة في الموقع الذي نزلوا به بعد الانتقال من الجابية إلى اليرموك، وقد وصف ذلك الواقدي بقوله: "جعلوا أذرعاً خلف ظهورهم، فقد كان هناك تل كبير عمد القائد أبو عبيدة رضي الله عنه إلى التل وجعل عليه النساء وأولادهم فأصعدهم على ذلك التل"^(٢)، وكان "تل الجموع" الذي يرتفع ثلاثمائة قدم يسيطر على المنطقة المحيطة به، ويؤمن المراقبة الجيدة لأرض المعركة مما يفرض على الجيش الموجود أن يعمل من أجل احتلاله، ولم يغفل المسلمون أهميته فقاموا بالاحتشاد فيه؛ ووضعوا صفهم الأمامي عليه حتى تتمكن القيادة من الإشراف على أرض المعركة؛ لأنه التل الوحيد الذي يطل على السهل ويشرف على أرضه^(٣)، وقد سمي بتل الجموع لاحتشاد المسلمون فيه أثناء المعركة^(٤).

وكان هناك تل آخر عرف بتل "السمن" - هو الذي قصده الواقدي في روايته - وبعد أن وضعوا عليه النساء أوكلت إليهم مهمة رد المنهزمين من المسلمين أمام العدو، ويقع في قلب ومؤخرة ميدان القتال^(٥).

إن ما سلف يؤكد على أن المسلمين حاولوا الاستفادة من جميع العوارض الجغرافية التي تحقق لهم كسب النصر في المعارك. راجع الخرائط (١٩-٢٠).

وقد كثرت المعارك التي حاولوا الاستفادة فيها من عوارض الجغرافية الطبيعية والمناخية وأثرها.

وكان للسهول أثراً كبيراً استمر في العصر الراشدي، حيث تركت بصمة خاصة في أحداث ذلك العصر وهذا ليس بجديد لأن السهول لا تقل في أثرها عن غيرها من العوامل الجغرافية، وبرز ذلك في قول المفكر "سون أتزو" الذي أكد على أهمية معرفة العوارض الطبيعية من أجل تحقيق النصر وكسبه قائلاً: "إن أولئك الذين لا يعرفون أحوال الجبال والغابات والأودية الخطرة والسبخات والمستنقعات لا يمكنهم قيادة جيش"^(٦).

(١) ذكرها خليفة ابن خياط أنها حصلت عام ١٥هـ/٦٣٦م. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣٠.

(٢) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١٥٤.

(٣) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٤٦١-٤٦٢.

(٤) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٩٠.

(٥) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٩١.

(٦) أتزو: فن الحرب، ص ١٣٨. دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ص ١٠.

وبناءً على ذلك يبدو واضحاً أهمية هذا العامل الجغرافي كغيره من العوامل، وكما ورد يمكن أن ينحصر تأثير السهل باتساعه وضيقه، وقربه من الأنهار أو الجبال، وإحاطته بالأودية، ووجود السبخات والمستنقعات، وغيرها من العوامل المؤثرة في أهمية السهل، وفاعليته.

فقد برز أثر السهل فيما حصل في سنة (١١١هـ/٦٣٢م) في معركة بزخة التي جرت بين طليحة بن خويلد الأسدي، والمسلمين الذين عهد إليهم الخليفة أبو بكر رضي الله عنه بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد كان سهل بزخة هو الحد الفاصل بين المعسكرين، لأن القائد خالد عندما وصل إلى الجزء الجنوبي من سهل بزخة وجد أن طليحة قد عسكر هناك مستعداً للقائه في الجهة الشمالية^(١)؛ وقد اختار طليحة المنطقة مستفيداً من الجبل الذي يمكن من خلاله حماية جيشه، والسهل الذي يمكن من خلاله توزيع جيشه، والتحرك بحريه، فكان ميدان المعركة يتألف من سهل بزخة المنبسط مع إحاطة التلال الصخرية له من الجهتين الغربية والشمالية، كما عسكر القائد خالد في الجزء الجنوبي من السهل جاعلاً ظهره للشمس^(٢)، إلا أن مشابهة ظروف المعركة الجغرافية لما ألفه العرب من أساليب القتال في السهول جعل المسلمون يشنون هجوماً على طول الجبهة، ويسيطرون على أرض أخرى، وما إن ضعفت قوات طليحة بن خويلد حتى انهزموا، وفرّ على فرس له أخذاً معه زوجته متجهاً عبر الصحراء إلى بلاد الشام. راجع الخريطة (١١-١٢).

وفي مقدمات معركة صفين^(٣) التي حدثت سنة (٣٧هـ/٦٥٧م)^(٤) بين الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان^(٥) رضي الله عنه، سار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه برجاله حتى نزل في صفين في ثلاثة وثمانين ألفاً، محاولاً استغلال العامل الجغرافي المتمثل بالسهل الواسع من أجل تعبئة الجيش

(١) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ١٧٣.

(٢) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ١٧٥.

(٣) صفين: هو موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات، من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وكانت بها وقعة صفين بين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٨٣. المغلوث، سامي بن عبد الله: أطلس الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ١٧٩. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٨٣.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٩١. كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٤٩٣.

(٥) معاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ/٦٨٠م): معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار، لما ولي عمر رضي الله عنه جعله والياً على الأردن وفي عهد علي رضي الله عنه أمر بعزله، فرفض معاوية، وبعد قتل علي دامت الخلافة لمعاوية بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه إلى معاوية عن الخلافة، وتوفي في دمشق. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢٦١-٢٦٢. المغلوث، سامي بن عبد الله: أطلس تاريخ الدولة الأموية، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ١١.

واستغلال أماكن تواجد المياه، وهذا ما ذكره ابن أعثم الكوفي بقوله: "فسبق إلى سهولة الأرض وسعة المرعى وقرب الفرات فنزل هنالك؛ ثم إنه بنى بنياناً له، وضربت القباب والخيام والفساطيط، وبنيت المعالف للخيول، واجتمعت إليه العساكر من أطراف البلاد فصار في مائة ألف وعشرين"^(١).
إذاً كان للعامل الجغرافي - السهل - أثراً في اختيار المعسكرات وتعبئة الجيوش، وقد عمل المسلمون على محاولة استغلاله من أجل تحقيق النصر على الخصم. انظر الخريطة (٢٥).

أما في سنة (١٢٢هـ/٦٣٣م) جرت معركة الولجة^(٢)، وكان اختيار الطرفين للمنطقة في أرض سهلة كي تحقق أهداف الفريقين في تنظيم القوات وترتيبها، فقد تم اختيار ميدان المعركة في سهل مستوٍ يمتد بين هضبتين منبسطين وتبعدان عن بعضهما قرابة ميلين^(٣)، ولعل هذه المسافة لا بأس بها لحشد جيوش الفرس التي عرفت بكثرة عددها، وكان يوجد هضبة عند الطرف الشمالي الشرقي للنهر جعل منها الفرس عاملاً يحمي الميسرة، كما أن هناك نهر اسمه "الخشيف" وهو يبدأ من الفرات وأحد روافده، حاول الفرس استغلاله وبرز ذلك في وقائع معركة أليس، بينما السهل كان يمتد جنوباً إلى صحراء قاحلة، وهذا كان نقطة قوة في موقف القائد خالد بن الوليد الذي عسكر في مواجهة الفرس - أي أن الصحراء كانت وراء ظهره وهذا ما حرص عليه العرب أثناء قتالهم - لذلك يجد الباحث أن خالد بن الوليد لم يغير أرض المعركة بل خاض المعركة رغم الإرهاق والتعب في بادئ المعركة، وفي السهل فتح الفرس للمعركة مواجهين للقائد خالد بن الوليد الذي فتح للمعركة أمام الهضبة الشرقية^(٤). انظر الخريطة (١٤).

وفي سنة (١٥٠هـ/٦٣٦م) في معركة اليرموك^(٥)، كان للسهل والوادي^(٦) أثرهما الواضح في اجتماع اجتماع المسلمين والمشركون في اليرموك، فالمسلمين أرادوا من وراء تحركهم العسكري واجتماعهم في

(١) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٢، ص ٥٣٨.

(٢) الولجة: بأرض كسكر، موضع مما يلي البر واقع فيه خالد بن الوليد الفرس فهزمهم، في سنة ١٢٢هـ/٦٣٣م، وكان بين الولجة والقادسية فيض من فيوض مياه الفرات. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٢٨٣.

(٣) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٧٣.

(٤) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٧٣.

(٥) اليرموك: نهر بأرض الشام، جنوب دمشق، كانت به موقعة كبيرة بين جنود الروم وأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمر بن العاص، وكانت من المواقع الفاصلة، وانتهت بالاستيلاء على دمشق ومعظم بلاد الشام، ويعرف عند العرب بشريعة المنظور. بك، واصف أمين: معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تح: أحمد ذكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، مصر، (د.ط)، ص ١٢٤.

(٦) لا بد من ذكر أثر الوادي في هذه المعركة لارتباط أثر السهل والوادي، واختصار ذكرها في فقرة أثر الأودية والخنادق.

اليرموك بعد أن تركوا المناطق التي سيطروا عليها مؤقتاً أن يقاتلوا على طرف الصحراء، وهذا ما ظهر من خلال قول القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه أثناء اجتماعهم في الجابية: "والذي أشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا أنزعاً خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك، ويكون المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قريباً منكم متلاحقاً بكم وأنتم على فتح لقتال عدوكم وهي أرض واسعة لمجال الخيل..."^(١).

وعليه عسكر المسلمون في اليرموك محاولين استدراج الجيش الروماني للقتال إلى الجنوب من المنطقة بدلاً من خوض معركة ثابتة عند منطقة درعا التي سيطر عليها الجيش الرومي البيزنطي إثر تجمع القوات الإسلامية فيها، وبالتالي أغلقوا منافذ الشام في ظهر العرب الذين تراجعوا عن أماكنهم التي سيطروا عليها^(٢)، أما الروم البيزنطيين فعندما علم امبراطورهم هرقل بخبر اجتماع جيوش المسلمين، كتب إلى بطارقه قائلاً: "اجتمعوا لهم، وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب"^(٣). إذاً يبدو أن هرقل أراد من خلال قوله أن يتم اجتماع الروم البيزنطيين في مكان يمكن من خلاله التحرك بحرية، فأين اختار الروم مكان التجمع؟

بناءً على أوامر الامبراطور هرقل "نزلوا الواقصة"^(٤) - وهي على ضفة اليرموك - وصار الوادي خندقاً لهم من الناحية الغربية^(٥)، واجتمعوا "فيما بين دير أيوب إلى ما يليها من نهر اليرموك بينهم النهر"^(٦).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا اختار الروم البيزنطيين التجمع في الواقصة؟ وهل للجغرافية أثر في ذلك؟

في الواقع كانت البقعة التي اختارها الروم البيزنطيين للتمركز فيها، من أهم الظواهر الطبيعية التي أثرت بصورة مباشرة في سير ونتائج معركة اليرموك؛ فقد حاول الروم البيزنطيين الاستفادة من جغرافية المنطقة، وللبهنة على ذلك لابد من الالتفات قليلاً إلى جغرافية اليرموك والتوضيح بشيء من الإيجاز، فاليرموك هي من الروافد الشرقية المعروفة لنهر الأردن، ينبع من مرتفع في هضبة حوران، ويشق لنفسه خانق ضيق في هضبة كلسية يغطيها البازلت، وقبل التقائه بنهر الأردن بنحو ٣٠ كم

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١٥٣. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ١٤٦.

(٢) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٦٦.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٩٣. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٠٤.

(٤) الواقصة: واد بالشام من أرض حوران نزله المسلمون أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقتال الروم البيزنطيين. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٩٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٥.

(٦) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ١٤٦.

يدور في شكل ثنية نهريّة حول منطقة سهليّة، وكما هو معلوم أن كل ثنية نهريّة يشدّ الحثّ النهري في جانبها الخارجي، في حين يتركز الترسيب وينبسط السطح في الجانب المقابل، فالروم عسكروا عند الحافة الخارجية ذات الانحدار أي نحو الجنوب، في قلب الثنية النهريّة ظناً منهم أنه بالإمكان أن يرموا جيش المسلمين^(١)، كما أن سهل اليرموك يقع بين بحيرة طبرية غرباً، ووادي اليرموك جنوباً، وجبل العرب شرقاً، ومنطقة القنيطرة شمالاً، وكانت المنطقة الغربيّة من اليرموك عبارة عن أودية منخفضة وكان أهمها وادي الرقاد- الواقوصة- الذي يتصل بنهر اليرموك عند الواقوصة، ثم إن هناك بحيرة طبرية إلى الغرب من وادي الرقاد تشكل حاجزاً طبيعياً وعقبة أمام المهاجمين إذا ما أرادوا الهجوم عليهم من الجانب الغربي^(٢)، فأمنوا بذلك المجنبة اليسرى للجيش، ومن ناحية الشرق كانت توجد صخور بركانية تغطي السهل وتعيق الحركة على المهاجمين^(٣)، ولعلها امتداد لسفوح جبل العرب البركاني، وكان سهل اليرموك المنبسط يمتد من وادي الرقاد وحتى سفوح التلال المرتفعة "تلال أذرع" وينحدر انحدار تدريجي من الشمال حتى الجنوب ويخترقه واديان هما وادي علان ووادي الهرير^(٤)، وكان محاط من جانبيه الغربي والجنوبي بمحدرات عميقة وشديدة^(٥)؛ إلا أن هذا الأمر لم يقف حائلاً دون تقدم قوات المسلمين الذين درسوا أرض المعركة، وقاموا بالتسلل حول الجناح الشرقي للروم البيزنطيين، وقطعوا عليهم طريق الإمدادات القادمة من الشرق لأنهم "نزلوا عليهم بحذائهم- أمامهم- على طريقهم، وليس للروم البيزنطيين طريق إلا عليهم"^(٦)، وهنا هتف عمرو بن العاص قائلاً: "أبشروا حُصرت الروم، وقلّ ما جاء محصور بخير"^(٧). أي أن المسلمين حصروا الروم بين الواديين: وادي الرقاد غرباً ووادي اليرموك جنوباً^(٨)، وظلّ الجيشان جيش المسلمين، وجيش الروم بدون قتال لمدة ثلاثة أشهر بسبب أن الروم نزلوا الواقوصة إذ كانت "تحميهم من ورائهم والخندق من أمامهم"^(٩)، فقد اعتقد الروم أن وجود نهر اليرموك وبحيرة طبريا اللذان يحمان جناحه الأيمن، ووجود وادي اليرموك عن يساره، قد يحقق لهم النصر على المهاجمين خاصة وأنهم قد نزلوا في سهل على

(١) يوسف: مسالك انتشار الإسلام، ص ٣٨.

(٢) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٨٩.

(٣) كلوب: الفتوحات العربيّة الكبرى، ص ٢٦٨.

(٤) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٩٠.

(٥) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٤٦٠.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٩٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٦.

(٨) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٩٤.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٩٥. الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميّة- الدولة

الأمويّة-، ص ٢٥٩.

هيئة شبه مثلث يكون ضلعيه من "وادي الرقاد شمالاً ونهر اليرموك جنوباً"^(١)، وقد جعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ^(٢) طولاً وعرضاً^(٣). راجع الخريطة (١٩-٢٠).

إلا أنهم أخطأوا عندما عسكروا إلى الشمال من النهر، وفطن المسلمون بقادتهم الحكيمة إلى هذه الناحية فرصدوا لهم جماعة كثيفة استطاعت أن تسد عليهم باب السهل^(٤)، وعندما بدأت المعركة بأسلوبها التقليدي أمر خالد مجنبتني القلب أن ينشبا للقتال فنشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان^(٥)؛ فحاول فرسانهم الهرب من باب السهل الذي تسده قوات المسلمين، وهنا سمح المسلمون لهم بالفرار والهرب^(٦) فذهبت فرسان خيلهم وتفرقت في البلاد^(٧)، وهل كان قائدٌ مخضرم مثل خالد بن الوليد أن يسمح للفرسان بالفرار دون سبب؟

يبدو أن القائد خالد بن الوليد أراد أن يفصل سلاح الفرسان عن المشاة وبالتالي يحقق النصر المظفر، ولهذا سمح لفرسانهم بالفرار واتخاذ الصحراء موئلاً للهروب^(٨)، وقد تحقق للقائد خالد ما أراد؛ فعندما هرب الفرسان، حاول الرجال الذين قرنوا أنفسهم بالسلاسل أن يثبتوا لكن ما إن اقتحم خالد والمسلمون خندقهم حتى عمدوا إلى الواقوصة وهووا فيها، وسميت كذلك لأنهم وقصوا فيها، أي: وقعوا فيها^(٩).

وذكر ذلك الطبري بقوله: "... فيهوي الواحد بال عشرة لا يطيقونه وكلما هوى اثنان كان البقية منهم أضعف فكان المقترنون أعشاراً، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف"^(١٠)، وقد أشار الدوري^(١١) إلى أن ابن عساكر عزا ذلك إلى الضباب الذي أعاق الرؤية لدى الروم البيزنطيين بقوله:

(١) الفراء، طه بن عثمان: جغرافية موقعة اليرموك، مجلة الدارة، عدد: ٣، ديسمبر/ ١٩٨٦م، ص ٣٤.
(٢) اختلف في الفرسخ، فقال قوم: هو فارسي معرف وأصله فرسك، ويقال: انتظرتك فرسخاً من نهار: أي طويلاً، والفرسخ عند فلكي العرب يقارب (٥٩١٩م)، ويساوي ثلاثة أميال. القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ/ ٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ج: ٤١، ص ٤١٢. خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص ٣٤٣. أبو شبيكة: خلافة بني أمية عند علي بن الحسين المسعودي، ص ١٣٥.
(٣) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١٥٤.

(٤) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٣٣. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٠٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٠٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٦١.

(٧) الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٨) عون، عبد الرؤوف: الفن الحربي في صدر الإسلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦١م، ص ٢٢٨.

(٩) الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٥٥. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ١٥٧.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٠٠. ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه أيضاً.

(١١) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٠٨.

"فأخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون، وهو يوم ذو ضباب"^(١)، ومنهم من قال: "كان ذلك في الليل"^(٢)، وهذا ما يرجح أن السقوط كان بسبب صعوبة الرؤية في الليل وليس بسبب الضباب لأن زمان المعركة كان في فصل الصيف وهذا كله ترجيح ليس أكثر، وبالتالي حقق العرب نصراً ساحقاً على جيوش الروم البيزنطيين وذلك بفضل حسن استخدامهم للعامل الجغرافي واستغلاله في أرض المعركة.

كما أن طبيعة السهل في بيسان أسهمت بدور كبير في معركة فحل^(٣)؛ فقد تم تفجير الأنهار من قبل الروم البيزنطيين في سنة (١٣هـ/٦٣٤م)، وهذا أثر في جعل السهل ذو الطبيعة الرملية يمتلأ بالماء، وتصبح أرضه طينية، وعليه أصبح عائقاً أمام تقدم قوات المسلمين، وفي هذا قال الطبري: "فلما نزلت الروم بيسان بثقوا"^(٤) أنهارها؛ وهي أرض سبخة، فكانت وحلاً، ونزلوا فحلاً - وبيسان بين بين فلسطين والأردن - فلما غشيها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم، وحلت خيولهم، ولقوا فيها عناءً، ثم سلمهم الله - وسميت بيسان ذات الردغة^(٥) لما لقي المسلمون فيها..^(٦) إذاً كما كان لمياه الأنهار دور في هذه المعركة^(٧) كان للسهل وطبيعته أثراً كبيراً جداً، وظفر المسلمون بهم حيث كان الله يصنع للمسلمين^(٨).

ومن خلال ما تم ذكره من أمثلة يمكن القول أن العوارض الجغرافية تبقى ذات أثر كبير إما سلباً أو إيجاباً على مجريات الأحداث والوقائع.

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ١٥٧.

(٢) الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٥٥. عواد: محمود أحمد سليمان: الجيش والقتال في صدر الإسلام - دراسة عن المقاتلة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٢٤٧.

(٣) فحل: من قرى الشام، تقع شرقي نهر الأردن قريبة منه، وهي إلى الجنوب الغربي من الجزيرة، وغربي بصرى وهي من أرض فلسطين، وفيها حدثت معركة كبيرة بين الجيش العربي بقيادة خالد بن الوليد وبين الروم، وفي هذه المعركة انتصر العرب على الروم. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٨٤-٨٥.

(٤) بثق النهر: كسر شطئه لينبتق الماء، واسم الموضع الذي يكسر من النهر: البثق، وجمعها: بثوق، وانبتق: انفجر. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٨٦٥.

(٥) الردغة: الوحل الشديد. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٧٨٢.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٣٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٧٨.

(٧) راجع مبحث "أثر المياه" فقد ورد فيه ذكر لمعركة فحل وأثر مياه الأنهار فيها.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٠. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٣٤٥.

ثالثاً- أثر الصحراء.

سلف أن تمت الإشارة إلى أن العرب المسلمين أدركوا أثر الصحراء وأهميتها في معاركهم، وعليه حاول المسلمون الاستفادة من مظاهر الطبيعة بما فيها الصحراء وغيرها.

وبما أن العرب المسلمين عدّوا أن الصحراء ملازمهم يعتصمون بها، ويستندون إليها في معاركهم، ويتخذونها حاجزاً بينهم وبين أعدائهم^(١)؛ فقد قاتلوا على أطراف الصحراء التي كانت عوناً لهم في سبيل تحقيق النصر على الأعداء في أكثر من موقع من مواقع القتال، وأهم ما يمكن ذكره في سبيل توضيح أثر الصحراء ودورها في المعارك أن العرب المسلمين قاتلوا محاولين جعل ظهرهم للصحراء وخاصة في معارك فتح العراق^(٢)، لأنها تمكنهم من الفرار خلالها إذا حصلت الهزيمة، وتؤمن لهم حرية التنقل والحركة، وذلك جرياً على المبدأ العسكري الذي يقول: "أعط ظهرك للصحراء تسلم"^(٣)، وحاولوا أن لا يتقدموا خطوة في أرض العدو إلا إذا كانوا قد استولوا على يمينهم وشمالهم من المدن والبلاد، وكانت تلك القاعدة مرعية عندهم يحرصون عليها كل الحرص^(٤).

ويتجلى ذلك عندما وصل الجيش الذي أرسله الخليفة أبي بكر الصديق بقيادة عمرو بن العاص إلى فلسطين، حيث جمع عمرو بن العاص المسلمين وشاورهم في أمرهم وفي حربهم للروم البيزنطيين وبينما هم كذلك، قالت طائفة منهم: "أيها الأمير ارجع بنا إلى البرية حتى نكون في بطن البداء، فإنهم لا يقدرّون على فراق القرى والحصون، فإذا جاءهم الخبر أنا توسطنا البرية يتفرق جمعهم، وبعد ذلك نعطف عليهم، وهم على غفلة فنهزمهم إن شاء الله"^(٥).

يلاحظ الباحث من خلال ما تقدم ذكره أن المسلمين الذين أشاروا على القائد عمرو بن العاص بأن ينزل بهم على البرية كانوا على علم مسبق بأن طبيعة المنطقة البعيدة عن القرى والحصون هي المجال الذي اعتادوا على القتال فيه وبالتالي تبقى لهم حرية المقاومة والانتقال ومناورة الأعداء.

ومما يجب ذكره أن الأعداء قد حاولوا استغلال هذا العامل أيضاً، وبرز ذلك في قتال خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي أرسله الخليفة أبو بكر رضي الله عنه لقتال أهل الردة بقيادة طليحة بن خويلد الأسدي عام (١١٠/٦٣٢م)؛ فبعد أن علم طليحة بن خويلد الأسدي أن قبائل طيء قد انضمت إلى صفوف المسلمين وقبل أن يصل خالد بن الوليد رضي الله عنه بقواته المتحالفة إليه قام ببث العيون والطلائع على

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٢.

(٢) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ١٢٨.

(٣) الفراء، طه عثمان: جغرافية موقعة اليرموك، مجلة الدارة، العدد: ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٢٧.

(٤) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٧٨.

(٥) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١٧.

فُجّاج- أطراف- الصحراء حتى لا يؤخذ على حين غرة، وعلم منهم بزحف المسلمين إليه قبل أن يصل المسلمون إلى بزاخة؛ فعباً قواته استعداداً للمعركة ووضع خطة قائمة على الغلبة ومحاوله استغلال الصحراء والفرار في حال الهزيمة^(١)، وهذا ما حصل بعد الهزيمة الساحقة التي مني بها. راجع الخريطة (١١-١٢).

وبعد ذلك سار خالد بن الوليد إلى البطاح^(٢) من أجل قتال مالك بن نويرة^(٣) الذي ارتد عن الإسلام، وعندما علم مالك بخبر قدوم خالد بن الوليد لملاقاته في البطاح هاله الأمر وأدرك أنه عاجز عن ملاقاته خاصة وأن البطاح بلد صحراوي، تقع في الجزء الغربي من نجد ولهذا أمر مالك أتباعه بالتفرق والهروب في ثنايا الصحراء ونهاهم عن الاجتماع والمقاومة^(٤).

أما في معركة ذات السلاسل التي حصلت سنة (١٢هـ/٦٣٣م)^(٥)، بين القائد خالد بن الوليد ﷺ وبين الفرس بقيادة هرمز، يلاحظ أن خالد بن الوليد ﷺ عندما اتجه من اليمامة إلى الحيرة بعد أن انتهى من حروب الردة فيها، قام بتقسيم جيشه إلى ثلاث فرق وجعل لكل فرقة من الجيش دليل^(٦) حيث أورد الطبري قائلاً بسنده عن المغيرة بن عتبة: "فسرح - خالد بن الوليد - المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، وخرج خالد ودليله رافع.." ^(٧).

يمكن من خلال هذه الرواية القول بأن القائد خالد بن الوليد ﷺ أدرك أن التوجه من اليمامة إلى الحيرة بالعراق سيتم من خلال السير في الصحراء التي تحتاج إلى أدلاء تعرف أماكن المياه وتموضعها، وعليه كان اختياره لأدلاء ترافق الجيش في مسيرته لقتال الفرس في العراق.

(١) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ٦٩.

(٢) البطاح: ماء في ديار بني أسد بن خزيمه، وهناك كانت الحرب بين خالد بن الوليد وأهل الردة بقيادة مالك بن نويرة، وقتل مالك بن نويرة بعد أن تم أسره. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٤٤٥.

(٣) مالك بن نويرة (ت ١٢هـ/٦٣٤م): مالك بن نويرة بن جمره بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة: فارس وشاعر، يقال له "فارس ذي الخمار"، أدرك الإسلام وأسلم و ولاه الرسول ﷺ صدقات قومه، ولما صارت الخلافة إلى أبي بكر ﷺ ارتد عن الإسلام كما قيل، فسار إليه خالد بن الوليد وقبض عليه في البطاح، وأمر ضرار بن الأزور الأسدي فقتله. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٥، ص ٢٦٧.

(٤) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ٧٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٣٩.

(٦) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٠٠. المغوث: أطلس الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، ص ٧٠.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٤٨.

وخلال المعركة قام خالد بن الوليد ﷺ بعد أن أظهر للعدو أنه يريد الاجتماع مع العدو في "الحفير"^(١) عطف فجأة نحو "كاظمة"^(٢) وهذا كان له أثراً كبيراً في تحقيق النصر لأن انتقال هرمز قائد الفرس من الحفير إلى كاظمة لقتال المسلمين كلفه كثيراً من الجهد وأرهق جيشه لأن جنده لم يألفوا السير في رمال الصحراء الملتهبة، بينما كان خالد بن الوليد ﷺ قد حقق ما أرادوه وهو القتال في بيئة صحراوية رملية شبيهة بأرضهم وهي أرض كاظمة التي تلائم طبيعتهم القتالية^(٣)؛ فعلى الطريق الغربي لبلدة كاظمة اصطف الفرس لمواجهة العرب القادمين من الصحراء بقيادة خالد بن الوليد^(٤)، الذين جعلوا ظهرهم للتلال والصحراء، وانتقل بجيشه إلى السهل الرملية بعد أن قطع مجموعة من التلال التي كانت رملية تشكل جزءاً من الصحراء^(٥). راجع الخريطة (١٤).

وفي سبيل تحقيق المبدأ السالف "أعط ظهره للصحراء تسلم"، خاض العرب عدة معارك كانت على طرف الصحراء ومنها ذات السلاسل سنة (١١٢هـ/٦٣٣م)، ومعركة الفراض^(٦) سنة (١١٢هـ/٦٣٣م)، ومعركة البويب (١١٣هـ/٦٣٤م)^(٧)، ومعركة القادسية سنة (١١٤هـ/٦٣٥م)^(٨)، حيث وقعت تلك المعارك على أطراف الصحراء، فكانت الصحراء وراء ظهورهم تحميها^(٩)، وكان النصر فيها كلها حليف المسلمين مستغلين عوامل الطبيعة في سبيل ذلك^(١٠).

(١) الحفير: ماء لباهلة، بينه وبين البصرة أربعة أميال، وقال الحفصي: إذا خرجت من البصرة تريد مكة فتأخذ بطن فلج فأول ماء ترد الحفير. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٢٧٧.

(٢) كاظمة: على سيف البحر، تقع في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٤٣١.

(٣) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٤) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٨٠.

(٥) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٥٧.

(٦) الفراض: قرب أبو كمال تقع في تخوم العراق من الناحية الشمالية، قريبة من بلاد الشام، متصلة بالجزيرة، وفيها بعض الحاميات الفارسية والرومية، ويجري نهر الفرات من شمالها، حدثت فيها معركة بي الجيش العربي بقيادة خالد بن الوليد والقوات المتحالفة من الفرس والعرب والروم، وهي آخر معارك العراق في زمن أبي بكر ﷺ. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٨-٧٩.

(٧) البويب: اسم نهر كان بالعراق يأخذ من الفرات. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٨.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٩٩.

(٩) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٥. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٤.

(١٠) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٧٥.

وبعد أن تم للمسلمين فتح الحيرة أواخر سنة (١٢هـ/٦٣٣م)^(١) بعد عدة معارك أسهمت مياه الأنهار الأنهار وضفافها بالدور الأكبر فيها، نظروا إلى الشمال فوجدوا أن البادية الصحراوية للعراق قد لطف مناخها واعتدل، واكتست في أيام الربيع بعض النباتات والأزهار وكان هذا السبب الأول للتقدم من أجل إكمال الفتح حتى بلغوا الفرات^(٢).

كما لم تقف الصحراء عاملاً سلبياً مؤثراً على حركة جيوش الفتح، بل أسهمت في بعض الأحيان بتذليل عمليات المناورة والانتقال من جبهة قتالية إلى أخرى، وهذا ما حصل مع القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي برهن على شخصيته الحكيمة وقدرته على استغلال الظروف الجغرافية الطبيعية وذلك عندما أرسل إليه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه كتاباً يطلب منه التوجه إلى بلاد الشام^(٣) لنصرة جبهة المسلمين هناك في سنة (١٣هـ/٦٣٤م)^(٤) ومساعدتهم في حروبهم ضد الروم البيزنطيين قائلاً: "إني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم..."^(٥) فكان عليه التحرك بسرعة لكي يقطع المفازة المفازة التي تفصل بين الحيرة والبصرة^(٦) وينتقل إلى البصرة على أسرع وجه بعدما وافق على أمر الخليفة قائلاً: "السمع والطاعة لله ولخليفة رسول الله"^(٧)؛ فعمد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى تنفيذ أمر الخليفة الصديق رضي الله عنه وسار بنصف جيش العراق باتجاه بلاد الشام^(٨) بعد أن ترك المثنى بن حارثة الشيباني^(٩) بالنصف الآخر من الجيش على العراق.

وهنا تظهر بعض الأسئلة، كيف تصرف القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه في سبيل الوصول إلى البصرة؟ وكيف تجلّى أثر الصحراء في انتقال القائد؟ وكيف واجه القائد أثر هذا العامل وتمكن من مواجهة هذا العامل وتثنيه عن فاعليته القوية في سبيل وصوله إلى هدفه؟.

(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٤٨.

(٢) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٤.

(٣) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١١٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٦.

(٥) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٢٢. الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٣٣٣.

(٦) البصري: في موضعين، أحدهما بالشام من أعمال دمشق، وهي قسبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، ولما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام وجدهم نزولاً بالبصرة، واقتتح المسلمون جميع أرض حوران، وغلبوا عليها وقتلوا في سنة ١٣هـ. الحموي: معجم البلدان، ج: ١، ص ٤٤١.

(٧) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٢٢.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٠٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٦.

(٩) المثنى بن حارثة الشيباني (ت ١٤هـ/٦٣٥م): صحابي فاتح، من كبار القادة. أسلم سنة ٩هـ، وفتح بلاد الفرس في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أمده أبو بكر بخالد بن الوليد رضي الله عنه، شهد عدة وقائع، وأمده عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسعد بن أبي وقاص، فمات قبل وصول سعد إليه. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٥، ص ٢٧٦.

إن قائداً بشجاعة وحنكة خالد بن الوليد ﷺ لم يكن من المستحيل عليه أن يتصرف بما يحقق له الانتصار على عامل الصحراء الجغرافي بقليل من التفكير الواعي المنظم والذي سخره مع اهتمامه لتحقيق النصر على من حاول سابقاً تحقيق النصر عليه، وحنكته استطاع الانسحاب في الصحراء^(١).

وللإجابة على النقاط السالفة يمكن القول أن القائد خالد بن الوليد نظر نظرة فاحصة إلى الطريق التي سيتم السير من خلالها، كان هناك طريقين: الأول طريق جنوبي يمر عبر دومة الجندل إلا أنه طويل والتحريك عليه يستغرق وقتاً طويلاً، والطريق الآخر هو الطريق الشمالي يمتد على طول نهر الفرات ويؤدي إلى شمال شرق بلاد الشام؛ إلا أنه كان محفوفاً بالمخاطر لأن الحاميات الرومانية الموجودة على الفرات قد تسد الطريق عليه^(٢)، وقد وجد أن أفضل طريق يمكنه من الوصول إلى بصرى هو طريق يكون خالٍ من قلاع الفرس والروم البيزنطيين وحامياتها، وبما أن الفرس والروم البيزنطيين لم يكونوا على علم بمسالك الصحراء فلم يكن هناك حاميات على الطريق الصحراوي، وأدرك القائد خالد بن الوليد ﷺ خطورة موقف جيوش الشام مما حتم عليه أن يسلك أقصر الطرق المؤدية إلى بلاد الشام، فكان لابد من اجتياز الصحراء وهي مفازة شاسعة على خالد بن الوليد ﷺ أن يجتازها وتحتاج إلى خمسة أيام بلياليها دون ماء فيها أو كلاً، ويعد اجتيازها مغامرة مميتة إن لم ينتصر فيها على سراب رمال الصحراء، وعلى عطشها ولهيبها وحرّ شمسها خمسة أيام^(٣)؛ إلا أنه اختاره ليتوارى عن أنظار الروم البيزنطيين ويحقق لهم عنصر المباغة والمفاجأة.

وقد اختلفت المصادر والمراجع^(٤) في تحديد تأريخ انطلاق خالد بن الوليد ﷺ بجيشه من الحيرة والطريق التي سار فيها، والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف نظرة المؤرخين إلى القرار الذي اتخذه القائد خالد ﷺ، ويرجح أن السبب هو اتساع المنطقة الصحراوية التي كان العرب أحراراً في التنقل من خلالها دون أن يكون لخصومهم أدنى رقابة عليهم، أو معرفة بطرق البلاد الصحراوية^(٥).

(١) راجع أثر الصحراء في عصر الرسول محمد ﷺ، الفصل الرابع من البحث.

(٢) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٣٣٥.

(٣) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ١٦٩.

(٤) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٢٣. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٠٦. الدرة: تاريخ العرب

العسكري، ص ٣٢٩. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٦٦.

(٥) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٣٢.

وما يهم أن خالد بن الوليد ﷺ سار من "الحيرة إلى الدومة"^(١)، ثم طعن في البر إلى قراقر^(٢) أي كانت طريقاً صحراوية^(٣). ومن هنا جاء الاختلاف في مسير خالد بن الوليد ﷺ بسبب تشابه الأسماء^(٤)، وفي سبيل إيضاح كيف أن القائد استطاع الانتصار على عامل الصحراء لابد من ذكر رواية المسير من قراقر إلى سوى، وفي ذلك قال الواقدي:

"وأما خالد لما وصل إلى أرض السماوة قال: أيها الناس إن هذه الأرض لا تدخلونها إلا بالماء الكثير لأنها قليلة الماء ونحن في جيش عظيم والماء معكم قليل فكيف يكون الأمر؟ فقال له رافع بن عميرة الطائي: أيها الأمير إنني أشير عليك بما تصنع، فقال: يا رافع أرشدك الله بما نصنع ووفقك الله للخير، قال: فأخذ ثلاثين جملًا وعطشها سبعة أيام ثم أوردوها الماء فلما رويت حزم أفواهاها، ثم ركبوا المطايا وجنبوا الخيول وساروا فكانوا كلما نزلوا منزلاً أخذوا عشرة من الإبل يشقون بطونها ويأخذون ما يجدون من الماء في بطونها فيجعلونه في حياض الأدم، فإذا برد سقوه للخيول وأكلوا اللحم ولم يزلوا كذلك حتى تمت الإبل وفرغ الماء وقطعوا مرحلتين بلا ماء وأشرف خالد ومن معه على الهلاك. فقال خالد: يا رافع قد أشرفنا على الهلاك والتلف أتعرف لنا ماء ننزل فيه؟ وكان رافع قد رمدت عيناه فقال: إذا أشرفتم على أرض سهلة فأعلموني. فلما أشرفوا على ذلك أعلموا رافعاً بذلك... وسار على راحلته.. حتى أقبل على شجرة من الأراك وقال: احفروا هنا. قال: فحفرت العرب وإذا الماء قد طلع كالبحر..."^(٥).

وهكذا سار القائد خالد بن الوليد بالجيش ومعه الأدلاء لتنفيذ أكبر مآثرة عسكرية في التاريخ، متخذاً الصحراء القاحلة طريقاً له ولجيشه^(٦)، وكانت الرمال اللاهبة تلفح الوجوه وتوسع الأقدام^(٧)، إلا أن المسلمين كانوا يستعينون على ذلك بأكل لحوم الإبل ويشربون مما معهم من الماء^(٨)؛ فكانت

(١) الدومة: بدومة هنا ليست دومة الجندل، وهي من قرى غوطة دمشق، وذلك لأن أكيدر بن عبد الملك كانت لديه دومة في الحيرة قبل دومة الجندل، وكان أكيدر بن عبد الملك يتردد بين المنزلين. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص: ٤٨٨.

(٢) قراقر: واد لكلب بالسماوة نزله خالد بن الوليد عند قصده الشام. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص: ٣١٧.
(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص: ٤٠٨. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص: ٩٩.

(٤) للتعرف على تفاصيل الطريق الصحراوي الذي قطعه خالد، انظر: مادون، محمد علي: مسيرة خالد أو الدرب المفقود، مراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، مؤسسة الشؤون الدينية، ط: ١، قطر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص: ١٢.

(٥) فتوح الشام، ج: ١، ص: ٢٣. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص: ٤١٦.

(٦) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص: ١٠٢.

(٧) مادون: مسيرة خالد أو الدرب المفقود، ص: ١٣.

(٨) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص: ٣٣٨. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص: ٢٦٩.

الباب الثاني: دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال عصر الخلفاء الراشدين

"الإبل الصهاريح" أول طريقة استخدمت في التاريخ العسكري^(١)، أي أن يتم استخدام الإبل كطريقة احترازية للتصدي للعطش القاتل إذا ما تم السير خلال الصحراء عدة أيام. انظر الخريطة (١٦).

وفي هذه الرواية ما يؤكد على الفكر الواعي الذي يمكن من خلاله تذليل الصعوبات، لأنه لو لم يكن الدليل والقائد على مستوى من المقدرة، والتمتع بالشخصية الواعية العارفة بدور العامل الجغرافي الصحراوي الخطير لما قاموا بهذا العمل الذي من خلاله تجاوزوا هذه المنحة الكبيرة، وهذا ما جعل الشعراء يتغنون بالدليل الذي كان واعياً رغم رماد عينيه؛ فقالوا فيه شعراً:

لله دُرٌّ رافع أنَّى اهتدى فَوَزَّ من فُرَاقِرٍ إلى سوى
خمساً إذا ما سارها الحبس بكــــى ما سارها من قبل إنسٍ يُرى^(٢)

ومما سلف يستدل أن القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه قد حقق الاستراتيجية وذلك من خلال السير في الصحراء ومفاجأة العدو الذين لم يحسبوا له حساباً، وسار بأقصر الطرق المؤدية إلى بلاد الشام^(٣)، بعد أن اعتمد على خطة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله؛ فكان يكمن في النهار ويسير في الليل، لا خوفاً من العدو، بل توخياً للصحراء ولهيبتها وشمسها المحرقة التي تلهب القلوب والحناجر ظمأً^(٤). راجع الخريطة (١٦).

وبرز دور الصحراء أيضاً عام (١٥٠هـ/٦٣٦م)^(٥) وهو العام الذي كانت فيه معركة اليرموك؛ فبعد أن وصل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى مكان اجتماع القادة في بلاد الشام في الجابية تم عقد اجتماع بين القادة من أجل التشاور في اختيار المعسكر لحشد جيش المسلمين، وبعد أن قدم القادة آراءهم أعطى القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه رأيه مشيراً إلى أهمية البقاء على طرف الصحراء من أجل ضمان وصول الإمدادات والتموين من القواعد التي انطلقوا منها وهي شبه الجزيرة العربية؛ فقال: "أعلم أيها الأمير إنك إن أقمت في مكانك هذا فإنك تعين على نفسك، لأن هذه الجابية قريبة من قيسارية وفيها

(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٧٦.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٢٤١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٧.

القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ص ١٥٥.

(٣) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٠٣.

(٤) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٧٦.

(٥) وقع اختلاف بين المؤرخين في التحديد الدقيق لوقعة اليرموك؛ فقد ذكر خليفة بن خياط أن تاريخ معركة اليرموك

هو سنة ١٥٠هـ/٦٣٦م. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٢٩-١٣٠.

قسطنطين ابن الملك هرقل...، والذي أشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا أذرعات^(١) خلف خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك، ويكون المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قريباً منكم متلاحقاً بكم وأنتم على فتح لقتال عدوكم وهي أرض واسعة لمجال الخيل...^(٢)؛ وبعدها أمر القائد أبو عبيدة الناس بالرحيل من الجابية إلى اليرموك. راجع الخريطة (١٩).

وبناءً على ما سلف يمكن القول إنَّ المسلمين حرصوا على بقاء المواصلات بينهم وبين قواعدهم مفتوحة من أجل وصول الإمدادات عن طريق الصحراء، وانسحبت القوات العربية حتى نزلوا "خلف اليرموك وجعلوا أذرعات خلف ظهورهم"^(٣)، وبذلك أمّنوا ظهورهم من أي حركة التفاف يقوم بها العدو، وحافظوا على اتصالهم بالصحراء وهو هدفهم الأساسي الذي حرصوا على تحقيقه في جميع المعارك، وفضلاً عن ذلك استطاعوا تأمين وصول الإمدادات من مركز الخلافة (المدينة المنورة) كما أشار لذلك القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه^(٤).

وفي سنة (١٤هـ/٦٣٥م) كتب المثنى بن حارثة الشيباني إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بأن الفرس اجتمعوا على يزدجر في المدائن^(٥)، ويخبره ببعوثهم وتحشدهم واستعدادهم للقتال^(٦)، فقال له:

(١) أذرعات: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب إليه الخمر، واختلف في تحديد موقعها فقائل أنها من البلقاء، وقائل أنها من حوران. الحموي: معجم البلدان، مج ١، ص ١٢٩. البلادي، عاتق بن غيث: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، ط: ١، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٢٢.

(٢) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١٥٣. وقد أورد ابن عساكر أن أمراء الأجناد اجتمعوا في خباء - خيمة - يزيد بن أبي سفيان وهم بالجابية حيث قال: "إن معسكركم هذا ليس بمعسكر إنني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولوا بينكم وبين مددكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات خلف ظهوركم يأتيكم المدد والخير". ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ١، ص ١٤٦.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ١، ص ١٤٦.

(٤) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٠٤.

(٥) المدائن: عبارة عن مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية، وهي سبع مدائن بناها الأكاسرة على طرف دجلة، وكان فتحها على يد سعد بن أبي وقاص سنة ١٦هـ في أيام عمر بن الخطاب. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٧٤. كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٣٠٦.

(٦) سويد، ياسين: الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٢٤٤-٢٤٥.

"نتح إلى البر، وادع من يليك، وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم؛ حتى يأتيتك أمري"^(١).

وبرزت أهمية البقاء على طرف الصحراء والاتصال بأرض العرب في المعارك من خلال وصية المثنى بن حارثة إلى خلفه على جيش العراق سعد بن أبي وقاص^(٢) سنة (١٤٠هـ/٦٣٥م)، ألا يقاتل الفرس في عقر دارهم بل يقاتلهم على حدود أرضهم، على أدنى حجر من أرض العرب؛ فإن انتصر لم يصعب عليه التقدم والتوغل في أرض الفرس، وإن كانت الدائرة عليه بقي على اتصال بجزيرة العرب وكان أعلم بطرق بلاده الصحراوية ومسالكها^(٣)، وفي ذلك أورد الطبري: "يذكر رأيهم - المثنى بن حارثة - لسعد ألا يقاتل عدوه وعدوهم في عقر دارهم، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، وأدنى مدرة من أرض العجم؛ فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم؛ وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم، وأجراً على أرضهم، إلى أن يرد الله الكرة عليهم"^(٤).

ثم جاء كتاب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يكن ليغفل أهمية العامل الجغرافي في معارك المسلمين وتجلى ذلك في وصيته للقائد سعد والتي ضمنها في كتابه إليه؛ فجاء كتابه يحمل نفس توصيات المثنى إلى القائد سعد الذي كان بشراف^(٥) وفي ذلك قال:

"إذا انتهيت إلى القادسية... فتكون مسالكك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر؛ ثم الزم مكانك فلا تبرحه؛ فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم؛ فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة؛ رجوت أن تنتصروا عليهم، وإن تكن

^(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٨٢. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٧٥. مكي، علاء الدين حسين خماس: فن الحرب عند العرب في العصر الراشدي، بيت الحكمة للإعلام والنشر والتوزيع، بغداد، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٣٤٧.

^(٢) سعد بن أبي وقاص (ت ٦٧٥هـ/١٢٧٥م): أبو إسحاق، الصحابي الأمير، فاتح العراق، ومداين كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب للخلافة، أحد العشرة المبشرين بالجنة، افتتح القادسية، ونزل أرض الكوفة، وظل والياً عليها طيلة مدة عمر بن الخطاب، مات في قصره بالعقيق. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٧٨.

^(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٠١. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٤. كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٨٧. النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٧٨.

^(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٩٠.

^(٥) شراف: ماء بنجد له ذكر كثير في آثار الصحابة، وهي بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الإحساء، وفيها ثلاث آبار كبار، وبها قُلب كثيرة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ٣٣١.

الأخرى كان الحجر في أديباركم؛ فأنصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم؛ ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل؛ حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة^(١).

إذاً من خلال ما تقدم يمكن القول أن الخليفة والقواد كانوا على علم بأهمية دراسة ومعرفة طبيعة المنطقة الجغرافية التي ستجري عليها المعارك، وهذا كان السبب في توجيه التوصيات والرسائل إلى القادة بأن يبقوا على اتصال بأرض العرب وعدم التوغل في منطقة كانت مجهولة بالنسبة للعرب في ذلك الوقت^(٢).

وفي فتوحات المسلمين التي حصلت في العصر الراشدي يمكن القول أن العرب قاتلوا على أطراف الصحراء في جزيرتهم العربية، ولم يتوغلوا كثيراً في البلاد التي لم يعرفوا جغرافيتها في زمن أبي بكر رضي الله عنه، لأسباب كثيرة منها أنهم يلجؤون إلى الصحراء إذا ما أفلح عدوهم في مناجزتهم، وليتمكنوا من أن يحموا ظهورهم بها، ويتخذوا منها خطأ لرجعتهم^(٣)، وقد تمكنوا في أغلب المعارك من جرّ الجيش الفارسي إلى مناطق عمليات تشبه تماماً مناطق العمليات التي قاتلوا عليها من قبل وكانوا يعرفون خصائصها الجغرافية وطبيعتها^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٩١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٠٢. حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، ط: ٦، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٤١٣.

(٢) الجبوري، نهاد عباس شهاب: تدابير الأمن العسكري في صدر الإسلام، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، العراق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٥١.

(٣) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٧٦.

(٤) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٣.

★ الفصل الثاني:

أثر المياه

أولاً- أثر مياه الآبار.

قال الهرثمي في مختصر سياسة الحروب: "لا تنزلن من عدوك منزلاً أبداً حتى تعرفه، وارتنه ذا ماء ومحتطب وكلاً ومرتفق، بحيث إن أردت أن تتقدم منه إلى عدوك قدرت على ذلك، وإن أردت التأخر عنه أمكنك ذلك"^(١).

من خلال المبدأ الذي أشار إليه الهرثمي يمكن استنتاج أهمية الماء بشكل عام وخاصة في المعارك، كونها عنصر الحياة بالنسبة لأفراد الجيش، ومنفذ الدولة للهجوم على الأعداء^(٢)، وقد يطرح أحدهم الأسئلة التالية، كيف ظهر أثر المياه في العصر الراشدي؟ وفي أي شيء ترك أثره؟ وكيف تعامل الخلفاء والقادة العرب مع هذا العامل الهام؟.

هنا سيقدم هذا المبحث تعليلاً للنقاط المطروحة مبيناً أثر المياه على الأحداث في العصر الراشدي، وكيفية تسخيرها لصالح كل من الطرفين من خلال الوقوف على أهم ما جاء في المصادر التي أظهرت أثر المياه سواءً مياه الآبار أو الأنهار أو حتى البحار.

فالمياه دون أدنى شك وريبة تشغل دوراً كبيراً ومؤثراً سلباً أو إيجاباً على نتائج المعارك والأحداث، وقد تجلّى أثر المياه في كل معارك المسلمين وبشكل خاص في فتوح العراق التي جرت على مسرحه- أي معارك المسلمين مع الفرس- لكثرة ما فيها من المستنقعات والمياه التي كان المقاتل العربي غير معتاد على القتال فيها، بعد أن اعتاد القتال في مناطق صحراوية مكشوفة^(٣)؛ فكان للمياه دور في فتوحات تلك المنطقة، ولتوضيح ذلك لابد من إلقاء الضوء على بعض الأحداث التي أثرت فيها المياه بشكل أو بآخر ومنها مياه الآبار.

(١) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣١.

(٢) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله، ص ١١.

(٣) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٣.

لقد حدثت أغلب المعارك في قتال المرتدين قرب مياه الآبار، وذلك لأن قتال المرتدين كان في مسرح شبه الجزيرة العربية الصحراوية التي تقل فيها الأنهار ومجاريها، وبالتالي كان لابد من التحصن قرب مياه الآبار، ومثال ذلك ما حصل سنة (١١١/٦٣٢م) في المعركة - معركة بزاحة^(١) - التي خاضها خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد أن أرسله الخليفة أبو بكر رضي الله عنه لقتال أهل الردة بقيادة طليحة بن خويلد الأسدي؛ فقد عسكر طليحة الأسدي على ماء يقال له "قطن"^(٢) وفي ذلك ذكر ابن إسحاق: "أمّر أبو بكر خالد بن الوليد على الجيش... وعهد إلى خالد بن الوليد وأمره أن يصمد لطليحة وهو على ماء يقال له قطن، وماء آخر يقال له غمر مرزوق ثم رجع إلى المدينة"^(٣). وبعد أن تمت هزيمة طليحة وفراره عبر الصحراء اتجهت فلولهم نحو ماء "غمر مرزوق"^(٤) فاتجه خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم فقتل منهم ناساً كثيراً^(٥). راجع الخريطة (١٢).

وأثناء توجهه العلاء بن الحضرمي^(٦) إلى قتال أهل الردة في البحرين سنة (١١١/٦٣٢م) حصل ما يشبه المعجزة للمسلمين وذلك بتفجر عين للماء لم تكن موجودة في صحراء الدهناء^(٧)، وما يهم هو أثر تلك العين التي لولا أن ظهرت لكان الهلاك هو المصير الحتمي للجيش المتجه من أجل قتال المرتدين وفي ذلك ذكر الطبري عن منجاب بن راشد الذي كان في تلك الواقعة وقص ما حصل معهم:

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٢٥٤.

(٢) قطن: ماء في أرض بني أسد من ناحية فيد. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٣٧٥.

(٣) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٠٢. نقلاً عن ابن إسحاق. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٢٤٩.

(٤) الغمر: ماء من مياه بني أسد، وقد نزله خالد بن الوليد بعد أن حسن إسلام طيء. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٢١١-٢١٢.

(٥) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ٦٩.

(٦) العلاء بن الحضرمي: عبد الله بن عباد أكبر بني ربيعة بن مالك بن أكبر بن عوف بن مالك بن الخزرج بن أبي بن الصدف، من حضرموت، وحليف بني أمية، ولاه الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم البحرين، وتوفي النبي وهو عليها فأقره أبو بكر خلافة كلها، ثم أقره عمر بن الخطاب، وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب، قيل سنة ٢١ هـ وهو والياً على البحرين، واستعمل عمر بعده أبا هريرة. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص ٧١.

(٧) الدهناء: أرضٌ دهن من الحسن والحساء، والدهان: الأديم الأحمر، وقالوا في قوله تعالى: فكانت وردة كالدهان، وقالوا: شبهها في اختلاف ألوانها من الفزع الأكبر بالدهن، ولعل الدهناء سميت بذلك لاختلاف النبات والأزهار في عراضها، وتقع شرقي هضبة نجد من أرض الحجاز. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٤٩٢. المغلوث: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، ص ١٥٠.

"وسلك - العلاء بن الحضرمي - بنا الدهناء، حتى إذا كنا في بحبوحتها - أطرافها.. وأراد الله أن يرينا من آياته، نزل - العلاء - وأمر الناس بالنزول، فنفرت الإبل في جوف الليل؛ فما بقي عندنا بعير ولا زاد ولا مزاد.. ونادى منادي العلاء: اجتمعوا، فاجتمعنا إليه، فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم؟ فقال الناس: وكيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحم شمسنا حتى نصير حديثاً! فقال: أيها الناس؛ لا تراعوا، أستم مسلمين؟!... ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بنا، فلما قضى صلاته جثا لركبتيه وجثا الناس، فنصب في الدعاء ونصبوا معه؛ فلمع لهم سراب الشمس؛ فقال: ماء، فقام وقام الناس، فمشينا إليه حتى نزلنا عليه، فشربنا واغتسلنا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل، فأرويناها وأسقيناها العلل بعد النهل^(١)..^(٢). وفي هذه الرواية تبرز أهمية الماء خاصة وأنه "لم يكن بهذا المكان ماءً ناقعاً قبل اليوم"^(٣).

فلم يكن هناك ماء، لكن بمعجزة إلهية لنصر المسلمين، ظهر الماء بعد أن تضرعوا لله بالدعاء وتحقق لهم ما أرادوا؛ فظهرت عين الماء التي ساعدتهم على المسير في طريقهم بعد أن أسقوا الإبل وملأوا قربهم.

وفي سبيل إيضاح الأهمية الاستراتيجية للماء يمكن القول أن معركة ذات السلاسل التي كانت سنة (١٢٠هـ/٦٣٣م)^(٤) بين القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين الفرس بقيادة هرمز، كانت معركة ماء بالدرجة الأولى لعدة اعتبارات ومنها:

- أن القائد خالد بن الوليد استعان بالأدلاء الذين يعرفون طرق الصحراء ومكامن المياه فيها.
- قسم جيشه ثلاث فرق وذلك لكي لا يستطيع العدو الإطباق عليهم ومباغتتهم، ومن أجل الوصول إلى أماكن تواجد المياه إن وجدت والسيطرة عليها.
- عندما عطف إلى كاظمة، سبقه القائد الفارسي هرمز إليها وعسكر على ماء هناك، وبالتالي كان موقف الفرس هو الأقوى^(٥).
- إدراك القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه أهمية هذا العامل الحيوي وأثره على سير المعركة، ولهذا بعد أن وصل إلى كاظمة ووجد أن هرمز قد استحوز على مائها عمد إلى محاولة حثّ الجنود من أجل الحصول على الماء قائلاً: "انزلوا وحطوا أثقالكم وجالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء

(١) العلل: هي الشربة الأولى، النهل: هي الشربة الثانية للإبل، أي عطشوا الإبل ثم تشرب بعدها شرباً حتى ترتوي. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٧.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٢٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٣٩.

(٥) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٠٠-٢٠٢.

لأصبر الفريقين وأكرم الجندين"^(١). وذلك لأن الماء كان بأيدي العدو وهو الجسر الذي يمكن من خلاله العبور إلى النصر، وكان له ما أراد^(٢).

ومن خلال ما تقدم يمكن القول إن معركة كازمة لم تكن معركة من أجل الفتوح بقدر ما كانت معركة بين الفريقين على الماء، ودليل ذلك حصولها على أطراف الصحراء التي جعلوها من خلفهم^(٣)، فكان للماء أثر كبير وانتهت بانتصار العرب على الفرس، وردهم على أعقابهم، وقام المسلمون بتعقب فلولهم واقتتلوا في معارك برز فيها أثر مياه الأنهار وهذا سيتم تناوله ثانياً. راجع الخريطة (١٤).

وبسنة (١٣هـ/٦٣٤م) كان العلاء بن الحضرمي يحاصر الزارة^(٤)، فخرج رجل من أهلها وصالحه، ودله على عين ماء خارجة من الزارة، وقد كانوا يشربون بها، وهنا استغل العلاء هذا العامل فماذا فعل؟

لقد قام بسد العين التي يشرب منها أهل الزارة من الخارج، فما كان من أهلها إلا المصالحة على ثلث ما في المدينة من الذهب والفضة^(٥)، فهل كان سيتمكن من فتحها دون استغلاله للعامل الجغرافي؟

وفي مقدمات معركة صفين التي حدثت سنة (٣٧هـ/٦٥٧م)^(٦) بين الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان عليه السلام، كان لمياه الآبار أثراً كبيراً جداً؛ فلما وصل جيش الخليفة علي بن أبي طالب إلى صفين بعد أن عبر على جسر الفرات، كان جيش معاوية قد احتل موارد الماء، في حين أن جيش الخليفة علي بن أبي طالب نزل في موضع ليس فيه ماء^(٧)، لأنه ليس في ذلك الموضع بئر بئر ماء (شريعة^(٨)) غير الذي استولى عليه معاوية وقد جعلها معاوية في يده، وما عدا تلك الشريعة أخراق (مناطق) عالية ومواقع إلى الماء وعرة وصعبة^(٩)، ووكل أبو الأعور السلمي مع أربعين

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص: ٣٤٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص: ٢٣٩. الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص: ٢٥٥.

(٢) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص: ٢٠٣.

(٣) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص: ٢٥٣.

(٤) الزارة: قرية كبيرة معروفة بالبحرين، وفيها عين الزارة، ومنها مرزبان الزارة، وفتحت في أيام أبي بكر سنة ١٢هـ/٦٣٣م على حد تعبير الحموي. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص: ١٢٦.

(٥) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص: ١٢٥.

(٦) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص: ٤٩٣.

(٧) المغلوث: أطلس الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام، ص: ١٨٢.

(٨) الشريعة: مورد الناس للاستسقاء، وقيل: مورد الشاربة كالمشركة. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص: ٧٣٢.

(٩) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٢، ص: ٥٦٩.

ألفاً^(١) لحماية هذه الشريعة^(٢)، وقد أصاب الناس عطشاً شديداً وجاء أصحاب الخليفة يشكون العطش إليه^(٣). فكيف تصرف الخليفة في سبيل محاولة الخروج من هذا المأزق الحرج؟ وكيف تجلى أثر السيطرة على مياه الشريعة في تلك المنطقة؟ انظر الخريطة (٢٤-٢٥).

يستدل من خلال ما تم ذكره في المصادر^(٤) أن الحصول على الماء كان المسوغ الأول للقتال بين جيش الخليفة علي رضي الله عنه وجيش الشام^(٥)؛ فعندما شكا الناس إلى الخليفة قلة الماء والعطش الشديد الذي أصابهم، وأنه لا يوجد مورد ماء غير الذي استولى عليه أهل الشام قال لهم: "فقاتلوهم عليها"^(٦)، وأرسل إلى معاوية أحد رجاله^(٧) يفأوضه ويطلب منه أن يبعث إلى أصحابه فيخلي بينهم وبين الماء قائلاً:

"..وهذه أخرى قد فعلتموها منعمت الناس عن الماء والناس غير منتهين فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء.. فإن أردت أن نترك ما جئنا له ونقتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا"^(٨).

وعندما استشار معاوية أصحابه كان القرار قتالهم على الماء، وقد كان لعمر بن العاص رأي آخر قائلاً: "خلّ بينهم وبين الماء، فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريان"^(٩). وقال أيضاً: "أرى أن علياً لا يظماً وفي يده أعنة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات دون أن يشرب منه، وإنما جاء لغير الماء، فخلّ عن الماء حتى يشرب ونشرب"^(١٠). لكن رأي الغالبية كان الإجماع على القتال، والحيلولة دون وصولهم إلى الماء ومنهم الوليد بن عقبة الذي قال لمعاوية رضي الله عنه: "إن هؤلاء القوم قد منعوا عثمان عن الماء أربعين يوماً وحصروه؛ فامنعهم إياه حتى يموتوا عطشاً واقتلهم قاتلهم الله أنى يؤفكون".

(١) ورد عند ابن خياط أن عددهم كان خمسة آلاف. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٩٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٩٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٦٦.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٥٦٩. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٣، ص ٥-٩. المسعودي: مروج الذهب الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٩٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٦٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٤٩٧.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٤٩٧.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٥٦٩.

(٧) الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن معاوية بن ثور الكندي. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٣، ص ٥. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ١، ص ٢٤٩. وقد ورد عند ابن أعثم أنه أرسل شبيب بن ربعي الرياحي وصعصعة ابن صوحان العبدي.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٥٧٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٦٦-١٦٧.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٥٧٢.

(١٠) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٣، ص ٥. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٩٣.

وقد عاد أصحاب علي من عند معاوية بالخبيبة والرفض لما جاؤوا به، واغتم علي ﷺ لما أصاب أصحابه من العطش وقد خرج ليلاً فسمع أحد الرجال يقول :

أيمنعنا القوم ماء الفرات
وفينا عليّ وفينا الهدي
وفينا الصلاة وفينا الصيام
وفينا المناجون تحت الدجى^(١)

وهنا جرت وقائع المعركة الأولى عندما عاد رسول الخليفة علي ﷺ، وذلك بعد أن رفض معاوية وأصحابه أن يخلوا بين جيش علي والماء، قائلين: "موتوا عطشاً كما منعتم عثمان الماء"^(٢).

وقد أورد ابن أعثم ما يدل على أن القتال كان على الماء بالدرجة الأولى وأنه الهدف الأساسي الذي جعله أصحاب الخليفة في أولوياتهم، حيث ذكر على لسان الأشعث بن قيس^(٣) الذي خرج من خيمته إلى الخليفة علي ﷺ قائلاً: "يا أمير المؤمنين! أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا وسيوفنا في رقابنا؟ خل عني وعن الناس؛ فوالله لا رجعت عن الماء دون أن أردّه أو اموت دونه!"^(٤).

فاقتتلوا على الماء بالنبال ساعة وبالرمح ساعة وبالسيوف حتى استطاع جيش العراق أن يبتزع زمام المعركة وكشف جيش الشام عن الماء حتى أزاحهم عنه^(٥)، وصار الماء في أيدي أصحاب الخليفة علي ﷺ. وعندها قال علي لأصحابه: "خذوا من الماء حاجتكم وخلّوا عنهم"^(٦). راجع الخريطة (٢٥).

ومما يلاحظ أن الخليفة علي بن أبي طالب لم يقابل أفعال معاوية وأصحابه بالمثل والدليل أنه لما تمكن أصحابه من الوصول إلى الماء وصار في حوزتهم، لم يمنع الماء عنهم وإنما قال: "خلوا بينهم وبين الماء ولا تمنعوههم عنه"^(٧).

إذاً من خلال ما تقدم يمكن القول أن معركة صفين وإن جرت في سهل صفيين الواسع، فقد كان لمياه الآبار أثراً بالغاً في الاقتتال ومحاولة كل من الفريقين أن يجعل هذا العامل الجغرافي الهام إلى جانبه في المعركة وبالتالي يكون موقفه هو الأقوى.

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٩٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٤٩٧.

(٣) الأشعث بن قيس: الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن معاوية بن ثور الكندي، شهد الأشعث اليرموك بالشام، ففقت عينه، ثم سار إلى العراق فشهد القادسية والمدائن وجولاء، ونهاوند، وسكن الكوفة وابتنى بها داراً وشهد صفين مع علي، وكان ممن ألزم علياً بالتحكيم، وتوفي سنة اثنتين وأربعين وصلى عليه الحسن بن علي ﷺ. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ١، ص ٢٤٩-٢٥١.

(٤) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٣، ص ٩.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٩٤.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ١٦٦-١٦٧.

(٧) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٣، ص ١٤.

ثانياً- أثر مياه الأنهار.

لا يمكن إلا الاعتراف بأن مياه الآبار والسيطرة عليها ليست وحدها من العوامل التي تؤثر على المعارك، بل كان لمياه الأنهار دوراً كبيراً في معارك المسلمين التي حصلت على جبهة العراق بشكل خاص، بسبب وجود نهري دجلة والفرات^(١) ودورهما الفاعل والمؤثر في أحداث تلك الفترة، ولتوضيح ذلك يمكن القول كما أشار الدوري^(٢) أن المعارك التي لعبت فيها الأنهار دوراً كبيراً كانت على قسمين: الأول، ما جرى من المعارك على ضفاف الأنهار. أما الثاني، ما جرى من المعارك التي عبروا فيها الأنهار، والبحث هنا ليس ليعطي تقسيماً للمعارك حسب حدوثها؛ بل ليلقي الضوء على الأثر الفاعل لمياه النهر على المعارك سواء حدثت على ضفاف النهر أو جرت من خلال العبور عليه.

إذاً جرى نوعين من المعارك على جبهة العراق وهي معارك الضفاف، ومعارك العبور، وفي الحالتين كان للأنهار دوراً كبيراً في ذلك، وذلك بسبب كثافة المستنقعات والمدن النهرية، أو القرية من النهر وهنا جرت أغلب المعارك- على طول الشريط النهرية^(٣)، ومثال ذلك:

معركة المذار^(٤) أو الثني^(٥) التي حدثت سنة (١٢٣/٦٣٣م) فهي من معارك الضفاف، حدثت على ضفاف نهر دجلة، والسبب في ذلك أن هرمز عندما علم بقدوم خالد بن الوليد أرسل رسالة إلى الإمبراطور أردشير يخبره بجموع العرب المسلمين؛ فأمدّه الإمبراطور أردشير بجيش قاده "قارن بن قريانس"^(٦)، سار قارن على امتداد الضفة اليسرى لنهر دجلة حتى وصل "المذار" ثم اجتاز دجلة،

(١) دجلة والفرات: نهران كبيران يمران من قلب العراق، ليرويا أرضه، وكانت أغلب المدن تنشأ على ضفافهما، أو قرية منهما وكانت أكبر مدنيهما "كتسفون" على نهر دجلة، والحيرة على نهر الفرات، وهناك بعض الانهار الصغيرة التي تتفرع عنها، ثم لا تلبث أن تصب فيهما ثانية، كما أن هناك تحويلات نهريّة فرعية تجف أيام الصيف، ويصلحان لجري السفن وهذا ما حصل في معارك خالد بن الوليد ضد الفرس. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٩.

(٢) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٥٤-٥٩.

(٣) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٤.

(٤) المذار: بلد يقع إلى الشمال من أبله- البصرة- بحوالي ١٠٠ كم، على الضفة الغربية لنهر دجلة، تكثر في أراضيها المستنقعات، وبخاصة في القسم الذي يقع بين دجلة والفرات، وهي غير صحية، لفساد تربتها ورائحتها، لهذا لا تصلح لتمركز الجيش فيها طويلاً. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٥.

(٥) الثني: نهر في المذار، والمذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط، وتسمى أيضاً وقعة المذار. الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٦٣.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥١.

وتحرك على امتداد الضفة اليمنى حتى وصل إلى نهر "مكيل - الثني"^(١)، وأثناء ذلك وصلته أخبار هزيمة هرمز في معركة كاظمة - ذات السلاسل - وهنا عسكر قارن دون أن يتقدم إلى ما وراء ضفة النهر الجنوبية، ولكن لماذا اختار قارن هذه المنطقة من أجل التحصن فيها؟ ولماذا جعل النهر "مكيل - الثني" خلف ظهره؟

إن قارن لم يكن غافلاً عن دور النهر فرأى أن أفضل مكان للتحصن فيه هو أن يجعل النهر وراء ظهره وبذلك يؤمن مؤخرته، كما يستطيع أن يحارب بأسلوب جبهة واحدة كما اعتادوا القتال على هذه الطريقة وذلك بعد أن وصلت إليه فلول المنهزمين وأخبروه بوجوب القتال على جبهة واحدة قائلين: "إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً؛ فاجتمعوا على العود مرة واحدة.. ففعلوا وعسكروا.."^(٢). انظر الخريطة (١٥).

وعليه جعل الفرس بقيادة قارن النهر وراء ظهورهم، والأهوار تحميهم من جهة الشرق، وبالتالي كانوا في مأمن من أي حركة التفاف يمكن أن يقوم بها خالد بن الوليد، وكان قارن قد جهز عدد من القوارب وضعها على شاطئ المذار قرب ضفة النهر تحسباً لأي طارئ مفاجئ^(٣)، وقد التقى القائد خالد ﷺ وقواته بجيش الفرس على شاطئ المذار^(٤)، فشن هجوماً صاعقاً على صفوف الفرس وراح قارن صريعاً، فخرج قائدان من قواد الفرس سرعان ما قتلا، أما قوات الفرس صمدت وقاومت هجوم العرب المسلمين في بادئ الأمر^(٥)، لكن سرعان ما ظهرت الفوضى تدب في صفوفهم ودب الرعب في قلوبهم فانهمزمت فلولهم باتجاه النهر، ثم استخدمت السفن من أجل الهروب إلى الضفة الأخرى^(٦)؛ وفي ذلك يروي الطبري: "... فضموا السفن ومنعت المياه المسلمين من طلبهم..."^(٧).

ومما سلف تجلّى أثر النهر في هروب الفرس وفرارهم، ولولا السفن لما نجا أحد من الفرس، وقد حال النهر بين المسلمين وبين ملاحقة الفرس؛ لأن المياه أعاققت تقدم المسلمين الذين كانوا خيالة لا

(١) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٦٣.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥١.

(٣) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٨٣.

(٤) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٥٦. الداقوقي، حسين علي:

خالد بن الوليد وتحرير العراق، مجلة الأستاذ، جامعة بغداد، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٦٤. النجار: الخلفاء

الراشدون، ص ٨٣.

(٥) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٦٦.

(٦) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٦٦. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٠٤. طقوش: تاريخ الخلفاء

الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ١٣٥.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤٠.

يملكون السفن، وانتصر العرب على الفرس في هذه المعركة، وكانت خسارة الفرس عظيمة بلغت "ثلاثين ألفاً سوى من غرق"^(١).

وبعد أن انتهى خالد بن الوليد رضي الله عنه من معركة الولجة التي حقق النصر فيها أيضاً، اتجه نحو "أليس"^(٢) على نهر الفرات سنة (١٢هـ/٦٣٣م)^(٣)، حيث فاجأ الفرس الذين كانوا قد تجمعوا هناك بعد أن وجدوا أنها أفضل مكان من أجل التجمع وملاقاة المسلمين، وذلك لاعتبارات جغرافية، ويواجه الباحث السؤال التالي، ماهي الاعتبارات الجغرافية التي جعلت الفرس يعسكرون عند أليس؟ وهل حقق لهم المكان وشروط اختياره النصر في المعركة؟.

إن أليس تبعد عشرة أميال عن الولجة، وهنا شعروا بالأمان، لأن المكان موجود على الضفة اليمنى لنهر الفرات، وعلى الجانب الآخر من أليس كان يجري نهر اسمه "الخسيف" وهو يبدأ من الفرات فوق أليس، وبناءً على ما سلف تصبح منطقة أليس محمية لا يمكن الهجوم عليها إلا من جبهة واحدة هي الجبهة الجنوبية الشرقية^(٤).

وفي أثناء وصوله كان الفرس قد "بسطوا البسط ووضعوا الأطعمة، وتداعوا إليها وتوافوا عليها" لإيهام العرب أنهم لا يقيمون لهم وزناً^(٥)، ودارت المعركة بين الطرفين بعد أن حوصرت قوات الفرس بين قوات المسلمين والنهر^(٦)، وكانت المجنبتان الشماليتان لكلا الجيشين تستندان إلى الفرات، والمجنبتان الجنوبيتان يستندان إلى النهر - نهر الخسيف، وجبهة المعركة حوالي ميلين من النهر إلى النهر^(٧).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤٠. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٥٦.

(٢) أليس: موضع في أول أراضي العراق من ناحية البادية، كانت فيه وقعة الفرس مع المسلمين. وقيل: قرى من قرى الأنبار. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٢٤٨. الحميري، محمد عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٦م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٩٢.

(٣) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١١٨.

(٤) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٨١.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤١.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٧.

(٧) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٨٥.

وبالرغم من ذلك أبدى الفرس مقاومة كبيرة جداً أملاً منهم في نجدة تأتئهم من قائدهم "بهمن جاذويه"^(١)، وعندما رأى القائد صبر الفرس وجلدهم، توجه خالد بن الوليد بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: "اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم، لا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم"^(٢).

ودارت رحى المعركة واستعرت من جديد وما تزال الثقة بالله عامرة في نفس القائد خالد بن الوليد ﷺ، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً، وسقط الآلاف منهم قتلى على ضفة النهر وفي النهر نفسه^(٣)، حتى انتصروا عليهم وجاءت خيول المسلمين تسوقهم أسرى^(٤)، فأوكل القائد رجالاً مهمتها ضرب أعناقهم في النهر، وذلك لكي يبرّ بقسمه أمام الله عز وجل، بعد أن حبس الماء عن الجريان في النهر؛ فقال له أحد القواد: "لو قتلت أهل الأرض جميعاً لما جرت دماؤهم فأرسل عليها الماء تبر بيمينك"^(٥). وبناءً على ذلك أعاد المياه إلى النهر فجري دماً عبيطاً، فسمي "نهر الدم"^(٦) لذلك الشأن إلى اليوم.

وقد برز دور الأنهار في معركة فرات باديقي^(٧) - المقر^(٨) - سنة (١٢هـ/٦٣٣م)^(٩)؛ فقد تقدم القائد القائد خالد بن الوليد ﷺ وركب النهر متجهاً نحو الحيرة^(١٠)، مستفيداً من السفن التي استولى عليها في معركة أمغيشيا^(١١)، وهنا تنبه حاكم الحيرة "الأذابه" أنه غير متروك، فأخذ في أمره وتهياً لحرب خالد^(١٢)، فقد كان أهم غرض لخالد بن الوليد في العراق هو امتلاك الحيرة، التي كانت بمثابة الثغر على هامش الصحراء تقصدها القوافل من الإحساء ونجد واليمن والحجاز والشام وفارس، ولعظم

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٦. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢١١.

(٣) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٨٧.

(٤) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢١١.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٧. الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٨٧.

(٦) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢١٢.

(٧) باديقي: الكلمة فارسية، وأصلها بودقلي وأبدل العرب الواو ألفاً ومعناه بالفارسية: المتفرع، ويكون المعنى عند تفرع

الفرات. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤٢.

(٨) المغلوث: أطلس الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، ص ٧٨.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٤٢.

(١٠) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، وزعموا أن بحر فارس كان يتصل

بها. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٣٢٨.

(١١) أمغيشيا: كانت مصراً كالحيرة، وكان فرات باديقي ينتهي إليها، وأليس من مسالحها. الطبري: تاريخ الرسل

والمملوك، ج: ٣، ص ٣٥٨. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي،

ص ٥٨.

(١٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٩.

أهميتها في توطيد سلطان المسلمين بتلك الناحية كان لابد من التوجه إليها من أجل السيطرة عليها^(١).
عليها^(١).

المهم أن الأذابه حاكم الحيرة الفارسي^(٢) أدرك أهمية العامل الجغرافي وهو النهر، ولمع في خاطره أهمية استغلاله من أجل تحقيق النصر العسكري على العرب، لذلك يجده الباحث قد أقدم على خطة محكمة بعد أن درس كيفية الاستفادة من النهر، وكانت تلك الخطة تقتضي بتفجير النهر الذي كان يسلكه المسلمون من أجل العبور إلى الحيرة^(٣)، وبالتالي إعاقة تقدم المسلمين والوقوف في وجههم، فهل استطاع حاكم الحيرة أن يوقف تقدم المسلمين؟ وهل استفاد من أثر النهر في سبيل تحقيق هدفه؟

للإجابة لابد من ذكر رواية الطبري الذي أورد أن القائد الفارسي أرسل ابنه وكلفه بأن يقوم بسد الفرات، لكي يعيق تقدم القوات الإسلامية إلى الحيرة؛ فقال: "وقدم ابنه ثم خرج في أثره حتى عسكر خارجاً عن الحيرة، وأمر ابنه بسد الفرات، ولما استقل خالد من أمغيثيا وحمل الرجل في السفن مع الأحمال والأثقال، لم يفاجأ خالد إلا والسفن جوانح، فارتاعوا لذلك.." ^(٤).

أي بينما كانت السفن تمخر عباب النهر إذ بها تلتصق في القاع بعد أن جفت المياه لأنه تم تصريفها في مجاري الأنهار التي ترقد الفرات^(٥). وفي تلك الأثناء علم خالد بن الوليد عليه السلام من الملاحين "أن أهل فارس قد فجروا الأنهار؛ فسلك الماء غير طريقه"^(٦).

إلا أن هذا الأمر لم يفت في عضد القائد خالد بن الوليد عليه السلام الذي سار حتى وصل إلى فرات بادقلي عند فم العتيق^(٧) واقتتل مع ابن الأذابه الذي سد الفرات وقتله، ومن ثم أمر القائد بفتح القناطر لكي يتدفق الماء مرة ثانية إلى النهر ثم تابع الجيش سيره عبر النهر^(٨).

وبعد أن وصل الخبر إلى الأذابه حاكم الحيرة استخدم النهر مؤثلاً للفرار والهزيمة وانسحب مع جنوده إلى وراء نهر الفرات^(٩)، وترك الحيرة تلقى مصيرها لوحدها، واستغل القائد خالد بن الوليد النهر

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٢-٢٣.

(٢) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٩٢.

(٣) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ١٣٨.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٩.

(٥) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢١٥.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٩.

(٧) العتيق: أحد أنهار الفرات، ورافده له، وكانت وقعة المسلمين عليه مع رستم، وهي وقعة القادسية. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٠٨.

(٨) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٢٩٣.

(٩) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ١٣٨.

بعدما أصبح صالحاً للعبور بعد سد القناطر وارتفاع منسوب المياه، فعبرت السفن حتى رست "بين الخورنق والنجف"^(١)، وبعد اجتياز النهر استولى عليها - الحيرة - حيث قسم جيشه وأوكل إليهم مهمة حصار قلاعها، وتجلت أهميتها في موقعها الجغرافي حيث شكلت قاعدة للانطلاق نحو الداخل العراقي، وطريق مناسب لأي انسحاب إذا دارت الدائرة على العرب، ومنها استطاع العرب التوغل في عمق الأراضي العراقية^(٢).

إذاً من خلال ما سلف يمكن القول أن ما حصل يدل على دقة نظر حاكم الحيرة، ومحاولته استخدام العامل الجغرافي وتسخيره لإحراز النصر؛ فتحقق له ما أراد بإعاقة قوات المسلمين وشل حركتهم، بسبب انقطاع الماء عن الجريان وتوقف السفن عن الحركة في بادئ الأمر^(٣)؛ إلا أنه دارت الدائرة عليه بسبب تفوق القائد خالد الذي انتهز الفرصة وفوّت على الفرس تحقيق النصر^(٤)، و"فَجَرَ الفرات وسدّ الأنهار وسلك الماء سبيله"^(٥).

ولعل في معركة الفراض^(٦) سنة (١٢٢هـ/٦٣٣م)^(٧) ما يؤكد على أهمية النهر ودوره في المعارك، وذلك عندما رفض القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه العبور إلى الضفة الشرقية لنهر الفرات، الذي أصبح يحول بين قوات المسلمين وقوات الفرس^(٨)، الذين خيروا القائد خالد بن الوليد بقولهم فيما ذكره الطبري: "حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم. قال خالد: بل اعبروا إلينا، قالوا: ففتحوا حتى نعبر.." ^(٩).

وعليه فإن القائد خالد لم يستجب لمطالب الأعداء، ولكن لماذا رفض القائد خالد الاستجابة لمطالب الأعداء وترك لهم المجال أمامهم؟ وهل كان للعامل الجغرافي أثر في اتخاذ مثل هذا القرار؟

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٦٠.

(٢) طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ص ١٣٩.

(٣) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٥٨.

(٤) موسيل، الوا: الفرات الأوسط، تر: حمدي صدقي وعبد المطلب داود، مراجعة: صالح العلي وعلي المياح، المجمع العلمي العراقي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٤٦٤.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٥٩.

(٦) الفراض: تخوم الشام والعراق والجزيرة، تقع شرقي الفرات، وقيل: قصد خالد بن الوليد بني غالب إلى الفراض، واجتمعت عليه الروم والعرب والفرس، فأوقع بهم وقعة عظيمة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٨٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٠.

(٨) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٥٩.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٨٣. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٤٣.

يبدو أن القائد خالد رفض الانصياع للأعداء والاستجابة لدواعٍ جغرافية، خاصةً وأن المنطقة التي نزل بها كانت تسمح للقوات بالحرية في التنقل والمناورة، كما أنه بفكره الثاقب أراد أن يبقى على اتصال بالصحراء^(١) لأنه إذا عبر النهر فإنه يصبح متوغلاً في أراضيهم بما يجعل من الصعوبة العودة إذا ما تمت الهزيمة^(٢)، وبناءً على ذلك اتخذ القائد خالد قراره قائلاً: "لأنفع، ولكن اعبروا أسفل أسفل منا"^(٣). وما كان من الأعداء الفرس إلا أن عبروا أسفل منهم، وبدأت المعركة واقتتلوا قتالاً شديداً وهزمهم الله عز وجل، وقد تجلّى ذلك بقول القائد خالد بن الوليد لجنوده بعد أن حصر الأعداء بينه وبين الفرات: "ألحوا عليهم ولا ترفهوا عنهم"^(٤).

ومن خلال قوله يستدل على أن موقفه كان الأقوى في المعركة، وبذلك حقق نصراً عسكرياً على الأعداء ارتبط بحسن القرار الذي اتخذه بعدم العبور من أجل ملاقات الأعداء؛ لأنه أدرك أن العبور سيشكل أثراً سلبياً على المعركة، وبلغت هزائم الأعداء "مائة ألف"^(٥).

أما في معركة الجسر^(٦) التي حدثت سنة (١٣/هـ-٦٣٤م)^(٧)، تجلّى أثر النهر والعبور عليه، وذلك عندما اتجه القائد أبو عبيد الثقفي^(٨) إلى الحيرة بعد أن حقق عدة انتصارات على الفرس^(٩)، والتقى الجيشان الفارسي بقيادة بهمن "ذا الحاجب"، والعربي بقيادة "أبي عبيد" وجهاً لوجه عبر نهر

(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٤٣.

(٢) مكي: فن الحرب عند العرب في العصر الراشدي، ص ١٤٤.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٨٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٠. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٤٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٨٤. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٤٣.

(٥) يبدو أن الرقم مبالغ فيه لإظهار قيمة النصر. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٨٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٠. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٦٠.

(٦) وتسمى أيضاً "قس الناطف"، ويقال لها: "المروحة". الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٥٤.

(٧) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٢٤. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٢٣٨.

(٨) أبو عبيد بن مسعود الثقفي: والد المختار الثقفي الذي ظهر في الكوفة، وقتل كافة من قدر عليه من قتلة الحسين بن علي بن أبي طالب، قدم الرسول ﷺ، في السنة التاسعة للهجرة، وأسلم مع قومه تقيف وحسن إسلامه، بذل نفسه رخيصة في سبيل عقيدته فمات شهيداً عام ١٣/هـ-٦٣٤م. خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ص ٢١٢-٢١٨.

(٩) ذكرها الطبري في تاريخه وهي معارك: النمارق، والسقاطية بكسرك. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٤٦-٤٥٤.

الفرات الذي أصبح بينهم^(١) على مسافة قصيرة من الحيرة باتجاه الشمال^(٢)، وعندما علم أبو عبيدة بمسيرهم عبر الفرات وقطع الجسر على النهر وعسكر في المروحة^(٣)، وقد وصل ذا الحجاب إلى قس الناطف^(٤) فأرسل الفرس إلى القائد أبي عبيد يخبرونه بقولهم: "إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبّر إليكم"^(٥).

وفي هذه الأثناء كان على القائد أن يختار بين العبور لملاقاة الفرس بين الانتظار لعبور الأعداء، وبعد أن استشار القائد أصحابه القادة الذين أبدوا الرفض لعملية العبور تقديراً منهم لخطورة الموقف وخاصةً المثنى صاحب المعارك المتعددة مع الفرس، والسليط بن قيس^(٦) الذي رأى مع المثنى أن يبقى منتظراً على الضفة الغربية للنهر من أجل أن تبقى الصحراء وراء ظهورهم تحميهم من الخلف^(٧)، قرر القائد أبو عبيد أن يعبر ولم يعمل بنصيحة القادة مبرراً ذلك بقوله: "لا يكونوا أجراً على الموت منا؛ بل نعبّر إليهم"^(٨).

وهنا تظهر بعض الأسئلة التالية، ما السبب الذي جعل القادة يرفضون الانتقال إلى الضفة التالية لملاقاة الفرس؟ وهل كان للعامل الجغرافي أثر في ذلك؟ وكيف ظهر أثر العبور على المعركة؟

من خلال ما تقدم يبدو بوضوح أن العبور سيؤدي بالجيش إلى منطقة جغرافية غير ملائمة للقتال فيها، وهذا ما جعل القائد سليط يتشدد في موقفه لأن المكان الذي نزل به العرب يعطي للمسلمين حرية في الهجوم والانسحاب، وهذا يبدو من خلال قوله: "إن العرب لم تلق مثل جنود فارس منذ

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٢٤.

(٢) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٥٠.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٥٤. ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٢٤.

(٤) قس الناطف: موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات الشرقي. الحموي: معجم البلدان، ج: ٤، ص ٣٤٩.

(٥) المغلوث، سامي بن عبد الله بن أحمد: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥، ص ٥٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٦.

(٦) السليط بن قيس: سليط بن قيس بن عمرو بن عبيد بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، الأنصاري الخزرجي، شهد بديراً وما بعدها من المشاهد كلها، وتوفي يوم الجسر في معركة أبي عبيد الثقفي. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٥٣٨.

(٧) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٥٣.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٦.

كانوا، وإنهم قد حفلوا لنا^(١)، واستقبلونا من الزهاء والعدة بما لم يلقنا به أحد منهم، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجالاً وملجأً ومرجعاً، من فرّة الى كرة^(٢).

وقد ظهر أثر العبور عندما وجد العرب أنفسهم بعد عبورهم في أرض محصورة لا تصلح للحركة والتعبئة والتنقل والمناورة^(٣)، ويبدو أن المكان الذي نزل فيه أبو عبيد كان مكاناً ضيقاً ليس فيه مخرج ولا مدخل^(٤)، فقد أشار الدوري إلى أن قوات المسلمين حوصرت على أرض ذات مساحة قليلة بين نهر نهر الفرات من الخلف وقوات الفرس من الأمام، فأفقدتهم ذلك في بداية المنازلة أهم مبادئ الحرب وهي عملية الكر والفر^(٥)، وهذا المبدأ التي نوه إليه القائد سليط أثناء استشارة القائد لهم، وفضلاً عن ذلك إن قوات المسلمين إذا منيت بالهزيمة لا تستطيع الانسحاب بسبب المانع المائي.

ومع تقدم المسلمين وعبورهم النهر، تصدى لهم الفرس، وهاجموهم بعنف شديد وجرت المعركة التي استخدم فيها الفرس الفيلة، وتساقط القتلى من كلا الجانبين، كما رشق الفرس المسلمين بالنبال بعد أن جفلت خيولهم من الفيلة، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً^(٦)، ولادوا بالفرار حتى الجسر من أجل الهروب، إلا أن أحدهم قطع الجسر، وقال: "قاتلوا عن دينكم، فاقترح الناس الفرات فغرق ناس كثير، ثم عقد المثنى الجسر وعبر المسلمون، واستشهد ألف وثمان مائة"^(٧).

وهكذا ظهر أثر العبور على المعركة لأن المسلمين لم يحسنوا استغلاله بما يحقق مصلحة الجماعة؛ فأدى عبورهم النهر إلى خسارتهم المعركة، لأنه لو قاتل العرب على الضفة الثانية بدلاً من عبور النهر، لما وقعت هذه الكارثة وذلك لأن الأراضي الفسيحة كانت تتناسب تحركاتهم، ولو وقعت الهزيمة كان بإمكانهم الانسحاب عبر الصحراء^(٨).

(١) حفلوا لنا: اجتمعوا. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٩٨٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٥٦.

(٣) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٥٢.

(٤) شاكر، فارس حسن: عمر بن الخطاب، المكتبة المدنية للنشر والطباعة، بغداد، العراق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٢٩.

(٥) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٦١.

(٦) خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ص ٢١٧.

(٧) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٢٥.

(٨) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٥٣.

وبعد معركة الجسر التي هزم فيها المسلمون، أرسل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه القائد جرير بن عبد الله البجلي^(١) ومعه قبيلة بجيلة إلى العراق لحرب الفرس سنة ١٣هـ/٦٣٤م^(٢)، وفي ذلك ذكر المسعودي قائلاً: "وكان جرير بن عبد الله البجلي قدم على عمر - وقد اجتمعت إليه بجيلة - فسرهم نحو العراق - ولحق جرير بناحية الأبله ثم صاعد إلى ناحية المدائن، ونمي قدوم جرير إلى مرزبان المدائن؛ فقالت بجيلة لجرير: اعبر الدجلة إلى المدائن، فقال جرير: ليس ذلك بالرأي، وقد مضى لكم في ذلك عبرة بمن قتل من إخوانكم يوم الجسر، ولكن أمهلوا القوم، فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم، فإن فعلوا فهو الظفر إن شاء الله، فأقامت الفرس أياماً بالمدائن، ثم أخذوا بالعبور، فلما عبر منهم النصف حمل عليهم جرير فيمن تسرع معه من بجيلة، فثبتوا ساعة، فقتل المرزبان، وغرق أكثرهم في دجلة.."^(٣).

وقد ظهر أثر النهر في معركة البويب^(٤) سنة (١٣هـ/٦٣٤م)^(٥) عندما علم الفرس بتجمع الجيش العربي بقيادة المثنى بن حارثة، فأراد الفرس طرد العرب من العراق وقاموا بجمع جيش عهدوا بقيادته إلى مهران الهمداني الذي خرج من المدائن يريد الحيرة^(٦)، وهنا أرسل المثنى إلى جرير الذي انتصر على الفرس يدعوه إلى اللحاق به قائلاً: "إننا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فاجعلوا اللحاق بنا، وموعدكم البويب"^(٧). والمهم أنهم وافوا المثنى، حيث سار جرير فاجتمع مع المثنى وهو على البويب^(٨)، ومهران من وراء الفرات في مقابل القائد المثنى، وكان معسكر المسلمين

(١) جرير بن عبد الله البجلي: جرير بن عبد الله بن جابر، وهو الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم بن عوف بن حزيمة بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر بن عبقر، أبو عمرو، أسلم قبل وفاة الرسول ﷺ بأربعين يوماً، وكان حسن الصورة، قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "جرير يوسف هذه الأمة"، وهو سيد قومه، وقال عنه الرسول ﷺ لما دخل عليه جرير فأكرمه وقال: "أتاكم كريم قوم فأكرموا"، أرسله الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى العراق بعد مصاب أهل الجسر، اشترك في معركة القادسية، أقام جرير في الكوفة، ومات في قرقيسيا. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ١، ص ٥٢٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٨.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٤) البويب: اسم نهر كان بالعراق يأخذ من الفرات، وهو موضع بالعراق قريب من الكوفة كانت فيه وقعة المسلمين والأعاجم. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٨. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١١٦.

(٥) الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٢٣٩.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٦١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٦٥.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٦١.

(٨) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٢، ص ٢٤٥.

الباب الثاني: دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال عصر الخلفاء الراشدين

على البويب مما يلي الكوفة اليوم، أما مهران فقد عسكر في منطقة يقال لها بسوسيا^(١) على جانب الفرات الشرقي^(٢)، وهنا كاتبه مهران قائلاً: "إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم؛ فقال المثنى: اعبروا؛ فعبر مهران، فنزل على شاطئ الفرات"^(٣).

ومن خلال ما تقدم يمكن القول أن القائد المثنى قد اعتبر من الخطأ الذي وقع فيه أبو عبيد الثقفي في معركة الجسر بعبور نهر الفرات، وبذلك طبق المثنى وصية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قواد المسلمين بقوله: "ألا يعبروا بحراً ولا جسراً إلا بعد ظفر"^(٤).

وقد التحم الجانبان في معركة دامية - وجهاً لوجه-^(٥) وكان هدف الفرس من الاستماتة في القتال الاحتفاظ بالنصر الذي حققوه في معركة الجسر ومتابعة الانتصار على العرب حتى طردهم من الأرض الفارسية، والاحتفاظ بالأرض التي سيطروا عليها، وقد استمرت المعركة بين الطرفين سجلاً حتى استطاع المثنى أن يقتل مهران^(٦)، مما أدى إلى اضطراب صفوف الفرس والتراجع إلى الخلف باتجاه النهر طلباً للنجاة^(٧).

وهنا برزت حنكة القائد المثنى الذي عمد إلى قطع خط الرجعة عليهم، وذلك عندما سبقهم إلى الجسر، وحال بينهم وبين الوصول إليه^(٨)، وحصرهم بينه وبين قواته، وأوقع فيهم السيف من الأمام والخلف^(٩)، وكان الظفر للمسلمين في هذه المعركة.

(١) بسوسيا: موضع قرب الكوفة، نزل مهران أيام الفتوح. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٤٢٣.

(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١١٦.

(٣) المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ص ٦٠. خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ص ٣٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٦٣.

(٥) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٥٤.

(٦) الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٢٣٩.

(٧) خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ص ٣٧. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر

العصر الراشدي، ص ٦٤. كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٥٦.

(٨) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٥٧.

(٩) حسين، عبد الحميد: الفتح الإسلامي في العراق والجزيرة، مطبعة عفيف، بغداد، العراق، ١٩٥٨/١٩٦١م،

ص ٢٨. الدرة: تاريخ العرب العسكري، ص ٣٤٥.

لقد كان لنهر الفرات في هذه المعركة دور بارز تمثل في الإيقاع بالعدو في أثناء العبور، وفي ذلك روى الطبري بسنده عن عرفة بن هزيمة البارقي^(١) الذي كان شاهد عيان للمعركة إذ قال: "حُزنّا كتيبةً منهم إلى الفرات، ورجوتُ أن يكون الله تعالى قد أذن في غرقهم وسلى عنا بها مصيبة الجسر، فلما دخلوا في حد الإحراج كروا علينا، فقاتلناهم قتالاً شديداً... فولوا نحو الفرات، فما بلغه منهم أحد فيه الروح"^(٢).

ومن خلال ما تقدم يمكن القول أن الجيش العربي الإسلامي، حرص على البقاء في الضفاف الغربية للأنهار التي تفصل بينه وبين الفرس عملاً بوصية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث بقيت تلك المناطق متصلة بأطراف الصحراء، ولهذا بدت الهزيمة أثناء عبورهم بينما احتفظوا بالنصر دون ذلك.

وبالانتقال إلى جبهة بلاد الشام، يلاحظ أنّ عدداً من المعارك قد لعبت فيها مياه الأنهار دوراً كبيراً إما سلباً أو إيجاباً ومنها ما حصل في معركة أجنادين^(٣) سنة (١٣هـ/٦٣٤م)^(٤) التي حصلت بعد معركة اليرموك، حيث سار الجيش من بصرى ليعبر الأراضي الفلسطينية من الجهة الشرقية، ويعبر نهر الأردن، وإذ به يتفاجأ بأن سدوده قد فجرتها القوات الرومية البيزنطية؛ لو سأل أحدهم لماذا اختارت القوات الرومية البيزنطية النهر؟ وكيف تجلى أثره؟

اختارت القوات الرومية البيزنطية النهر، لأنها وجدت أنه خير وسيلة لتمنع اجتياز الجيش العربي إلى الضفة المقابلة، ولإعاقة التقدم، وتأخير وصوله إلى سهل أجنادين؛ فهل استطاعوا تحقيق هدفهم الذي أرادوه؟ وهل تمكنوا من إعاقة تقدم القوات العربية الإسلامية؟

(١) عرفة بن هزيمة البارقي: عرفة بن هزيمة بن عبد العزى بن زهير بن ثعلبة بن عمرو، أحد أمراء الفتوح، استعمله أبو بكر الصديق رضي الله عنه في حروب الردة، واستعمله عمر بن الخطاب في فتوح العراق لمساعدة عتبة بن غزوان. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص ٢٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٦٨. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٦٦.

(٣) أجنادين: موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين، وأجنادين من الرملة كانت بها وقعة مشهورة بين الروم والعرب، وأبلى خالد يومئذ بلاءً مشهوراً وهزم الروم، وهي بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١١٩. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ١٠٣-١٠٤. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٥٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٦٥.

إن قائداً محنكاً ببراعة القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي انتصر في معارك العراق، والذي مرّ بنفس الموقف أثناء عبوره لفتح الحيرة لم يكن ليغفل عن ذلك، وحاول جاهداً العبور واجتياز النهر الذي جعل العبور أمراً صعباً للغاية بسبب انتشار المستنقعات وكثرة الرواسب والطيني لكي يلتقي بقوات عمرو بن العاص ويقاتلا الروم في جبهة واحدة موحدة^(١) وهذا ما حصل؛ فقد استطاع القائد أن يجتاز النهر ووصل قبل وصول قوات عمرو بن العاص إلى سهل أجنادين "وسار عمرو حين سمع بالمسلمين فلقاهم، ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم"^(٢) استعداداً للمعركة التي انتهت بانتصار ساحق للمسلمين.

وما حدث في سنة (١٣/هـ-٦٣٤م)^(٣) في معركة فحل، يؤكد على أن مياه الأنهار استخدمت كعامل من العوامل الجغرافية في التأثير على المعارك العسكرية من خلال التدخل البشري فيها، حيث سارت الجيوش العربية بعد معركة أجنادين إلى فحل من أرض الأردن^(٤)، التي اجتمعت فيها الروم البيزنطيين، وقام الروم البيزنطيون هنا أيضاً بمحاولة الاستفادة من العامل الجغرافي المتمثل بالنهر، من أجل تحقيق نصر عسكري على المسلمين، كيف تجلى ذلك؟ وكيف استفاد الروم البيزنطيين من النهر؟

يروى الطبري مؤكداً على أثر المياه التي فجرها الروم البيزنطيين في طريق العرب المسلمين قائلاً: "قلما نزلت الروم بيسان بثقوا أنهارها؛ وهي أرض سبخة، فكانت وحلاً، ونزلوا فحلاً - وبيسان بين فلسطين والأردن - فلما غشيها المسلمون ولم يعلموا بما صنعت الروم، وحلت خيولهم، ولقوا فيها عناءً، ثم سلمهم الله - وسميت بيسان ذات الردغة لما لقي المسلمون فيها..^(٥)

إذاً فجرت الروم البيزنطيين المياه وامتلاً السهل^(٦)، فأصبحت الأرض موحلة، فكان العرب في فحل والروم في بيسان، وبينهم وبين الروم تلك المياه والأوحال^(٧)، فلقى العرب عناءً كبيراً وذلك أن خيولهم قد وحلت في تلك المياه والأوحال التي اصطنعتها الروم^(٨)، وهذا أثر سلباً على تقدم الجيوش العربية

(١) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ١٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٦٥.

(٣) كانت وقعة أجنادين وفحل في سنة ١٣ هـ، أجنادين في جمادى، وفحل في ذي القعدة. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ٩٨. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٢٣٨.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٣٤.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٣٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٧٨.

(٦) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ١٦٠.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٤٢. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ١٠٦.

(٨) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٩٠.

إلا أنه لم يكن مستحيلاً في طريق تحقيق نصراً مؤزراً للعرب على الروم، فوقع أكثر الروم في الوحل بعد أن أرادوا مفاجأة المسلمين، محاولين الاستفادة من ظلمة الليل، لأن الهجوم بدأ عند المساء فاستمرت المعركة إلى نهاية اليوم الثاني^(١)، وعند المساء انهزمت الروم وهاموا على وجوههم واضطربوا حتى ضلوا طريقهم وانتهوا إلى الأوحال فوقعوا فيها^(٢)، وقد لحق بهم أوائل المسلمين؛ وقد وحلوا فركبهم، فكانت هزيمتهم في فحل؛ ومقتلهم في الرداغ^(٣)^(٤).

حيث حوصرت المدينة، وهوجمت من أطرافها وقضي عليهم^(٥)، فأصيب منهم ثمانون ألفاً^(٦)، بتسليم من الله وتوفيقيه، وقد أكد على هزيمة المشركين ابن خياط قائلاً: "فهزم الله المشركين، وقتل منهم مقتلة عظيمة"^(٧).

وأهم ما يمكن ذكره، أنه بالرغم من أن المسلمين قد كرهوا القتال في المناطق الموحلة لأنها تعيق حركة الفرسان والمشاة، إلا أنها أصبحت فيما بعد عوناً لهم؛ وقد ذكر ابن الأثير ذلك بقوله: "وكان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون - كرهوا البثوق فكانت عوناً لهم على عدوهم"^(٨).

وقد تغنى الشعراء بهذا النصر الذي حققه العرب المسلمون على الروم، ومثال ذلك في شعر القعقاع بن عمرو حيث قال:

وغداة فحل قد رأوني معلماً	والخيل تتحطُّ والبلاد أطوار
ما زالت الخيل العراب تدوسهم	في حوم فحل والهبا موار
حتى رميت سراتهم عن أسرهم	في روعة ما بعدها استمرار ^(٩)

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٤٣.

(٣) الرداغ: الماء، والطين، والوحل الشديد. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٧٨٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٤٣.

(٥) وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ١٦٠.

(٦) لعل هناك بعض المبالغة في العدد. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ١٠٧.

(٧) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٢٠.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٨٠.

(٩) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج: ٢، ص ١٠٧. القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ص ١٥٧.

وفي معركة القادسية سنة (١٤هـ/٦٣٣م)^(١)؛ كان القائد على جيش المسلمين سعد بن أبي وقاص^(٢) وعلى الفرس رستم ومعه ذو الحجاب^(٣)، وما يهم أثر النهر في تلك المعركة فقد عسكر القائد القائد سعد بن أبي وقاص في "سهل القادسية بين نهر العتيق والخندق بحيال القنطرة"^(٤)، وكانت القادسية يومئذ يحف بها من ناحية الشرق خور من الفرات، ومن ناحية الغرب خندق سابور وكان غديراً، وكان يحمي ميمنة المسلمين مستنقع لا يمكن اجتيازه^(٥)، وبرزت أهمية الصحراء في ذلك المكان حيث كانت تحمي ظهرهم عملاً بوصية الخليفة عمر بن الخطاب:

"إذا انتهيت إلى القادسية، ... فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدبر؛ ثم الزم مكانك فلا تبرحه؛... فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة؛ رجوت أن تنتصروا عليهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم؛ فأنصرفتم من أدنى مدرة* من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم؛ ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل؛ حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة"^(٦).

وبعد المفاوضات التي حصلت بين الجيشين من خلال الرسل بينهما ذكر الطبري أنها أخفقت فقد عرض رستم على المسلمين العبور بقوله: "أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟" لكنهم رفضوا وقالوا: "بل اعبروا إلينا"^(٧)، وأرسل سعد إلى الجنود أن يوقفوا مواقفهم، وأن يلتزموا بأمر القيادة العليا بعدم العبور إلا بعد النصر، وأرسل إلى الفرس قائلاً: "شأنكم والعبور"؛ وقد أراد بذلك أن يقوم الفرس بالعبور إلى المنطقة التي اختاروها من أجل المنازلة.

(١) وردت عند الطبري أنها عام ١٤هـ/٦٣٣م. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٨٠. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٢٤٦.

(٢) سعد بن مالك القرشي: هو سعد بن أبي وقاص، أسلم بعد السنة السادسة، وكان عمره لما أسلم سبع عشرة سنة، شهد بدرًا وأحدًا والخندق، والمشاهد كلها مع الرسول الأكرم محمد ﷺ، واستعمل عمر بن الخطاب سعدًا على الجيوش التي سيرها لقتال الفرس، وهو أمير الجيش الذي هزم الفرس في القادسية، وهو الذي فتح مدائن كسرى بالعراق، وهو الذي بنى الكوفة. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٤٥١ - ٤٥٦.

(٣) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣١.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٠٢.

(٥) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٣. كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٩٦.

* مدرة: الأرض المبنية بالطين واللين. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٤٧٤.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٩١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٠٢. المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ص ٨٠.

(٧) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني وعماد علي حمزة، دار الكتب العلمية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٥م، ج: ١٩، ص ١٢٩.

وهنا لماذا حاول الفرس عبور القنطرة التي سيطر عليها العرب بعد أن سمح لهم العرب بالعبور؟ يبدو أن الفرس اختاروا منطقة القنطرة كونها ممراً حيوياً شكل نقطة استراتيجية سيطر عليها العرب، فحاولوا العبور من خلالها إلا أن المسلمين رفضوا ذلك وعبّروا عن ذلك بقولهم: "لا ولا كرامة، أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نردّه عليكم؛ تكلفوا معبراً غير القناطر"^(١). وهنا أصبح موقف الفرس حرجاً حيث بات عليهم اختيار منطقة أو ممراً من أجل عبور جيشه الهائل والضخم مع ما لديه من معدات وأسلحة، ولم يجد بداً من أن يسكر العتيق حتى يعبروا من خلاله، وبالتالي "أمر بسكر العتيق؛ فباتوا ليلتهم حتى الصباح يسكرون العتيق بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقاً، واستتم بعد ما ارتفع النهار من الغد"^(٢)، ثم عباً رستم قواته بعد عبوره في مواجهة العرب^(٣).

إن عملاً كهذا لم يكن من السهل على الجيش الفارسي القيام به، خاصةً وأنهم مقبلون على معركة مع الجيش الإسلامي؛ فقد أثر ذلك على راحة الجيش الفارسي وأرهقه بعد انقضاء ليلة كاملة وهم يعملون جاهدين من أجل سد نهر العتيق لكي يعبروا إلى الضفة الغربية لملاقاة العرب، كما ترك أثره في معنويات الجيش الفارسي وأثر في نفوسهم، والمهم "عبر الفرس بأنقالتهم حتى نزلوا على الضفة العتيق"^(٤). وكان العرب المسلمون في معنويات عالية وراحة وكانوا أكثر استعداداً للمعركة المقبلة.

وكان مسرح المعركة بين "الخنديق والعتيق" وذلك بعد أن اتخذت صفوف الفرس من "شفير العتيق" مكاناً، أما المسلمون كان صفهم على حائط قُدّيس، والخنديق من ورائهم"^(٥)، ومن خلال ذلك يمكن القول أن الفرس وجدوا أنفسهم قد أصبحوا في منطقة محصورة بين العتيق من الخلف والمعسكر الإسلامي من الأمام^(٦)، وكانت المنطقة ضيقة. انظر الخريطة (١٧-١٨).

كما أصبحت قوات الفرس عاجزة عن القيام بحركات التفاف أو انسحاب إذا ضغطت عليهم قوات الجيش العربي، بسبب وجود الحاجز المائي خلفهم وهو نهر العتيق، ودارت رحى المعركة بشدة

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٥٢٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣١٦. المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ص ٨٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٥٢٩. المقدسي، مطهر بن طاهر (٣٥٥هـ/٩٦٦م): البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ج: ٥، ص ١٧٣.

(٣) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٩٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ١٣٠.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٥٣٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣١٨. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ١٣١.

(٦) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٢٨٠-٢٨٤.

واستخدم الفرس الفيلة من أجل إرهاب المسلمين الذين تفرقوا بين القبائل بعد أن جفلت خيولهم^(١)، واستمرت المعركة سجلاً أربعة أيام^(٢)، ونتج عنها انتصار ساحق للعرب على الفرس وقتل رستم، وغالبية جند الفرس تفرقوا في كل حدب وصوب فبعضهم قتل أثناء محاولة الفرار عبر سهل القادسية^(٣)، والآخرين انتهوا إلى نهر العتيق وغرقوا فيه وكان عددهم ثلاثين ألفاً^(٤).

وبفضل جغرافية موقع القادسية حقق المسلمون هذا الانتصار الساحق، وبالتالي تمكنوا من اجتياز الفرات والتغلغل في دجلة، أما الفرس فقد اضطروا إلى الخروج من الجزء الغربي للمدائن والانتقال إلى جزئها الشرقي فيما بعد، وعليه فقد أصبح دجلة فاصلاً بينهم وبين العرب^(٥)، ثم أقام سعد بالقادسية مدة شهرين^(٦) وتوجه شمالاً وأقام معسكره على خرائب بابل القديمة، وبدأوا الإغارة على أسوار المدائن^(٧) عملاً بوصية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن أرسل إليه سعد بصفة البلد الذي نزل فيه؛ فقال: "قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينغض - يضعف - الله لك عدوك؛ وأعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن؛ فإن خرابها إن شاء الله"^(٨). وذلك بعد أن رفض عرض يزيد بن أنس ينجلي عن المدائن الدنيا التي تقع على ضفة النهر الغربية، ويجعلوه حراً في الضفة الشرقية^(٩).

وقد حارب القائد سعد وقواده الفرس في عدة وقائع بعد أن رصدوا تحركات الفرس، وقد ذكرها المؤرخون في مصادرهم وهي: برس^(١٠) وكوثي^(١١).

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ١٣٢.

(٢) اليوم الأول يسمى: أرماث، والثاني: أغواث، والثالث: عماس، والرابع: الهرير. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣١٧-٣٢٨. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ١٣٠-١٣٧. المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ص ٨٢-٨٣.

(٣) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٣٠٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٥٦٤.

(٥) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٣. الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ١٨١.

(٧) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٣٠٦.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٩٢.

(٩) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٣٠٧.

(١٠) برس: موضع بأرض بابل، وبها تل مفرط العلو يسمى صرح البرس. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٣٨٤.

(١١) كوثي: مدينة بالعراق إلى جانب بابل، ولد فيها إبراهيم الخليل عليه السلام، ولما انتفض أمر القادسية بعث القائد سعد عنه زهرة بن حوية وأتبعه الجند فلقى بأطراف كوثا جمعاً من الفرس وقتل فيها شهريار. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣٣. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٥٠٣.

وكان آخرها معركة بهرسير^(١) التي من خلالها استطاع القادة الإسلاميون أن يتوجهوا نحو المدائن، وقد حققوا النصر في جميعها، وقد حصلت المعارك في عام ١٥٠هـ/٦٣٤م^(٢)، وتم فتح المدائن بعد أن ملك العرب المسلمون الجسر، وعبروا عليه إلى الجانب الآخر^(٣).

وفي سنة (١٦٠هـ/٦٣٦م) دخلت بقية القوات العربية بهرسير، وافتتحو المدائن^(٤)، ولما دخل القائد سعد المدائن "تقدموا إليها فوجدوا الأموال على حالها فاحتوا عليها، وأقام سعد بها ثلاثة أيام، وقد أراد أن يعبر بالناس إلى المدينة القصوى وهي إسبانير، فلم يجدوا شيئاً من السفن، لأن الفرس رفعوا السفن والمعابر من نهر دجلة، وأحرقوا الجسور التي توصل إلى القسم الشرقي من المدينة^(٥) فأقام بها أياماً"^(٦).

إذاً من خلال ما تقدم يمكن القول أن النهر وقف حائلاً دون تقدم قوات المسلمين من أجل إتمام عملية الفتوح، ولكن كيف واجه القادة هذا العائق الطبيعي؟ وهل استطاعوا اجتيازه دون سفن؟ ومعلوم أن المسلمين قد وصلوا سفوح الجبال التي تفصل سهل العراق عن الهضبة الفارسية^(٧) فكيف تم ذلك بوجود النهر عائقاً؟

لقد ذكر البلاذري أثر النهر على نفسية الجيش العربي المسلم بقوله: "لما انهزمت الفرس من القادسية قدم فلهم المدائن فانتهى المسلمون إلى دجلة، وهي تطفح بماء لم ير مثله قط، وإذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر إلى الحيزة الشرقية وحرقوا الجسر؛ فاغتم سعد والمسلمون إذ لم يجدوا للعبور سبيلاً"^(٨)، فباعت محاولتهم للعبور بالإخفاق وذلك لأن الفرس أقدموا على "ضم السفن فيما بين البطائح البطائح وتكريت"^(٩).

(١) بهرسير: إحدى المدائن السبعة التي سميت بها المدائن وهي معربة من ده أردشير، ومعناه: خير مدينة أردشير، وهنا المدينة العتيقة من المدائن الدنيا من الغرب. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ٦١٩-٦٣٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٣) الواقي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ١٨٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٥.

(٥) المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ص ٨٨.

(٦) الواقي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ١٨٥.

(٧) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٥.

(٨) البلاذري، أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ق: ٣، ص ٣٦٧.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٨.

وهنا كان لابد من التفكير بجل ناجع يستطيع من خلاله القائد سعد أن يصل إلى المدائن القصوى التي كان فيها منزل كسرى، لكن ذلك لا يمكن إلا من خلال العبور عبر النهر، ورغم تحريض الناس له على العبور إلى الجانب الآخر، وقد جاءته جماعة من الناس تدله على مخاضة عند قرية الصيادين^(١) يمكن من خلالها العبور "رفض ذلك إشفاقاً على المسلمين"^(٢)، لأن نهر دجلة كان قد اسودت مائه، وزاد زيادة عظيمة، ورمى بالزبد من كثرة الماء به^(٣).

وكما أشار الدوري أن لنهري دجلة والفرات أوقات فيضان وهي فصلي الشتاء والربيع، بسبب سقوط الأمطار على هضبة أرمينيا وذوبان الثلوج عليها في أواخر الربيع، أما فصل الصيف فيشهد انخفاض منسوب النهرين حتى تظهر بعض المناطق التي تكون مغمورة بالماء أثناء ارتفاع المنسوب^(٤)، وبناءً على ذلك يلاحظ أن القائد لم يفكر في العبور من خلال المخاضة التي تنعدم أهميتها في وجود الماء ذو المنسوب المرتفع، وعليه كان العبور يقتصر على الفرسان دون المشاة في البداية.

وكان مما دار في فكر القائد سعد أن يتم بناء جسر من أجل العبور عليه إلى الضفة الأخرى، وتجلّى ذلك بقوله للمقاتلة: "أيها المسلمون! انزلوا الآن ههنا حتى نعقد جسراً ونعبر، فقال له بعض المسلمين: "أيها الأمير! إن الذي حملنا في البر هو قادر على أن يحملنا في البحر؛ فقال سعد ﷺ: صدقت أيها الرجل ولكن الماء في منتهى الزيادة على ما ترى، فقال له الرجل: أنا أقترح أيها الأمير هذه الدجلة بفرسي واثقاً بربي؛ ثم صاح الرجل بفرسه واقتحم الماء"^(٥).

ثم قرر القائد سعد العبور بعد أن رأى هذه الحماسة والاندفاع في نفوس مقاتليه فجمعهم؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال: "إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن توتوا منه... إلا إنني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل"^(٦).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ق: ٣، ص ٣٦٨.

(٢) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ١٨٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٨.

(٤) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٧٤.

(٥) الكوفي، كتاب الفتوح، ج: ١، ص ١٦٨. وقد ورد عند ابن خياط أنه قال: "ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله تعالى". ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣٣.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٨. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ١٤٣-١٤٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٩. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٥. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٧٠.

وبعد أن قرر العبور كان عليه أن يضمن السلامة في الوصول إلى الضفة الشرقية؛ فقال: "من يحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوه من الخروج"^(١)؛ فانتدب له عاصم بن عمرو^(٢) قائد كتيبة الأهوال^(٣)، وتطوع معه ستمائة رجل من أهل النجدات لاقتحام نهر دجلة الذي كان في أوج فيضانه^(٤)، وقد طلب عاصم وهو على شاطئ دجلة المساعدة من المقاتلة حتى يحموا عملية العبور قائلاً: "من ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا؟ فانتدب معه ستون"^(٥). وقد افترق الستون فرقتين؛ أصحاب الخيل الذكور وأصحاب الخيل الإناث، ولم يغفل الأعداء خطط القادة المسلمين إذ كانوا يترقبون ذلك بقلق شديد؛ فلما بدأت طليعة عاصم بن عمر بالعبور "ورآهم الأعاجم وما صنعوا أعدوا للخيل التي تقدمت سعد مثلها، فاقتحموا عليهم فأعموها عليهم فلقوا عاصماً في السرعان وقد دنا من الفراض"^(٦)، وهنا ما كان من القائد عاصم إلا أن أصدر أمراً إلى الجنود بتركيز القتال مستخدمين الرماح، وأن يحموا عيونهم هم، ويجعلوا رماحهم في أعين العدو قائلاً: "الرماح الرماح! أشرعوها وتوخوا العيون"^(٧)، فالتقوا فأطعنوا وتوخي المسلمون عيونهم، فولوا هاربين والمسلمون يشمسون بهم خيلهم ما يملك رجالها منع ذلك منها شيئاً^(٨).

وقد وصف الواقدي المعركة التي جرت أثناء العبور بقوله: "فلما رأت الفرس ثبات العرب في الماء كثباتهم في الأرض للطعن والضرب، ولوا الأدبار والمسلمون في آثارهم فقتلوا عامتهم، وما نجا إلى الشط إلا القليل، وملك المسلمون جانب الشط من جهة الفرس وتلاحق المسلمون... ونزلوا الدجلة وهي ترمي بالموج والناس يجهدون في عومهم وهم لا يكثرثون بالموج ولا بتلاطمه، وكأنهم على وجه

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٨. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ١٤٤.

(٢) عاصم بن عمرو التميمي (ت بعد ١٥٠هـ/٦٣٦م): من الشعراء الفرسان، اشترك في فتوح العراق، وله فيها أشعار كثيرة شارك مع أخيه القعقاع في معركة القادسية فأبلو بلاءً حسناً. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) الأهوال: أولى الكتائب التي قسمت إليها الفرق التي ستعبر خلال دجلة، وكان قائدها عاصم بن عمرو. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٩.

(٤) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ١٨٥.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٩.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٧١.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٨.

(٨) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ١٨٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩-١٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٨.

الأرض ونزل بأهل فارس ما لم يكن في حسابهم"^(١)، "فأجهضوهم وأعجلوهم عن جمهور أموالهم، ودخلها المسلمون"^(٢).

ويبدو أن السبب الذي دفعه إلى العبور على وجه السرعة، الخوف من قيام يزدجر بنقل كل ما في المدائن من ذخائر وأموال وهذا ما حمله على الإقدام على مثل هذه المخاطرة^(٣).

وهكذا بدى أثر النهر الإيجابي أو السلبي في المعارك التي جرت على ضفافه بالنسبة إلى كل طرف من الأطراف المتصارعة، وكانت تتطلب تلك المعارك التعرف على طبيعة المنطقة الجغرافية، ومزايا جغرافية النهر من حيث الضفاف، وعرض النهر، والمخاضة، وإعداد القوارب، ومن الجدير بالذكر أن العرب استخدموا الخيول سفناً نهرياً عبروا من خلالها النهر الذي كان في أوج فيضانه، فلم يكن عدم وجود السفن والمعدات التي نقلها الفرس إلى الضفة الشرقية عائقاً وقف في وجههم، بل عبروا إلى المدائن وحاصروها من اتجاهين "من فوق المدائن ومن أسفل"، وتمت محاصرتهم في الجانب الشرقي حتى أكلوا الكلاب والقطط^(٤).

ومما يجب التنويه إليه أن بعض الباحثين رفضوا أن يكون للعامل الجغرافي في القادسية أي أثر، فقد أورد الباحث يوسف أبو الحجاج في بحث له بعنوان "مسالك انتشار الإسلام" ما يبرهن على ذلك قائلاً: "ولم يكن انتصار المسلمين في موقعة (القادسية) مثلاً بالأمر الذي يمكن أن يسند فيه الفضل أو جزء من الفضل إلى الظروف الجغرافية، فقد كانت القادسية يومذاك يحفُّ بها من ناحية الشرق نهر الفرات، وهو نهر كبير لا بد من عبوره، ويحفُّ بها من جانب ميمنة جيش المسلمين مستنقع كبير لا يسهل اجتيازه، إنما كان نجاح جيش سعد بن أبي وقاص في عبور الفرات والانطلاق شرقاً حتى نهر دجلة أمر يحسب ضد الظروف الجغرافية ولا يحسب نتيجة لها"^(٥).

وقد ذكرت المصادر بعض المعارك التي جرت قرب الأنهار وكان لها أثر بشكل أو آخر دون التعرض لذكر أثر النهر، إلا أنه غالباً ما كان يتم استخدامه للعبور فراراً من الطرف المنتصر، أهمها ما حصل في فتح قرقيسياء سنة (١٦٦هـ/٦٣٧م)، فقد ذكر الواقدي أن المسلمين "اتجهوا إلى

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ١٨٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٠.

(٣) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٢٨٩.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٧.

(٥) يوسف: مسالك انتشار الإسلام، ص ٣٦.

قرقيسياء، فحال نهر الفرات بينهم وبين الفرس، فدلّهم بعض سكان المنطقة على مخاضة، فعبروا في الليل، وأصبحوا على أرض واحدة مع أعداءهم^(١)، وتم أخذها عنوة.

وفي فتح مكران سنة (٢٣هـ/٦٤٤م)، حيث قصد القائد الحكم بن عمرو التغلبي مكران، وتبعه عدد من القادة فانتهوا إلى دوين النهر^(٢)، وأهل مكران على شاطئه، فعسكروا وعبر إلى أهل مكران ملك السند ويسمى "راسل" فاقترب بهم مستقبل المسلمين، وبذلك أصبح النهر بين المسلمين والفرس، فهزم الله "راسل"، وجرت معركة قتل فيها من الفرس مقتلة عظيمة ولاحقوهم حتى النهر، الذي استخدمه الفارون موئلاً للفرار والهرب من المسلمين^(٣).

وبعد النصر في المعركة وإعلام الخليفة عمر رضي الله عنه بما جرى سأل الخليفة عن مكران وحالها، وعندما علم بكتاب يخبره عن وضعها وحالها، اتخذ الخليفة عمر رضي الله عنه قراراً بعدم تجاوز مكران وكتب إلى القادة يأمرهم "بأن يقتصروا على ما دون النهر"^(٤).

وفي سنة (٣٦هـ/٦٥٦م) أراد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتوجه إلى صفين، فكان عليه أن يعبر الفرات من الرقة^(٥)، وهنا برز أثر النهر عندما أرسل اثنين من رجاله وسرحهما أمامه للقاء معاوية بن أبي سفيان إلا أنهما عادا إلى الخليفة بفعل العامل الجغرافي المتمثل بالنهر فقد سارا بمحاذاة الفرات فلما بلغا منطقة يقال لها عانات^(٦) أرادوا العبور فمنعهم أهلها وهنا وجدوا أن النهر يشكل حاجزاً بينهم وبين الخليفة علي والمسلمين فرجعوا بعد أن اتخذوا قرارهم بقولهم: "لا والله ما هذا لنا برأي نسير بيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر ومالنا خير في أن نلقى جنود الشام بقلة من معنا"^(٧). وعندما وصل إلى الرقة^(٨)، وجد أن نهر الفرات يشكل عائقاً أمام تقدم جيشه؛ فقال - الخليفة - لأهل الرقة: "اجسروا لي جسراً حتى أعبّر نهر الفرات إلى الشام، فأبوا، وكانوا قد ضمو إليهم السفن"^(٩).

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص: ٩٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص: ٤٤٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص: ١٨٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص: ١٨٢.

(٥) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص: ٣٧٨.

(٦) عانات: منطقة مشرفة على الفرات، وفيها قلعة حصينة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص: ٧٢.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص: ٥٦٦.

(٨) الرقة: مدينة مشهورة على نهر الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام، معدودة من بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي.

الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص: ٥٨-٥٩.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص: ٥٦٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص: ١٦٥.

وهذا الأمر أدى بخلفه مالك بن الأشتر النخعي^(١) إلى تهديد أهالي الرقة بالسيف^(٢)، قائلاً لهم: "والله يا أهل الرقة! لئن لم تعقدوا لأمير المؤمنين جسراً لأجردن فيكم السيف، ولأقتلن الرجل ولأحوين الأموال"^(٣). وهذا ما أدى إلى موافقتهم على عقد الجسر قائلين: "إنا ناصبون لكم جسراً، فأقبلوا"، وعبر وعبر عليه علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن نادى بأصحابه أن عبروا، وعبر الناس بأجمعهم حتى لم يبق أحد من الناس إلا عبر^(٤).

إذاً كان العبور يشكل عائقاً كبيراً بالنسبة للأطراف المتصارعة، وخاصة للطرف المهاجم الذي عليه أن يقحم قواته في النهر لملاقاة الطرف المدافع، وهذا يؤثر في النتيجة النهائية للمعركة دون شك.

ثالثاً- أثر مياه البحار.

من الواضح أن أثر البحر لم يكن ظاهراً في عصر الرسول الأكرم محمد عليه السلام، وعليه لم يتم ذكره في عصر الرسول الأكرم، وقد يُطرح السؤال التالي، هل كان للجغرافية أثراً في التأخر باستخدام عامل البحر؟ وكيف ظهر أثر البحر في تلك المرحلة؟

يمكن القول أن المسلمين كانوا داخل حدود الجزيرة العربية الصحراوية، ولم تتعد فتوحاتهم ومعاركهم حدودها الجغرافية في عصر الرسول عليه السلام، كما أن أولى المعارك التي كانت على أطراف العراق وبلاد الشام من الناحية الجنوبية لم تكن قريبة من البحر، وبالتالي لم يكن للبحر أثر فيها أيضاً- باستثناء بعض المحاولات لركوب البحر في حروب الردة- حيث أن المسلمين بقوا على اتصال بأطراف الصحراء، ولم يتوغلوا إلى المدن الساحلية، وقد ناقش العديد من الباحثين هذه المسألة فيما يخص ركوب العرب للبحر والملاحة فيه، فبينوا أن العديد من مصطلحات العرب عن الملاحة

(١) مالك بن الأشتر النخعي (ت ٣٧هـ/٦٥٧م): مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي، المعروف بالأشتر: أمير، من كبار الشجعان، حضر خطبة (عمر) في الجابية، وسكن الكوفة، وشهد اليرموك وذهبت عينه فيها، وشهد يوم الجمل ويوم صفين مع علي بن أبي طالب، ولاه الخليفة علي مصر فقصدها، فمات في الطريق. الزركلي: الأعلام- قاموس تراجم، ج: ٥، ص ٢٥٩.

(٢) المغلوث: أطلس الخليفة علي بن أبي طالب عليه السلام، ص ١٨٠.

(٣) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ١، ص ٥٦٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٥٦٦.

وركوب البحر، كانت نقلاً عن غيرهم، بل إن مصطلح السفينة وعلى الرغم من شيوعه لم يكن عربياً، وانتهاوا إلى أن معرفة المسلمين بالملاحة وفنونها كان قليلاً^(١).

ويجد الباحث في حديث ابن خلدون تعليلاً لتأخر العرب في ركوب البحر؛ فقد عقد فصلاً من كتابه "المقدمة" من العبر وديوان المبتدأ والخبر للحديث عن "قيادة الأساطيل" قائلاً: "أنَّ العرب لبدأوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده، مَرَنُوا عليه وأحكموا الدرية بثقافته"^(٢)؛ بينما يعطي برهاناً لتفوق الروم والفرنجة في هذا المجال، وسيطرتهم على البحر الرومي (المتوسط) قائلاً: "فقد كانت الروم والفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله..^(٣)".

وإن كان العرب تأخروا في الإبحار فهذا لا يعني أنهم لم يفتنوا إلى أهميته، وأهمية إنشاء أسطول بحري يحمي المناطق التي سيطروا عليها بعد أن بدأت عملية الفتوحات على جبهة بلاد الشام، حيث شعر العرب بضرورة الدفاع عن المناطق التي كانت على ساحل البحر، وفي ذلك أورد الطبري رواية تؤكد على أن المسلمين حاولوا أن يمحروا عباب البحر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ففي أثناء محاولة العرب فتح جزيرة قبرص^(٤) ذكر الطبري قائلاً: "ألحَّ معاوية في زمانه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غزو البحر وقرب الروم من حمص"^(٥)، وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر رضي الله عنه"^(٦).

ويمكن القول أنَّ العرب كانوا مدركين لأهمية البحر، وأثره في حماية بلادهم من هجمات الروم البيزنطيين، وقد ترك هذا القول أثره في نفس الخليفة عمر رضي الله عنه، وهنا بعث الخليفة إلى واليه على مصر

(١) كاتب، غيداء عادل خزنة: بناء الأسطول الأموي (النشأة والتطور)، مجلة مجمع اللغة العربية، الأردن، مج: ٣٩، العدد: ٨٩، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص ٢٥٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢١١.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢١٠.

(٤) قُبرص: كلمة رومية وافق من العربية القبرس النحاس الجيد، وهي جزيرة في بحر الروم، في الإقليم الرابع. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٣٠٥.

(٥) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسور، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عالك كبير، وهي بين دمشق وحلب في منتصف الطريق، تم فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح عام ١٥هـ/٦٣٦م. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٣٠٢-٣٠٥.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٥٨. نصر، محمد إبراهيم: أضواء على معركة ذات الصواري، جماعة أنصار السنة المحمدية، مج: ٨، العدد: ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٢٩-٣٠.

عمرو بن العاص رضي الله عنه طالباً منه وصف البحر بقوله: "صف لي البحر وراكبه؛ فإن نفسي تتازعني إليه" ^(١).

وجاء رد القائد عمرو بن العاص على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب قائلاً: "إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير؛ إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول؛ يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود؛ إن مال غرق، وإن نجا برق" ^(٢) ^(٣).

ومن خلال الوصف الدقيق الذي جاءه من عمرو بن العاص أصدر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قراره بعدم الموافقة على ركوب البحر، قائلاً بعد وصول كتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه: "لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً" ^(٤).

إذاً كان للبحر أثراً في اتخاذ الخليفة قراره، فأبى أن يسمح لمعاوية في حمل المسلمين بهذا البحر العظيم الذي باضطرابه سيكون الهلاك محققاً للجيش الذي يعبر من خلاله ^(٥)، وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قائلاً: "فكيف أحمل الجنود في هذا البحر؟ وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم؛ فأياك أن تعرض لي.." ^(٦).

وما يؤكد قلق الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ركوب البحر هو غضبه وحنقه على عامله على البحرين وعمان الذي قام بالتغريب بالمسلمين، وذلك عندما قام بإرسال حملات على بلاد السند فأرسل إليها حملة في عام ١٥هـ/٦٣٦م ^(٧).

وعليه فقد بقي معاوية رضي الله عنه طيلة أيام الخليفة عمر رضي الله عنه وفكرة الغزو في البحر تلمع في فكره، بسبب عدم موافقة الخليفة على ذلك ^(٨)، ويرجح أن فكرة الرفض كانت بسبب جهل العرب بركوبه، وإحساس الخليفة بالخطر الداهم إذا تم الإبحار من خلاله، خاصة وأن العرب لم يعتادوا على القيام بغزوات

^(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٨٨.

^(٢) بَرَق: الحيرة والدهشة.

^(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٥٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٨٨. حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٥٠١. الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٣٣٩.

^(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٥٩.

^(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٢٢٨-٢٢٩.

^(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٥٩. النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٢٩١.

^(٧) طهوب، صلاح: موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر الأموي، دار أسامة، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ١١٢.

^(٨) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٢٩١.

بحرية؛ فكانت تلك العملية عائقاً مبدئياً في وجه الفتوحات إلا أنها ستصبح فيما بعد من الأمور التي يعتاد العرب على القيام بها^(١).

وفي سنة (٢٤هـ/٦٤٥م) عندما وليّ عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة، عاد معاوية إلى المحاولة، وكتب إليه يستأذنه في ركوب البحر وغزو قبرس، إلا أن الخليفة لم يعطه الموافقة قائلاً: "إني قد شهدت مارد عليك عمر رحمه الله"^(٢). وبقي هكذا حتى دخلت سنة ٢٧هـ فكتب معاوية إليه من جديد يهون عليه ركوب البحر إلى قبرس^(٣)، وهنا وافق الخليفة عثمان بشرط "إن ركبت البحر ومعك امرأتك؛ فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا"^(٤).

ولما كانت سنة (٢٨هـ/٦٤٩م) وهي السنة التي كان فيها غزو جزيرة قبرص^(٥)، فيها غزا معاوية بن أبي سفيان جزيرة قبرس ومعه زوجته فاختة بنت قرظة من بني عبد مناف^(٦)، ومن المدهش أن هناك نقش يوناني يؤكد تاريخ الغزوة^(٧).

والمهم أن البحر كعامل جغرافي بالإضافة إلى الرياح كان له أثر كبير في الغزوة، وكادت سفن المسلمين أن تتفرق بفعل الرياح ومياه البحر الهوجاء؛ فقد ذكر ابن أعثم الكوفي قائلاً: "وبينما القوم يسيرون في البحر إذ هبّت الرّيح وهاج البحر، فاضطرب بأموأجه وفرّق المراكب يمناً ويسرة؛ وفزعت امرأة معاوية فرعاً شديداً... فقال لها الذي يدبر أمر المركب: ليس ههنا أحد له سلطان على هذا البحر دون الملك الجليل، وليس إلى حبس المراكب من سبيل؛ فاغتمّ معاوية بمن قد حمل معه من نسائه وأولاده، فلم يزلوا كذلك ساعة ثم إن الرّيح هدأت وسكنت، فسار المسلمون في مراكبهم"^(٨).

(١) كينيدي، هيو: الفتوح العربية الكبرى (كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه)، تر: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٤٤٧. محفوظ، محمد جمال الدين: أول أسطول بحري في تاريخ المسلمين، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرياض، السعودية، العدد: ٢٨٨، ١٤٤٠هـ/١٩٨٨م، ص ٥٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ق: ٢، ص ٢٠٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٨٨.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ق: ٢، ص ٢٠٨.

(٥) الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٧١.

(٦) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٦٠. الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٣٣٩.

(٧) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٤٧.

(٨) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٢، ص ٣٤٨.

وبعد الغزوة الناجحة، اضطر أهل قبرس إلى المصالحة ودفع جزية سنوية للمسلمين، وخضعت الجزيرة لنوع من الحكم المشترك، وأعقبها هجمات أخرى على جزر البحر المتوسط رودس، وكوس، وقد تعرضتا للنهب^(١)، ومن خلال ذلك يستدل أن المسلمين بدأوا بالتعود على ركوب البحر وقاموا ببناء أسطول بعد أن رأوا أنه من الممكن استخدام السفن في الأغراض الهجومية، وقد ذكر ابن خلدون تلك المرحلة قائلاً: "فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم، وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية - الملاحين - في حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها فشرعوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني (نوع من السفن الكبيرة)، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحار من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى البحر وعلى حافته، مثل الشام وإفريقيا والمغرب والأندلس"^(٢).

وبعد أن أسس العرب أسطولاً لهم، كان أول اشتباك بحري حقيقي بين العرب والروم البيزنطيين في معركة ذات الصواري عام (٣١١هـ/٦٥١م)^(٣)، وقد جرت المعركة قبالة ساحل ليكيا في آسيا الصغرى^(٤)، والسبب في ذلك أن قسطنطين بن هرقل خرج على رأس خمسمائة مركب أو ستمائة يريد الانتقام من العرب الذين أصابوا من أهل إفريقية وسلبوهم^(٥).

ويرجح أن السبب الأساسي لذلك هو سبب جغرافي اقتصادي، فكيف يمكن البرهنة على ذلك؟

يمكن القول أن المنطقة التي جرت فيها أحداث معركة ذات الصواري كانت في ساحل الأناضول وهو مكان جغرافي مليء بغابات السرو الكثيفة، وهو الشجر المستخدم بصورة أساسية في صواري السفن وصناعة الأساطيل، وبما أن الأسطول الإسلامي كان في بداية نشأته وتطوره؛ فكان لابد للعرب من الحصول على تلك الأخشاب اللازمة، وهنا جعل البيزنطيون هدفهم الأساسي هو الوقوف

(١) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢١١.

(٣) اختلفت المصادر والمراجع في تحديد تاريخ المعركة، فالبعض يذكر أنها كانت في سنة ٣١١هـ/٦٥١م، والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة ٣١٤هـ/٦٥٤م، في حين يذكر فريق ثالث أنها كانت في عام ٣٥٥هـ/٦٥٥م. الجنزوري، عليه عبد السميع: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: ١، الاسكندرية، مصر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٣٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٣.

(٤) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٤٩. الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية، ص ٤٠. محفوظ، محمد جمال الدين علي: معركة ذات الصواري البحرية تحقيق موقعها، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد: ٣٦٦، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ٤٩.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٩٠.

في وجه العرب وبين حصولهم على الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، فكانت المعركة في ذلك المكان، كما رجح بعض الباحثين أن معركة ذات الصواري جاءت تسميتها من هذا المكان الجغرافي حيث يوجد الخشب المستخدم في الصواري لصناعة السفن، كما أن ثمة رأي آخر يذكر أن كثرة الصواري التي اشتركت فيها من الجانبين هو السبب للتسمية^(١).

كان قائد أسطول المسلمين عبد الله بن أبي سرح^(٢) الذي خرج في مائتي سفينة^(٣)، بعد أن كتب إليه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه يأمره في ركوب البحر بجنوده من المسلمين من أهل مصر، وكتب إلى معاوية أن يركب البحر بجنوده من أهل الشام، وكان اللقاء في ساحل عكا ومنها كان الإبحار، وقد اجتمع إليهم ما يقارب خمسمائة مركب، وبينما هم يمخرون عباب البحر وإذا بسفن الروم قد وافتهم^(٤)، ومما يجب التنويه إليه أن الأسطول الإسلامي كان مجتمعاً في شواطئ سوريا وجرت المعركة قرب ساحل ليكيا وليس قرب شواطئ الاسكندرية في مصر كما يعتقد البعض^(٥).

وهنا أيضاً انتظر الفريقان بفعل العامل الجغرافي المناخي المتمثل بالمناخ فقد حذت الرياح من حركة السفن، فلم يتمكن كلا الفريقين من الحرب في بادئ الأمر^(٦)، واضطر الفريقان إلى الانتظار ريثما هدأت الرياح وفي ذلك ذكر الطبري: "وكانت الرياح علينا، فأرسلنا ساعة، وأرسلوا قريباً منا؛ وسكنت الرياح عنا؛ فقلنا: الأمن بيننا وبينكم"^(٧)، وباتوا ليلتهم وهم يقرؤون القرآن ويدعون ويصلون، أما الروم فكانوا ينفخون في الصفارات، ويشربون الخمر^(٨).

(١) محفوظ: معركة ذات الصواري البحرية تحقيق موقعها، ص ٥٠.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح: عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري، قریش الظواهر، وليس من قریش البطاح، يكنى أبا يحيى، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، أسلم قبل الفتح، غزا إفريقية من أرض السواد، وغزا غزوة الصواري في البحر إلى الروم. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص ٢٦٠-٢٦٢.

(٣) العمري، عبد العزيز بن إبراهيم: الفتوح الإسلامية عبر العصور، دار إشبيليا، ط: ٣، الرياض، السعودية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١، ص ١٥٥. الجنباز، محمد منير: معركة ذات الصواري البحرية، موقع شبكة الألوكة الثقافي، المقال بتاريخ ٢٠١٧/٧/٦م. راجع، www.alukah.net تاريخ الزيارة ٢٠١٩/١٠/٢م.

(٤) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ١، ص ٣٥٥.

(٥) محفوظ: معركة ذات الصواري البحرية تحقيق موقعها، ص ٤٩.

(٦) نصر: أضواء على معركة ذات الصواري، ص ٣٥.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٩٠.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٤.

ولما كان الصباح طلب المسلمون من الروم القتال عند الساحل، فرفض الروم ذلك. وقالوا: "لا بل البحر بيننا وبينكم"^(١). ثم ربط المسلمون سفنهم ببعضها ببعض، وقربوها من سفن الروم وجرت المعركة بالسيوف والخنجر^(٢)، وقتل من الطرفين بشر كثير، وصبر المسلمون على القتال صبراً لم يُر مثله قط^(٣)، ووثبت على الروم صفوف المسلمين حتى نقضوها فكانوا يقاتلون على غير صفوف، ثم إن الله نصر المسلمين، وفر قسطنطين جريحاً، وبقي القائد عبد الله بذات الصواري أياماً، وفي تلك الواقعة يروي الطبري عن حضر في ذلك اليوم: "رأيت الساحل حيث تضرب الرياح الموج، وإن عليه لمثل الظرب"^(٤) العظيم من جثث الرجال، وإن الدم لغالب على الماء، ولقد قتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الكفار ما لا يحصى..^(٥)

يمكن من خلال ذلك القول بأن ربط المسلمين للسفن جعلها بمثابة الجزيرة العائمة على الماء^(٦)، وكما هو معلوم أن العرب كانوا بارعين باستخدام السيوف والنشاب، لذلك كانت المعركة لصالحهم، وعندما علم قسطنطين بخبر ربط المسلمين للسفن ببعضها البعض، وأنهم يقاتلون صفّاً واحداً تنبأ بأن العرب لهم الظفر في المعركة وهذا ما حصل^(٧).

إذاً برز أثر البحر والرياح في معركة ذات الصواري، وتجلّى أثر البحر في قيام المسلمين بربط السفن ببعضها البعض وذلك لتحقيق التماسك وعدم ابتعاد السفن، خاصة وأن الرياح كانت تهب في فترات متتالية يؤكد ذلك ما ذكر سالفاً، وعليه كان ربط السفن استغلالاً للعامل الجغرافي، وكان إرساء السفن والانتظار حتى اليوم التالي من أجل القتال خير دليل على أثر الرياح، ومعرفة العرب لأثر هذا العامل.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٩٠.

(٢) الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٣٤٠.

(٣) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٤٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٤. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ١، ص ٣٥٦.

(٤) الظرب: ما نتأ من الحجارة، وحد طرفه. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٩٠-٢٩١.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٩٠-٢٩١. الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية، ص ٤١.

(٦) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٩٦.

(٧) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٥٠.

★ الفصل الثالث:

أثر المناخ

لا ريب في أن ظروف المعارك وعواملها الجغرافية سواءً طبيعية (تضاريس، جبال، أودية، صحراء، أنهار، بحار) أو مناخية (أمطار، سيول، حرارة، رياح، برد، برد ورياح، ثلوج، جفاف) تمثل معطيات لها أهمية عظيمة ودور كبير في تغيير نتائج المعركة وترجيح كفة من يحسن استغلاله من الأطراف المتصارعة، والمناخ كغيره من العوامل فإنه يشارك في تحديد فصول الحروب وأوقات الهجوم وله دور في بناء المدن واختيار مواقعها، وبما أنه أصبح علماً له أصول تستند إلى دراسات علمية وميدانية لا بد من إلقاء الضوء على أهم الأحداث التي تجلى فيها أثر المناخ بمكوناته المختلفة من أمطار وحرارة ورياح وغيرها..

أولاً- أثر الأمطار والسيول.

لاريب أن مياه الأمطار تترك أثراً على المعارك، خاصةً إذا كانت تلك المعارك على أطراف الصحراء فهل كان أثرها سلباً أم إيجاباً؟ وكيف تجلى دورها في أحداث هذا العصر؟ هذا ما سيتم توضيحه بذكر لمع من الأحداث التي ذكرتها المصادر وروتها.

لقد ذُكرَ سالفاً في أثر المياه أن معركة ذات السلاسل التي كانت سنة (١٢/١٣٣م)^(١) بين القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين الفرس بقيادة هرمز^(٢)، كانت معركة ماء بالدرجة الأولى، فقد كانت هذه المعركة في أرض صحراوية متصلة بصحراء شبه الجزيرة العربية، وبالتالي كانت السيطرة على الماء الهدف الأول قبل البدء بالمعركة، المهم أن هرمز سبق العرب إلى أرض المعركة واستحوذ على آبار المياه في المنطقة فكان "الماء في أيديهم أما العرب فقد نزلوا على غير ماء"^(٣)، وهنا برز أثر مياه الأمطار حيث بعث الله المطر من أجل نصر المسلمين وشد أزهم، وتحقيق النصر على عدوهم الذي سيطر على الماء وفي ذلك ذكر الطبري قائلاً: "وأرسل الله سحابةً، فأغررت ما وراء صف المسلمين، فقوّاهم بها..^(٤)

إذاً نزل المطر على المسلمين بالتزامن مع بدء القتال، وكانت الأمطار ذات أثر إيجابي على المسلمين لأنهم نزلوا على غير ماء فقوتهم على الفرس وشدت أزهم، وبالتالي حقق المسلمون النصر الذي اقترن بنزول المطر في هذه المعركة^(٥)، وقد انتهت بقتل هرمز وهزيمة الفرس.

ويمكن القول أنَّ الأحداث التي جرت في بلاد الشام لم تكن بمعزل عن التأثير بعوامل المناخ ومنها الأمطار، ففي سنة ١٤/٦٣٥م على إثر فتح دمشق^(٦) جرت أحداث برز فيها أثر المطر ونزوله على المسلمين، كان أثرها لصالح المسلمين وكانت عوناً لهم على أعدائهم، فكيف تجلى ذلك؟

بعد أن تم فتح دمشق من قبل الفاتحين الذين تولوا أبواب دمشق وحصارها، منهم من دخل أبواب دمشق صلحاً، ومنهم من دخلها عنوة^(٧)، وكان القائد أبو عبيدة من الذين قبلوا الصلح، أما القائد خالد

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٣٩.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٤٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٣٤٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٣٩.

(٥) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٤٢.

(٦) الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٦٠.

(٧) في فتح المدينة صلحاً تترك المدينة وشأنها، ولا يتعرض الفاتحون لها بسوء، ويكتفي بالجزية فقط. أما في فتح المدينة عنوة فيباح للفاتحين أموالها وكل ما فيها من غنائم الحرب. سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٣٤٩.

دخلها عنوة، ووقع الخلاف فيما بينهم حول السماح للروم البيزنطيين بالخروج من المدينة^(١)، المهم أنهم سمحوا لهم بالخروج إلى أي بلد شاءوا بعد مناقشات حادة لم يكن للقائد خالد موافقة فيها^(٢)، وعندما رأى القائد أحمال الروم البيزنطيين وخاصة الخزينة الملكية التي تحتوي على ثلاثمائة حمل من الديباج، وحلل مذهبة، قرر أن يلحق بالقوم في طلبهم بعد أن حصل على موافقة أصحابه، وكانوا انفقوا على أن تنتهي حماية المسلمين للروم البيزنطيين في ثلاثة أيام، فقال: "قوموا بخيلكم حق القيام، وأحسنوا إليها ما استطعتم وانجزوا سلاحكم فإني أسير بكم بعد ثلاثة أيام في طلب هؤلاء القوم، وأرجوا من الله أن يغنمنا هذه الغنيمة.." ^(٣).

وانطلق القائد خالد بوجود رجل من دمشق دليلاً يدعى **يونس** حتى قطعوا الجبل، وكان المطر يتساقط على المسلمين بغزارة، وتجلّى أثره في أنه حبس الروم البيزنطيين عن متابعة مسيرهم، وعلى الرغم من المطر الذي تساقط على المسلمين طيلة ليلتهم تمكنوا من اللحاق بالقافلة، وفي ذلك قال الواقدي عن روح بن طريف رضي الله عنه: "ولقد رأيتنا ونحن نسير والمطر ينزل علينا كأفواه القرب طول ليلتنا". وهنا أصبح المسلمون على مقربة من الروم البيزنطيين، وذلك لأن الدليل يونس قد طلب من القائد خالد أن يأتيه بخبر القوم فسمح له بالذهاب مع رجل اسمه المفرط بن جعدة، وعندما وصلا إلى جبل يقال له الأبرش وكانت الروم تسميه "**جبل باردة** أو **بردى**"^(٤)، وجدا أن القافلة كانت وراء الجبل وقد انتشرت في السهل انقاءً للمطر الذي بلّ رجالهم، وقد أخرجوا الديباج ونشروها في طول المرج من أجل تجفيفها خوفاً من إتلافها^(٥)، وكانت تلك الفرصة المناسبة للانقضاض على القافلة والحصول على الغنائم، وانقض العرب المسلمين عليهم بعد أن قسم القائد خالد قواته، وسميت المعركة التي جرت في هذا السهل القريب من أنطاكية "بمعركة مرج الديباج"^(٦).

إذاً كان المطر عوناً للمسلمين في اللحاق بأعدائهم حيث حدّ وأعاق مسيرهم، وجعلهم يقومون بنشر الأحمال من الديباج وغيرها على السهل من أجل تجفيفها، كلّ هذا استغله المسلمون وحققوا النصر بإذن الله تعالى.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٧٩.

(٢) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٧٣.

(٣) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٧٥.

(٤) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٤١٤.

(٥) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٧٨.

(٦) لأن ديباج الروم ومتاعهم كان مبعثراً على أرض المعركة حين هجم المسلمون عليهم. الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٤١٤.

وفي سنة (١٤هـ/٦٣٥م) في مقدمات معركة القادسية التي حدثت بقيادة القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والفرس، يلاحظ أثر مياه الأمطار في توقف القتال بين الطرفين، والانتظار حتى حلول الربيع، فبعد أن أوصى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد بالتوجه إلى زرود^(١) بعد أن شيعهم قائلاً: "إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها، وتفرقوا فيما حولها، واندب من حولك منها.." ^(٢).

كان وصول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى زرود في أول الشتاء، فنزله وتفرقت الجنود فيما حولها، وكتب إلى عمر ينتظر أمره فيما يخص المسلمين، فجاءه أمر الخليفة بالتعبئة في شراف والتوجه إلى القادسية، وفي شراف تجمع الجند وكان فصل تساقط الأمطار^(٣)، وبعد أن انتهى فصل الشتاء الذي أمضاه سعد بالتعبئة والتجهيز للقتال^(٤)، استعد الطرفان للقتال وقد أمر يزدجر قائده رستم بالتوجه لملاقاة العرب بقوله: "إن الشتاء قد انحسر عنا وعن هؤلاء القوم والأرض قد أعشبت، والأشجار قد أينعت؛ فسر إليهم بخيلك ورجلك وجاهدكم أبداً حتى تردهم على أديبارهم حيث جاءونا.." ^(٥). فاجتمعت العساكر إلى رستم، وانتهوا إلى القادسية بإزاء المسلمين، وكانت حربهم أربعة أيام^(٦).

ومن خلال ما تقدم يبدو واضحاً أن فصل الشتاء بأقطاره وبرده أثر على عملية الفتوح وأدى إلى تأخير العمليات العسكرية ريثما يحل فصل الربيع باعتدال مناخه الذي يساعد المقاتلة على القتال، فضلاً عن توفير الغذاء للخيول بتوفر الأعشاب التي تنمو عقب سقوط الأمطار.

كما أن المطر والبرد الشديد والشتاء ظهر أثره في فتح بيت المقدس سنة ١٥هـ/٦٣٦م، فقد ذكر الواقدي أن المسلمين نزلوا على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد وظن الروم البيزنطيين أن المسلمين لا يقدر عليهم في ذلك الوقت^(٧)، فكيف تجلى أثر البرد والمطر في فتح بيت المقدس؟

إن للعوامل المناخية أثرها الواضح في الأحداث وقد ظهر في طول أمد الحصار لبيت المقدس؛ حيث استمر الحصار أربعة أشهر، ومع هذا صبر المسلمون على البرد والثلج والمطر، وذلك حتى

(١) زرود: منطقة رملية بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج إلى الكوفة، وتسمى زرود العتيقة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ١٣٩.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٨٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٤٨٨.

(٤) كمال، أحمد عادل: استراتيجية الفتوح الإسلامية (القادسية)، دار النفائس، ط: ٩، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٢٣٣.

(٥) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ١، ص ١٥٨.

(٦) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ١، ص ١٥٨.

(٧) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٢٢٤.

تم فتح المدينة بعد أن اشتروا قدوم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد وصوله فتحت المدينة صلحاً^(١).

وفي سنة (١٦هـ/٦٣٧م) في فتح بهرسير والمدائن الغربية التي فيها إيوان كسرى^(٢) كان للسيل أثراً كبيراً في تردد القائد سعد بن أبي وقاص عن العبور إلى المدائن الغربية^(٣) بعد أن دلوه على مخاضة يمكن من خلالها العبور إلى المدينة القصوى^(٤)، فكان السيل الذي فاجأهم هو السبب في رفض القائد العبور، وفي ذلك أورد الطبري قائلاً: "حتى أتاه أعلاج فدلوه على مخاضة تخاض إلى صلب الوادي، فأبى وتردد وفاجأهم المد"^(٥). وكانت تلك السنة كثيرة المدود^(٦)، وكان نهر دجلة يقذف بالزبد^(٧)، وكل ذلك أثر في أحداث فتح المدائن.

وكان لانحباس المطر وانعدام الخير في عام (١٨هـ/٦٣٩م)^(٨)، أكبر الأثر في حدوث المجاعة التي أصابت الحجاز والمدينة المنورة حيث اسودت الأرض من قلة المطر^(٩)، ومن شدة الجفاف كانت الرياح تسفي تراباً لونه شبيه بالرماد فسمي عام الرمادة^(١٠)، وكان انحباس المطر وجفاف الأرض هو السبب الأساسي للقحط الذي حصل في تلك السنة.

إذاً من خلال الأمثلة التي تم ذكرها، يستدل على أن عامل - الأمطار - كان له دور في كثير من الأحداث التي جرت في ذلك العصر، وترك أثراً - إيجاباً أو سلباً - تجلى في نتائج المعارك والفتوحات.

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٢٢٤-٢٣٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩.

(٣) راجع أثر المياه، ومعارك العبور من هذا الفصل.

(٤) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٢٨٩.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩.

(٦) المد : أي السيل.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٥٨.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩٦.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٦٨.

(١٠) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٩٦.

ثانياً- أثر الجفاف والقحط.

ورد سالفاً أن القحط والجفاف كان من العوامل التي أثرت على شبه الجزيرة العربية بشكل وآخر، وظهر أثره في قلة الخيرات والثمار، وتدهور الحالة الاقتصادية للبلاد، وتوقف العمليات العسكرية في بعض الأحيان لأن الجيش يكون بحاجة إلى الزاد والمؤن، كما يحتاج إلى إطعام الخيل والحيوانات المرافقة للجيش وهذا لا يمكن توفيره في حال القحط والجفاف، وهنا يطرح السؤال التالي نفسه، هل كان هناك حالات جفاف وقحط في عصر الخلفاء الراشدين؟ وكيف أثر على الأحداث باعتباره من العوامل الجغرافية المرتبطة بالمناخ- أي مرتبط بقلّة تساقط الأمطار وإمساك السماء، وارتفاع معدل درجات الحرارة؟

يمكن القول أن الجفاف قد حصل عدة مرات في عصر الخلفاء الراشدين وترك أثره، وما يلي من أمثلة يعطي برهاناً على ذلك، حيث يلاحظ أنّ العام الذي أقبل فيه الجند من اليمن وغيرها من المناطق على الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سنة (١٣هـ/٦٣٤م)^(١) كان عام جذب وقحط؛ فبعد أن عزم الخليفة على بعث الجيش إلى الشام وحدد وجهته لقتال الروم البيزنطيين^(٢)، جاءت القبائل العربية فأنزلها حول المدينة، ولما طال بهم المقام أضرب بهم قلة الزاد وعلف الخيل وجذوبة الأرض؛ فتقدم سادات القبائل إلى الخليفة وقالوا: "يا خليفة رسول الله إنك أمرتنا بأمر فأسرعنا لله ولك رغبة في الجهاد وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا، والمقام قد أضرب بنا، لأن بلدك ليست بلد جيش، ولا حافر ولا عيش.." ^(٣).

إذاً كان القحط والجفاف وقلة الخيرات في المدينة المنورة السبب في طلب القبائل من الخليفة الإسراع بإنفاذ الجيش وتوجيهه إلى بلاد الشام، أو أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم لأن الوضع في المدينة كان سيئاً وقد أضرب بهم وفي حالة القحط هذه لا يمكن توفير احتياجاتهم وبالتالي من الممكن أن تتوقف العمليات العسكرية.

وقد أورد الواقدي أن هرقل عندما علم بذلك جمع بطارقه في عسكره مشجعاً لهم على المقاومة، ذاكراً أن السبب الأساسي في تقدم الجيوش الإسلامية هو الجوع والقحط وقلة الزاد قائلاً: "وقد بعث الله إليكم قوماً لم يكن في الأمم أضعف منهم عندنا، وقد رمتهم شدة الجوع إلينا، وأتى بهم إلى بلادنا، وبعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا- أبو بكر الصديق" ^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٢.

(٢) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٥.

(٣) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٧.

(٤) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٩.

وبعد أن انتصر خالد بن الوليد على الروم البيزنطيين وفتحوا بصرى توجهوا إلى دمشق وعندها نزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي لمدينة دمشق كما أن أبو عبيدة بن الجراح نزل على باب الجابية، وهنا أيضاً جمع هرقل بطارقه وتكلم بحديث يستدل من خلاله أن العامل الجغرافي المتمثل بالقحط والجوع هو السبب الوجيه في اندفاع العرب المسلمين من قلب الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، بغض النظر عن صحة هذا الافتراض حيث قال: "وهؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجذب والقحط وأكل الذرة والشعير إلى بلاد خصبة كثيرة الأشجار والثمار والفواكه فاستحسنوا ما نظروا إلى بلادنا وخصبنا"^(١).

وفي سنة (١٨هـ/٦٣٩م) ظهر أثر القحط والجفاف على المدينة، فقد أصاب الناس في المدينة والحجاز مجاعة شديدة وقحط وجذب^(٢) وسمي عام الرمادة؛ لأن الأرض اسودت من قلة المطر، ولأن الريح كانت تسفي تراباً كالرماد^(٣)، وكان من آثار الجوع على الإنسان والحيوان "حتى جعلت الوحوش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، وإنه لمقفر"^(٤). ولكن كيف تصرف الخليفة عمر رضي الله عنه في سبيل التخلص من تلك المشكلة الخطيرة، خاصة وأن الناس قد بدأوا بالترحل عن المدينة؟

يمكن القول أن الخليفة عمر بن الخطاب حاول التخلص من هذه المشكلة من خلال إجراءين ذكرهما الدوري في بحثه^(٥) وهما:

- استنصار القواد في البلاد التي لم يحدث فيها القحط؛ فقد ذكر ابن كثير أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عماله على الولايات ومنهم أبي موسى الذي كان بالبصرة، وإلى عمرو بن العاص الذي كان بمصر، قائلاً: "أن يا غوثاه لأمة محمد"^(٦)، وهنا بعث كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل الغذاء وسائر الأطعمة، وكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة^(٧)، كما أن عمرو بن العاص رضي الله عنه أعلن استعداداه لتقديم المساعدة والتفاني في الإيثار والتضحية في سبيل المسلمين، وما إن كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب يشكو إليه حال الحجاز وما آل إليه حال المسلمين حتى كتب إليه

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٣٦.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٣٨. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٩٦.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩٨.

(٥) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ١٨-٢٠.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٦٩.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ١٠٠.

قائلاً: "لأمدنك بغير أوله عندي وآخره عندك"^(١)، ثم قام بعدد من الإجراءات التي جعلت سعر الطعام في المدينة كسعره في مصر بعد أن أصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام إلى المدينة المنورة^(٢).

- استتصار الله عز وجل من خلال التوجه إليه "بصلاة الاستسقاء"، ويلجأ إليها المسلمون في حال الجذب من أجل الحد من القحط والجفاف وآثاره، وهنا في عام الرمادة صلى المسلمون صلاة الاستسقاء؛ فبعد أن خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه العباس بن عبد المطلب عم الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم بالمسلمين^(٣)، صلى بهم ركعتين ثم قال: "اللهم عجزت عنا أنصارنا، وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا، وأحيي العباد والبلاد"^(٤). وأخذ بيد العباس رضي الله عنه ودموعه تتهاوى على لحيته، وقال: "اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك، وبقية آبائه، وأكبر رجاله... فاحفظ اللهم نبيك في عمه"^(٥). والعباس يقول وعيناه تذرفان: "اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضالة.. فقد ضرع الصغير، ورق الكبير.. اللهم فأغنهم بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا؛ فإنه لا ييأس إلا القوم الكافرون"^(٦). فنشأت سحابة ومشت فيها ريح ثم هدرت ودرّت، وما عادوا حتى اعتنقوا الجدار وقلصوا المآذر، وطفق الناس بالعباس يمسحون أركانهم^(٧)، وفي هذا قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

بعمي سقى الله الحجاز وأهله
توجه بالعباس في الجذب راغباً
عشية يستسقى بشيئته عمر
إليه، فما إن رام حتى أتى المطر^(٨)

(١) القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢٠هـ/٧٥٦م): مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج،

عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج: ١، ص ٩١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٩٧.

(٣) الياضي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج: ١، ص ٦٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٩٩-١٠٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٩٨. النويري:

نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ٢٢٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٩٨.

(٦) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٩٨.

(٨) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج: ١٩، ص ٢٢٤.

إذاً من خلال ما تقدم يمكن القول أن عوامل القحط والجفاف لا تقل بأثرها عن غيرها من العوامل الجغرافية، فهي من العوامل التي تؤدي في كثير من الأحيان إلى مشكلات اقتصادية، واجتماعية، وصحية، ونفسية، وهذا كله يؤثر على سيرورة التاريخ وأحداثه وفي مراحله.

ثالثاً- أثر الرياح والشمس .

كان المسلمون حريصين على جعل الشمس وراء ظهورهم في معاركهم، وهذا ليس بجديد فمنذ أن كان الرسول الأكرم محمد ﷺ موجوداً، اعتاد المسلمون على اختيار المواقع التي تحقق لهم الاستفادة من الظروف الجغرافية سواءً طبيعية أم مناخية.

وتجسد أثر الرياح والشمس في معركة اليرموك سنة (١٣هـ/٦٣٤م)^(١)؛ فقد كانت الرياح والشمس في وجه الروم البيزنطيين، وفي ظهر العرب، خاصةً وأن العرب حرصوا في اختيار موقعهم أن يكون لصالحهم مستغلين عوامل المناخ، فكان اختيارهم للمكان من جنوب بلدة نوى^(٢) إلى شرق الجولان^(٣)؛ الجولان^(٣)؛ فبعد أن تمت محاصرة الروم البيزنطيين وقطعت طرق المواصلات عليهم من جهة الشرق، الشرق، وهُدِدت طرق تموين الجيش الرومي، جاءت الرياح بأثرها الكبير فقد "هبت ريح قانضة عابثة قادمة من الصحراء من الناحية الجنوبية الغربية، وأخذت سحب الرمال تلطم وجوه الجنود الروم"^(٤)، ولا ريب أن أثرها كان سلباً على الروم البيزنطيين؛ فقد كانت ذرات الرمال الملتهبة تلسع الوجوه، وتعيق الرؤية، وتحد من حرية العملية القتالية، وكانت لمصلحة العرب في أنهم استغلوا انشغال الروم البيزنطيين وقاموا بوضع خطة محكمة للهجوم^(٥)، لأنهم كانوا يستطيعون رصد تحركات العدو، رغم صعوبة ذلك لكن العربي كان يألف الطبيعة الصحراوية وحرّ الرمال بغير الروم البيزنطيين الذين كانوا يألفون البرد وانخفاض درجات الحرارة، وبالتالي ساهمت في تعزيز نصر المسلمين.

ويجد الباحث في كتاب "القادسية" للدكتور أحمد كمال دراسة وافية لأرض المعركة التي جرت عليها وقائع معركة القادسية في عام ١٤هـ/٦٣٥م؛ فقد ذكر أن موضع جيش الفرس كان إلى الشمال والشمال الشرقي، وأن جيش المسلمين كان اتجاه صفوفهم إلى الجنوب والجنوب الغربي^(٦)،

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٢٥٨.

(٢) نوى: بلدة من نواحي حوران، وقيل قصبتها، بينها وبين دمشق منزلان. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٠٦.

(٣) الجولان: قرية، وقيل: جبل من نواحي دمشق، ثم من عمل حوران. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ١٨٨.

(٤) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٥) كلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٦٩.

(٦) كمال: استراتيجية الفتوح الإسلامية (القادسية)، ص ٢٣٦.

أي أن الشمس من مشرقها وحتى مغربها كانت في وجه الأعداء، لأن وجوههم كانت تتجه إلى الجنوب والجنوب الغربي، وهذا كان نقطة إيجابية جداً لصالح المسلمين، حيث كانت الشمس في ظهورهم، وفي أعين العدو وهذا ارتبط بموقع القوات العربية الإسلامية في جنوب الأعداء، وإذا كان هناك أثر موجود، فما هو الأثر الذي يتركه تركز القوات الإسلامية والشمس في ظهورهم ومن ورائهم؟ راجع الخريطة (١٧).

لاشك أن وجود الشمس في ظهور المسلمين يؤثر بشكل إيجابي على دقة الهدف، ووضوح الرؤية، ومن ثم يؤثر على دقة الرماة في إصابة أهدافهم، كما أن لمعان السيوف سيكون في وجه الأعداء المواجهين للشمس.

وإذا كانت الرياح السائدة على العراق رياح شمالية غربية تتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ومع تقلب المناخ يتغير اتجاهها^(١)؛ فقد كانت الرياح أيام القادسية رياح قادمة من الغرب إلى الشرق، وعلى وجه الدقة يمكن القول أنها كانت رياح تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، أي أنها في وجه الأعداء وفي ظهور المسلمين أيضاً، وفي ذلك ذكر الطبري في تاريخه: "وهبت ريحٌ عاصف، فقلعت طيارة رستم عن سريه، فهوت في العتيق وهي دبور، ومال الغبار عليهم"^(٢).

وبناءً على ذلك كانت الرياح ذات أثر سلبي على الأعداء من الفرس، فقد حملت معها الغبار والأتربة القادمة من الصحراء وكانت تضرب به وجوه الفرس^(٣)، وهذا ما يؤثر على نفسية المقاتل، ويضعف معنوياته، ويحد من حرية الحركة والمناورة والقتال.

أما في وقعة جلولاء في سنة (١٦٦هـ/٦٣٧م)^(٤)، برز أثر الريح كردٍ إلهي على حفرهم للخندق ومقاومة المسلمين، وهذا يشابه ما حصل في أيام غزوة الخندق سنة (٥٥هـ)، فكما سخر الله الرياح تكفاً قدور المشركين وتقلع خيامهم، هنا في جلولاء كان للريح أثرها الكبير على جنود الفرس وذلك بعد أن شعر الفرس بحراجة الموقف وشدة الحصار فقرروا القتال^(٥)، فخرجت الفرس واقتتلوا، وفي ذلك

(١) الخلف، محمد جاسم: جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، معهد الدراسات العربية العالمية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص ١٠٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٥٦٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٣٠.

(٣) كمال: استراتيجية الفتوح الإسلامية (القادسية)، ص ٢٣٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٠، ص ٢١.

ذكر الطبري: "وبعث الله عليهم ريحاً أظلمت عليهم البلاد، فلم يستطيعوا إلا المحاجزة، فتهافت فرسانهم في الخندق.." (١).

وبما أن الله تعالى تكفل بنصر المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) فكانت الرياح غضباً من الله على المجوس ونصراً للمؤمنين، فحجبت الرؤية وأعاققتها وأظلمت عليهم البلاد كالليل (٣)، وهذا ما أدى إلى سقوط الفرس في الخندق الذي حفروه للإيقاع بالمسلمين، وبالتالي ضعفت مقاومة الفرس وتحقيق النصر للمؤمنين.

ولما كانت سنة (٢٨هـ/٦٤٩م) (٤) وهي السنة التي كان فيها غزو جزيرة قبرص، كان للعامل الجغرافي المناخي - الرياح - أثراً في الحملة التي قادها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ فقد هبَّت الرياح وهم يبحرون على المراكب، وهاج البحر وأدى ذلك إلى تفرق المراكب يمناً ويسرة، ففزعت امرأة معاوية فرعاً شديداً، وصاحت قائلة: احبس المركب، فأجابها الملاح الذي يدبر أمر المركب: ليس ههنا أحد له سلطان على هذا البحر، فلم يزلوا كذلك ساعة ثم إن الرياح هدأت وسكنت، فسار المسلمون في مراكبهم (٥).

إذاً كادت الرياح تفرق المراكب وتنتهي أمر الحملة لو ازدادت سرعتها وشدتها، وكان هدوء الرياح فيما بعد السبب في متابعة الحملة إبحارها إلى قبرص التي فتحت صلحاً.

وبرز أثر الرياح في معركة ذات الصواري عام (٣١هـ/٦٥١م) (٦)، التي كانت بين الروم والمسلمين، فقد خرج الأسطول الإسلامي بناءً على توصيات الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ليلتقي مع الأسطول الرومي بقيادة قسطنطين، وهنا أيضاً انتظر الفريقان بفعل العامل الجغرافي المناخي المتمثل بالرياح، فماذا حصل وكيف تجلّى أثر الرياح في المعركة؟

لقد حدّت الرياح من حركة السفن، حيث بعث الله تعالى عليهم رياحاً عاصفة قوية أغرقت بعض مراكبهم (٧)، واضطر الفريقان إلى الانتظار ريثما هدأت الرياح وفي ذلك ذكر الطبري: "وكانت الرياح

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٦٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ص ٩٠.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٦٠.

(٥) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٢، ص ٣٤٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٣.

(٧) الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية، ص ٤١.

علينا، فأرسلنا ساعة، وأرسوا قريباً منا؛ وسكنت الريح عنا؛ فقلنا: الأمن بيننا وبينكم" ^(١)، وباتوا ليلتهم وهم يقرؤون القرآن ويدعون ويصلون، أما الروم فكانوا ينفخون في الصفارات، ويشربون الخمر ^(٢)، وبعد أن طلع الصباح جرت وقائع معركة ذات الصواري وانتهت بانتصار المسلمين، التي كان للرياح أثر كبير فيها، لأنه لو استمرت الرياح بالهبوب ربما لم تحدث وقائع المعركة، لتحفظ وخوف كل طرف على نفسه.

وفي أحداث سنة (٣٥هـ/٦٥٥م) ^(٣)، سار قسطنطين بن هرقل يريد أرض المسلمين، فأرسل الله تعالى رياحاً قاصفة مدمرة أغرقت المراكب ودمرتها، وكاد يهلك قسطنطين؛ إلا أنه نجا فرحل إلى صقلية، فقتلوه بعد أن صنعوا له حماماً ^(٤).

ومما سلف يبدو واضحاً أن الرياح إذا ما اشتدت فإن أثرها لا يقل عن غيرها من العوامل الجغرافية المناخية، ويكون دورها أساسياً في تحقيق النصر لصالح أحد الطرفين، وبذلك تصبح الصورة جلية عن أثر الرياح، فماذا بالنسبة إلى الشتاء والبرد؟

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٩٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٨٨.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٤٤١.

رابعاً- أثر الشتاء والبرد.

لقد ورد سابقاً أن الأمطار كان لها أثر كبير ودور عظيم في الأحداث التي جرت وانتهت بتحقيق النصر لصالح أحد الأطراف المتنافسة، وكان غالباً سقوط الأمطار يرتبط بفصل البرد والشتاء، فهل كان للبرد والشتاء دور كما كان للأمطار دورها وحضورها في أحداث التاريخ في العصر الراشدي؟ بعد تفحص العوامل الجغرافية المناخية وأثرها في العصر الراشدي يمكن القول أن البرد والشتاء كان له دور كبير وبرز ذلك في أحداث الفتوح في العراق كما في بلاد الشام حيث أن المقاتل العربي لم يعتد القتال في الأماكن الباردة؛ وعلى هذا كان وقوف سير الفتوحات في الجزء الشمالي من بلاد العرب، إذ أن البرد القارس كان أشد أعداء العرب، وهذا يبرهن على دور العوامل الجغرافية وعلى شدة أثرها في توجيه أحداث التاريخ^(١).

ولإيضاح ذلك لابد من إلقاء الضوء على بعض الأمثلة التي تؤيد وجهة النظر هذه، ففي معارك بلاد الشام ومنها معركة مرج الروم^(٢) التي حدثت في عام (١٥هـ/٦٣٦م)^(٣) بعد معركة فحل، يلاحظ أنها وقعت في فصل الشتاء؛ فقد جهز هرقل جيشين أحدهما بقيادة ثيودور - theodor والآخر بقيادة شنس shins، لملاقاة المسلمين وكان نزولهم في مرج الروم بالتزامن مع "هجوم الشتاء عليهم"^(٤)، وهذا بدوره أثر على الجيش وتحركاته، ولكن رغم ذلك استطاعوا تحقيق النصر المظفر، حيث ظن الروم أن البرد سوف يهلك المسلمين، لكن المسلمون صبروا على البرد وذلك ما دفع الروم إلى مصالحتهم^(٥).

وفي غزوة مرج القبائل داخل الدروب سنة (١٥هـ/٦٣٦م) التي حصلت بعد فتح دمشق، كان البرد والثلج ذاتي أثر كبير على الحملة؛ فبعد أن عقد أبا عبيدة رضي الله عنه لميسرة بن مسروق العبسي^(٦) وانتخب له له ثلاثة آلاف فارس من أجل ملاحقة العدو والتوغل في دروبهم.

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٧.

(٢) مرج الروم: مكان يقع غرب دمشق، جرت عنده وقائع معركة مرج الروم ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٣٨.

(٣) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٢٩.

(٤) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٣٠٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٣٨.

(٦) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٣٠٩.

(٧) ميسرة بن مسروق (ت بعد ٢٣هـ/٦٤٤م): قائد من الشجعان، شهد حجة الوداع، وتولى في سنة ٢٠هـ جيشاً كان عدده نحو أربعة آلاف، زحف به من الشام إلى أرض الروم، فظفر وغنم. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٣٣٩.

وبعد مشاورات في أي الطرق يختارونها اتفقوا مع وجود الأدلاء على اختيار الدرب الأعظم من بلد قورص^(١) وسلكو درب بغراس^(٢) فأوقع بالروم وقتل منهم مقتلة عظيمة^(٣).

وهنا كان للبرد والثلج أثره على أفراد الحملة التي دخلت بلد قورص وقد وصفها الأدلاء بأنها "بلاد شديدة البرد كثيرة الشجر والمدر والحجر وفيها مضايق وشعاب وأودية.." ^(٤)، وقد ذكر الواقدي عن عطاء بن جعيدة أن طبيعة المنطقة الوعرة وأشجارها ومجاريها جعلت الفرسان يترجلون وقد بقوا ثلاثة أيام في مسيرهم ودخلوا البلاد مع أول الصيف فوجدوا فيها برداً كثيراً والثلج على يمينهم وشمالهم، وهذا ما دفع أحد رجال الحملة الذي أخذه البرد إلى ارتداء معطف ولم يكن معه ما يدفئه^(٥).

وفي فتح حمص أيضاً أمر هرقل عامله على حمص بعد أن انصرف من دمشق بالتحصن ومطاوله المسلمين حتى اشتداد الشتاء، وأن لا ينازلهم إلا في يوم بارد، حتى لا يمر الشتاء إلا وقد أهلهم^(٦)، بقوله: "هذا الشتاء فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد، فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد"^(٧).

فهل استطاع الروم الاستفادة من العامل الجغرافي المتمثل بالشتاء والبرد؟ وكيف تم ذلك؟ يمكن القول أنه بعد تمام فتح بعلبك صلحاً من قبل أبي عبيدة، توجه إلى حمص فنزل عليها، وهنا حاول الروم العمل بوصية هرقل فكانوا يغادون المسلمين القتال ويراهونهم في كل يوم شديد البرد^(٨)، وكان لذلك بالغ الأثر في طول أمد الحصار، والشدة على المسلمين ومعاناتهم.

وبما أن حصار حمص كان في الشتاء فقد ظن الروم أن العرب لن يصمدوا طويلاً، وحاولوا الصبر لعل البرد يفتك بالمسلمين^(٩)، وقد تواصلوا فيما بينهم على المطاوله والصمود بوجه المسلمين وقالوا "تمسكوا بمدنيتكم فإنهم حفاة فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم، مع ما يأكلون ويشربون..."^(١٠).

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ٣-٤.

(٢) بغراس: مدينة بينه وبين أنطاكية أربعة فراسخ. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٤٤.

(٤) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ٣.

(٥) الواقدي: فتوح الشام، ج: ٢، ص ٤.

(٦) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٢١٧.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٥٩٩.

(٨) النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٢١٧.

(٩) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٤٤٢.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٣، ص ٦٠٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٣٣٩.

لكن المسلمون بإيمانهم الكبير صبروا على البرد لعل الروم يفقدون الأمل بالخلاص وهذا ما حصل حيث طلب الروم الصلح من المسلمين وفتحت حمص صلحاً^(١) في سنة (١٥٠هـ/٦٣٦م)^(٢). وقد استمر تأثير البرد والشتاء في أحداث فتح بعلبك^(٣)؛ فقد توجه القائد أبو عبيدة إلى بعلبك بعد أن تم فتح حمص وما إن وصل إلى البلاد وجد أن القوم قد أغلقوا الأبواب، ولما نظر إلى البلد وتحصينه وكثرة امتناعه وكثرة رجاله وشدة برده وذلك أنه بلد لا يفارقه البرد في الشتاء والصيف، اجتمع مع القواد وانتقوا على أن يقوموا بحصار القوم وتضييق الخناق عليهم^(٤). وقد تعددت الروايات التي ذكرها المؤرخون في سندهم عن حضر تلك الواقعة والتي برز فيها أثر البرد الشديد الذي تعرض له المسلمون في حصارهم مدينة بعلبك ومنها ما أورده غياث بن عدي الطائي: "حاربنا أهل بعلبك في أول يوم فأصيب من المسلمين اثنا عشر رجلاً، وأصيب من الروم البيزنطيين على السور خلق كثير من أهل الحرب وغيرهم، وانصرف المسلمون إلى رحالهم وما لهم همة إلى طعام ولا شراب ولا يريد أحد منا إلا الاصطلاء بالنار من شدة البرد"^(٥).

ومن خلال ما تقدم يبدو أن البرد كان شديداً على المسلمين لكن هذا لم يثني المسلمين عن متابعة الحصار، وقد عهد القائد أبي عبيدة إلى الجند بأنه "على كل رجل من المسلمين لا يبرز إلى حرب هؤلاء حتى ينفذ إلى رحله ويصلح له طعاماً حاراً يأكله ليكون بذلك شديداً على لقاء العدو"^(٦). إذاً رأى القائد أن خير وسيلة لاتقاء البرد هي إعداد وجبة غذائية حارة؛ لكن لسوء الحظ أن الروم قاموا بهجومهم المباغت فما كان من الجيش الإسلامي إلا أن ترك الطعام وجرت وقائع المعركة التي انتهت بتسليم المدينة وعقد الصلح.

وفي فتح بيت المقدس ذكر الواقدي أن المسلمين نزلوا على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد وظن الروم البيزنطيين أن المسلمين لا يقدرين عليهم في ذلك الوقت^(٧)، وقد تجلّى أثر البرد والشتاء في إطالة أمد الحصار الذي استمر أربعة أشهر، ومع هذا صبر المسلمون على البرد والثلج

(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٣٥٥.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٢٧.

(٣) بعلبك: مدينة قديمة فيها آثار عظيمة، وأبنية عجيبة، وقصور رخامية، وبينها وبين دمشق ثلاثة أيام. الحموي:

معجم البلدان، مج: ١، ص ٤٥٣-٤٥٥.

(٤) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١١٩.

(٥) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١٢١.

(٦) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ١٢٢.

(٧) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٢٢٤.

والمطر^(١)، إذا شكلت عوامل المناخ عائقاً مؤقتاً أمام المسلمين، لكن حرارة الإيمان وحب الجهاد كانت أقوى وأشد من حرارة المناخ المنخفضة، وهذا كان السبب لنصر الله تعالى إياهم.

وقد ظهر أثر الثلج في عام (٣١هـ/٦٥١م)^(٢) في ذكر هروب يزيد بن جرج إلى خراسان ومقتله^(٣)، فعندما هرب يزيد بن جرج من فارس إلى كرمان، كلف عبد الله بن عامر^(٤) مجاشع ابن مسعود^(٥) ووجهه لتعقب فلوله، وعندما وصل مجاشع إلى كرمان فرّ يزيد بن جرج إلى خراسان، وعندما وصل إلى بيمنند^(٦) "أصاب مجاشع بن مسعود ومن معه الثلج والدمق^(٧)؛ فوقع الثلج واشتد البرد، وكان الثلج قيد رمح؛ فهلك الجيش وبقي مجاشع ورجل معه جارية"^(٨).

وقد أكد على ذلك البلاذري بقوله: "وأصاب الناس الدمق وهلك جيشه فلم ينج إلا القليل"^(٩). وذكرت المصادر^(١٠) أنه من شدة البرد قام بشق بطن البعير وأدخل الجارية فيها، من أجل الحفاظ على حياتها، وفي اليوم التالي وجدها حية فحملها، وكان قصر مجاشع بهذا الاسم لأن الجيش قد هلك فيه.

إذاً كان للعامل الجغرافي المناخي أثر كبير على تلك الحملة وأدى إلى هلاك الجيش المتجه إلى تلك المناطق النائية ذات المناخ البارد الذي لم يألفه المسلمون.

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج: ١، ص ٢٢٤-٢٣٠.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ١٦٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ق: ٤، ص ٤٤٠.

(٤) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العشمي، وهو ابن خال عثمان بن عفان ؓ، ولد على عهد النبي ﷺ، وأتى به النبي ﷺ وهو صغير فقال هذا يشبهنا وجعل يقتل عليه ويعوده، فجعل عبد الله يبتلع ريق رسول الله ﷺ فقال عنه الرسول ﷺ "إنه لمسقى" فكان لا يعالج أرضاً إلا ظهر له الماء، وقد استعمله عثمان بن عفان ؓ على البصرة في سنة ٢٩هـ - بعد أبي موسى الأشعري و ولاء بلاد فارس، افتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان، وكرمان، توفي ابن عامر سنة سبع أو ثمان وخمسين. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٣، ص ٢٨٩.

(٥) مجاشع بن مسعود السلمي (ت ٣٦هـ/٦٥٦م): صحابي من القادة الشجعان، استخلفه المغيرة بن شعبة على البصرة البصرة في خلافة عمر ؓ، وغزا كابل، وكان يوم الجمل مع السيدة عائشة ؓ، وقتل قبل الوقعة، ودفن بداره. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٥، ص ٢٧٧.

(٦) بيمنند: بلد بكرمان وقيل بفارس. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٥٣٤.

(٧) الدمق: الثلج مع الريح، ويغشى الإنسان من كل أوب، حتى يكاد يقتل من يصيبه. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٨٦.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٥.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ق: ٤، ص ٤٤١.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٢٨٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٥.

وكان للبرد والشتاء أثره في فك الحصار عن مدينة خوارزم^(١) التي حاصرها المسلمون في سنة (٣٢٢هـ/٦٥٢م) بعد معركة مرو الروز وفتح بلخ، فقد هجم الشتاء على القائد الأحنف بن قيس^(٢)، وبعد أن أخذ مشورة أصحابه انصرف إلى بلخ، وأمضى فيها فصل الشتاء. وبناءً على ما تقدم تبرز أهمية العامل المناخي المتمثل بالشتاء والبرد في هيمنته على الأحداث وفرض جبروته على الجيش وحركة فتوحاته وسير عملياته.

وأخيراً، يمكن القول أن العلاقة بين الجغرافية و الحدث التاريخي علاقة وثيقة جداً منذ الأزل وحتى الوقت الحاضر، وما ورد من أمثلة على الأحداث التي جرت في العصر الراشدي ما هو إلى برهان يؤكد على عظمة أهمية العوامل الجغرافية ومبلغ أثرها في توجيه أحداث التاريخ وإخضاعها لهيمنتها، ولما كانت المعارك الحربية ترتبط بآماكن معينة هي مساح تلك المعارك والعمليات العسكرية، فإن الاستفادة من خصائص هذه المساح الجغرافية تتيح لقادة الجند إدارة المعارك بنجاح، وقد تجسد ذلك في أكثر من واقعة.

وهذا كان بالنسبة إلى العصر الراشدي فماذا عن العصر الأموي وأحداثه؟؟

(١) خوارزم: من قرى خراسان، الشتاء عندهم شديد جداً، بحيث أن نهر جيحون يتجمد في الشتاء وعرضه ميل واحد.

الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٣٩٥-٣٩٧.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٤، ص ٣١٣.

البَابُ الثَّالِثُ

دَوْرُ الْعَامِلِ الْجُغْرَا فِي الطَّبِيعِي فِي أَهْمِ

المَعَارِكِ الْعَسْكَرِيَّةِ خِلَالِ الْعَصْرِ الْأُمَوِي

(٤١-١٣٢هـ / ٦٦٢-٧٥٠م)

الفصل الأول: أثر التضاريس.

الفصل الثاني: أثر المياه.

الفصل الثالث: أثر المناخ.

الباب الثالث:

دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال العصر الأموي

(٤١-١٣٢هـ/٦٦٢-٧٥٠م)

★ الفصل الأول:

أثر التضاريس

كما سلف في الفصول التي تناولت في مباحثها أثر التضاريس خلال عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ، وفي عصر الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم أجمعين)، من الجدير بهذا الفصل أيضاً أن يتناول في مبحثه الأول أثر العوامل الجغرافية الطبيعية من (جبال، وأودية، وخنادق، وسهول، وصحاري)، لبيان مبلغ أثرها على أحداث العصر الأموي.

لأن التاريخ عبارة عن حلقة متصلة، وبيان أثر العوامل الجغرافية خلال عصر من العصور لا يعني أن أثرها انتهى في العصور التي جاءت بعدها.

وبناءً على ما سلف يبقى أن يقوم هذا الفصل بالبرهان على ذلك من خلال إيراد نماذج، وأمثلة تحمل في طياتها تأكيداً للتسمية التي أطلقها الجغرافي جيمس فرجريف على كتابه القيم بعنوان "الجغرافيا.. السيادة والتاريخ"^(١).

والباحث في هذا الكتاب يلاحظ أنه محاولة لشرح العوامل الجغرافية وتوضيح أثرها في أحداث التاريخ، إلا أنه يختص بالحضارة المصرية؛ ومهما يكن الأمر يمكن القول أنه محاولة للبرهنة على أثر العوامل الجغرافية ودورها الفاعل في التاريخ وأحداثه.

ومما لا يجب إغفاله أن طبيعة الميادين الحربية فرضت على الدولة الأموية تحديد الخطط اللازمة من أجل قتال الأعداء سواء البيزنطيين في الجبهة الشمالية، أو الأتراك في الجبهة الشرقية، والبربر في

(١) فرجريف، جيمس: الجغرافيا.. السيادة والتاريخ، تر: علي الأنصاري، وكالة الصحافة العربية، الجيزة، مصر، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ص ١-٧.

الجهة الغربية، وخاصةً جهة الشمال حيث دارت رحى المعارك بين المسلمين والبيزنطيين في جهات حددتها جغرافية هذا الإقليم، ورتبت أحداث الوقائع حسب المسرح الطبيعي^(١). وسيبدأ هذا المبحث بتناول أثر الجبال ودورها في أهم المعارك في العصر الأموي.

أولاً- أثر الجبال.

لقد بدى واضحاً من خلال استعراض دور الجبال وأثرها في العصرين النبوي والراشدي، أن للعوامل الطبيعية هيمنة شبه تامة على مجريات الأحداث والوقائع. وهنا سيتم إلقاء الضوء على دور هذا العامل الطبيعي في أحداث العصر الأموي، في سبيل توضيح نقاط، وهي:

- أثر الجبال في أحداث هذا العصر.
 - تمكن أحد الأطراف المتصارعة من استغلال هذا العامل الجغرافي.
 - الاستفادة من الجبال في الحماية والتحصن والكُمون والتخفي، أو الإشراف على المعركة.
 - الجبل عامل من عوامل تحقيق الهدف والنصر إذا تم استغلاله بالشكل الأنسب لتحقيق الغاية المطلوبة.
- وفي سبيل ذلك سيتم إيراد أهم الأحداث التي برز فيها أثر هذا العامل، لأنه يساهم في النتائج الإجمالية والنهائية للأحداث.

(١) العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، مكتبة الأنجلو المصرية، الاسكندرية، مصر، (د.ت)، ص ٤٧.

لقد كانت بداية حروب المسلمين مع الروم البيزنطيين في العصر الأموي تسمى (حرب الثغور) أي: الحدود، وقد عرفت عند الروم البيزنطيين باسم التيم، وهي لفظة مفردة (ثغر)^(١)، والسؤال هنا، ما علاقة حرب الثغور بالجبال؟

تظهر العلاقة بين حرب الثغور وأثر الجبال في أن حدود الروم (الثغور) كانت تتكون من سلاسل جبلية شاهقة شكلت حداً فاصلاً طبيعياً بين المسلمين والبيزنطيين^(٢)، ومنها جبل اللكام^(٣) الممتد على طول الثغور من البحر الأبيض المتوسط وحتى بحر قزوين^(٤)، وعند وصول المسلمين إلى تلك الثغور بفتوحاتهم، وقفوا عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس^(٥)، فكانت المناطق الجبلية (الدروب)^(٦) مقصد البيزنطيين من أجل التخفي في كمائن أعدوها للانقضاض على المسلمين، وقد تحصن البيزنطيون خلف هذه السلاسل الجبلية في آسيا الصغرى، ولو طرح السؤال التالي، لماذا كان تحصن البيزنطيين وراء تلك السلاسل الجبلية؟

يلاحظ أن المناطق الجبلية تعد مناطق مناسبة للمباغطة ونصب الكمائن والسبب في ذلك قلة امتداد الرؤية التي تحددها الحواف الجبلية، والطرق المحدودة التي تقيدتها وتفرضها الممرات الجبلية، مما يجعل حركة النقل والتنقل أمراً محفوفاً بالمخاطر، وعليه كان تحصنهم خلف السلاسل الجبلية

(١) الثغر: كل موضع يكون في أرض العدو في بطن وادٍ أو فرجة جبل قرب أرض المسلمين. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٦.

(٢) تونس، هدى محمد محمد: الإطار الجغرافي لمناطق الثغور والعواصم في العصر العباسي الأول، مجلة بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، العدد: ٢٩، شوال-١٤٣٢هـ/أيلول-٢٠١١م، ص ٧٥١.

(٣) اللكام: جبل مشرف على أنطاكية والمصيصة وطرشوس وغيرها من الثغور، وهو ينقسم إلى قسمين أحدهما بيت لاهو الشرقي، والآخر بيت لاهو الغربي، ومعناه بالسريانية بيت الله، والجميع من جبل سمعان، ويختلف اسمه من منطقة إلى أخرى لكنه سلسلة متصلة من منطقة الأبواب شرقاً إلى حدود أرمينية. الحموي: معجم البلدان، ج: ٥، ص ٢٢.

(٤) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٨.

(٥) طوروس: منطقة جبال تقسم إلى قسمين: جبال طوروس الداخلية، وجبال طوروس الخارجية، كما عرفت باسم جبل اللكام، كان هذا الجبل داخل بلاد الروم متصلاً بجميع جبال بلاد الروم. زكريا، أحمد: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، ط: ٢، دمشق، سورية، (د.ت)، ص ٤٢.

(٦) عرفت مناطق الثغور بكثرة الدروب (درب الأبواب القليقية، ودرب الحدث) ومسالك أنهارها مثل سيحان وجيحان وقويق والبرادان وتميز الثغور جناحان أحدهما ناحية الشام وعرف بثغور الشام، والآخر ناحية الجزيرة وعرف بثغور الجزيرة، والدروب: هي الطريق الذي يسلك ويراد به ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرج. تونس، الإطار الجغرافي لمناطق الثغور والعواصم في العصر العباسي الأول، ص ٧٦٠. طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٨.

لتحقيق الهدف في المباغلة والانتصار على المسلمين، وفطن المسلمون إلى أهمية ذلك العامل فعمدوا إلى وضع نظام جديد يتفق مع متاخمة تلك الثغور لحدود آسيا الصغرى.

كما أنهم اتخذوا الحصون العديدة والمسالح^(١) - مواضع للمراقبة - في الجبال التي كانت تؤمن الحماية الطبيعية لهم، وعملوا على تحصين تلك المناطق فأمكنهم ذلك من تنظيم حملات عديدة إلى بلاد الروم البيزنطيين بما عرف في التاريخ الإسلامي بنظام (الصوائف والشواتي)^(٢).

وقد بلغت على سبيل المثال إحدى عشر شاتية في إحدى عشر سنة، وشاتيتين في سنة واحدة، بالإضافة إلى أربع سنوات خرج في كل واحدة صائفة وشاتية^(٣)، وكلها في عهد معاوية مما يدل على محاولة استغلال الثغور الموجودة في جبال تلك المناطق بما يمكنهم فتح مناطق جديدة وانتزاعها من أيدي الروم البيزنطيين محاولين استغلال القبائل والأقليات غير المسلمة التي كانت تتحصن في المناطق الجبلية من أجل تقليل خطرهما، وتطوير الروم البيزنطيين بطوق من النفوذ عن طريق معاهدات أبرمتها معهم وأهمهم الجراجمة^(٤).

وكان الجراجمة في بدايتهم على الفطرة لا يعرفون من ألوان الحياة إلا الغزو والحرب، وما خلف ذلك من مال وغنائم، لكنهم لم يخلصوا للمسلمين كل الإخلاص، وكانوا يساعدونهم حيناً، ويهجمون عليهم حيناً آخر، مستغلين حصانة مواقعهم في الجبال^(٥)، وهذا الأمر صعب مهمة المسلمين في التوجه لتلك المناطق.

(١) المسالح: جمع مسلحة: وهم الجماعة المسلحون المعدون للقتال. الهريشي: مختصر سياسة الحروب، ص ٢٥.

(٢) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٠٠.

(٣) للمزيد عن الصوائف والشواتي راجع، الجنابي، ستار محمود: مرويَات الفتوحات الإسلامية لجبهة الروم في تاريخ الطبري (٤٢-٦٠هـ/٦٦٣-٦٨١م)، مجلة كلية الآداب، الجامعة العراقية، العراق، العدد: ٢، د.ت، ص ٥٠٨-٥١٨.

(٤) الجراجمة: ينتسبون إلى مدينة تعرف باسم جرجومة، تقع على جبل اللكام، بالشعر الشامي قريباً من أنطاكية، ظهر أمرهم منذ بداية الفتح الإسلامي، واستمر دورهم، وكانوا كالمرتزقة، هدفهم الحصول على الأموال والطعام. الأسطل، عبد القادر جبارة محمد: مسلمة بن عبد الملك (حياته وجهاده)، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ١٣٠.

(٥) مصطفى، نادية محمود: الدولة الأموية دولة الفتوحات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ١٩.

وقد كان لمنطقة فزان^(١) الجبلية دور كبير في تأخير عملية الفتح الإسلامي لها سنة (٤٦هـ/٦٧٥م)^(٢) بقيادة عقبة بن نافع^(٣)؛ فبعد أن فتح عدة مناطق من أرض إفريقيا، ومنها أرض ودان^(٤)، سأل أهلها: "هل من ورائكم أحد؟ فقيل له: جرمة"^(٥)؛ فسار حتى فتحها وفتح كامل بلاد فزان، وهنا لم يبق أمامه سوى قصبة كاوار^(٦) في ظهر جبل صخري منيع^(٧)، ولما وصل إليها دعا أهلها إلى الإسلام؛ فأبوا وامتنعوا في الجبل الحصين.

وهنا عمد عقبة إلى التخطيط من أجل حربهم وحصارهم؛ فأقام عقبة على حصارهم شهراً دون جدوى، بفعل منطقتهم الجبلية الذي امتنعوا بها، وبالتالي اتجه عقبة جنوباً حتى فتح بلاداً أخرى.

ومما سلف يستنتج أن الجبل كان له الدور الأساسي في إخفاق عقبة عن فتح منطقتهم بالبداية، وبرهان ذلك أنه توجه إلى الجنوب ثم عطف عليهم من غير الطريق التي جاء منها، وهنا كانت عودته مفاجئة لأهلها وانتصر عليهم حيث أخذهم في شعاب الجبل^(٨). انظر الخريطة (٢٦-٢٧).

(١) فزان: ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، وهو في الإقليم الأول، سميت بفزان بن حام بن نوح، وهي منطقة صحراوية تكثر بها الجبال الصخرية. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص: ٢٦٠.

(٢) يرجح المؤرخ حسين مؤنس أن تاريخ الغزوات كان في سنة (٤٩هـ/٦٧٨م) وليس (٤٦هـ/٦٧٥م) باعتبار أن بناء القيروان كان على إثر تلك الغزوات، وبعد أن قام بجولته الصحراوية على حد تعبيره. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص: ٣٦٦. مؤنس، حسين: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، الاسكندرية، مصر، (د.ت)، ص: ١٣٧.

(٣) عقبة بن نافع (ت ٦٣هـ/٦٧٤م): عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الظرب بن الحارث بن عامر بن فهر القرشي الفهري، ولاء عمرو بن العاص لما كان على مصر، فانتهى إلى "لواتة" و"مزاتة"، وافتتح عدة مناطق خلال سنوات متتالية، وفي سنة ٤٣هـ افتتح عدة مناطق من بلاد السودان وقتل سنة ٦٣هـ. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٦، ص: ١٣٨. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص: ٥٨.

(٤) ودان: مدينة جنوبي إفريقية، بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة أفريقيا، وللمدينة دروب. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص: ٣٦٦.

(٥) جرمة: اسم قصبة بناحية فزان في جنوبي إفريقيا، لها ذكر في الفتوح، افتتحها عقبة بن نافع، وأسر أهلها. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص: ١٢٩.

(٦) كاوار: ناحية واسعة في جنوبي فزان خلف الواح، وبها مدن كثيرة، منها قصر أم عيسى. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص: ٤٣٢.

(٧) مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص: ١٣٦.

(٨) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص: ٢٣.

وفي سنة (٤٧هـ/٦٧٦م)^(١) كان للجبال أثرها الكبير على الجيوش الإسلامية التي قادها عامل خراسان الحكم بن عمرو^(٢)، حيث توجه إلى جبال الغور^(٣) وفتحها عنوة، ثم سار إلى جبال الأثل^(٤) الأثل^(٤) وفتحها؛ فإذا كان للجبال أثرها، كيف تجلى؟

يمكن الملاحظة بأنّ عمليات الفتوح في الجبهات الشرقية احتاجت إلى وقت طويل، وتخطيط منظم، وقادة أكفاء يقدرّون على التعامل مع الظروف الجغرافية الغير مألوفة من جبال شاهقة تتميز بطرقها الطويلة، وبمسالك أنهارها.

وهنا يكمن التأثير الواضح للجبال على العمليات العسكرية، حيث لاقى العرب المسلمون في هذه الحملة صعوبات كبيرة كادت أن تؤدي إلى هلاكهم، لأن "أهل جبل أشل أخذوا بالشعاب والطرق على المسلمين"^(٥).

وذلك ما صعب الأمر على الحكم؛ فعهد إلى المهلب بن أبي صفرة^(٦) بمسؤولية الحرب، وكان من براعة المهلب أن قبض على أحد مشاهير أهل الجبل، وأجبره أن يدلهم على طريق يمكن من خلاله اجتياز الطريق واحتلال الجبل؛ فكان لهم ما أرادوا حيث خرج بهم من وادي، وسيطروا على الجبل، وغنموا غنائم كثيرة^(٧)؛ إذاً لولا حنكة المهلب لكانوا هلكوا بفعل استغلال الأتراك للجبال، حيث اختبأوا ضمن الشعاب والمضائق، وأخذوا على المسلمين من خلالها. راجع الخريطة (٢٣ - ٢٨).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣١١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٢٢٩.
(٢) الحكم بن عمرو الغفاري: أخو رافع بن عمرو، ويقولون هو عمرو بن مجدع بن حذيم بن الحارث بن نعيمة بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، غزا الكفار فغنم غنائم كثيرة، وقسم الفئ بين الناس، ثم مات في خراسان مرو سنة خمسين. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٥٣. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٤٢١.

(٣) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة، وهي بلاد باردة واسعة موحشة، وهي مع ذلك لا تتطوي على مدينة مشهورة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٢١٨.

(٤) جبال الأثل: جبل في ثغور خراسان غزاه الحكم بن عمرو الغفاري. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٢٠٠.
(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٢٥١.

(٦) المهلب بن أبي صفرة (ت ٨٣هـ/٧٠٢م): أمير، قال فيه عبد الله ابن الزبير: هذا سيد أهل العراق، نشأ بالبصرة، ولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير، انتدب لقتال الأزارقة، وكانوا قد انتدبوا على البلاد، وأقام على قتالهم تسعة عشر عاماً مات في خراسان. شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي - العهد الأموي، المكتب الإسلامي، ط: ٧، بيروت/دمشق، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٧. أبو شبكية، إبراهيم أحمد حسن: خلافة بني أمية عند علي بن الحسين المسعودي ٤١ - ١٣٢هـ/٦٦١ - ٧٤٩م، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٨٠. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٣١٥.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣١٢. طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢٧.

الباب الثالث: دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال العصر الأموي

وفي سنة (٦١١هـ/٦٨٠م)^(١)، ظهر أثر الجبل عندما كان الحسين بن علي^(٢) متوجهاً إلى الكوفة بعد أن بايعه أهلها ورفضبيعة يزيد بن معاوية^(٣)، وبينما هم في الطريق بعد أن سار الحسين^(٤) من شراف، سأل رجلان من بني أسد كانا معه في مسيره يريد التعرف على مكان يمكن من خلاله التحصن، ومواجهة العدو من جهة واحدة؛ فقال: "أما لنا ملجأً نلجأ إليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟"^(٥).

وهنا أشار عليه الرجلان بوجود مكان يحميه الجبل يمكن لهم اتخاذه موئلاً للتحصن فقالا له: "بلى هذا ذو حسم إلى جنبك، تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد، فمال إليه"^(٥).

وبالتالي سبقهم الحسين إلى الجبل ونزل به؛ ويمكن القول: إنَّ الحسين كان مدركاً لأهمية استغلال العامل الجغرافي إلا أن جهله بطبيعة المنطقة جعله يستشير أصحابه من أجل اختيار المكان الأنسب، ولكن لم يحقق الجبل الذي استغله الحسين بن علي الهدف المنشود في التحصن، فقد كان لعامل المياه دور كبير جداً استغله جيش الشام، وفوت على الحسين فرصة الاستفادة من عامل الجبل^(٦).

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٤.

(٢) الحسين بن علي (٦١١هـ/٦٨٠م): الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي العدناني، السبط الشهيد، ابن فاطمة الزهراء، ولد في المدينة، ونشأ في بيت النبوة، تخلف عن مبايعة يزيد بعد وفاة معاوية، ورحل إلى مكة ثم انتقل إلى الكوفة، وأثناء مسيره أرسل إليه يزيد جيشاً اعترضه في كربلاء ونشب قتال عنيف، واستشهد الحسين على إثره في العاشر من محرم من سنة ٦١هـ/٦٨٠م. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٦، ص ٣٩٩. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٢، ص ٢٤. الصفدي، صلاح الدين بن أبيك: الوافي بالوفيات، تح: رمضان عبد التواب، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية/ دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج: ١٢، ص ٣٨٣. الزركلي: الأعلام- قاموس تراجم، ج: ٢، ص ٢٤٣.

(٣) يزيد بن معاوية (ت ٦٨٣هـ/٦٤٣م): ثاني ملوك الدولة الاموية في الشام، نشأ في دمشق، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٦٧٩هـ/٦٦٠م)، وفي أيامه كانت فاجعة المسلمين بالسبط الشهيد الحسين بن علي^(٤)، وخلع أهل المدينة طاعته فأرسل مسلم بن عقبة المري أن يستيحيها ثلاثة أيام، وفي زمانه فتح المغرب الأقصى، توفي بحوارين من أرض حمص. الزركلي: الأعلام- قاموس تراجم، ج: ٨، ص ١٨٩. الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية- الدولة الأموية-، ص ٤٥٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٤٠٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٠٧.

(٦) سيتم تناول ذلك في المبحث الثاني "أثر المياه".

أما في سنة (٦٤هـ/٦٨٣م)، استخدم الحُصين بن نمير التميمي^(١) الجبال المحيطة بمكة من أجل نصب المجانيق لقصف الحرم المكي، والقضاء على حركة ابن الزبير^(٢)، وذلك بناءً على وصية مسلم بن عقبة المري^(٣) التي أوردتها البلاذري بقوله: "واعلم أنك تقدم على قوم لا منعة لهم ولا عدة ولا سلاح، ولهم جبال مشرفة عليهم، فانصب عليهم المجانيق؛ فإن عاذوا بالبيت فارمه"^(٤).

ويرجحُ الباحث أنَّ في قول مسلم بن عقبة: "ولهم جبال مشرفة عليهم"، صورة واضحة عن طبيعة أرض مكة، فقد أراد أن يلفت انتباه الحصين إلى المواقع الجبلية الحصينة، وأن أهل مكة يمكن أن تتحصن فيها، مما يطيل أمد المقاومة، وبالتالي جاء قوله: "انصب عليهم المجانيق"، لأخذ مكة من مكان مرتفع يمكن من خلاله كشف شعاب مكة وطرقها.

ولعله أراد من استخدام الجبل أن يكشف مواقع ابن الزبير ويقصفها، وعليه فقد اختار جبل أبي قبيس وجبل قيقعان، وفعلاً استطاع الحصين بن نمير كشف موقعه، ولم يبق مأمن لابن الزبير من حجارة المنجنيق سوى الحرم المكي، وحوصر حصاراً شديداً^(٥). انظر الخريطة (٣٠).

(١) الحصين بن نمير التميمي (ت ٦٧هـ/٦٨٦م): الحصين بن نمير بن نائل، أبو عبد الرحمن الكندي، قائد من القساة الأشداء، المتقدمين في العصر الأموي، من أهل حمص، وهو الذي حاصر ابن الزبير بمكة، ورمى الكعبة بالمنجنيق، وكان في آخر أيامه في ميمنة عبید الله بن زياد في حربه من إبراهيم بن الأشتر، فقتل مع ابن زياد في حربه على مقربة من الموصل. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ٢٦٢.

(٢) عبد الله بن الزبير (ت ٧٣هـ/٦٩٢م): عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو بكر، فارس قرشي في زمنه، بويح له بالخلافة في سنة ٦٤هـ، عقيب موت يزيد ابن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة، وأرسل له الأمويون الحجاج بن يوسف الثقفي، ونشبت بينهم حروب انتهت بمقتل ابن الزبير. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٦، ص ٤٧٣. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ٨٧. شاكر: التاريخ الإسلامي، ص ١٣٢.

(٣) مسلم بن عقبة المري (ت ٦٣هـ/٦٨٣م): أبو عقبة، من القواد الدهاة في العصر الأموي، ولاه يزيد قيادة لجيش الذي أرسله للانتقام من أهل المدينة بعد أن أخرجوا عامله عنها، فغزاها وسماه أهل الحجاز مسرفاً، وأخذ ممن بقي فيها البيعة ليزيد، وتوجه بالعسكر إلى مكة ليحارب ابن الزبير، لتخلفه عن البعة ليزيد، فمات بالطريق في مكان يسمى المشلل. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢٢٢.

(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج: ٥، ص ٣٥٨.

(٥) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٩١.

وعندما أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان^(١) زهير بن قيس البلوي^(٢) إلى إفريقيا سنة (٦٩هـ/٦٨٨م)^(٣) من أجل استعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون بعد مقتل عقبة بن نافع، ومن أجل الانتقام من كسيلة بن كرم البربري وهو زعيم قبيلة أوربة المغربية الذي سيطر على القيروان مدة أربع سنوات بعد مقتل عقبة^(٤)، ظهر من كسيلة ما يبهرن على أهمية استغلال الجبال في جعلها خلفهم، والتحصن بها إذا دارت عليهم الدائرة، وفور وصول خبر تقدم الجيش الإسلامي نحو القيروان، اجتمع بأركان حربه وقادته ليعرض عليهم الوضع، وقد تقرر التوجه إلى ممش^(٥)؛ فلماذا تم اختيار هذه هذه المنطقة بالذات دون غيرها؟

يلاحظ أن ممش تقع جنوب شرق جبال الأوراس، وبالتالي إذا هُزم كسيلة يستطيع العودة باتجاه الغرب والتحصن في جبال تلك المنطقة^(٦).

وقد ذكر ابن الأثير قوله إلى قادته مشيراً إلى أهمية استغلال الجبال الموجودة في المنطقة: "قد رأيت أن أرحل إلى ممش فأنزلها فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم،

(١) عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ/٧٠٥م): أبو الوليد، ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف بن قصي، ولد سنة ست وعشرين في خلافة عثمان بن عفان، من أعظم الخلفاء الأمويين ودهاتهم، نشأ في المدينة، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ستة عشر عاماً، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥هـ، واجه في خلافته صعوبات داخلية وخارجية كبيرة جداً، وتمكن من التغلب عليها، نقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وأول من صك الدنانير في الإسلام، توفي في دمشق، ويعد بحق المؤسس الثاني للدولة الأموية. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٧، ص ٢٢١-٢٣٢. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ١٢٢. الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٤٧١. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ١٦٥.

(٢) زهير بن القيس البلوي (ت ٧٦هـ/٦٩٥م): يكنى أبا شداد، شهد فتح مصر وروى عنه سويد بن قيس، وقتلته الروم سنة ست وسبعين، حيث نهض إلى برقة فلقى الروم في عدد قليل فقاتل حتى استشهد. العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م): الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر العربي، الاسكندرية، مصر، (د.ت)، ج: ١، ص ٥٥٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٥٣.

(٤) أحمد، علي وإبراهيم زعرور: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، منشورات جامعة دمشق، سورية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٦٤.

(٥) ممش: جنوب شرق جبال الأوراس، وهي في الجزائر الحالية، وفي موضع فيه ماء. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٨.

(٦) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٨.

فإذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيراً فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم عن إفريقيا، وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجوناً"^(١).

وبعد أن علم زهير أن كسيلة قد خطط لملاقاته محاولاً استغلال العوامل الجغرافية، لم يدخل إلى القيروان بل بقي عدة أيام في ظاهرها من أجل استراحة الجيش والاستعداد للمعركة المقبلة التي ذهب كسيلة ضحيتها رغم محاولاته استغلال عامل الجبال. انظر الخريطة (٣١).

وفي سنة (٧٣هـ/٦٩٢م) بعد أن تخلص الخليفة عبد الملك بن مروان من مصعب بن الزبير^(٢)، وأتى الكوفة، وجه منها الحجاج بن يوسف الثقفي^(٣) من أجل للقضاء على تمرد الحجاز بقيادة عبد الله ابن الزبير، وقد أوصى الحجاج بأن يحاصر ابن الزبير، ويمنع عنه الميرة، ويأخذ عليه الطرق، وقد تقدم رجل إليه وهو جابر بن الأسود النخعي، وأبدى رأيه للخليفة عبد الملك بن مروان في أن يأخذ الحجاج على ابن الزبير في شعاب مكة وجبالها مستفيداً من هذا العامل الذي يشكل حاجزاً يمكن استغلاله من أجل فرض حصار محكم على ابن الزبير ومن معه؛ فقال:

"يا أمير المؤمنين إنك قد أمرت هذا الغلام الثقفي بالمسير إلى مكة، فامرّه أن لا يهتك أستارها، ولا ينفر أطيارها، وليأخذ على ابن الزبير شعابها وجبالها وأنقابها، حتى يموت فيها جوعاً أو يخرج منها مخلوعاً"^(٤)؛ فقال الخليفة: "إنا قد أوصيناه بذلك ولن يتعد أمرنا إن شاء الله"^(٥).

ومن خلال ما تقدم يلاحظ أنّ الحصار كان جغرافياً من خلال أخذ الجبال والطرق على ابن الزبير؛ فقد استولى الحجاج على جبل أبي قبيس بمكة^(٦)، وهذا كان له أثر كبير في التضيق عليه وبالتالي استسلامه، إلا أنه لم يكن عاملاً حاسماً بالرغم من أثره الكبير مما جعل الحجاج يلجأ إلى

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢١. أما عند الطبري قد ذكر أن ذلك كان في سنة ٧٢هـ. الطبري:

تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٧٤.

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ/٧١٤م): قائد، داهية، سفاك، ولد ونشأ بالطائف، انتقل إلى الشام، وأمره عبد الملك بن مروان بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف على المدينة بجيش كبير، وفرق جموع ابن الزبير، ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، وكان سفاكاً بإجماع أغلب المؤرخين، وأخباره كثيرة، ومات بواسط. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ١٦٨.

(٤) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٣٣٨.

(٥) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٣٣٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢٢. أبو شبيكة: خلافة بني أمية عند علي بن الحسين المسعودي، ص ٩٧.

قذف مكة بالمنجنيق^(١) من أجل سحق حركة ابن الزبير والقضاء عليها^(٢)، وبالرغم من استماتة ابن الزبير في الدفاع عن نفسه إلا أنه قتل بعد أن حوَصر خمسين ليلة^(٣).

ولا يعدو الباحث وجه الحقيقة في أن الجبال كانت عاملاً مساعداً للعدو في الجبهة الشرقية ضد المسلمين؛ ففي سنة (٦٩٤هـ/٧٤م) أثناء تولية عبد الله بن أمية على سجستان^(٤)، وتوجهه إلى هناك لمحاربة الأتراك استغل رتبيل (ملك الأتراك) جبال المنطقة وشعابها وكمن للمسلمين، ثم أخذ عليهم الشعاب والمضائق، وما إن دخل عبد الله بن أمية حتى باغته من المضائق وشعاب الجبال، ودارت الدائرة على المسلمين فطلب الصلح من رتبيل، ثم بلغ ذلك الخليفة فعزله عن المهمة.

وهذا ما يدل على التأثير الفاعل لهذا العامل الجغرافي^(٥)، حيث لعبت طبيعة المنطقة دوراً في حمايتها من غزو المسلمين. راجع الخريطة (٢٣).

ووقفت الجبال سداً منيعاً أمام تقدم القوات العربية إلى كابل وما بعدها من مناطق على الجبهة الشرقية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان في سنة (٨٠هـ/٧٠م)، عندما كلف الحجاج بن يوسف الثقفي (عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث)^(٦) بالتوجه إلى سجستان لمحاربة رتبيل ملك الترك^(٧).

المهم أن ملك كابل رتبيل عندما علم بقدوم المسلمين إليه حاول الاعتذار عما بدر منه في العام المنصرم بالنسبة للمسلمين، وأنه مستعد لدفع الجزية لهم، إلا أن عبد الرحمن لم يأبه للكلام، واستمر متقدماً في البلاد^(٨)، وهنا لم يجد رتبيل بداً من الاعتصام في الجبال التي لا يقدر المسلمون على

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٢٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢٣.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٣، ص ٩٦.

(٤) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة، بينها وبين هراة عشرة أيام، وهي جنوبي هراة وأرضها كلها رملة سبخة، والرياح فيها لا تسكن أبداً، بها نخيل ولا يقع بها الثلج، وهي أرض سهلة أيضاً، وفيها عدة مدن. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ١٩٠-١٩٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٣٥.

(٦) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (ت ٧٠٤هـ/٧٠م): أمير، من القادة الشجعان الدهاء، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج الثقفي، سيره الحجاج بن يوسف الثقفي من أجل غزو بلاد رتبيل فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها، وأخذ منها حصوناً وغنائم، وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك، فاتهمه بمماطلة للأتراك وهذا ما أدى إلى خلع طاعة الحجاج، وعاد إلى العراق سنة ٨١هـ/٧٠م من أجل مقاتلة الحجاج. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٣٢٦.

(٨) شاكر: التاريخ الإسلامي - العهد الأموي، ص ١٧٨.

اجتيازها، وتحصن في مناطق جبلية وعرة شديدة البرودة، وبهذا أصبح الموقف لمصلحة رتبيل؛ فماذا حصل؟

لقد قرر عبد الرحمن بن الأشعث التريث، ولم ينفذ الأسلوب القتالي القديم الذي يعتمد على الهجوم السريع والمباغت^(١)، وقرر عدم التوغل في تلك المناطق الجبلية التي استغلها رتبيل، وجعل منها عائقاً حال دون تقدم قواته^(٢)، قائلاً بعد أن جاز في أرض عظيمة، وملاً الناس أيديهم من الغنائم: "نكتفي بما قد أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها، وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها إن شاء الله"^(٣). انظر الخريطة (٣٢).

وهكذا اكتفى عبد الرحمن بانتصاراته الجزئية المحدودة، وقرر تجميد العمليات العسكرية والعودة إلى بستك^(٤)، بفعل عامل جغرافي طبيعي وهو الجبال الوعرة (جبال هندوكوش في أفغانستان والسلاسل المتفرعة منها)، وجغرافي مناخي سيتم ذكره وهو الشتاء^(٥).

وبناءً على ذلك يُستنتج أنَّ المناطق الشرقية من الدولة العربية الإسلامية كإيران وأفغانستان كانت تضم طائفة من السلاسل الجبلية الوعرة التي تكثر بها الخنادق العميقة، ومنها- جبال زاغروس- التي تمثل حاجزاً طبيعياً يتألف من عدة سلاسل متعاقبة، كما وجدت المرتفعات الشرقية على الحدود مع أفغانستان، وخاصة جبال هندوكوش التي تشتهر بوحشتها، وصعوبة اجتيازها، ووعورة ممراتها، وهذا أثر تأثيراً مباشراً في وقف العمليات القتالية، حيث وقفت سداً في تقدم قوات المسلمين، وبين هذه الجبال يقع قلب إيران الذي كان محط كثير من الحملات الإسلامية في العصر الأموي^(٦). انظر الصورة (٣٣).

(١) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٦٩.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٩٣.

(٤) بستك: واحدة من مدن محافظة هرمزان، تقع في البلدة المركزية في جنوبي إيران، كانت في الماضي مكان لاستراحة القوافل وتقع في منطقة جبلية، وبستك مدينة عامرة تقع إلى الداخل بعيداً عن البحر، وهي حصينة تحيط بها الجبال من جميع نواحيها. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٠.

(٥) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٢٨.

(٦) يوسف، أبو الحاج: مسالك انتشار الإسلام، ص ٣٨-٣٩.

وقد فرضت الجبال أثرها بقوة أثناء الفتح العربي الإسلامي لبلاد الأندلس^(١)، فبعد أن حدثت معركة وادي لكة^(٢) سنة (٩٢هـ/٧١١م)^(٣)، بين الجيش الإسلامي بقيادة القائد طارق بن زياد وملك إسبانيا لذريق، أملت البيئة إرادتها على طارق بن زياد^(٤) فأرسل ثلاث فرق، وكان على كل فرقة منهم أن تتجه إلى ناحية معينة بسبب الجبال التي كانت تقسم شبه الجزيرة الإيبيرية - الأندلس - إلى مناطق منعزلة تعوق إمكانية السيطرة عليها بسهولة، وتجعل المقاومة أكثر ضراوة وشدة^(٥).

ويقال: إنه اعتمد في هذه الفرق على أدلاء كانت لهم معرفة بمسالك الأندلس وجغرافيتها، واعتمد على مساعدة اليهود الذين عرّفوا المسلمين بمفاصل الأندلس وشعابها وما إلى ذلك^(٦).

وتجلت المقاومة في محاولة الملك "تدمير" المدافعة عن ممرات جبال مرسية^(٧) حتى اضطر إلى المصالحة والتسليم، ثم اتجه طارق إلى طليطلة^(٨) التي كانت عاصمة القوط، وكانوا قد فروا منها

(١) الأندلس: كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم، وإنما عرفت العرب في الإسلام، وهي: جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر على حد تعبير ابن حوقل، وأرض المغرب من على البحر تواجه من أرض المغرب تونس، وقال ياقوت: هي جزيرة ذات ثلاثة أركان مثل شكل المثلث، قد أحاط بها البحران، المحيط والمتوسط. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٢٦٢-٢٦٤. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٣٦.

(٢) وادي لكة: هو الوادي الذي جرت عنده أحداث المعركة سنة (٩٢هـ/٧١١م)، وهو موضع نهر أطلق عليه مؤرخي المسلمين وادي بكة، وسماه الكثرون وادي لكة قرب مدينة شريش. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٨٦.

(٣) سالم، عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، (د.ت)، ص ١٨٩. أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١١٣.

(٤) طارق بن زياد (ت ١٠٢/٧٢٠م): فاتح الأندلس، أصله من البربر. أسلم على يد موسى بن نصير، فكان من أشد رجاله، ولما تم لموسى فتح طنجة ولّى عليها طارقاً سنة ٨٩هـ، وبقي فيها حتى أرسله موسى بن نصير في ١٢٠٠٠ معظمهم من البربر من أجل غزو الأندلس، فنزل بهم الأندلس واستولى على الجبل، وفتح الحصون وتغلغل في أرض الأندلس وحاربه رودريك فانتهز عليه في معركة وادي لكة. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٢١٧.

(٥) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٧٨.

(٦) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١١٥-١١٦.

(٧) مرسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، ذات أشجار وحدائق وجبال محدقة بها. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ١٠٧.

(٨) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس، غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة، وهي على شاطئ نهر تاجه، وعليه القنطرة التي يعجز الواصف عن وصفها، بقيت بين أيدي المسلمين منذ الفتوح إلى أن ملكها الإفرنج عام ٤٤٧هـ. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٩٣-٣٩٤. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٣٧-٤٠.

فاستولى عليها طارق بسهولة^(١)، أما الفارين فقد اتجهوا نحو الشمال من أجل الاحتماء بالمناطق الجبلية، ومنها مدينة خلف الجبل يقال لها مائة^(٢).

يلاحظ أنّ طارق بن زياد سار باتجاه الشمال بعد أن استولى على طليطلة، لكن ما السبب الذي دفعه أن يتوجه شمالاً عبر مفاوز وشعاب يصعب اجتيازها؟

إن السبب الأساسي الذي دفع طارق إلى التوجه شمالاً هو مطاردة بقايا القوط الذين وجدوا أن أفضل منطقة يكمن التحصن فيها، والاعتصام بها، ومقاومة العدو من خلالها، هي منطقة الشمال-أي في أقصى اشتورس وجيليقية- حيث الممرات الجبلية النائية الوعرة^(٣).

فقد كان القوط الغربيون يعلمون أن تلك المناطق الجبلية الشاهقة تتعرض للرياح الهوجاء، والأمطار الكثيرة، لاسيما وجود الغابات التي تؤمن لهم البقاء في مأمن من مباغطة الجيش الإسلامي لهم، خاصة إذا علم الباحث والقارئ أن سكان تلك المناطق استطاعوا مقاومة الرومان والوقوف في وجههم طوال قرنين من الزمان، وكانت المقاومة الشديدة من أهل الشمال والشمال الغربي من هذا الإقليم، حيث جبال البرت وجبال كنتبريان ووجود الغابات الكثيفة والبرد القارس^(٤).

وعليه توجهوا إلى تلك المناطق النائية أملاً في استغلال العوامل الجغرافية وقد لحق بهم طارق على أمل إخضاعهم ومحاصرتهم في تلك المضائق والجبال، فسار إلى وادي الحجارة وكان عليه اجتياز منطقة جبلية صعبة؛ إلا أنه تمكن من ذلك من خلال فج - ثغرة - وسمي بفج طارق من ذلك اليوم، ثم انتهى إلى مدينة تسمى المائدة خلف الجبل^(٥)، وعندما علم موسى بن نصير^(٦) بذلك أحس

(١) المقري، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج: ١، ص ٢٦٤. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٩٤.

أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١١٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٦٩.

(٣) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٣١.

(٤) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٧٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٦٩.

(٦) موسى بن نصير (ت ٩٧هـ/٧١٥م): أبو عبد الرحمن: فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى، ولي موسى غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص وبنى بها حصوناً، غزا إفريقيا في ولاية عبد العزيز بن مروان، وفي عهد الوليد ولاه إفريقيا الشمالية، وكان له ولطارق بن زياد شرف فتح الأندلس حيث فتحوا أغلب مناطق الأندلس ما بين جبل طارق وسفوح جبال البرانس في أقل من سنة، ثم عاد بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك فدخل دمشق سنة ٩٦هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج: ٥، ص ٣١٨. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٣٣٠.

بالخطر المحدق، وأرسل إلى طارق يطلب منه أن ينتظر لحاقه به^(١)، وانتقل موسى بن نصير بجيش جديد إلى الأندلس سنة (٩٣هـ/٧١٢م). انظر الخريطة (٣٤).

ومن المهم ذكره أن القائد موسى بن نصير سلك مساراً غير الذي سار به طارق، ثم التقى بطارق بعد أن فتح عدة مناطق من الأندلس في موضع من كورة^(٢) طلبيرة^(٣)(٤). انظر الخريطة (٣٥). كما أن موسى بن نصير استخدم الجبال من أجل محاصرة أهل مدينة ماردة^(٥)، بعد أن فتح عدة مناطق أثناء توجهه إلى طارق بن زياد؛ فكيف تمكن من ذلك بمساعدة هذا العامل الجغرافي؟

لقد عمد القائد موسى بن نصير إلى استغلال الجبال من أجل إعداد كمين يمكن من خلاله مباغته أهل ماردة؛ فبعد أن قاتلوه قتالاً شديداً وجد القائد أن أفضل طريقة للانتصار عليهم هو الكمين-التخفي والاختباء - في مقاطع الصخر وشعاب الجبل، فلم يشعر أهل ماردة إلا والمسلمون قد خرجوا لهم من الكمين في الصباح، وحملوا عليهم حملة صدق - وهو المرام في حالات إعداد الكمائن^(٦) - وهكذا استطاعوا أن يحدقوا بهم ويحولوا بينهم وبين العودة إلى بلادهم وقتلوا منهم قتلاً ذريعاً^(٧).

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٨٧.

(٢) كورة: هي الوحدة الإدارية الأصغر من الإقليم، وقد يكون للكورة قسبة، وقد تكون الكورة هي القسبة نفسها. وفي لسان العرب: المدينة والصَّعْ، والجمع: كُورٌ، وقد جاء عند ابن سيده: الكورة من البلد: المَخْلَف، وهي القرية من قرى اليمن. وفي معجم البلدان الكورة: اسم فارسي بحت استعارتها العرب كما استعارت الإقليم من اليونانيين. وقال ياقوت: الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قسبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها. الزيان، زهير محمد مصطفى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبد الله المقدسي دراسة دلالية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص ١١.

(٣) طلبيرة: بالأندلس أيضاً، وبينها وبين وادي الرمل خمسة وثلاثون ميلاً، وطلبيرة أقصى ثغور المسلمين، وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين، وهي قديمة أزلية على نهر تاجه، مبنية على جبل عظيم، ولها عمل واسع، ومزارعها زاكية، وبينها وبين طلبيلة سبعون ميلاً. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٩٥.

(٤) المقرئ: نفح الطيب، ج: ١، ص ٢٧١.

(٥) ماردة: مدينة بجوفي قرطبة منحرفة إلى المغرب قليلاً، وكانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل، فكثر بها آثارهم والمياه المستجبة إليها، وكان آخر ملوك القوط الذين ملكوها لذريق، وكان قد أحرق بماردة سوراً عرضه اثنا عشر شبراً وارتفاعه ثمان عشرة ذراعاً، ومخزن أغرب الغرائب جلب الماء الذي كان يأتي إلى القصر على عمد مبنية تسمى الإرجالات، وفيها القصر الذي بناه عبد الملك بن كليب بن ثعلبة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٥١٩.

ص ٣٨-٣٩.

(٦) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٥١.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٧٠.

وبعد أن تم اللقاء سنة (٩٤هـ/٧١٣م) اتفقا على متابعة خطة الفتح باتجاه الشمال، وكان أهم عمل قام به موسى بن نصير هو التوجه إلى منطقة قشتالة^(١)، لكن لماذا اختار موسى التقدم شمالاً؟ وهل للجغرافية أثر في ذلك؟

لعله وجد أن قرب المنطقة من الجهات الجبلية الوعرة يساعد من يتحصن بها من القوط الغربيين على أن يبقى على المقاومة زمناً طويلاً^(٢)، حيث تشكل ملجأً حصيناً يمكنهم استغلاله في وجه الجيش الإسلامي، وعليه حاول اجتياز جبال البرت واستطاع فتح جزء من أرض فرنسا الحالية^(٣).

أما طارق بن زياد فكانت مهمته أصعب حيث اعتصم الفدائيون الفارون من أمامه بمنطقة أشتورس وجيلية في مكان يسمى الصخرة^(٤)، وكانت منطقة جغرافية صعبة الاجتياز مليئة بالمخابئ الوعرة، وقد استغلوا البيئة الجبلية الباردة المطيرة الكثيفة الغابات التي لا يستطيع العرب القتال فيها، شأنها في ذلك شأن جبال طوروس، والقسم الشمالي الشرقي من تركستان والتبت وما إلى ذلك^(٥).

وتجلى الأثر الكبير للعامل الجغرافي باضطراب موسى بن نصير إلى العودة من أجل مساعدة طارق عليهم، فلم يبق إلا أقصى الطرف الشمالي؛ وإذا بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك جاءه لكي يقل راجعاً دون أن يستطيع تحقيق الهدف في إخضاع كامل الأندلس.

وهكذا كان للبيئة الجبلية الباردة والمطيرة ذات المسالك الوعرة الأثر الأكبر في اختيار القوط لتلك البقعة الجغرافية من أجل الاعتصام والتحصن، وقد فشلت كل المحاولات العربية في إخضاع هذه المنطقة - مملكة اشتورس - في الركن الشمالي الشرقي من إسبانيا التي ستصبح منذ نهاية القرن الأول الهجري/السابع الميلادي قاعدة هامة لحركة الاسترداد، والتي ستستمر حتى تتمكن من استئصال الوجود العربي في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي^(٦). راجع الخريطة (٣٦).

(١) قشتالة: إقليم عظيم بالأندلس، قصبته اليوم طليطلة، وجميعه اليوم بيد الإفرنج. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٣٥٢.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٨٦.

(٣) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١١٧.

(٤) مصطفى: الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص ٤٣.

(٥) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٨٩.

(٦) مصطفى: الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص ٤٣. أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٠.

كما واجه القائد قتيبة بن مسلم الباهلي^(١) صعوبات كبيرة في فتح مناطق الجبهة الشرقية من بلاد ما وراء النهر المعروفة بطبيعتها الجبلية القاسية، فتوجه إلى فرغانة^(٢) وفتحها، وكان الاحتفاظ بها يستوجب فتح منطقة كاشغر^(٣)، وكانت كاشغر تقع شرقي إقليم فرغانة على حدود الصين، وذلك في سنة (٩٦هـ/٧١٥م)^(٤)، وهنا وقفت الطبيعة الجبلية ومقاطع الصخر عائقاً أمام تقدم قواته، فكيف تصرف القائد قتيبة في سبيل تذليل تلك العوائق الطبيعية، والتوجه إلى كاشغر؟

لقد أكمل قتيبة استعداداته من أجل التوغل في تلك البلاد، وعندما وجد أن ذلك لا يتم بسهولة أرسل (الفَعْلَة) - على حد تعبير المغلوث - من أجل تمهيد الطريق، لكي يتمكن الجيش من اجتياز تلك المناطق بسهولة ويسر، وهؤلاء الفَعْلَة هم كوحدات الهندسة في زماننا إن صح التعبير، وتكون مهمتهم تمهيد الطرقات، وبناء القناطر والجسور، وإزالة العقبات الطبيعية التي تواجه تقدم الجيش، وتأمين وسائل عبور الأنهار، والإشراف على المعابر وعمليات عبور الأنهار، وقد أكملوا المهمة على وجه السرعة وأخبروا قتيبة بذلك^(٥).

وهذا الأمر أشار إليه الهرثمي عندما ذكر (التحرز في المسير) قائلاً: "اجعل رجلاً من أهل الصرامة - الحزم والشدة - في قوة من أصحابك أمام عسكريك دون طلائعك مع الفعلة، لإصلاح الطرق، وقطع الشجر، وإقامة الجسور والمعابر، وحفر الآبار وتنقيتها"^(٦).

إذاً ما ذكره الهرثمي من مبادئ في الحرب والمنازلة، كان العرب المسلمون قد عملوا بها، ما يدل على حسن سياستهم، وحسن تعاملهم مع الظروف الجغرافية حسب الإمكانيات المتوفرة.

(١) قتيبة بن مسلم الباهلي (ت ٩٦هـ/٧١٥م): أبو حفص أمير، فاتح، من مفخر العرب، نشأ في الدولة مروانية، ولَّى الري أيام عبد الملك بن مروان، وثب لغزو بلاد ما وراء النهر، فتوغل فيها وافتتح كثيراً من المداين، وغزا أطراف الصين وفرض عليها الجزية، وأذعن له بلاد ما وراء النهر كلها، واستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة، وهو عظيم المكان مرهوب الجانب، وفي عهد سليمان بن عبد الملك، واختلف عليه قادة جيشه فقتله وكيع ابن حسان التميمي بفرغانة. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٥، ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان، بينها وبين سمرقند أربعون فرسخاً، وفي جبالها وجبال كثيرة من تلك البلاد يوجد الفستق. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٢٥٣.

(٣) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وغيرها، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٤٣٠.

(٤) ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن عبد الله (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد رضوان عرقسوسي، دار الرسالة العالمية، ط: ١، دمشق، سورية، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ج: ١٠، ص ١١١.

(٥) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٦١.

(٦) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٢٩.

ومن خلال ما تقدم يبدو أن شعب عصام - أدنى مدائن الصين بين فرغانة والحدود الصينية^(١) - التي على الطريق كانت من العوارض الطبيعية الوعرة التي تعرقل مسيرة الجيش بأعداد كبيرة؛ فتقدم عبر طريق تجارية تربط بين فرغانة وكاشغر. انظر الخريطة (٣٧).

وكانت طبيعة منطقة قوهستان^(٢) - جرجان^(٣) وطبرستان^(٤) - الجبلية قد صعبت مهمة الفتح على القائد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة^(٥) الذي توجه إلى جرجان في سنة (٩٧/هـ-٧١٦م)، وتمكن من فتحها لأسباب داخلية منها نزاع الفرس والترك الذي أدى إلى سرعة السيطرة عليها^(٦)، وفتح طبرستان سنة (٩٨/هـ-٧١٧م)^(٧)، بعد أن عينه سليمان بن عبد الملك على خراسان^(٨).

وقد أجمع المؤرخون^(٩) على أن جرجان لم تكن مدينة في ذلك الوقت؛ بل كانت جبال عالية تحيط بها مخارم وأبواب، يقوم الرجل على باب منها فلا يقدر عليه أحد، ومع ذلك استمر القائد يزيد في تقدمه حتى أخذ جرجان.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٨٩.

(٢) قوهستان: كلمة تعني بلاد الجبال، لأن كوة بالفارسية تعني: الجبل، وقد أطلقت على أجزاء كثيرة في الهضبة الإيرانية بطبيعتها الجبلية، وتقع جنوب شرق بحر قزوين، وعاصمتها قازين. طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١١٦.

(٣) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، وقال الإصطخري: "جرجان أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقل ندى ومطر من طبرستان، وهي قطعتان وبينهما نهر كبير تجري فيه السفن". الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ١١٩-١٢٢.

(٤) طبرستان: منطقة جبلية تحيط بجنوب بحر الخزر، وتضم بلداناً واسعة وحقول كبيرة، أهم مدنها آمل، وتعرف الجبال التي تحيط بها باسم جبال البرز، ويطلق على طبرستان اسم مازندان أيضاً. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ١٣-١٦. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٧٦.

(٥) يزيد بن المهلب (ت ١٠٢/هـ-٧٢٠م): أبو خالد، من القادة الشجعان، ولي خراسان بعد وفاة أبيه، فبقي مدة ست سنين، وفي عهد سليمان بن عبد الملك ولاه العراق ثم خراسان، فعاد إليها وافتتح جرجان وطبرستان، وفيما بعد نشبت حروب بينه وبين مسلمة بن عبد الملك انتهت بمقتل يزيد بمكان يسمى "العقر" سنة (١٠٢/هـ-٧٢٠م). الحنبلي: شذرات الذهب، ج: ١، ص ١٢٤. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٨، ص ١٨٩.

(٦) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٦.

(٧) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣١٤.

(٨) السيد، مجدي فتحي: تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ١٤١٨/هـ-١٩٩٨م، ص ١٩٨.

(٩) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣١٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٠٥. السيد: تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، ص ١٩٨.

وبعد عام كانت له جولة مع أهل طبرستان، التي تقع إلى الجنوب من بحر قزوين^(١)، وكان لطبيعة المنطقة دور كبير، فهي مناطق جبال كثيرة، وتحيط بها المناطق الجبلية لجرجان من الشرق، وكانت قصبته أمل، فلم يكن من السهل أن يتم فتح هذه المناطق لحصانتها ومنعتها^(٢).

وقد التقى أهلها مع المسلمين عند سند الجبل - سفحه - واقتتلوا اقتتالاً شديداً، وعندما شاء الله هزيمتهم حاولوا استغلال الجبل فصعدوا عليه، جاعلين منه ملاذاً وحصناً وعندما لحقهم المسلمون يريدون صعود الجبل رموهم بالنشاب والحجارة، فانهزم المسلمون، وعادوا إلى يزيد بن المهلب بعد أن أخذوا عليهم المضائق والشعاب والطرق^(٣).

وفي ذلك يذكر ابن خياط: "فانهزم المشركون في الجبل فاتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشعب فدخله المسلمون، وصعد المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون يرومون الصعود، فرماهم العدو بالنشاب والحجارة فانهزم المسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون في الجبل حتى انتهوا إلى عسكر يزيد"^(٤).

ومن المهم ذكره أن أهل جرجان أشاروا على الأصبهز - حاكم طبرستان - أن يقطع المادة ويأخذ على جيش يزيد شعاب الجبال ومضائقها، وعندما علم القائد يزيد بذلك أدرك خطورة الموقف، وأرسل للتفاوض من أجل الصلح^(٥).

وكان للجبل أثر في أحداث سنة (١١٢هـ/٧٣٠م)، عندما أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك^(٦) الجراح بن عبد الله الحكمي^(٧) من أجل محاربة الخزر، ووعد أنه يمدّه بجيش من أهل الشام، فسار

(١) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٧.

(٢) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١١٨.

(٣) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٧، ص ١٩٢.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ٣١٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٠٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٠٧. أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٧.

طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١١٨.

(٦) هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ/٧٤٣م): من ملوك الدولة الأموية بالشام، ولد في دمشق، وفي أيامه نشبت حرب هائلة مع خاقان ملك الترك في ما وراء النهر، انتهت بقتله، واستيلاء الرب على بعض مواضعه، وتوفي بالرصافة غربي الرقة. أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٤٦. الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٥٣٥. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٨، ص ٨٦.

(٧) الجراح بن عبد الله الحكمي: دمشقي الأصل والمولد، جعله الحجاج نائباً على العراق، ثم ولاه عمر بن عبد العزيز على خراسان وسجستان سنة (٩٩هـ/٧١٨م)، ثم ولاه يزيد بن عبد الملك على أرمينية وأذربيجان، فافتتح عدة حصون. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٧٢٢.

ونزل بمرج أردبيل بعد أن استولى على حصون ومناطق عدة، وبعد أن علم بمسير الترك إليه بقيادة نارستيك ابن خاقان ملك الترك، خرج حتى صار إلى مرج جبل يقال له السبلان^(١) فضرب عسكره هناك، ثم انتقل بعد أن عبر النهر على جسر - سمي الجسر باسم جسر الجراح إلى اليوم^(٢) - إلى منطقة مستوية صحراوية يمكن للعدو أن يكشفهم إذا عسكروا فيها؛ وهنا تقدم دهقان أذربيجان واسمه مردان شاه، وقد كان مع الجراح برأي أراد من خلاله أن يقوم الجراح باستغلال عامل الجبل من أجل التحصن ومقاومة العدو من وجه واحد قائلاً:

"أيها الأمير! إنك في قلة من الجيوش، والعدو في جيش كثير وجند كبير، وليس ينبغي للقليل من الجيش أن يصحر للجيش الكثير في الأرض المستوية، ولكن هذا جبل سبلان قريب منك، فمُلْ إليه وانزل في سفحه، واجعله وراء ظهرك، وقاتل العدو من وجه واحد إلى أن يأتيك المدد من أمير المؤمنين"^(٣).

إذاً قدم نصيحة أراد من خلالها أن يستغل الجبل، ويتحصن فيه، وعلى ما يبدو أن الجراح لم يأخذ بنصيحة مردان شاه، وسار إلى قرية شهرزاد^(٤)، وعبأ أصحابه، ثم دارت المعركة مع الخزر، وقد انتهت بقتل الجراح الحكمي وعدد من المسلمين، أما من نجا فقد لاذ بالفرار إلى الجبل واعتصم به^(٥)، وافتتحت الترك أردبيل^(٦).

من خلال ما تقدم يمكن القول أن فتوحات الجبهة الشمالية والشرقية كانت تخضع بشكل عام لسلطان العوامل الجغرافية "الطبيعية" أهمها (الجبال) و"المناخية" أهمها (الشتاء)، وهذا ما أكد عليه المؤرخ محمد أحمد حسونة حيث ذكر أن جبال الجبهة الشمالية الشرقية للدولة العربية حالت ببردها القارس دون توغل العرب كثيراً مما يبرهن على رسوخ العوامل الجغرافية وعلى مبلغ أثرها في توجيه التاريخ^(٧).

(١) سبلان: جبل عظيم مشرف على مدينة أردبيل من أرض أذربيجان، وفيه عدة قرى، والثلج على رأسه صيفاً وشتاءً.

الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ١٨٦.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ٣٤٢.

(٣) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص ٢٤١.

(٤) لم أجد لها تعريفاً، وهكذا ذكرها ابن أعثم الكوفي. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص ٢٤١.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٩٣. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص ٢٤١.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٧٠.

(٧) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٧.

أما على الجبهة الغربية لم يكن الأمر مختلفاً، ففي مقدمات معركة بواتيه (بلاط الشهداء) التي حدثت في سنة (١١٤هـ/٧٣٣م)^(١)، كان لطبيعة المنطقة في أقصى الشمال الشرقي من إسبانيا دوراً كبيراً؛ فأين برز هذا الدور، وكيف تجلى؟

للإجابة يمكن القول أنّ دور هذا العامل ظهر في اختيار الطريق عبر ممرات رونسيغال^(٢)؛ وتجلى باضطراب الوالي عبد الرحمن الغافقي^(٣)، بعد أن قام بحشد قواته في بمبلونة^(٤) جنوبي البيرينيه إلى أن يسلك طريقاً بين المضائق مجتازاً الجبال الخطرة، ولكن ما الذي دفعه إلى اجتياز ذلك الطريق الجبلي نحو الشمال إلى أراغون عبر ممرات رونسيغال؟

لعل طبيعة المنطقة التي كانت تفصل شمال إسبانيا عن بلاد غاليا (فرنسا) جعلته يختار الطريق الذي يشكل المعبر الأهم إلى تلك المنطقة، رغبةً من الأمويين في محاولة السيطرة على أوروبا حتى يتمكنوا من الوصول إلى القسطنطينية عن طريق الغرب^(٥).

وبناءً على ما سلف فقد تقدموا شمالاً مثقلين بالغنائم حتى تم لقاءهم مع شارل مارتل حاكم الدولة الفرنجية في موضع بين تور وبواتيه، بعد أن استنجد به دوق أكتيانيا (أدو)، وجرت المعركة التي راح ضحيتها عبد الرحمن الغافقي والكثير من المسلمين^(٦). انظر الخريطة (٤٠).

ومن المهم ذكره أن التلال كان لها أثر في أحداث هذا العصر حتى لو أغفلت المصادر دورها الكبير في المعارك والغزوات في هذا العصر، ويمكن القول: إنّ دورها اقتصر على الإشراف على المعارك عن كثب، وما يلي يبرهن على ذلك.

(١) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٨.

(٢) رونسيغال: ممر من الدروب الجبلية يعبر جبال البيرينيه كما يسميها العرب، وقد عبر السلمون هذا الممر إلى فرنسا، ويسمى في المصادر العربية باب شرزوا. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٦٦.

(٣) عبد الرحمن الغافقي (ت ١١٤هـ/٧٣٢م): عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد، أمير الأندلس، اتصل بموسى بن نصير وابنه عبد العزيز أثناء إقامتهما في الأندلس، نشأ خلاف بينه وبين الوالي عنبسة بن سحيم فتم عزل عبد الرحمن، تاهب لفتح بلاد الغال، فجمع الجيش واجتاز جبال البرانس، واستولى على مدينة بورجو، ودحر جيوش شارل، فنشبت حرب راح ضحيتها. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٣١٢.

(٤) بمبلونة: تقع في جنوب جبال البرانس أو البيرينيه، في شمال شرق الأندلس، حشد فيها عبد الرحمن الغافقي الجيوش من أجل التوجه إلى بلاد الغال. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٤٠.

(٥) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٧.

(٦) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٤٠.

عندما توجه المهلب بن أبي صفرة إلى قتال الخوارج^(١)، بعد أن عهد إليه عبد الملك بن مروان بذلك، خاض عدة معارك معهم و طال عهده بحربهم، وعليه أرسل إليه الخليفة رسلاً يسمى البراء بن قبيصة من أجل حثه على الإسراع بقتالهم وعدم المطاولة، وعندما وصل البراء إلى المهلب، أراد أن يشرف على المعارك التي تجري بينه وبين الخوارج؛ فعمد إلى تل قريب من ميدان المعركة وصعد عليه، وأشرف على أحداث إحدى معاركهم^(٢).

وبالتالي حقق هدفه في الإشراف على المعركة، وبعد ذلك رجع إلى الحجاج بن يوسف الثقفي وأخبره عن قوة الخوارج وصعوبة حربهم، وأن المهلب معذور في مطاولتهم القتال.

يلحظ الباحث أن التلال تجلى أثرها في الإشراف على المعارك، أو في التحصن، وإعداد الكمائن للإحاطة بالأعداء، وفي التخفي عن أعين العدو.

وقد فطن إلى أهمية استغلال التلال القائد مسلمة بن عبد الملك^(٣) (٦٢-١٢١هـ/٦٨٢-٧٤٧م)، فقد كان من استراتيجياته القتالية، أن يستدرج العدو إلى المعركة من خلال استخدام التلال، وحين يهجم العدو ينسحب بسرعة موهماً العدو أنه انهزم، وتكون خطته تقضي بالإطباق على الأعداء وتوجيه الضربة القاضية، وهذا ما حصل في العديد من معاركه الجهادية، مستغلاً هذا العامل الجغرافي^(٤).

(١) الخوارج: من الفرق الإسلامية أطبق عليها خصومها لقب الخوارج لخروجهم على الإمام والدين، من فرقهم النجدات والأزارقة والمحكمة وغيرها، وتجتمع على اختلاف مذاهبها بتكفير الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ والحكمين وأصحابهم. البغدادي، عبد القادر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م): الفرق بين الفرق، تح: طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٤٥.

(٢) الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٤٩٢.

(٣) مسلمة بن عبد الملك (ت ١٢٠هـ/٧٤٨م): أمير، قائد، من أبطال عصره، من بني أمية في دمشق، يلقب بالجرادة الصفراء، له فتوحات مشهورة، سار في مئة وعشرين ألفاً إلى القسطنطينية، و ولاه أخوه يزيد إمرة العراقين، ثم أرمينية، وغزا الترك والسند سنة (١٠٩هـ/٧٣٧م)، ومات بالشام. البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٨، ص ٣٥٩. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢٢٤. الصوفي، أسماء فتحي إبراهيم: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص ١٥١.

(٤) الأسطل: مسلمة بن عبد الملك، ص ١٨٩.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد استغل التلال كثير من القادة من أجل نصب الكمائن، كما حصل في فتح سمرقند^(١) سنة (٩٣هـ/٧١١م)^(٢)، عندما أعلن نيزك حاكم سمرقند خلعه لقتيبة، أرسل القائد قتيبة بن مسلم الباهلي كتيبة بقيادة أخيه صالح بن مسلم في ستمائة فارس من قواد العرب^(٣)، وأمره أن يكمن على الطريق المؤدي إلى سمرقند، وهو الطريق الذي كانت تأتي منه النجيدات إلى سمرقند أثناء حصارها، المهم أن صالح رأى أن يستغل التلال الموجودة على جانبي الطريق، وفي سبيل ذلك قام بتقسيم الكتيبة إلى فرقتين وأمر كل منها أن تكمن على طرف من أطراف الطريق وراء التلال الموجودة^(٤)، وبعد أن وصل رتل النجيدات إلى المدينة لحماية المدينة انقضّ الكمين عليهم في هجوم مباغت وأربعهم ليلاً^(٥)، ونجحوا في المهمة باستغلال التلال في المنطقة.

أما في سنة (١١٩هـ/٧٣٧م)^(٦)، جرت وقائع المعركة بين خاقان ملك الترك، وبين المسلمين بقيادة أسد بن عبد الله القسري^(٧)، وبعد أن عبر المسلمون نهر بلخ، لحق بهم الترك^(٨)، وبناءً على مشورة خاقان لأصحابه عبروا النهر^(٩)، فوجدوا أن المسلمين قد خندقوا على أنفسهم، وهنا عمد خاقان إلى تلٍ قريب من معسكر المسلمين، من أجل اكتشاف المنطقة ولكي يجد عورة^(١٠) -مدخلاً- يمكن من خلالها أن يأخذ المسلمين مباغتةً- وكان هكذا يفعل في كل معاركه- فإذا رأى عورة أمر أصحابه فيحملون على الخصم من ناحية العورة^(١١)، وكان للتل أثرًا إيجابياً لمصلحة خاقان وجيشه، وقد ظهر هذا الأثر واضحاً عندما تمكن من الاهتداء إلى جزيرة بينها وبين المسلمين مخاضة^(١٢)، وهذه الجزيرة كانت تقع خلف المسلمين وهنا أمر جنوده قائلاً:

(١) سمرقند: من بلدان ما وراء النهر المعروفة، وكانت قاعدة بلاد الصغد، شرقي بخارى، وكانت أكبر مركز لصناعة الورق. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ٢٤٦-٢٥٠. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٧٠.

(٢) طقوش، محمد سهيل: تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، ط: ٧، بيروت، لبنان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ١٠٩.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٤٧٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٥٥.

(٤) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٠٧.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٤٧٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٤٢٣.

(٧) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١١، ص ٨٦.

(٨) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٣٤.

(٩) راجع أثر النهر في البحث الثاني من هذا الفصل.

(١٠) العورة: كل نقطة ضعف تسهل المهاجمة منها. الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٥٦.

(١١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ١١٧.

(١٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٤٢٤.

الباب الثالث: دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية خلال العصر الأموي

"أذهبوا إلى الجزيرة، وأتوهم من خلفهم"، ففعلوا واستولوا على طرف العسكر، وقتلوا جماعة من المسلمين، وسيطروا على بعض الأتقال^(١).

ومما تقدم يمكن القول: إنَّ هزيمة المسلمين في هذه المعركة كانت بسبب قلة الحذر، وعدم تحصين الثغرات، وعدم القوة في الاحتراس، لأنه لو كان الأمر بخلاف ذلك ما استطاع الأتراك مباغتتهم من الثغرة خلف مواقعهم، وللهرثمي نظرة في ذلك حيث قال: "لا تأنفنَّ من الحذر فإن ذلك هو العجز الظاهر،... وأقوى مكيدة المحارب إظهار شدة الحذر، مع تحصين كل عورة، وإحكام كل مصنعة؛... فإنه قليل ما تكون عورة مع حذر"^(٢).

ودون الخوض في تفاصيل المعركة، يلاحظ أنَّ لو لم يصعد خاقان على التل لم يكن بإمكانه أن يستدل على العورة التي من خلالها هجم على المسلمين وباغتهم.

وبعد أن تم استعراض أهم الأحداث التي حدثت في هذا العصر، يُلاحظ بوضوح أنَّ الجبال تشكل عامل قوة أو ضعف بالنسبة للجيش، وبالتالي فإن محاولة السيطرة عليها أو استغلالها كان أمراً لا بد منه في سبيل توفير قوة تمنح أحد الجيوش السيطرة على ميدان المعركة، وعلى مسرح العملية العسكرية، لما تمنحه من مواقع مراقبة جيدة، وأماكن حصينة يصعب على الجيش المهاجم التكهّن والتنبؤ بشعابها، ومعرفة مضائقها.

وبالتالي كان لا بد للجيش المحارب في تلك المناطق أن يكون على علم وإعداد مسبق يعززه استثمار العوامل المناخية، والاستفادة منها في سبيل تحقيق نصرٍ مؤزر على الجيش الآخر.

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١١، ص ٨٩.

(٢) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٢٣.

ثانياً- أثر الخنادق والأودية والسهول.

من المعلوم أنّ الجبال ليست وحدها ذات الأثر في أحداث التاريخ، فكما كان للجبال دور كبير في أحداث العصر الأموي؛ فإن للأودية والخنادق والسهول أثرها الذي لا يمكن إغفاله في الأحداث بشكل عام ونتائج المعارك بشكل خاص، وقد حرص العرب على استغلال هذا العامل، وقد برهن على أهمية حفر الخنادق بالنسبة للمسلمين ابن خلدون بقوله:

"وكان من مذاهب الأول- الأولين- في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذراً من معرة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته ووحشته... فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم، ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات، فيتخاذلوا- المقصود هنا العدو الذي يجد الخندق فيتراجع عن الهجوم بوجود الخندق"^(١)؛ ولم يكن ابن خلدون وحده من أشار إلى أهمية الخنادق، بل وضع الهرثمي أهمية الخنادق مشيراً إلى وجوب الاستفادة منها، بقوله:

"لا تغفل عن ضرب الخنادق في مواضع الحاجة إليها، خندقاً للصناع والعدة، وخندقاً للأسواق والأتباع، وخندقاً لك ولسائر الناس أو على من تقدّره، واحشها- املاها خيلاً ورجالاً"^(٢).

وما يمكن أن يضيفه الباحث أنّ الوديان والمنخفضات كانت محط أنظار القادة الذين قاموا ببناء المدن من أجل تأمين الحماية، كما كانت الخنادق عاملاً لحماية المعسكرات، ومثال ذلك بناء مدينة القيروان سنة (٥٠هـ/٦٧٠م)^(٣)، التي كانت في منطقة منخفضة تحقق شروطاً جغرافية تناسب التحركات العسكرية^(٤).

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٢٩.

(٢) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣٢.

(٣) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٩٨.

(٤) انظر أثر الصحراء حيث ورد ذكر لموقع مدينة القيروان.

وفي سنة (٦١هـ/٦٨٠م)^(١)، أثناء قتال الحسين بن عليؑ مع جيش عمر بن سعد بن أبي وقاص، كان أثر المنخفض- الخندق- نافعا لجيش الحسين في بداية المعركة، وظهر أثره بعد أن عبأ الحسينؑ أصحابه استعداداً للمعركة وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً^(٢)، فقد استخدم الخندق الذي كان وراء البيوت من أجل حمايتهم، فكيف تصرف الحسين للاستفادة من هذا العامل؟ وكيف برز أثر المنخفض؟

لقد قام الحسين بجمع الحطب والأخشاب التي كانت وراء البيوت، ووضعها في خندق كانوا قد حفروه في ساعة من ليلة المعركة^(٣)، والهدف من هذا الخندق دون شك هو الحماية من الأعداء من أن يقوموا بحركة التفاف حول جيش الحسينؑ.

وبالتالي جعلوا الخندق يحميهم من وراءهم، وكانت الخطة هي إشعال النار في ذلك الخندق بعد ملئه بالحطب من أجل إشغال العدو عن الهجوم من خلفهم، وهذا ما جاء عند الطبري في روايته عن الضحاك بن عبد الله المشرقي حيث ذكر قائلاً:

"وأمر- يقصد الحسينؑ- بحطب وقصب كان من وراء البيوت يحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من وراءهم،.. وأتى الحسين بقصب وحطب إلى مكان من وراءهم منخفض كأنه ساقية، فحفروه في ساعة من الليل، فجعلوه كالخندق، ثم ألقوا فيه ذلك الحطب والقصب، وقالوا: إذا عدوا علينا فقاتلونا ألقينا فيه النار كيلا نؤتى من ورائنا، وقاتلنا القوم من وجه واحد"^(٤).

ولأقت هذه الفكرة القبول من أصحاب الحسين، "قوتب القوم من كل ناحية وتعاونوا وحفروا خندقاً، ثم جمعوا الشوك والحطب وألقوه في الخندق وأججوا فيه النار"^(٥).

إذاً استفاد أصحاب الحسين من الخندق عندما أضرموا النار فيه، حتى أن رجلاً كان يركض على فرس له، وهجم على بيوتهم، فلما رأى النار قد أضرمت في الخندق، كرّ راجعاً ولم يستفد من هجومه^(٦).

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٤.

(٢) أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، تح: محمد فخري الوصيف وآخرون، دار المعارف، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج: ١، ص ٢٣٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤١٧. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص ٩٦.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٤٢٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤١٧.

(٥) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص ٩٦.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٤٢٢.

ويبدو أن هذه الحماية كانت فقط من الخلف، لأن في الأمام كان العدو الأكبر والأخطر وهو الماء الذي فتّ في عضد الحسين ومن معه، وكان السبب الأساسي في التغلب عليه ومن معه، وسيتم ذكر ذلك أثناء تناول أثر المياه.

كما حاول أهل المدينة المنورة في أحداث وقعة الحرة^(١) التي حصلت سنة (٦٣/٦٨٣م)^(٢) استغلال العامل الجغرافي المتمثل بالخندق والاستفادة منه، ظناً منهم أنه سيمنعهم من الصمود، وإطالة أمد المقاومة في وجه جيش أهل الشام الذين أرسلهم الخليفة يزيد بن معاوية بقيادة القائد مسلم بن عقبة المري.

ودون الخوض في تفاصيل ما جرى يلاحظ أن الخندق لم يحقق لهم الغاية المنشودة والهدف المقصود، والسؤال الذي يطرح نفسه، ما السبب الذي جعل أهل المدينة يفشلون في إطالة أمد المقاومة؟

يرجح أنّ السبب يكمن في الطريق الذي اتخذته القائد مسلم من أجل الوصول إلى المدينة بناءً على مشورة عبد الملك بن مروان؛ فقد أشار عليه أن يتخذ طريق الحرة من ناحية الشرق^(٣)، وكما هو معلوم أن المدينة تحيط بها الحرات من جميع جوانبها ما عدا الجهة الشمالية^(٤).

وكان هناك طريق الشمال الذي يعدّ المدخل الوحيد للمدينة المحاطة بالحرات والجبال من جميع الجهات والنواحي عدا الجهة الشمالية^(٥)، وذلك لأنها منطقة مكشوفة تسمح للجيش بدخول المدينة.

ولعل هذا فرض عليهم اختيار المكان من الجهة الشمالية من أجل حفر الخندق، فكانت خندق أهل المدينة في هذه النقطة لتحصين المدينة وحمايتها، فضلاً عن الآطام والزروع^(٦)، وباقترب مسلم من المدينة عسكروا بحرة واقم، وخندقوا^(٧).

(١) حرة واقم: واقم: أطم من آطام المدينة، وحرة واقم إلى جانبه. وفي هذه الحرة كانت وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص ١٥٠.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١١، ص ٦١٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٣٤٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٥٧.

(٥) دبس: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، ص ٤٨.

(٦) باشميل: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة الأحزاب -، ص ١٤٢.

(٧) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٣٤٥.

إلا أن اختيار مسلم للطريق الشرقي، فوّت فرصة استغلال الخندق على أهل المدينة، وقد ذكر ابن الأثير أن مسلم "أقبل من ناحية الحرة وضرب فسطاطه على طريق الكوفة"^(١)، وجرت عدة وقائع ما كانت تنتهي لولا وفاة الخليفة يزيد بالشام مما اضطرهم إلى رفع الحصار.

وفي سنة (٧٦هـ/٦٩٥م) أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث^(٢)، وكلفه بمحاربة شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي^(٣)، وقد أخذ عبد الرحمن بن محمد بنصيحة قدمها له الجزل بن سعيد الكندي الذي خاض عدة وقائع مع شبيب وكان جريحاً من معركة حصلت معه^(٤)، لأن شبيب كان على درجة عالية من الخطورة، وهدفت النصيحة إلى وجود الخندق قبل كل شيء، فقال مبيناً تجربته في حرب الخارجي شبيب:

"إن الفارس منهم أشد من مئة، إن لم تبدأ به بدأ، وإن أحجمت أقدم، وإنني قد قاتلتهم وبلوئهم، فإذا أصحرت لهم انتصفوا مني، وكان لهم الفضل عليّ، وإذا قاتلتهم في مضيق، أو خندقت عليّ نلت منهم ما أحب، فلا تلقهم إلا على تعبئة، أو في خندق"^(٥).

فكان عبد الرحمن لا يسير إلا على تعبئة، بالإضافة إلى استغلال الخندق حيث كان يستخدمه لحماية نفسه أينما حلّ، وفي أي منطقة ينزل بها وهو متوجه في أثر شبيب، ويلاحظ الباحث أن هذا الأمر ظهرت نتائجه في محاولات شبيب مباغته جيش عبد الرحمن؛ فقد كان شبيب يدع عبد الرحمن حتى يدنو منه ثم يباغته؛ فيجده قد خندق على نفسه خندقاً يحميه، وحذر منه؛ فيتركه شبيب ويسير، ثم يتبعه عبد الرحمن وهكذا.

لكنّ المطاولة في السير، وحفر الخنادق المتعددة جعل الأثر يظهر على جيش عبد الرحمن، وذكر ذلك ابن الأثير بقوله: "حتى عذب ذلك الجيش، وشقّ عليه، وأحفى دوابهم، ولقوا منه كل بلاء"^(٦).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٥٨.

(٢) الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٥٥٤.

(٣) شبيب بن يزيد (ت ٧٧هـ/٦٩٦م): أبو الضحّاك، أحد كبار الثائرين على الخلافة الأموية، خرج في الموصل، على الحجاج الثقفي، وقتل من أرسلهم إليه من القواد، وقتل في نهر دجيل بعد أن نفر به فرسه من على الجسر، فألقاه في النهر فغرق. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ١٥٦-١٥٧. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٤١.

(٤) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ١٩٢-١٩٥.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٢٥٠. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٢٠١.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٦٥.

وقد استمر الأمر حتى نزل شبيب في قرية يقال لها: البَتَّ^(١)، على تخوم الموصل^(٢).

أما عبد الرحمن فقد نزل في عواقل^(٣) نهر حولايا^(٤)، لكن لماذا اختار هذه المنطقة؟ وهل كان للجغرافية أثر في ذلك؟

يلاحظ الباحث أنَّ عواقل النهر كانت عبارة عن ثنيات نهريّة يشدّ الحت النهري في جانبها الخارجي، في حين يتركز الترسيب، وينبسط السطح في الجانب المقابل، فكانت كالخندق بفعل الحت النهري، وهو المطلوب بالنسبة إلى عبد الرحمن في سبيل حماية نفسه وجيشه من خطر شبيب، فاختار عواقل النهر، وتحصن بها^(٥)، وقد كتب بذلك عامل المدائن عثمان بن قطن إلى الحجاج يخبره بما أقدم عليه عبد الرحمن، وكيف أنه اختار الخندق للتحصن به دون مقاتلة شبيب قائلاً:

"إن عبد الرحمن قد حفر أرض جوحى كلها خندقاً واحداً، وغلّى شبيب يفعل ما يريد، وقد كسر الخراج، والسلام"^(٦).

وكانت النتيجة عزل عبد الرحمن من قبل الحجاج، وتولية عثمان بن قطن قائداً بدلاً عنه، وعندما وصل أراد القتال لكن ظهر أثر الريح، وهذا ما جعلهم يؤخرون القتال حتى هدوءها، وما إن جرت المعركة التي أخرج فيها عثمان الجيش من الخندق، انتصر الخوارج بقيادة شبيب عليهم وقتل عدد كثير منهم^(٧).

ومما جرى يستنتج أنَّ الخندق كان عاملاً لكسب القوة، ولعل النصر كان سيصبح محققاً لو بقي الجنود في مكانهم، ولم يخرجوا من الخندق منذ أن عسكروا بقيادة عبد الرحمن، وكان قرار عثمان بالهجوم خاطئاً، رغم أن الحماس يتطلب الجرأة لكن ظروف المعركة كانت تتطلب البقاء في الخندق، خاصةً إذا كانت النصيحة باتخاذ الخندق مقدمة من رجل حرب خاض معهم المعارك وعرف قوتهم، وهو الجزل بن سعيد.

(١) البَتَّ: من قرى النهروان كالمدينة من نواحي بغداد وأعمالها، قريبة من راذان. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٣٣٤.

(٢) الموصل: مدينة تقع في الجانب الغربي من دجلة، وسميت بذلك لأنها وصلت بين دجلة والفرات، بساكنها قليلة، لها رساتيق كثيرة، وكور كثيرة. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٤٢.

(٣) عواقل: مفرداها: عاقول، وهي معطف الوادي أو النهر - انتشاء النهر. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٠٣٤.

(٤) حولايا: قرية كانت بنواحي النهروان وقد خربت الآن. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٣٢٢.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٢٥١.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٢٥١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٦٥.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٢٥٢-٢٥٥.

وبعد أن تم فتح بخارى^(١) على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، أرسل القائد قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم في سنة (٩٠هـ/٧٠٧م)^(٢) لإعادة فتح باذغيس^(٣) التي تمرد ملكها نيزك، وسار عبد الرحمن يلاحق فلوله من وادٍ لآخر، وهنا عمد نيزك إلى الوادي من أجل التحصن به ضد هجوم المسلمين، فتحصن في مضيق الكرز، ويواجه الباحث السؤال التالي، لماذا اختار نيزك مضيق الكرز للتحصن فيه دون سواه؟

لقد كان مضيق الكرز عبارة عن وادٍ ضيق، شديد الوعورة، في بقعة جغرافية ضيقة، وليس له إلا طريق اقتراب واحد أغلقه نيزك بقوة، وتحصن من أجل ملاقاته جيش المسلمين^(٤)، وكان الموقف لمصلحة نيزك بفضل حُسن استغلاله للعامل الجغرافي، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الأثير قائلاً: "فتح حصن نيزك في الكرز وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد، وهو صعب لا تطيقه الدواب"^(٥).

وبذلك طال حصار قتيبة لنيزك واستمر قرابة شهرين، ولم يكن باستطاعة قتيبة سوى استعمال الدهاء والخديعة في سبيل الوصول إلى نيزك، وكان على القائد الذي أرسله قتيبة أن يفكر بحلٍ ناجع يمكن من خلاله الانتصار على نيزك المتحصن في الوادي، فكيف تم ذلك؟

عندما أرسل قتيبة سليمان الناصح أحد رجاله إلى نيزك أوصاه أن يستدرجه قائلاً: "انطلق إلى نيزك واحتل - احتال على نيزك - لتأتينني به"^(٦). ثم عرض سليمان على عبد الرحمن خطة يمكن من خلالها خلالها أن يتم الإطباق على نيزك إذا نجح في مهمته واستطاع الإيقاع به وإخراجه من مكنه وكانت الخطة تقضي بأن يرسل عبد الرحمن رجالاً يكمنون في الشعب التي على طريق الوادي، وعندما يخرج هو ومعه نيزك يقومون بحركة التفاف ثم يقطعون الطريق التي بين الشعب وبين الوادي الذي تحصن فيه وبالتالي يتعذر عليه العودة إلى مكان تحصنه، ويتعذر على أصحابه نجاته^(٧)، وفعلاً هذا الذي

(١) بخارى: من بلاد ما وراء النهر، تقع في إقليم الصغد غربي سمرقند، كانت قاعدة المملكة السامانية. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٣٥٣. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٤٠.

(٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٤٢٩.

(٣) باذغيس: منطقة من أعمال خراسان تقع شمالي هراة، وعاصمتها مدينة تدعى باسمها، وكانت عامرة بمدن كثيرة، وقيل أصلها بالفرسية: باذخيز، ومعناه هبوب الرياح، لكثرة رياحها. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٣٩. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٣١٨.

(٤) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٠٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٦٠.

(٦) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٤٤٨.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٦٠.

حصل بعد أن وقع نيزك في براثن خطة المسلمين وخرج معهم من الوادي، عطفت الخيل فحالوا بين الترك أصحاب نيزك والخرج، ووقع نيزك أسيراً.

إذاً كان لتحصن نيزك في المضيق من الوادي، ونجاحه في اختياره أثراً ظهر في طول أمد المقاومة ومطاوله المسلمين مدة شهرين.

وعندما توجه أهل الشام لقتال يزيد بن المهلب الذي ثار على الخلافة الأموية في العراق - البصرة - في عهد يزيد بن عبد الملك^(١) سنة (١٠٢هـ/٧٢١م)^(٢)، ظهرت إشارات إلى أهمية الخندق، فبعد أن نزل يزيد بالقرب من نهر معقل^(٣) سار حتى وصل إلى موضع يقال له العقر^(٤) من أرض بابل - سيتم سبتم تناول ذلك في أثر الأنهار - أشار عليه رجل من أصحابه^(٥) بالعودة إلى واسط، وأن يحصن نفسه وجيشه بخندق يمكنه من الاعتصام والتحصن، وقد نقل ابن أعثم رأي ذلك الرجل بقوله:

"أيها الأمير! أشير عليك أن تنهزم إلى واسط فتتزلها، فتخندق على نفسك خندقاً، ويأتيك مدد أهل البصرة والبحرين وأهل عمان في السفن فتقاتل عدوك إذا أتاك؛ فقال له يزيد: "قبح الله هذا الرأي! إليّ يقال هذا، والله إن الموت أيسر علي من هذا"^(٦).

وعلى الرغم من عدم الموافقة على الرأي القائل بالتوجه إلى واسط، يلاحظ أن يزيد بن المهلب سار إلى واسط ونزلها، فما هي الدوافع والأسباب؟

(١) يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ/٧٢٤م): ولد في دمشق، وتولى الخلافة بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز في سنة (١٠١هـ/٧٢٠م)، كانت في أيامه غزوات أهمها حرب الجراح الحكمي مع الترك، خرج عليه يزيد بن المهلب بالبصرة، مات في إربد من بلاد الأردن. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٨، ص ١٨٥.

(٢) حدثت الثورة في نهاية عام ١٠١هـ/٧٢٠م، وبداية عام ١٠٢هـ/٧٢١م وانتهت بقتله. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٠. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١٠، ص ٣٣١.

(٣) نهر معقل: نهر معروف بالبصرة، فمه عند فم نهر الإجانة، ونسب إلى معقل بن يسار المزني الذي أجراه بعد حفره. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٢٣.

(٤) العقر: عدة مواضع، ومنها عقر بابل قرب كربلاء ممن الكوفة وقتل عندها يزيد بن المهلب سنة ١٠٢هـ/٧٢١م. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ١٣٦.

(٥) الرجل هو: أبو ربيعة المرجئ. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٦.

(٦) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص ٢٢٨.

يبدو من خلال ما تقدم أنَّ الجيشين الذين أرسلهما يزيد بن عبد الملك الأول بقيادة مسلمة بن عبد الملك، والثاني بقيادة ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك^(١)، قاما بتطويق يزيد بن المهلب من جهتين.

الجيش الأول من جهة الشمال الذي نزل في الأنبار، والآخر من الجنوب الذي عسكر بالحيرة مقابل الكوفة، وبالتالي جاء هذا الرأي باتخاذ الخندق من أجل الحماية كإجراء احترازي^(٢)، إلا أن هذا الرأي لم يلق القبول عند يزيد بن المهلب في بادئ الأمر، ولعل الموافقة على النزول في واسط جاءت نتيجة ضياع الوقت في الوصول إلى الجزيرة أو الموصل، وأن تقسيم جيشه ليلقي جيشي أهل الشام يعدُّ مغامرة، خاصةً أن جيشي الشام عجلاً بقطع الطريق على ابن المهلب ومحاولة حرمانه من الوصول إلى الكوفة، وعليه سار حتى نزل واسطاً^(٣)، لكنه لم يخندق على نفسه كونه عدًّا أن الخندق يؤمن الحماية وهذا سيظهره بمظهر الضعيف أمام جيشي أهل الشام، وهناك جرت المعركة التي انتهت بقتله.

وفي غزوة سعيد الحرشي^(٤) لأهل الصغد^(٥) سنة (١٠٤هـ/٧٢٣م)^(٦)، استخدم أهل الصغد الخندق كوسيلة استراتيجية دفاعية لتقوية موقعهم، وجعلوا منه أداةً للمكر بالمسلمين، بعد أن كانوا قد أعانوا الترك فيما سبق ضد المسلمين، وهنا يظهر السؤال التالي، بماذا قاموا وكيف تصرفوا في سبيل استغلال الخندق؟

(١) العباس بن الوليد بن عبد الملك: أمير من كبار القادة، كان يقال له: "فارس بني مروان". قاد الجيش مع عمه مسلمة بن عبد الملك إلى قتال يزيد بن المهلب، وقد افتتح مدناً وحصوناً كثيرة من بلاد الروم، وولاه أبوه القيادة في الحروب أكثر من مرة، واستعمله على حمص، وقد سجنه مروان بن محمد في حران فمات سجيناً سنة (١٣١هـ/٧٤٩م). الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ)، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج: ١، ص ١٧٤.

(٢) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص ٢٢٣-٢٢٦.

(٣) الشريف: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ج: ١، ص ١٧٩.

(٤) سعيد الحرشي (ت بعد ١١٢هـ/بعد ٧٣٠م): قائد من الولاة الشجعان، من أهل الشام وهو الذي قتل شاذب الخارجي، وقتك بمن معه سنة (١٠١هـ/٧٢٠م)، وولاه ابن هبيرة خراسان سنة (١٠٣هـ/٧٢٢م)، كما ولاه هشام بن عبد الملك غزو الخزر سنة ١١٢هـ، فرحل إلى أرمينية. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٣، ص ٩٩.

(٥) الصُّغْد: كورة عجيبة قصبته سمرقند، وقيل: هما صغدان، صغد سمرقند وصغد بخارى. الحموي: معجم البلدان، ج: ٣، ص ٤٠٩.

(٦) وردت عند خليفة بن خياط أنها سنة (١٠٣هـ/٧٢٢م). ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٢٨.

(٧) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١٠، ص ٣٧٤.

لقد تبيّن بأنّ الإجابة تكمن فيما رواه الطبري عن ذلك، بقوله: "وقد كانوا حفروا في ربضهم وراء الباب الخارج خندقاً، وغطّوه بقصب، وعلّوه بالتراب مكيدة"^(١).

إذاً حاولوا أن يكون الخندق بين المدينة - مدينة خجدة^(٢) - والباب الرئيسي للمدينة بحيث إذا تمت هزيمتهم ولحق بهم المسلمون يدخلون المدينة على عجل، ويسقطون في الخندق، دون أن يسقط أهل خجدة لعلمهم بالخندق وموضعه، لكن ما حصل كان غير ما توقعوه أبداً، وما جرى كان مخالفاً لظنهم؛ "فلما خرجوا قاتلوهم فانهزموا، وأخطأوهم الطريق، فسقطوا في الخندق، فأخرجوا من الخندق أربعين رجلاً"^(٣).

ثم قام أحد الرجال من العرب بضرب باب خجدة بالعمود، ففتح الباب، وكانت النتيجة أن حصرهم الحرشي ونصب المجانيق عليهم، وانتصر عليهم، فطلبوا الصلح^(٤).

وقد كان للخندق أثراً كبيراً في حماية المسلمين في أحداث وقعة كمرجة^(٥) سنة (١١٠هـ/٧٢٩م)، عندما حاول خاقان ملك الترك أن يستغل الخندق الموجود من أجل الوصول إلى المسلمين، فكيف تصرف؟

رأى خاقان أن أفضل طريقة للوصول إليهم هي ملء الخندق وتسكيره، فعمد إلى حطب الأشجار الموجودة، وأمر جنده بقطعها وفي ذلك أورد الطبري: "فجعلوا يلقون الحطب الرطب، ويلقي أهل كمرجة الحطب اليابس، حتى سوى الخندق، ليقطعوا إليهم"^(٦).

لكن هذا الأمر لم ينفعهم بفعل عوامل الطبيعة المناخية المتمثلة بالرياح التي أججت النيران التي أشعلوها وأحرقت ما جمعه من الحطب في ساعة واحدة.

ثم عمد إلى تصرف آخر رأى أنه من الممكن أن يكون بديلاً عن الحطب الذي أحرقته النار، ففرّق على الترك أغناماً، وأمرهم أن يأكلوا لحمها، ويحشوا جلودها تراباً، ويكبسوا - يملؤوا - خندقها ففعلوا ذلك. وهنا كان عامل الأمطار هو السبب في فشل هذه المحاولة، حيث أخذت الأمطار ما كان في

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٨.

(٢) خُجْدَة: بلدة مشهورة ما وراء النهر على شاطئ سيجون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقاً، والجبل متصل بها.

الحموي: معجم البلدان، ج: ٢، ص ٣٤٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٥٨.

(٤) الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٦٨٦.

(٥) كمرجة: قرية من قرى الصغد - الأتراك. الحموي: معجم البلدان، ج: ٤، ص ٤٧٩.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٦٢.

الخنق من جثث مملوءة بالتراب، وألقته في النهر الأعظم، فبقي الخندق محفوراً، ولم يحقق الأتراك هدفهم المنشود، وقام المسلمون برميهم بالسهام، واقتتلوا حتى انتهى الأمر صلحاً^(١).

إذاً يستدل من خلال ما تقدم أن أحداث وقعة كمرجة كان للخنق فيها أثر كبير ظهر في مقاومة الأتراك، وقد اشتركت فيها عدة عوامل جغرافية طبيعية ومناخية أيضاً، سيتم ذكرها.

أما عن أثر السهول؛ فبعد لقاء موسى بن نصير مع طارق بن زياد في طليبة سنة (٩٤هـ/٧١٣)^(٢)، تقرر مواصلة الفتوحات بعد انقضاء الشتاء، ثم جمع موسى الجيوش وتوجه بها نحو سرقسطة^(٣) حتى تم فتحها، وهنا كان للمناطق السهلية التي افتتحها بعد سرقسطة دور في تسهيل عملية الفتوح، على العكس من المناطق الجبلية التي واجهوا فيها مقاومة من القوط؛ فقد كانت مناطق (وشقة، لاردة، طركونة) عبارة عن أراضي خضراء وسهول واسعة يسهل على الجيش فتحها، والتوغل فيها^(٤).

وفي سنة (٩٨هـ/٧١٦م)^(٥) أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك حملة إلى القسطنطينية بعد أن جهزها من الشام والجزيرة الفراتية والوصل، في نحو من مئة وثمانين ألف مقاتل^(٦)، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب^(٧)، وكلف أخاه مسلمة بن عبد الملك بقيادة الحملة^(٨)، وسار سليمان إلى منطقة مرج دابق^(٩) - المنطقة السهلية - قرب حلب، واجتمع إليه الجند والمتطوعة، ولو طرح السؤال التالي، ما السبب الذي جعل الخليفة يتوقف في منطقة مرج دابق؟ وهل كان للجغرافية أثر في ذلك؟

للإجابة على ذلك يُرجح بأن جغرافية المنطقة السهلية كانت السبب الأساسي في اختيار الخليفة لها، وذلك بهدف تجمع أكبر عدد ممكن من الجنود، وإقبال المتطوعة، وإلقاء التعليمات العسكرية،

(١) ابن الأثير: الكامل، ج: ٤، ص ٣٨٧.

(٢) طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ١٢٤.

(٣) سرقسطة: بلدة مشهورة بالأندلس، تقع شمال غرب إسبانيا، وتتصل أعمالها بأعمال تطيلة، مبنية على نهر كبير. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ٢١٢. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٦٩.

(٤) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٢٩.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٣٠.

(٦) طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣١.

(٧) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٩٨.

(٨) الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٥٢٢.

(٩) مرج دابق: قرية قرب حلب بينهما أربع فراسخ، وعندها مرج أخضر فيه عشب، وهي من أعمال جند قنسرين. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٧، ص ١١٢. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٣، ص ١٤٣.

وهذا الأمر يحتاج إلى أماكن منبسطة يتم فيها حشد الجيوش واستعدادهم، ولا سيما قربها من الثغور الشمالية التي كانت تحت حماية المسلمين^(١)، وقد أراد أن يجعل منها مقراً لإدارة العمليات العسكرية ضد البيزنطيين، وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش إلى القسطنطينية، وكانت الجبهة الشمالية تحتاج إلى إعداد مقاتلين أشداء بالنظر لوعورة المنطقة، ولبعدها عن مركز الخلافة، وبالتالي أنسب مركز للتجمع كان مرج دابق^(٢).

ومما سلف يمكن معرفة السبب الذي جعل الخليفة يختار منطقة مرج دابق ذات الطبيعة الجغرافية السهلية الواسعة مكاناً لاجتماع الجند.

وبالتالي يُلاحظ استمرار تأثير عوامل الجغرافية الطبيعية من جبال وأودية وخنادق وسهول، وما تم ذكره من أمثلة كان على سبيل الذكر وليس الحصر.

(١) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٧، ص ١١٢. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٩٨.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٣١. طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٣٥.

ثالثاً- أثر الصحراء.

لقد تتابعت فتوح المسلمين على امتداد العصرين الراشدي والأموي، وكانت المنطقة الملاصقة للصحراء في الشمال هي بداية النشاط الإسلامي كما ورد في العصر الراشدي، حيث امتدت العمليات الحربية الإسلامية إلى البلاد الواقعة شرق الأردن والبحر الميت، وتلى ذلك سقوط دمشق ومحاولة تدعيم ما سيطر عليه المسلمون، فكان عليهم متابعة الزحف إلى ما وراء دمشق والاستيلاء على المنطقة الشمالية (أنطاكية وحمص وحلب) وتم لهم النصر في تلك الجبهة، وهذا كله كان سالف للعصر الأموي، ولو طرح أحدهم السؤال التالي؟

لماذا استمر المسلمون في فتوحاتهم على الجبهة الشمالية خلال العصر الأموي؟ وهل للجغرافية أثر في التوجه شمالاً؟ وما هو العامل الجغرافي الذي أثر في ذلك التوجه؟

للإجابة على ذلك لابد من الالتفات إلى ما قبل الإسلام، حيث كانت تأثيرات المنطقة الشمالية مستمرة على مدى عصور متتالية، ويمكن القول: إنَّ العوامل الجغرافية كان لها إرادة أقوى من إرادة الجيوش العربية الإسلامية، وأبعد أثراً من عزمهم، حيث أن (الصحراء الشامية) تعد امتداداً طبيعياً لصحراء شبه الجزيرة العربية، وما يؤكد ذلك الارتباط، أن الهجرات العربية منذ القدم انبثقت في الأطراف الشمالية دون أن تشعر بفارق طبيعي أو حاجز يدل على أنها انتقلت إلى أرض مختلفة بيئياً عن أرضها^(١)، حيث أن العرب ألفوا تلك الطبيعة والقتال فيها، في حين أن الإمبراطورية البيزنطية لم تقدر على التوغل في الصحراء، لجهلها بطرقها ومسالكها، وبالتالي يلاحظ استمرار العمليات ونشاطها على تلك الجبهة حتى في العصر الأموي^(٢)، خاصة أن الامبراطورية البيزنطية كانت تشدد هجماتها على المناطق الإسلامية في تلك الجبهة وتحاول انتزاعها من المسلمين، بعد أن تم للمسلمين فتح مناطق عديدة في العصر الراشدي، وكانت تابعة لهم فيما سلف.

كما وقفت العوامل الجغرافية (الصحراء والجبال) في وجه الجيوش الإسلامية التي توجهت نحو بلاد فارس من ناحية الشرق والشمال الشرقي، وإلى المغرب من ناحية الغرب، فكانت عاملاً لا يشجع على الانسحاب- التوغل- في تلك المناطق وفرض عليهم تخطيط مسبق للحملات، وبما أن أثر الصحراء هو بيت القصيد في هذه الفقرة فلا بد من إلقاء الضوء على مجمل أثرها على أحداث التاريخ الأموي.

(١) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ٩.

(٢) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٧٦.

من الملاحظ أنَّ الجزء الأكبر من هضبة فارس عبارة عن صحارى لا يسهل السير فيها بجيوش كبيرة، وأهم هذه الصحارى صحراء (دشت اللوت) و(دشت الكافر)، هذه الصحارى شكلت عائقاً حقيقياً أمام تقدم الجيوش الإسلامية الفاتحة، وكان نتيجة لذلك أن تختار الجيوش الإسلامية طريقاً يسهل فيه السير والانتقال، وقد وجدوا الطريق الأنسب بين صحراء دشت الكافر وجبال البرز المغطاة بالغابات حيث وجد نوع من المراعي الباردة - الإستبس - تتخلله على مسافات مناسبة واحات غنية تسقيها عيون من الماء العذب الغزير. وعليه سارت الجيوش العربية حتى نهر جيحون فعبثته واستولت على سمرقند وبخارى وتابعت سيرها حتى حدود الصين^(١).

ومما لا شك فيه أن المغرب الكبير بصحاريه الواسعة كان له حضوره وأثره في عمليات الفتوح، وذلك في سنة (٤١١هـ/٦٦١م)^(٢) في ولاية عمرو بن العاص على مصر؛ فقد ولَّى عقبة بن نافع على أفريقية فقام بفتح عدة مناطق من المغرب وكان له في تلك المناطق جهاد وفتوح^(٣)، وهنا كان على عقبة بن نافع أن يقاتل على أطراف الصحراء، ولعل ما قام به عقبة يدل على عبقرية القائد الذي يدرك أهمية العوامل الجغرافية، ولو طرح السؤال التالي؛ كيف تصرف القائد عقبة في سبيل التوغل بالصحراء وقتال قبائل البربر؟

يجد الباحث أن عقبة أقدم على التوغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة، ولم يعتمد إلى رَجِّ الجيوش الكبيرة من أجل القتال، ويمكن برهنة ذلك في سببين رئيسيين وهما:

- ١- لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة تجهل مسالك الصحراء ومكانها، ومعلوم أن الجيش الكبير يحتاج إلى مصادر للمياه من أجل سقاية الخيل والجيش، وهذا لا يأمن جانبه وهو في مناطق صحراوية، كما أن القبائل البربرية كانت ذات طبيعة قاسية؛ فقد اعتادت شظف الحياة في الصحراء وبالتالي المقاومة ستكون كبيرة جداً وهذا ما أخذه القائد عقبة بعين الاعتبار.
 - ٢- معرفة عقبة بن نافع أن القوات البيزنطية النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفر فيها المياه، والقضايا الإدارية الأخرى^(٤).
- وبالتالي لم يكن أمام عقبة سوى قوات سكان الصحراء الأصليين، وهؤلاء يمكن التغلب عليهم إذا عرف كيف يستغل العوامل الجغرافية لصالحه دون التوغل بجيش كبير، وعليه أقدم على فتح تلك

(١) حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ٢٧.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٤، ص ٥٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣٢٠.

(٤) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢٤.

المناطق الصحراوية بقوات قليلة منتخبة من أجل أن يشن ما يمكن تسميته (حرب عصابات) في أرض الصحراء الواسعة، وفي النهاية حقق هدفه الصحراوي بسهولة ويسر.

واستمر أثر هذا العامل في سنة (٥٠هـ/٦٧٠م)^(١) عندما عين الخليفة معاوية بن أبي سفيان القائد عقبة بن نافع على المغرب الكبير، وكلفه بمتابعة عمليات الفتوح هناك^(٢)، وسير إليه عشرة آلاف فارس فدخل إفريقية ووضع السيف في أهل البلاد.

ومن المهم ذكره أن القائد عقبة اختار السير في الطريق الصحراوي الداخلي عبر الأودية على الرغم من صعوبته، ولم يختار الطريق الساحلي، فما السبب في هذا الاختيار؟

إن جغرافية المنطقة كانت السبب الأساسي في ذلك، لأنه أراد أن يفتح المناطق الجنوبية الصحراوية بلداً بلداً ثم يشكل منها جبهة داخلية قوية يستطيع الإطباق بها على القوات الرومية الموجودة في الساحل^(٣).

ثم أراد أن يكون للمسلمين قاعدة يستقر بها الفاتحون فبدأ ببناء مدينة القيروان في سنة (٥٠هـ/٦٧٠م)^(٤)، وما يهم هو الموقع الذي اختاره عقبة بن نافع لبناء هذه المدينة، فأين كان؟ وما هو الأثر الذي تركته الجغرافية في اختيار موقعها؟

لقد اختار عقبة بن نافع مكان مدينة القيروان في شروط جغرافية تناسب التحركات العسكرية، أي أنه صلب المدينة بالصيغة العسكرية بالدرجة الأولى، وبالتالي لابد من مكان يحقق الحماية لهم، غير مكشوف للأعداء، في موقع جغرافي مناسب لاستراتيجية الفتح في تلك الفترة، فاختر مكان بعيد عن البحر لاتقاء شر هجمات الروم البيزنطيين المعادية وأسطولهم^(٥) الذي كان مسيطراً في ذلك الحين سيطرة مطلقة على الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، كما أنه اختارها في موقع لا يتوغل في الصحراء كثيراً لاتقاء شر الهجمات البدوية المعادية، وقريبة من المراعي من أجل تأمين الحشائش اللازمة لإطعام الخيول والمواشي والإبل^(٦)، وعلى هذا نزل في مكان وادي القيروان في موقع يتصل

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢١٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣٢٠.

(٢) حسان، خليل نعيم خليل: خلافة بني أمية عند خليفة بن خياط ٤١هـ/١٣٢م، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٢١٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣١٩.

(٤) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٩٨.

(٥) مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ١٤٢.

(٦) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٩٩.

بالصحراء، وقال: "يا أهل الوادي إنا حائلون إن شاء الله فاضعنوا". وروى من كان معه قائلاً: "قما رأينا حجراً ولا شجراً إلا ويخرج من تحته دابة، حتى يهبطن بطن الوادي ثم قال: انزلوا باسم الله"^(١).

ولعل اختيار المدينة في مكان يتوسط الصحراء على طرف البر^(٢) كان لسبب أساسي وهو أنها ملاذاً آمناً لاستراحة القوافل التي تنتقل بين الشرق والغرب، وقبل البدء بالبناء نظّف المكان وقلّع الأشجار الموجودة في هذا الوادي، ومن المهم ذكره أن "كودل" علق على حسن اختيار عقبة بن نافع لـمكان القيروان وهذا ما نقله المؤرخ حسين مؤنس عنه قائلاً:

"وكان اختيار المكان موفقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أن ولاية المغرب ومن خلفهم من الحكام المستقلين قاموا بها زمناً طويلاً، لم ينتقلوا عنها إلا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك"^(٣).

ومما لا شك فيه أن القيام ببناء القيروان كان له أثر كبير جداً حيث اتسعت الجغرافية الدينية الإسلامية على نطاق واسع في بلاد المغرب فيما بعد.

وفي سنة (٦٨٠/٦٨٠م)^(٤) كان للصحراء أثرها عندما أرسل الحسين بن علي رضي الله عنه مسلم بن عقيل بن أبي طالب^(٥)، إلى أهل الكوفة بعد أن بعثوا إليه يقولون: "إنا قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الجمعة فأقدم علينا". وهنا بعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة فسار حتى وصل إلى المدينة، فأخذ دليلين منها، والسؤال الذي يطالعنا؟

ما هو السبب الذي دفع مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن يأخذ دليلين من المدينة من أجل مرافقته في الطريق والوصول إلى الكوفة؟

يُلاحظ أنَّ الطريق من المدينة إلى الكوفة هو طريق صحراوي صعب الاجتياز من دون خبراء يعرفون مسالك الصحراء، ويتقدمون على الطرق التي توجد فيها آبار المياه والواحات التي يمكن من خلالها السقاية، والتزود بالمياه بما فيها سقاية الخيول، وبالتالي كان لابد من الاستعانة بأدلاء.

وهذا الأمر قد حصل أثناء توجه القائد خالد بن الوليد عندما سار إلى العراق يريد الحيرة؛ فقد استعان بأدلاء من أجل ضمان الوصول إلى الهدف والتوغل الآمن في الصحراء، وبناءً عليه يمكن

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ٢١٠.

(٢) الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٤٢٠.

(٣) مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ١٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣٨٦.

(٥) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٨، ص ٢٣.

معرفة السبب في اختيار مسلم بن عقيل لدليلين من بني قيس، وكان للصحراء أثرها على مسلم ومن معه فكيف تجلى هذا الأثر؟

تجلى أثر الصحراء بوضوح عندما ضلَّ الدليلان الطريق وهاما على وجوههما في الصحراء^(١)؛ فقد سارا به على براري مهجورة المسالك^(٢)؛ بل أصابهما عطش شديد مما أدى إلى وفاة الدليلان بعد أن قالوا لمسلم: "هذا الطريق حتى تنتهي إلى الماء"^(٣). وهنا عمد مسلم بن عقيل إلى إعلام الحسين بن علي ﷺ بما لقيه من مصاعب في الطريق، ووضَّح الحالة التي وصل إليها طالباً منه الإعفاء من المهمة^(٤)؛ فقد أورد الطبري ذلك بقوله عن مسلم:

"أما بعد فإنني أقبلت من المدينة معي دليلان لي، فجارا عن الطريق وضلَّا، واشتدَّ علينا العطش، فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء، فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبيث؛ وقد تطيرت من وجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه وبعتت غيري والسلام"^(٥). إلا أن الحسين ﷺ لم يقبل منه العذر، وبالتالي توجه إلى الكوفة، وانتهى الأمر بقتله فيما بعد من قبل والي عبيد الله بن زياد^(٦)، حيث رمى به من أعلى القصر فوق وقع في السوق^(٧)، لأن ابن زياد كان إذا غضب على رجل ألقاه من فوق قصر الكوفة^(٨).

كما أن الحسين بن علي ﷺ عندما توجه إلى الكوفة من المدينة، بعد أن أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل سار في طريق توجد فيه بعض الواحات والبرك والحوازج المائية والآبار، والسبب في ذلك دون شك هو الطريق الصحراوي الصعب، ورمال صحراء النفوذ في شمال شبه الجزيرة العربية الملتبسة، التي تشكل عقبة في طريق من يحاول اجتيازها، وعليه اختار الحسين ﷺ طريقاً عرف منذ

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣٨٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١١، ص ٤٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٣٥٤.

(٤) الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٧٧.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٣٥٤. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص ٣٢. ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١١٤.

(٦) عبيد الله بن زياد (ت ٦٧/هـ - ٦٨٦م): والٍ فاتح، من الشجعان، ولد بالبصرة، وكان مع والده لما مات بالعراق، ولاه معاوية خراسان سنة ٥٣هـ، فتوجه إليها، ونقله معاوية إلى البصرة فقاتل الخوارج واشتد عليهم، وفي ولايته كانت الفاجعة بقتل الحسين في أيامه، وقتله ابن الأشتر في العراق في خازر من أرض الموصل بعد أن اقتتلوا. البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٤٠١. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ١٩٣.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١١، ص ٤٩٠. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٨٠.

(٨) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٤١٠.

القدم أنه طريق تجاري بين الجزيرة وبلاد الرافدين حينما كانت عاصمتها الحيرة^(١)، من أجل التغلب على العامل الجغرافي القاتل (الصحراء). انظر خريطة (٢٩).

وفي سنة (١١٢/هـ-٧٣٠م) كانت وقعة الجراح بن عبد الله الحلمي مع الأتراك بمرج أربيل^(٢)، وكان للصحراء دوراً في توجه القائد الجراح بن عبد الله إلى قرية يقال لها شهرزاد، وحطّ الأتقال هناك، والسؤال كيف ظهر أثر الصحراء؟

تكمن الإجابة فيما جاء عند الكوفي حيث برهن على أن الصحراء كانت السبب في توجه الجراح إلى قرية شهرزاد، وذلك بعد أن أشار عليه دهقان أذربيجان بالابتعاد عن الصحراء بسبب قلة أفراد الجنود الذين مع الجراح مقابل كثرة أعداد جيش العدو، وهذا سيجعل موقعهم في خطر لأن موقعهم سيكون مكشوف للأعداء إذا كانوا في أرض صحراوية مستوية، وبالتالي يمكن إحاطتهم والقضاء عليهم بسهولة، ومن هذا المنطلق أشار دهقان أذربيجان عليه بقوله:

"أيها الأمير! إنك في قلة من الجيوش، والعدو في جيش كثير وجند كبير، وليس ينبغي للقليل من الجيش أن يصحر للجيش الكثير في الأرض المستوية"^(٤).

وبعد مفاوضات انتقل إلى تلك القرية وحط الأتقال فيها، وفيها عين ماء جارية، حاول استغلالها أيضاً، وعباً أصحابه، وبقدوم الخزر حصلت المعركة، واشتد القتال الذي استشهد فيه الجراح ومعه كثير من المسلمين، عدا سبعمائة رجل تحصنوا في الجبل الذي تم ذكره^(٥)، فتمت الحماية لهم.

مما سلف يلاحظ استمرار أثر الصحراء السلبي على الجيوش، وخاصةً تلك التي لا تعرف مسالكها وطرقها، وكيفية استغلالها، وهذا الأمر جسده الأحداث التي جرت قرب الصحراء، خلال عصور الإسلام الأولى في القرنين الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين.

(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٧٩.

(٢) أربيل: من أشهر مدن إقليم أذربيجان، بالقرب من الساحل الجنوبي الغربي لبحر قزوين، وكانت عاصمة الإقليم حتى صدر العصر العباسي. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ١٤٥. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٣١.

(٣) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١١، ص ١٢.

(٤) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص ٢٤١.

(٥) راجع أثر الجبل في المبحث الأول أحداث سنة (١١٢/هـ-٧٣٠م).

★ الفصل الثاني:

أثر المياه

مما لا شك فيه أن المياه ذات أثر واضح وجلي في أحداث التاريخ، وما ورد من أمثلة في العصرين النبوي والراشدي تؤكد ذلك، وقد ظهر هذا الأثر في أحداث العصر الأموي أيضاً، وتمثل في استغلال الآبار ضد الخصم، أما الأنهار فقد ظهر أثرها في محاولة أحد الأطراف استغلالها من أجل العبور إلى الطرف الآخر وقتاله، على الرغم من أنها كانت عائق يعيق الحركة والمواجهة، وفيما يلي يذكر المبحث بعض الأمثلة على سبيل الذكر وليس الحصر، ذلك لكثرة ما كان من الأحداث والمعارك التي جرت حول الأنهار، والتي حصرها يحتاج مجلدات.

أولاً- أثر مياه الآبار.

يُلاحظ أن أثر الآبار ظهر عندما توجه الحسين بن علي عليه السلام إلى الكوفة من المدينة سنة (٦١٠هـ/٦٨٠م)^(١)، حيث اختار طريقاً يمكن من خلاله استغلال عامل المياه المتمثل بالآبار، وذلك لأن سيره سوف يكون في طريق صحراوي صعب، فاختر طريق تجاري قديم كان بين بلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية عرف بوجود الآبار وواحات المياه^(٢). انظر الخريطة (٢٩).

كما حاول أهل المدينة المنورة في أحداث وقعة الحرة التي حصلت سنة (٦٣هـ/٦٨٣م)^(٣) استغلال الآبار الموجودة على الطريق بينها وبين الشام من أجل إرهاب الجيش، ومنعه من عامل الماء الذي يتزود به الفرسان والخيول، حين أرسل يزيد بن معاوية القائد مسلم بن عقبة المري، وانتدب معه اثنا عشر ألفاً، وعندما علم أهل المدينة الذين رفضوا بيعته يزيد بقدوم أهل المدينة عليهم عمدوا إلى آبار المياه فماذا فعلوا؟

يروى ابن خليفة عن جويرية بن أسماء قوله: "وقد بعث أهل المدينة إلى كل ماء بينهم وبين أهل الشام فصبوا فيه زقاً من قطران، وعوروه - غوروه -؛ فأرسل الله عليهم السماء، فلم يستقو بدلوٍ واحد حتى وردوا المدينة"^(٤).

إذاً محاولة أهل المدينة تغوير الآبار لم تنجح أهل الشام عن متابعة التقدم، وفرض الحصار، إذ أن الأمطار ساعدتهم على تجاوز هذه المشكلة.

وعندما توجه الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة سنة (٧٣هـ/٦٩٢م) من أجل القضاء على حركة ابن الزبير نزل على بئر يسمى بئر ميمون^(٥)، لماذا اختار النزول في هذا الموضع دون غيره؟

يرجح أن السبب يكمن في عدد الجيش والمدد الذي كان مع الحجاج، والذي بلغ ثلاثة آلاف ما عدا القوة الإضافية التي أرسلها الخليفة عبد الملك بن مروان بقيادة طارق^(٦)، وهذا يحتاج إلى مصادر للمياه من أجل سقاية الجيش والخيول، ويحتاج إلى مكان واسع من أجل نشر القوات،

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٤. وقيل كان المسير أواخر سنة (٦٠هـ/٦٧٩م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣٩٩.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٧٩.

(٣) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١١، ص ٦١٤.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٨. البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٣٥٣.

(٥) بئر ميمون: بمكة، حُفرت بأعلى مكة في زمن الجاهلية، وعندها قبر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٣٠٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢٢.

والتخطيط لعمليات الحصار، وعليه كان أنسب اختيار أن يكون بالقرب من مواضع المياه فاختر النزل على بئر ميمون^(١)، وقد استطاع بفضل العامل الجغرافي وهو البئر، مطاولة ابن الزبير في القتال بعد أن خرج من مكة للقائه، واستمر القتال عدة أيام قبل فرض الحصار^(٢).

وفي أحداث سنة (١١٢/هـ-٧٣١م)^(٣) كانت معركة الجنيد بن عبد الرحمن المري مع الترك في عهد هشام بن عبد الملك^(٤)، بعد أن قتل الجراح بن عبد الله الحكمي بأردبيل، وقد ظهر فيها أثر الآبار عندما خرج الجنيد يريد طخارستان^(٥)، وعندما نزل كش^(٦) حاول الأتراك استغلال الآبار الموجودة في المنطقة من خلال تغيورها - ردمها - في محاولة منهم منع الجنيد وجيشه الاستفادة من هذا العامل الحيوي^(٧).

ويروي الكوفي ما جرى بقوله: "وبلغ خاقان مسير الجنيد بن عبد الرحمن إلى ما قبله، فأرسل إلى طريق كش ونسف^(٨) من طريق البرية فغور الآبار والطرق، وبلغ ذلك الجنيد بن عبد الرحمن فعلم أنه لا يقدر يسلك البرية، فأخذ على طريق آخر يقال له طريق الشعب"^(٩).

ونتيجة لذلك اضطر الجنيد إلى تغيير طريقه بعد أن استشار قادة الجند الذين معه، قائلاً:

"أي الطرق إلى سمرقند أمثل؟"^(١٠)؛ واختار طريق العقبة بعد ذلك، وارتقى الجبل، وحصلت المواجهة بين الطرفين^(١١) وتمكن من صد هجوم الأتراك، وأعاد السيطرة العربية الإسلامية على خراسان، وظل والياً حتى توفي سنة (١١٦/هـ-٧٣٥م).

(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٩١.

(٢) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٣٣٩.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٧١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٩٥.

(٤) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٣٠.

(٥) الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٥٣٧.

(٦) كش: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٤٦٢.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٩٦.

(٨) نسف: مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرساق، تقع بين سمرقند وجيخون. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٢٨٥.

(٩) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص ٢٨٠.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٧٢.

(١١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٩٧.

ولا يمكن إغفال دور العين- البئر- التي استغلها القائد مسلمة بن عبد الملك عندما كان يحاصر مدينة باب الأبواب سنة (١١٢هـ/٧٣١م) أثناء حملته على بلاد الخزر في عهد هشام بن عبد الملك، حيث كان في نواحي المدينة حصن وقلعة تسمى (حيزان)^(١)، وقد حاصر القلعة مدة طويلة، وقد نفذ طعامهم وجاعوا جوعاً شديداً؛ فاستطاع فتح القلعة ثم اتجه إلى حصار مدينة باب الأبواب (الدريند)^(٢) بعد مناوشات عديدة انتصر فيها المسلمون على خاقان (ملك الخزر)، وكان فيها قلعة تضم ألف بيت من الخزر، فلم يُجدِ الحصار، وفي خطة ذكية ساعده عليها رجل أقبل إليه من أحد تلك الأبواب عمد مسلمة إلى العين التي كانت تزود الحصن بالماء محاولاً استغلالها لفتح القلعة، فماذا فعل؟ وهل استطاع فعلاً فتح القلعة؟

لقد حفر مسلمة حتى بلغ مجرى الماء، وأحضر مائة من البقر والغنم وقام بنحرها في مجرى الماء، فجرى الماء الملوث بالدم إلى الصهاريج التي كانت تزود الحصن بالماء، ولما امتلأت الصهاريج بالماء الملوث، أمر مسلمة بقطع الماء عنهم؛ فقطع الماء وقد أجرى ماء العين بعد ذلك ناحية الوادي وبالتالي حرم أهل الحصن من الاستفادة من المياه التي كانوا من خلالها يستطيعون المطاولة والثبات، لكن ما النتيجة التي ظهرت إثر هذا العمل؟

بعد أن قام مسلمة بهذا العمل، أصبح القوم وقد امتلأت صهاريجهم دماً، فلم يلبثوا إلا ليلة حتى أنتنت الصهاريج وملئت بالدود، وعطش أهل الحصن عطشاً شديداً، حتى أشرفوا على الهلاك، ثم أشار ذاك الرجل برأي على مسلمة قائلاً: "أيها الأمير! قد هلك القوم عطشاً، ففتح عن باب القلعة وعن طريقهم حتى تصير القلعة في يدك"^(٣).

وعندها قام مسلمة برفع الحصار عن باب القلعة، وفتح لهم طريقاً إلى الهرب، فلما جنَّ الليل، فتحوا الباب وخرجوا هائمين على وجوههم في كل ناحية، وتسلم مسلمة وجنوده القلعة دون قتال^(٤).

إذاً استطاع مسلمة أن يفتح القلعة بفضل حسن استغلاله لعامل المياه، فكان ذلك هو السبب الأساسي في فتح القلعة، وانصرف راجعاً إلى الشام بعد أن عيّن ابن عمه مروان بن محمد خلفاً له على مدينة باب الأبواب.

(١) حيزان: من مدن أرمينية قريبة من شروان. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص: ٣٣٠.

(٢) الدرند: مدينة من نواحي باب الأبواب، تقع على بحر قزوين تلفظ (داغستان)، وكانت الفرس تسميه الدرند، وبينها وبينها وبين الأبواب مائة فرسخ، وقد ذكرها الكوفي (أرض شروان). الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص: ٢٥٣. بك: معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، ص: ٢٠.

(٣) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٨، ص: ٢٥٩.

(٤) الأسطى: مسلمة بن عبد الملك، ص: ١٨٩-١٩٠.

ثانياً- أثر مياه الأنهار.

كما كان للآبار أثراً ظهر في بعض الأحداث، كان للأنهار أثراً أيضاً، ففي سنة (٤٣هـ/٦٦٣م) برز أثر عبور النهر في حركة الخارجي **المستورد بن علفة التميمي**^(١) وذلك عندما أرسل إليه المغيرة بن شعبة^(٢) معقل بن قيس^(٣) بعد أن استشار رؤساء الناس فيمن يرسله إليهم فقال له معقل: "إنك لا تبعث إليهم أحد مما ترى حولك من أشرف المصر إلا وجدته سامعاً مطيعاً، ولهم مفارقاً ولهلاكهم محبباً، ولا أرى أن تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم مني، فابعثني إليهم فأني أكفيكم بإذن الله"^(٤)؛ وندب معه ثلاثة آلاف^(٥).

ولما بلغ الخوارج أنهم قدموا لملاقاتهم استشار المستورد أصحابه بعد أن وجد أنه سيصبح وجماعته في منطقة جغرافية ضيقة يتعذر عليه القيام بالمقاتلة فيها، وقد أصبح موقفه حرجاً، وذلك عملاً بالمبدأ "شاوّر فيما تحتاج إلى المشورة فيه من مصونٍ أمرك، ذا الرأي والمعرفة والثقة والنصيحة من خاصتك وبطانتك"^(٦)؛ فقال بعد أن اختلفت الآراء حول التقدم أو الانتظار من أجل المواجهة:

"رأيت أن أسير حتى أمعن، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا، فتقطعوا وتبددوا، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم، فاخرجوا بنا على اسم الله"^(٧).

(١) **المستورد بن علفة** (ت ٤٣هـ/٦٣٣م): نائر، من كبار الشجعان الدهاء الخطباء، من الإباضية، خرج على علي بعد وقعة النهروان في جماعة من أهل الكوفة، فسار إليهم علي فقاتلهم، ونجا فاستتر في الكوفة إلى أن تولاهما المغيرة فعاد إلى الخروج على شاطئ نهر دجلة، فسير إليهم معقل بن قيس الرياحي فقاتلهم وانتهى الأمر بقتله وقتل معقل معه. **الزركلي: الأعلام** - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢١٥.

(٢) **المغيرة بن شعبة** (ت ٥٠هـ/٦٧٠م): المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود، بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس، كان موصوفاً بالدهاء، أدهاها العرب وقادتهم، صحابي يقال له "مغيرة الرأي"، ولد في الطائف بالحجاز، شهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة، واعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان بن عفان ؓ، وتوفي بالكوفة سنة (٥٠هـ/٦٧٠م). **ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج: ٥، ص ٢٣٨-٢٤٠. **الزركلي: الأعلام** - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢٧٧.

(٣) **معقل بن قيس** (ت ٤٣هـ/٦٦٣م): من بني يربوع، أدرك عصر النبوة، وأوفده عمار بن ياسر على عمر بن الخطاب ؓ بشيراً بفتح تستر، ولما خرج المستورد قاتله على شاطئ الفرات، فتبارزوا فقتلا معاً. **الزركلي: الأعلام** - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢٧١.

(٤) **الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، ج: ٥، ص ١٨٨.

(٥) **ابن الأثير: الكامل في التاريخ**، ج: ٣، ص ٢٩٠.

(٦) **الهرثمي: مختصر سياسة الحروب**، ص ٢١.

(٧) **الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، ج: ٥، ص ١٩٣.

وهنا تقدم الخوارج حتى عبروا دجلة ووصلوا إلى المذار^(١) فأقاموا بها، وبرز أثر انتقالهم إلى المزار في أن الطليعة التي أرسلت للقائهم شقَّ عليها ذلك ولقوا العناء وطول الطلب، وهذا ما أراده المستورد من خلال انتقاله إلى المزار بعد أن كان بأرض الصراة^(٢)، وعندما علم ابن عامر بالبصرة خبرهم ندب شريك بن الأعور الحرشي^(٣) ومعه ثلاثة آلاف فارس فسار بهم إلى المذار^(٤)، وحدثت عند المزار معركة بين معقل الذي قدم أمامه أبا الرواغ - حيث كان معقل في منطقة الديلمان^(٥) - في ثلاثمائة رجل، المهم أن وصول قوات شريك جعل الخوارج ينتقلون إلى منطقة أخرى فهل كان للجغرافية أثر في ذلك؟

كان للنهر والمنطقة التي رابط المستورد بها أثر كبير، فبعد ما علموا بأن الجيش قادم من منطقتين من البصرة ومن الديلمان بقيادة معقل، والنهر سوف يشكل عائقاً إذا أرادوا المناورة، وجدوا أن أفضل حل هو محاولة عبور نهر دجلة من أجل الهروب من أمام العدو، والوقوف في منطقة تجعل الحركة أسهل حسب ما رأى المستورد، وما إن وصلوا إلى بهرسير حتى لقيهم سماك بن عبيد العبيسي^(٦) وكان في المدينة العتيقة، ولما أرادوا العبور على الجسر للانتقال إلى المدينة العريقة قطعه عليهم^(٧)، وفي هذا قال الطبري عن عبد الله بن عقبة الغنوي: "قلما ذهبنا لنعبر الجسر إليه - إلى سماك - قاتلنا عليه، ثم قطعه علينا، فأقمنا ببهرسير"^(٨).

(١) المذار: تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة وقد ورد ذكرها سابقاً، وترتبتها غير صحيحة ولا تصلح لتمركز الجيش فيها طويلاً. وتر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، ص ٧٥.

(٢) الصراة: نهران يتشعبان من الفرات ويجريان في بغداد: الصراة الكبرى والصراة الصغرى. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ٣٩٩.

(٣) شريك بن الأعور الحرشي: اسمه الأعور الحارث، شاعر من أهل البصرة، وفد على عمر بن الخطاب، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشهد معه معركة الجمل وصفين، وتوفي شريك بالكوفة. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٣٢.

(٤) الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٣٣.

(٥) الديلمان: كأنه نسبة إلى الديلم، أو جمعه بلغة الفرس، من قرى أصبهان بناحية خرجان. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٥٤٤.

(٦) لم أجد له ترجمة.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٢٩١.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ١٩٣.

فكان لقطع الجسر الأثر الأكبر في بقاء المستورد وقواته من الخوارج في منطقة بهرسير حيث أقاموا بها أياماً، أما قوات أبا الرواغ التي قَدَّمها معقل أمامه فقد نزل على ساباط^(١)، ومعلوم أن ساباط إحدى المدن التي تقع في الجانب الغربي من دجلة، أما بهرسير فهي من المدن التي تقع شرقي دجلة^(٢)، وعليه أصبح نهر دجلة أصبح حاجزاً بين الفريقين، وكان كل منهم يدرك أهمية هذا العامل الجغرافي والدليل أن الخوارج لما توجهوا إلى لقاء معقل قطعوا الجسر الذي على النهر ليشغلوا قوات أبي الرواغ عن اللحاق بهم وفي ذلك ذكر الطبري عن حضر تلك الواقعة:

"فجئنا حتى وقفنا على الجسر،... وقال: اقطعوا هذا الجسر، فنزلنا فقطعناه، فلما رأونا وقوفاً على الخيل ظنوا أننا نريد أن نعبر إليهم، فاشتغلوا بذلك عن قطعنا للجسر"^(٣).

إذاً استخدم الخوارج عامل النهر من أجل إعاقة تقدم الطرف الآخر فقاموا بقطع الجسر أيضاً، وعندما أرسل أبا الرواغ من يأتيه بخبر الخوارج أخبروه أن الجسر مقطوع ظناً منهم أنهم قطعوه هيبَةً منهم وخوفاً، إلا أنه أدرك أن ذلك ما هو إلا مكيدة افتعلها الخوارج فصاح قائلاً: "لعمري ما فعلوا هذا إلا مكيدة، وما أراهم إلا قد سبقوكم إلى معقل، حيث علموا أن فرسان أصحابه معي، وقد قطعوا الجسر ليشغلوكم به عن لحاقهم فالنجا النجا في الطلب"^(٤).

وهنا أمر أبا الرواغ أصحابه بعقد جسر من أجل العبور إلى الخوارج وتم العبور، ولحق بالخوارج الذين ساروا إلى معقل وهناك جرت وقائع المعركة التي راح ضحيتها المستورد ومعقل معاً، ومن خلال ما تقدم يمكن القول أن النهر وقف في طريق تقدم القوات خاصة بعد أن تم استغلاله وقطع الجسر من أجل إرباك الطرف الآخر وعرقلة تقدمه.

وكان للعامل الجغرافي المتمثل بالنهر أثر كبير برز في محاولة استغلاله من قبل الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد من أجل محاربة الحسين بن علي^(٥) في سنة (٦١هـ/٦٨٠م)؛ فقد كانت

(١) ساباط: ساباط بالعراق وهي في الجانب الغربي من دجلة. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٣٢.

(٢) أورد الحميري أن منطقة المدائن بالعراق يشق نهر دجلة فيما بينها، فالغربية تسمى بهرسير، أما الشرقية فتسمى العتيقة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ١١٤.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٢٠٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٢٩٥. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٣٣.

(٥) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٤.

قيادة الجيش للحصين بن نمير التميمي، الذي أرسل قائداً اسمه الحر بن يزيد التميمي^(١) من أجل ملاقاته الحسين، وهم في ألف فارس من القادسية^(٢)، وبعد أن سار الحسين بن علي حتى نزل في منطقة نينوى^(٣) على شط الفرات وإذا براكب على نجيب من ناحية الكوفة، ومعه كتاب من الوالي ابن زياد إلى الحر بن يزيد، ففتحه، وفيه: "أما بعد، فجعجع"^(٤) بالحسين، ولا تنزله إلا بالعراء في غير حصن، وعلى غير ماء"^(٥).

وهنا أجبر الحر بن يزيد القوم على النزول في ذلك المكان على غير ماء ولا قرية^(٦)، فقال له أحد رجاله وهو زهير بن القين ناصحاً له بالنزول في مكان قريب من النهر من أجل أن يبقوا بالقرب من مصدر الماء لتزويد أفراد الجيش بالماء: "سر بنا إلى هذه القرية حتى تنزلها فإنها حصينة، وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم فقاتلهم أهون علينا من قتال من يجيء من بعدهم"^(٧)؛ لكن الحر بن بن يزيد منعهم من ذلك.

وبعد ذلك وجه عبيد الله بن زياد القائد عمر بن سعد بن أبي وقاص^(٨) في أربعة آلاف من الكوفة^(٩)، ثم أرسل كتاب إلى عمر بن سعد طالباً منه استغلال النهر، حيث يكون ذا أثر كبير

(١) الحر بن يزيد التميمي (ت ٦١١هـ/٦٨٠م): قائد من أشراف تميم، أرسله الحصين بن نمير التميمي في ألف فارس من القادسية لاعتراض الحسين، في قصده الكوفة، فالتقي به، ثم انضوى إلى الحسين وقاتل معه حتى قتل. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ١٧٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٤٠١.

(٣) نينوى: ناحية بسواد الكوفة ومنها كربلاء التي قتل بها الحسين بن علي عليه السلام. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٣٩.

(٤) جعجع: أي ضيق عليه المكان وشدد. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤١١.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٤٠٨. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٨، ص ١٢١. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٨٣.

(٦) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٣٧.

(٧) الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ٨٤.

(٨) عمر بن سعد (ت ٦٦٦هـ/٦٨٦م): عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري المدني، أمير، من القادة الشجعان، سيره عبيد الله بن زياد على أربعة آلاف لقتال الديلم، وكتب له على عهده بالري، ثم لما علم ابن زياد بمسير الحسين من مكة إلى الكوفة، ولأه قتال الحسين، فتوجه إلى لقاء الحسين، فكانت المفاجعة بقتله. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٥، ص ٤٧.

(٩) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٨، ص ١٢١.

وخطير على الخصم إذا تم استغلاله، وكان فيه: "أما بعد فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالنقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان" (١).

وقد أورد الكوفي أنه كتب إلى عمر بن سعد قائلاً: "فقد بلغني أن الحسين يشرب الماء هو وأولاده وقد حفروا الآبار ونصبوا الأعلام، فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فامنعهم من حفر الآبار ما استطعت وضيق عليهم ولا تدعهم يشربون من ماء الفرات قطرة واحدة، وافعل بهم كما فعلوا بالنقي النقي عثمان بن عفان" (٢). أي كما حُرِم من الماء قبل أن يتم حصاره وقتله.

وهنا استجاب عمر بن سعد لطلب الوالي وأرسل خمسمائة فارس على رأسهم عمرو بن الحجاج، فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين الحسين وأصحابه، وبين الماء من أن يسقوا منه قطرة واحدة (٣)، وقد نازله عبد الله بن أبي حصين الأزدي؛ فقال: "يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً؛ فقال الحسين: "اللهم اقتله عطشاً ولا تغفر له أبداً" (٤).

وقد ذكر ابن الجوزي رواية عن عمرو بن الحجاج أنه قال: "يا حسين هذا الماء يلغ فيه الكلاب، وتشرب منه خنازير السواد والحرر والذئاب، والله لا تذوق منه قطرة حتى تذوق الحميم في نار الجحيم" (٥).

وهذا ما يدل على أن القتال كان على الماء بالدرجة الأولى في تلك الحادثة، إذ استغل جيش عمر بن سعد الماء لصالحهم فكيف كانت النتيجة؟

لقد ظهرت النتيجة على جيش الحسين بن علي عليه السلام؛ فقد اشتد العطش عليه وعلى أصحابه، وفي سبيل الوصول إلى النهر من أجل التزود بالماء قام الحسين بإرسال أخاه العباس بن علي بن أبي طالب في ثلاثين فارساً وعشرين رجلاً (٦)، وبعث معهم بعشرين قربة (٧)، ولما وصلوا إلى الشريعة اعترضهم عمرو بن الحجاج الزبيدي الذي أرسله عمر بن سعد في خيل عظيمة، وأمره أن ينزل على

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٨، ص: ١٢٣. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص: ٨٦. طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص: ٣٧.

(٢) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص: ٩١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص: ٤١٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص: ٤١٢. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص: ٨٦.

(٥) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٨، ص: ١٢٣.

(٦) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص: ٩٢.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص: ٤١٢.

الشرعية التي هي في حذاء - مقابل - عسكر الحسين^(١)، وهذا ما يؤكد حرص جيش سعد على جعل الماء في أيديهم ليكون موقفهم هو الأقوى؛ فقال: "من أنتم؟ فقال العباس: جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلاتمونا^(٢) عنه"، ثم قاتلوا على الماء وملأوا القرب، وعادوا^(٣).

وقبل بدء المعركة انحاز الحر بن يزيد إلى جيش الحسين فخطب بأهل الكوفة موبخاً إياهم على غدرهم بالحسين قائلاً: "يا أهل الكوفة، أدعوتموه حتى إذا اتاكم أسلمتموه! وزعتم انكم قاتلوا أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه!... ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهودي، والنصراني، والمجوسي، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش! بنسما خلفتم محمد في ذريته"^(٤).

وهذا ما يؤكد على أن جيش عمر بن سعد قد منع الحسين وأصحابه من الوصول إلى الماء من أجل إنهاكهم والتغلب عليهم، وهذا ما حصل.

وكان للنهر أيضاً أثره في أحداث سنة (٦٧هـ/٦٨٧م)^(٥)، ففي هذه السنة عين عبد الله بن الزبير أخيه مصعب بن الزبير^(٦) والياً على البصرة من أجل أن يكون قرناً وكفواً للمختار؛ فسار إلى الكوفة لقتال المختار بن أبي عبيد الثقفي^(٧) الذي خرج من أجل المطالبة بدم الحسين بن علي^(٨)، وتمكن من قتل قتلة الحسين بن علي^(٩)، وذلك بعد أن أرسل إلى المهلب بن أبي صفرة نائبهم على خراسان

(١) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص ٩١-٩٢.

(٢) حلاً: حلاًه عن الماء تحليئاً وتحليئة: أي منعه. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٣٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤١٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٢١.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٦٦.

(٦) مصعب بن الزبير (ت ٧١هـ/٦٩٠م): ابن العوام بن خويلد الاسدي القرشي، أبو عبد الله، أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، نشأ بين يدي أخيه عبد الله بن الزبير، ولاء عبد الله البصرة في سنة ٦٧هـ، فضبط أمورها وقتل المختار بن أبي عبيد الثقفي، وتحرك الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل قتاله، ولما دخل العراق خذل مصعباً قواد جيشه وأصحابه، وشد عليه جيش عبد الملك فقتلوه في معركة جرت عند دير الجاثليق على شاطئ دجيل. ابن سعد: الطبقات الكبير، ج: ٧، ص ١٨١. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٧) المختار بن أبي عبيد الثقفي (ت ٦٧هـ/٦٨٧م): أبو اسحاق، من زعماء الثائرين على الخلافة الأموية، وأحد الشجعان الأفاذا، من أهل الطائف، لما قتل الحسين انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد، فقبض عليه ابن زياد وحبسه جلده، وبعد قتل الحسين توجه إلى المدينة ثم عاد منها وخرج على والي الكوفة عبد الله بن مطيع، وتتبع قتلة الحسين بن علي، وقتله فيما بعد مصعب بن الزبير والي الكوفة. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج: ٥، ص ١١٧. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٧، ص ١٩٢.

(٨) الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ١٠٧.

خراسان أن يقدم عليه لمساعدته في حرب المختار^(١)، وبعد أن وصل جيش المهلب سار مصعب إلى ملاقات المختار الذي ندب أصحابه للخروج مع أحمر بن شميظ الأحمسي، وعسكروا بحمام أعين ثم توجهوا إلى المذار^(٢)، أما جيش مصعب فعسكر قريباً منهم، وعبأ كل واحد منهما جنده^(٣)، ثم جرت وقائع المعركة الأولى فقتل الأحمر بن شميظ.

وهنا حاول مصعب بن الزبير الاستفادة من عامل النهر حيث نزل في موضع واسط التي لم تكن قد بنيت بعد^(٤)، وأمر أصحابه الرجالة أن يقعدوا في السفن، وخرجوا في نهر (قوسان) يخرجهم إلى الفرات وبلغ ذلك المختار، والسؤال الذي يمكن طرحه، كيف تصرف المختار بن أبي عبيد الثقفي في سبيل الخروج من هذا المأزق، وما الذي قام به في سبيل تضييع الفرصة على أعدائه؟

إن ما يرويه ابن أعثم يدل على ذكاء المختار في تضييع الفرصة حيث قال: "وبلغ ذلك المختار فأمر كل نهر علم أنه يحمل من الفرات فسكر - أي سد فاه النهر - بعضها بعضاً، فبقيت سفن أصحاب مصعب في الطين"^(٥).

أما البلاذري فقد ذكر أنه "خرج حتى نزل السيلحون بالكوفة وسكر الفرات على نهر السيلحون، ونهر يوسف"^(٦).

أي أن المختار عمد إلى نهر الفرات، وسكره من أجل أن يذهب مأؤه في مجتمع الأنهار، وهكذا ذهب ماء الفرات كله في أنهار (الخريرة، السيلحون، القادسية، رسف)^(٧)، وقد نتج عن هذا الأمر فشل أصحاب مصعب في الوصول إلى الفرات، فخرجوا من السفن، وأصلحوها، وأقبلوا يسيرون نحو الكوفة حيث جرت وقائع المعركة التي انتهت بالقضاء على حركة المختار، بعد أن حصروا المختار في قصر الإمارة بالكوفة أياماً إلى أن قتلوه، بعد أن منعوا عنه الماء في سبيل إضعافه^(٨)، وكان مقتله سنة (٦٩هـ/٦٨٨م)^(٩).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٦٥.

(٢) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٢٨٦.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٦، ص ٤٣٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٦٧.

(٥) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٢٨٧.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٦، ص ٤٣٦.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٩٩.

(٨) الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ١٠٨.

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٦، ص ٤٤٤.

وفي سنة (٦٨هـ/٦٨٧م) توجه الخوارج الأزارقة^(١) إلى العراق من فارس^(٢)، وبعد عدة وقائع انتهوا إلى الصرة^(٣)، وكان هناك جسر على النهر في هذه المنطقة، أصبح حاجزاً بينهم وبين المسلمين بقيادة الحارث بن أبي ربيعة (الملقب بالقباع)، الذي استنجد به أهل الكوفة لملاقاة الخوارج^(٤)، وما يهمهم هو محاولة استغلال الخوارج للنهر من أجل إعاقة تقدم قوات المسلمين إلى الضفة التالية، فكيف تصرف الخوارج في سبيل ذلك؟

بعد أن رأى الخوارج أن جماعة من أهل المنطقة بقيادة الحارث قد وافتهم، قاموا بشكل بديهي باستغلال الجسر وعمدوا إلى قطعه^(٥)، وبالتالي أصبح العبور بالنسبة للمسلمين صعباً، ثم قام الحارث بخطبة يبين فيها أهمية القتال وكيفيته، لكن بوجود الجسر المقطوع على النهر ذهب كلامه أدراج الرياح، وقد بين ذلك رجل من قواده بقوله:

"قد أحسن الأمير أصلحه الله الصفة - المقصود الطريقة التي سيتم فيها القتال - ولكن حتّام نصنع هذا، وهذا البحر بيننا وبين عدونا؟"^(٦).

ثم قدّم نصيحة إلى الحارث وهي الطريقة الوحيدة التي تمكن من خلالها التغلب على أثر هذا العامل، وقد أشار إليها بقوله:

"مرّ بهذا الجسر فليعد كما كان، ثم اعبر بنا إليهم، فإن الله سيريك فيهم ما تحبه"^(٧).

لم يجد الحارث بداً من العمل بالنصيحة المقدمة إليه، فأمر بالجسر فأعيد، ثم عبر الناس إليهم وطاردوا الخوارج حتى انتهوا إلى المدائن، ومنها إلى الكوفة، ثم إلى أصبهان وكرمان^(٨)، وزال خطرهم

(١) الخوارج الأزارقة: هم أصحاب نافع بن الأزرق الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز، فغلبوا عليها وعلى كورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان في أيام عبد الله بن الزبير، وكان مع نافع أمراء أيضاً ومنهم عطية بن الأسود، وعبيد الله وعثمان والزبير أولاد ماحوز، وقطري بن فجاءة، وعبد ربه الكبير، وعبد ربه الصغير، وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً. الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ١٤. طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ٨٣.

(٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٨، ص ٤٣٠.

(٣) ورد عند ابن الأثير أنهم وصلوا إلى نهر الفرات. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٧٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٧٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٧٦.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٢٥.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٢٥.

(٨) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٨، ص ٤٣١.

عن العراق، كل ذلك حصل بعد أن تم عقد الجسر على النهر، فلو لم يعقد هل كان سيتم تحقيق النصر، وإرجاء الخوارج وإبعادهم عن العراق؟.

ومن الطريف أن يتم ذكر النهر الذي استخدمه عبيد الله بن الحر الجعفي^(١) الذي كان عدواً لمصعب بن الزبير من أجل الهروب في سنة (٦٨هـ/٦٨٧م)^(٢)؛ فبعد أن كلف مصعب بن الزبير عبيد الله بن العباس في خمسمائة فارس كفهم بقتل عبيد الله بن الحر، فحمل عليهم عبيد الله إلى أن قتل أصحابه وبقي يقاتل لوحده، فطعنه رجل يكنى أبا كدية فسقط عن فرسه على شاطئ الفرات^(٣)، فوثب قائماً وبقي يقاتلهم راجلاً في جوف الماء، وقال الكوفي: "وأخذ بالجراحات فعمد إلى زورق من تلك الزوارق، فجلس فيه وقال لصاحبه: "عبّرني إلى ذلك الجانب من الفرات وسبيّ لك"، وجعل صاحب الزورق يقذف به حتى صار إلى نصف الفرات، صاح أصحاب مصعب إن الذي معك هو طلب أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، فهم الملاح أن يرده إليهم، وعندما حاول عبيد الله منعه، قبض عليه الملاح فاعتقاً- تشابكا بالأيدي- جميعاً واضطربا في الزورق، ثم سقطا في الفرات وغرقا جميعاً"^(٤).

إذاً حاول عبيد الله استخدام العامل الجغرافي وهو نهر الفرات من أجل الهروب والنجاة بحياته، إلا أن الملاح الذي كان يعمل هناك هو من ضيّع الفرصة عليه بعد أن ساعده في دفع الزورق في بادئ الأمر.

وكان للجغرافية أثرها في اختيار موقع معركة دير الجماجم^(٥) التي كانت بين الحجاج بن يوسف الثقفي وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة (٨٢هـ/٧٠٠م)^(٦)، وبرهان ذلك ما فعله الحجاج بعد أن عاد ابن الأشعث إلى الكوفة على إثر معركة الزلوية التي خسر فيها^(٧)، حيث سار الحجاج

(١) عبيد الله بن الحر الجعفي (ت ٦٨هـ/٦٨٧م): قائد من الشجعان الأبطال، من خيار قومه شرفاً وصلاًحاً وفضلاً، ولما كانت فاجعة الحسين تغيب ولم يشهد الواقعة، ثم طلبه ابن زياد، فامتنع بمكان على شاطئ الفرات، فأرسل إليه مصعب بن الزبير، فقاتله ثم حاول الفرار في نهر الفرات ألقي نفسه في الماء. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ١٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٧٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٣٥.

(٤) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٣١٥.

(٥) دير الجماجم: موضع في البادية، بظاهر الكوفة من ناحية الجنوب، عنده كانت الواقعة بين الحجاج الثقفي، وبين عبد الرحمن بن الأشعث. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٤٦٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٠٣.

(٧) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٢٨٨.

بجيشه من البصرة محاولاً الوصول إلى الكوفة فسار في البر حتى مرَّ بين القادسية والعذيب^(١)، حتى وصل إلى موضع دِير قُرَّة^(٢) فنزل به، بعد أن منعه جيش أرسله ابن الأشعث من نزول القادسية، أما ابن الأشعث فنزل دير الجماجم على سبعة فراسخ من الكوفة، وهنا أبدى الحجاج الرضا بالموضع الذي اختاره قائلاً لأصحابه: "هذا موضع حسن وليس بيني وبين أمير المؤمنين نهر يمنعي من المسير إليه، ولي رستاقران هما في يدي بابل والفلوجة، ولا أتخوف أن يأتيني من ورائي أحد"، وقد علم الحجاج أن بينه وبين عسكر ابن الأشعث بثق - نهر - ماء مسدود، إذا تم فتحه لم يقدر أحد على مهاجمة أصحابه^(٣)، ومن البديهي أن يقوم بفتحه؛ فقد قام الحجاج بإرسال أشخاص إلى ذاك البثق ففتحه خوفاً على عسكره أن يُباغِتُ ليلاً وهم لا يشعرون.

إذاً كان لجغرافية موقع دير الجماجم من حيث اتصالها بالصحراء من ناحية، ووجود النهر بين الطرفين دور كبير، وقد ظهر ذلك من خلال معاناة جيش أهل الشام الذي أرسله الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل تقوية موقف الحجاج، بسبب مصاعب الطريق - حيث نفذت المؤن لديهم والزاد والمياه - وهذا جعل أصحاب ابن الأشعث يعلنون العصيان وخلع الخليفة عبد الملك، وثبتوا على موقفهم الرافض للمصالحة، وقد جرت عدة وقائع كانت الغلبة فيها لجيش ابن الأشعث، وقيل: "إن أصحاب ابن الأشعث كسروا أهل الشام بضعاً وثمانين مرة ينتصرون عليهم"^(٤).

لكن لم يكن الحجاج القائد الذي يترك ابن الأشعث ينعم بثمرة انتصاراته المتتالية، فقد بعث الحجاج كميناً أغار على أصحاب ابن الأشعث ليلاً، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وغرق كثير منهم في نهر دجلة، وقد عمد ابن الأشعث إلى النهر من أجل الهروب، فانطلق في ثلاث مائة من أصحابه فركبوا دجلاً^(٥) في السفن وفرَّ هارباً إلى المدائن.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٣٤٧. البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٧، ص ٣٣٥.

(٢) دير قرة: قريب من دير الجماجم، على طرف من البر، ودير الجماجم مما يلي الكوفة. البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٧، ص ٣٣٥.

(٣) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٧، ص ٩١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٢، ص ٣٢١.

(٥) دجيل: نهر يخرج من أعلى بغداد بين تكريت وبينها، مقابل القادسية، يسقي كورة واسعة وأرضاً كبيرة، ومن دجيل مسكن التي كانت عندها وقعة مصعب وقتله. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٤٤٣.

وفي سنة (٩٨هـ/٧٠٦م) كان القائد محمد بن القاسم الثقفي^(١) يقود الفتوحات التي عهد بها الحجاج بن يوسف الثقفي إليه في بلاد السند^(٢)، بعد أن بدأت فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي لبلاد ما وراء النهر بسنتين تقريباً^(٣).

وبعد أن قام بفتح مناطق متعددة ومنها الديبل^(٤) على ساحل بحر الهند، والبيرون^(٥) وغيرها من المناطق، وتمت السيطرة على كامل إقليم السند، ثم زحفت جيوش المسلمين نحو الشمال الشرقي حتى وصلوا إلى جيش الملك (داهر بن صصة)^(٦)، فكان بينهما نهر السند - مهران - وهنا أرسل ابن القاسم رسولاً يسمى الشامي إلى ملك السند (داهر) يخبره بين العبور إلى المسلمين أو يترك المسلمين يقومون بالعبور إليهم بعد أن رفضوا دفع الجزية.

وهنا استشار داهر وزيره الذي أشار بالموافقة على عبور المسلمين إليهم، وكان المبرر لهذا الرأي أن موقف المسلمين سيكون صعباً بعبورهم النهر، خاصة أن الإمدادات والمؤن ستتقطع عنهم مما يسهل القضاء عليهم، أما آخرون أشاروا على داهر بعدم تمكين العرب المسلمين من عبور النهر، وكان المبرر لعدم تمكين المسلمين من العبور هو أنهم قوم لا يخافون الموت، أشداء في الحرب، وهنا وقع داهر في حيرة من أمره، فماذا فعل؟

إن الرأي الذي قدمته جماعة الملك داهر أوقع في نفسه الحيرة والقلق من قوة المسلمين وقدرتهم وبالتالي رأى أن يترك الخيار للمسلمين، وبقي واقفاً بجيشه على الضفة الشرقية (الشاطئ الشرقي) للنهر، أما محمد بن القاسم الثقفي فقد قرر العبور بعد أن وصلت إليه خطابات الحجاج الذي يحرضه

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي (ت نحو ٩٨هـ/ نحو ٧١٧م): فاتح السند وواليها، من كبار القادة، ولاه الحجاج ثغر السند أيام الوليد بن عبد الملك، فتح العديد من مناطق السند، قاتله داهر ملك السند فقتله، وبولاية سليمان بن عبد الملك أمر بحمله من السند مقيداً، فحمل إلى واسط وعذب بها، وقيل: مات في العذاب. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٦، ص ٣٣٣.

(٢) بلاد السند: بلاد تقع على حوض نهر السند شرقي كرمان وجنوبي سجستان، وكانت قاعدتها المنصورة، وتقع على فرع من فروع نهر السند، ومن مدنها الديبل. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٧١.

(٣) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٦٦.

(٤) الديبل: مدينة في جنوب البحر الفارسي، وقيل مدينة في أرض السند، ويقال لها الديبلان، وهي أرض جذبة قليلة الخصب. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٢٤٩. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٦٣.

(٥) البيرون: مدينة حيدر آباد حالياً في مدينة باكستان تبعد عن مدينة كراتشي ١٥٠ كم. الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله: فتوح بلاد السند في عهد الأمويين، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط: ١، مكة المكرمة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ٢٩.

(٦) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٦٦.

على الإقدام والعبور من أجل ملاقاته داهر بعد أن طلب منه إرسال خريطة تبين جغرافية النهر من أجل دراستها وتقديم الأوامر بناءً عليها^(١)، فقد كان القائد يقدم للحجاج تقريراً عن سير الحملة كل ثلاثة أيام^(٢).

إذاً حال النهر بين الطرفين وشكل عائقاً جغرافياً، فكيف تصرف كلا الطرفين في سبيل استغلاله؟ بعد أن حال النهر بين الطرفين؛ قام داهر بالاستعداد لملاقاة المسلمين وأمر بعض قواده بالمرابطة بالسفن في الجانب الذي يسهل منه العبور، لكي يجبر المسلمين على العبور من المخاضات الخطرة، وكان يريد القضاء عليهم وهم في حال العبور.

أما القائد محمد الثقفي فقد توقف بعد أن قرر العبور لظروف أمنية، تمثلت بانتقاض أهل منطقة سيوستان^(٣)، وهذا ما أخر العبور مدة تقارب خمسين يوماً، كما أن سحب المؤن والأعلاف من حول المسلمين جعل موقفهم حرجاً للغاية، لكن قضاء الله أنقذ الموقف بوصول ألفين من الخيول العربية تحمل المؤن والمواد الغذائية، أرسلها الحجاج بعد أن علم بحرجة موقف المسلمين، كما أنه شجع محمد على العبور ودلّه على منطقة يمكن من خلالها العبور تسمى (بَتّ) وهي منطقة ذات ظروف جغرافية مناسبة للعبور بأقل خسائر ممكنة، حيث يقل عرض النهر وجريان الماء وبالتالي يسهل العبور، ولعله أشار عليه ببناء جسر على النهر، وأن يضع القوارب لكسب الوقت في العبور ومجابهة الأخطار^(٤).

يجد الباحث فيما أشاره الحجاج على القائد محمد بن القاسم دليلاً على براعته في التعامل مع المعارك التي تحتاج إلى عبور الأنهار، واستغلالها، وكانت هذه مجرد نصائح قدمها له، فهل عمل محمد بن القاسم الثقفي بهذه النصائح، واستغلها؟

من خلال استعدادات الملك داهر، أدرك القائد محمد أن خطته تقضي بأن يُقضى على جيش المسلمين أثناء العبور وفي سبيل تضييع الفرصة عليه قام بعمل من شأنه أن يفشل الخطة مستفيداً من نصائح الحجاج، فماذا فعل؟

(١) الخُمَيْدي: فتوح بلاد السند في عهد الأمويين، ص ٣٤.

(٢) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١١٤.

(٣) سيوستان: كورة كبيرة من السند، وأول الهند على نهر السند، يقع هذا الإقليم وسط غرب باكستان على بعد ٣٠ كم غرب مدينة حيدر آباد، وكان قد فتحها محمد بن القاسم الثقفي عنوةً قبل أن يتوجه لقتال داهر. وقد وردت باسم "سدوستان" عند ابن الأثير. الحموي: معجم البلدان، مج: ٣، ص ٣٠١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٥١.

(٤) الخُمَيْدي: فتوح بلاد السند في عهد الأمويين، ص ٣٨.

حاول إحاطة تحركات الأعداء من جميع الجهات؛ فأرسل فرقة من ستمائة فارس بقيادة سليمان بن نبهان القرشي من أجل منع القوات التي ستتحرك وقت عبور الجيش الإسلامي، وأرسل فرقة من خمسمائة فارس لمنع وصول الإمدادات لجيش داهر من ناحيته قبل أن يعبر النهر، وأرسل فرقة ثالثة تقف في منطقة (بَت) للدفاع أثناء عبور المسلمين، كما لم يرغب عن باله إرسال الفرق الاستطلاعية أمام جيشه، ووصل بجيشه إلى الشاطئ الغربي بأمان، وهنا بقي أمامه العبور إلى الشاطئ الشرقي، فكيف تصرف؟

لقد أمر بإحضار المراكب ليعمل منها جسراً يتم العبور عليه عملاً بوصية الحجاج، وكان قد أمر بتعبئتها بالرمال، والأحجار لتثبت في النهر، وأمر بتسميرها - وضع المسامير - بالألواح الخشبية حتى تم عمل الجسر، وعهد إلى الفرق الاستطلاعية بالتوجه إلى مناطق متعددة لحماية الجيش أثناء العبور، وبعد أن أتم الاستعداد زحف الجيش الإسلامي فوق المراكب ليلاً، بإتقان وسرعة وحذر حتى تم العبور إلى الشاطئ الشرقي، كل ذلك وداهر مستخف بقوة المسلمين، ويغط في نوم عميق مطمئن إلى نجاح خطته لإبادة المسلمين^(١)، وما إن تم العبور عاجلهم بالهجوم ليلاً على قوات الملك داهر، فانهزموا مسرعين، وأخبروا داهر بالخبر فكاد أن يفقد وعيه.

ولم تغلج الجيوش التي أرسلها داهر فيما بعد، وتم استسلام حاكم منطقة (بَت) اسمه راسل البوذي، ثم توجهوا لقتال داهر وقد حصلت معركة عنيفة استمرت أياماً، واقتتلوا قتالاً عنيفاً لم يسمع بمثله، واستخدم الهنود الفيلة والنبال والنفط، واستمر القتال حتى المساء، وانتهت المعركة بقتل داهر^(٢)، وتم افتتاح عدة مناطق على إثرها ووصلوا حتى "برهمناباد"^(٣).

وفي سنة (٩٠هـ/٧٠٧م) التي تم فيها فتح بخارى على يد القائد قتيبة بن مسلم^(٤)، برز أثر عبور النهر؛ فقد ورد إلى القائد قتيبة كتاب من الحجاج بن يوسف الثقفي يأمره بفتح بخارى، والتغلب على وردان خداه حاكم بخارى، ويعرفه الموضع الذي يأتي منه بلده^(٥)، وبعد أن استعان وردان خداه بالصغد وغيرهم من الأتراك حصلت مواجهة أولى كانت الغلبة للحلفاء (الصغد والأتراك وغيرهم) على المسلمين، وحاول قتيبة دحر الحلفاء لبخارى بهجمات متتالية دونما طائل، وفي هذه الأثناء استعان القائد قتيبة بقبيلة تميم، وعلى رأسهم القائد وكيع ابن حسان بن قيس الذي أخذ اللواء ومعه رجل يقال

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٥١.

(٢) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١١٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٥١. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٦٨.

(٤) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٤٢٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٥٤.

له: هريم بن أبي طحمة على الخيالة^(١)، وبعد أن تقدم هريم حجز النهر بين الطرفين - الأتراك والمسلمين - فقال وكيع قائد الرجالة لهريم قائد الخيالة: "أقحم ياهريم"^(٢).

وقد أثار هذا الرأي سخط القائد هريم الذي رأى أن عبوره النهر يشكل خطراً قاتلاً، خاصة وأن الأتراك كانوا على مرتفع في الطرف الثاني^(٣)، وإذا تم عبور النهر ستكشف مقدمة الجيش للأعداء ويصبح من السهل القضاء عليهم، فما كان من هريم إلا أن عبّر عن استيائه بقوله:

"أنا أقحم خيلي هذا النهر؟ فإن انكشفت كان هلاكها! والله إنك لأحمق"^(٤)؛ فغضب وكيع من رفض القائد هريم وضربه بعمود بعد أن وبّخه، فأقحم هريم فرسه النهر، ثم جاء دور وكيع من أجل اجتياز النهر، فكيف تصرف؟

لقد عمد وكيع إلى استغلال النهر، وقام بعمل جسر من الخشب، وهذا ما أكد عليه الطبري: "فدعا بخشب؛ فقنطر النهر، وقال لأصحابه: من وطّن منكم نفسه على الموت فليعبر، ومن لا فليثبت مكانه"^(٥).

وبعد أن تم عبور النهر، طلب وكيع من هريم أن يقوم بعملية إحاطة للموقع المرتفع الذي كان فيه الصغديون - تضم مملكتهم أراضي حول سمرقند وبخارى وخجند - والأتراك، ريثما يقوم بمهاجمتهم من الأمام ويلفت انتباههم عن حركة الإحاطة، وعليه دار قتال عنيف بين الطرفين لكن النصر كان حليف المسلمين الذين أحاطوا بالعدو من الأمام والخلف^(٦) ثم أوعز القائد قتيبة بملاحقة المنهزمين^(٧). ولو لم يكن القائد وكيع بهذه الهمة الجهادية والعزيمة العالية، ربما وقف الجيش دون عبور النهر، ولم يتحقق النصر على العدو.

إذاً على الرغم من وقوف النهر حاجزاً بين الطرفين، إلا أن المسلمين كانوا بخططهم أقدر على الاستغلال الصحيح من أجل تحقيق النصر على الأعداء وهذا ما حصل.

(١) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٠٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٤٤٣.

(٣) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٠١.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٥٤.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٤٤٣.

(٦) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٠٣.

(٧) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٠٢.

وفي عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك قام يزيد بن المهلب بالتمرد على الخلافة الأموية، وخلع الخليفة واستحوذ على البصرة سنة (١٠٢هـ/٧٢١م)^(١)، وبعد أن استشار أصحابه في التوجه لملاقاة أهل الشام توجه إلى واسط^(٢) في ستة عشر ألفاً، ولما بلغ الخبر إلى الخليفة أرسل ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك على رأس أربعة آلاف ومعه مسلمة بن عبد الملك في ثمانين ألفاً^(٣) من جنود أهل الشام والجزيرة^(٤)، أما يزيد فقد سار حتى نزل على نهر معقل، ومعه الآلات والأسلحة والأموال، وعسكر هناك^(٥) في مكان يسمى العقير من أرض بابل^(٦)، وقد يسأل أحدهم هل كان نزول يزيد في مكان العقير نزولاً اختيارياً أم اضطرارياً فرضته الظروف الجغرافية؟

يلاحظ الباحث أنَّ الآراء اختلفت في طبيعة نزول يزيد في منطقة العقير، وقد ربطت ذلك بوصول جيش أهل الشام، مشيرة إلى أن يزيد حاول الخروج من واسط قاصداً الوصول إلى الكوفة قبل أن تصل إليها جيوش الشام، فلما وجدهم سبقوه إليها نزل العقير.

أما الرأي الآخر فيذكر أن يزيد أرسل من واسط من يختار له أرضاً صالحة للمعركة فوق الاختيار على أرض العقير، وبالتالي كان نزوله اختيارياً، ولعل قرب المكان من الكوفة كان السبب الأساسي من أجل أن يضمها إليه فلم يوفق^(٧)، وفي محاولة لاستغلال العامل الجغرافي المتمثل بالنهر قام عبد الحميد بن عبد الرحمن الذي عسكر بالنخيلة ببثق مياه الأنهار - أي كسر شط الأنهار - التي بين يزيد وبين الكوفة لكي يضمن عدم عودة يزيد إلى الكوفة، ولعله ليمنع تسلل أهل الكوفة وانضمامهم إلى ابن المهلب، كما بعث جيوش الكوفة إلى مسلمة^(٨).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٠. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١٠، ص ٣٣١.
(٢) واسط: اسم يقع على عدة مواقع، فواسط مدينة الحجاج التي بناها بين بغداد والبصرة، وسميت بذلك لأنها متوسطة بين بغداد والبصرة. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٤٧. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٥٠٨.

(٣) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١٠، ص ٣٣١.
(٤) الشريف: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ج: ١، ص ١٧٣.
(٥) المرعشي، الحسين بن محمد المرعشي (ت ٢٤١هـ/١٠٣٠م): غرر السير، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٦٦٩م، ص ١٧٣.

(٦) الصوفي: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، ص ١٥١.
(٧) الشريف: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ج: ١، ص ١٨٣.
(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٢. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١٠، ص ٣٥٠.

وقد سار مسلمة على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار وعقد عليه الجسر، ثم عبر حتى أقبل على يزيد، وقد خندق عليه خندقين، وجعل على الخندق حائط وضع عليه رجال من رماة النبل^(١).

وعليه أصبح يزيد ومسلمة في معسكرين متقابلين، بعد أن كان النهر حاجزاً بين الطرفين، وأقاموا ثمانية أيام استغلوها في المفاوضات التي فشلت من قبل يزيد الذي رفض المفاوضات وأصر على الحرب.

وكان مسلمة قد أعد مفاجأة في بداية المعركة ليزيد وجنوده، حيث أمر (الوضاح) بإحراق الجسر الذي على النهر، وألهب فيه النار وسطع دخانه، وأحرق بعض السفن^(٢)، وقد اقتتل الناس ونشبت الحرب^(٣)، وكان لإحراق الجسر أثر كبير جداً على جنود يزيد بن المهلب، ويروي الطبري كيف ظهر أثر إحراق الجسر بقوله:

"قلما رأى الناس الدخان، وقيل لهم: الجسر أُحرق انهزموا"^(٤)؛ ولما سأل يزيد عن سبب الهزيمة قالوا: "أحرق الجسر فلم يثبت أحد"^(٥)، وعمد هو وأصحابه إلى ضرب وجوه من انهزم منهم، لكنه فشل فشل في إنقاذ الموقف لأنهم كانوا كثيرين جداً، وهنا تظهر بعض الأسئلة، هل كانت هزيمة وتفرق أصحاب يزيد بفعل إحراق الجسر واستغلال العامل الجغرافي فقط؟ أم له خلفيات أخرى كالخوف من جيوش الخلافة الأموية؟ أم أن ولاءهم ليزيد لم يكن مخلصاً منذ إعلانه للثورة؟.

مهما يكن الأمر إن ما ورد في المصادر يدل على أن استغلال عامل النهر وقطع الجسر وحرمان يزيد من طريق العودة إلى الكوفة، هو ما صعب الموقف عليه وكان له أثر سلبي بشكل أساسي على أحداث المعركة بعد أن تفرق عنه أصحابه وخذله، وبعد أن قلّت جموعه أدرك أنه يسيّر وراء سراب، وأن الطموحات والخطط التي رسمها ذهبت أدراج الرياح، لكنه مع ذلك رفض الفرار، وامتطى جواده (برذوناً)^(٦)، وعندما أقبل نحو مسلمة عطفت عليه خيول الشام، وعلى أصحابه، فقتل يزيد وعدد من أصحابه.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٠.

(٢) الشريف: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ج: ١، ص ١٩٤.

(٣) الأسطل: مسلمة بن عبد الملك، ص ١٧٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٤١.

(٦) البرذون: هو الحمار أو البغل النشيط القوي، أما الفرس فلا يقال فيه إلا: جواداً. الأسطل: مسلمة بن عبد الملك، ص ١٧١.

كما وقف النهر - نهر بلخ - حاجزاً بين الطرفين المتحاربين عندما أراد أسد بن عبد الله القسري اجتيازه سنة (١١٩هـ/٧٣٧م)^(١)، من أجل ملاقاته الترك بقيادة (خاقان)^(٢) بعد أن افتتح منطقة الخُتل^(٣)، وتفرقت جنوده في أرضها، وعندما علم خاقان بذلك جمع جنوده وتوجه إلى أسد، أما أسد بن عبد الله فقد توجه إلى جبل الملح وأراد عبور نهر بلخ^(٤)، لكن وجود الأغنام التي حصلوا عليها كغنائم حرب إثر فتح الختل، والنهر الذي أصبح أمامهم شكل عائقاً حقيقياً، وقد كره أسد أن يترك الأغنام والأسلاب وراء ظهره، فماذا فعل بوجود النهر أمامه؟

لقد عمد أسد إلى دراسة الموقف فوجد أن النهر فيه ثلاثة وعشرين موضعاً يخوضه الناس، وفي موضع معين من هذه المواضع وجد مجتمع ماء يمكن من خلاله الخوض والعبور، ولكي لا يترك الأغنام، أمر أن يحمل كل رجل شاة، وحمل هو بنفسه شاة، وهنا رأى أحد الرجال أن عبور النهر مع هذه الأغنام يشكل غاية الخطورة؛ فقال لأسد: "إن الذي أنت فيه من حمل الشاة ليس بأخطر مما تخاف.. فدع هذه الشاة"^(٥).

لكن كان الرفض لرأي عثمان بن عبد الله هو سيد الموقف، وتوعد أسد بقطع يد كل من لم يحمل معه شاة^(٦)، ويستنتج الباحث فيما أورده الطبري عن عملية العبور أن الثقل الزائد جعل مخاضة النهر الرملية تسوخ فيها الأقدام وتتعثّر، فيقع الفارس عن دابته في النهر هو والشاة، وفي ذلك قال: "لما حفرت سنانك الخيل النهر صار بعض المواقع سباحة، فكان بعضهم يميل فيقع عن دابته، فأمر أسد بالشاء أن نقذف، وخاض الناس"^(٧).

وما يهم هو ما بعد عبور المسلمين، فقد وصل خاقان بجنوده فقتل من لم يقطع النهر بعد، وأصبح النهر حاجزاً بين الطرفين^(٨)، ولعل الصعوبة التي واجهت المسلمين في عبور النهر جعلتهم يظنون أن الأتراك لن يستطيعوا اجتياز النهر والوصول إليهم، ولكن ما جرى كان خلاف ذلك؛ فقد استشار خاقان جنوده في سبيل عبور النهر بعد أن أصبحوا على ضفة النهر، وأرسل إلى الفرسان وأهل الدراية

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٤٢٣.

(٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١١، ص ٨٦. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٣٤.

(٣) الخُتل: منطقة فيما وراء النهر، تقع جنوب شرق منطقة الصغد، وهي منطقة جبلية. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٥٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٣، ص ٨٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ١١٥.

(٦) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٣٤.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ١١٥.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٤٢٣.

بالحرب والماء من يشير عليه بإمكان العبور أو عدمه، فأشار عليه أحدهم معبراً عن إمكانية العبور بقوله:

"بلى يطاق، لأننا خمسون ألف فارس؛ فإذا نحن اقتحمنا دفعة واحدة ردّ بعضنا عن بعض الماء فذهب جريته"^(١)؛ وعليه قرع الأتراك الطبول وأقحموا دوابهم، ورموا بأنفسهم في النهر، فجعلت خيولهم تتخر أشد النخير، وخرجوا إلى ناحية المسلمين، وهاجموا معسكر المسلمين الذين ثبتوا في معسكرهم^(٢)، وهاجموا وجوه الترك وضربوها، فرجعوا، وانهزموا.

إذاً كان رأي - الأشتيخن - هو الحافز على عبور النهر بعد أن أوضح أن كثرة الجيش العابر سوف تجعل من قوة مياه النهر ضعيفة، وبالتالي يمكنهم العبور إلى الضفة الأخرى بسلام، وبناءً عليه كان العبور.

وفي سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م) كانت معركة نهر الزاب^(٣) بين الأمويين بقيادة مروان بن محمد^(٤) وبين العباسيين الذين كانوا بقيادة أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، وقد زحف الجيش العباسي إلى العراق ونزل الزاب (بين الموصل وأربيل)^(٥)، ثم جهز أبو العباس القواد في تسعة آلاف^(٦)، وعهد بقيادتهم إلى عمه عبد الله بن علي^(٧)، فسار حتى قدم على أبي عون، أما مروان بن محمد فقد سار حتى نزل الزاب الصغير^(٨)، وأصبح الفريقان متقابلان يفصل بينهما نهر الزاب الأكبر^(٩).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ١١٦.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٣٤.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٤٣٢. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٦٧.

(٤) مروان بن محمد (ت ١٣٣هـ/٧٥١م): مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وهو آخر الخلفاء الأمويين، ويكنى أبا عبد الملك، ويعرف بمروان الجعدي، نسبة إلى الجعد بن درهم معلمه، ومروان الحمار لأنه كان معروفاً بالصبر عند الحروب. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٣، ص ٢٦٢. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٨٤٨. حسان: خلافة بني أمية عند خليفة بن خياط ١٣٢هـ/٧٤١م، ص ٢٤٨. طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ١٧٣.

(٥) الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ٨٤٩.

(٦) في رواية ابن الأثير ستة آلاف، بعد جمع عدد الفرق، ولعله رقم مبالغ فيه. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٥، ص ٦٩.

(٧) عبد الله بن علي (ت ١٤٧هـ/٧٦٤م): أمير، وهو عم الخليفة أبي جعفر المنصور، هزم مروان بن محمد بالزاب، ولحقه إلى دمشق، وفتحها وهدم سورها، ومهدا لدخول السفاح، خرج على الخليفة المنصور، ثم أمنه المنصور فاستسلم وحبس في بغداد، فوقع عليه البيت الذي حبس فيه فمات. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٤، ص ١٠٤.

(٨) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٣، ص ٢٠٥.

(٩) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١١، ص ٤٤٠.

وهنا حاول عبد الله بن علي أن يبادر إلى القتال لكن النهر حجز بينهم، فحاول العبور بعد أن سأل عن مخاضة يمكن من خلالها العبور من أجل الوصول إلى عسكر جيش الأمويين الذي عسكر بقيادة مروان بن محمد على الضفة الغربية لنهر الزاب الأكبر، بينما كانوا هم على الضفة الشرقية للنهر^(١)، وبعد أن دلّوه على مخاضة أرسل عيينة بن موسى، فعبر إلى عسكر مروان في خمسة آلاف، فاقتتلوا إلى الليل، وهذه كانت أولى المحاولات لعبور النهر، وبعد أن تجاوزوا عاد عيينة إلى معسكر عبد الله عابراً المخاضة نفسها^(٢).

وفي اليوم التالي عقد مروان جسراً على الزاب، وأرسل ابنه عبد الله من أجل أن يحفر خندق يحميه^(٣)، وعندما علم عبد الله بن علي أرسل رجلاً يسمى (المخارق بن غفار) لمنعه، فهزم وقتل هو ومعه جماعة من الذين أرسلهم، وهنا أشار على عبد الله بن علي أبو عون بالعبور على الجسر، وملاقاة مروان.

يمكن القول: إن العبور جاء كرد فعل على قتل المخارق الذي أرسله عبد الله بن علي ليحول بين عبد الله بن مروان وقيامه بحفر الخندق، المهم أن عبد الله بن علي عبر نهر الزاب في اثني عشر ألفاً، وقيل: في عشرين ألفاً^(٤)، وبعد أن أصبح الفريقان على طرف واحد، أمر مروان بعدم البدء بالقتال، لكن أحد رجال مروان - الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم - لم يستجب وحمل على ميمنة عبد الله بن علي، ودارت المعركة التي انخزل فيها أصحاب مروان بن محمد بعد أن أخطأ خطأ فادحاً، ظهر عندما أعلن لجنده أن في خيمته أموالاً سيوزعها عليهم بعد المعركة، فطمع الجند بالمال^(٥)، وتخاذلوا فوقعت الهزيمة، وهزم مروان، ثم عمد مروان إلى قطع الجسر الذي عقده فيما سبق، وانسحب باتجاه الموصل التي أغلقت الأبواب بوجهه، ثم توجه إلى الشام ثم فلسطين، وإلى مصر حيث قتل هناك في قلعة بوصير^(٦).

(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٦٧.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٤٣٢.

(٣) دحومان، أمال: جهود الأمويين في الدفاع عن إقليم العراق (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م)، جامعة المسيلة، كلية الآداب، الجزائر، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص ٥٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٥، ص ٧١. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١١، ص ٤٤٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٥، ص ٧١. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٦٧.

(٦) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ٢٢٤-٢٢٥.

وقد كان قصد مروان من قطع الجسر إعاقة العباسيين عن اللحاق به، لكن الأثر كان سلبياً على جيشه، حيث غرق من الأمويين فيه أكثر مما قتل^(١)، ثم أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر على الزاب، واستخرجوا الغرقى، فأخرجوا ثلاثمائة^(٢)، ثم كتب بالنصر إلى الخليفة العباسي أبي العباس^(٣). انظر الخريطة (٤٢).

إذاً من خلال ما سلف يتبين أن الأنهار كانت غالباً تشكل عائقاً أمام القوات المتحاربة، وبالتالي كان على أحد الأطراف أن يقوم بالعبور إلى الطرف الآخر من أجل الاقتتال، وفي سبيل الوصول كانت الجسور هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها تذليل مهمة العبور، وعلى الرغم من قلة ما ورد من أمثلة إلا أنها تعطي صورة واضحة عن الأحداث التي حصلت على ضفاف الأنهار، والتي تجلى فيها أثر العبور، لأنه لا يتسع المقام لإيراد جميع الأحداث على اختلاف مواقعها.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٣، ص ٢٥٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٣، ص ٢٠٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٤٣٤.

ثالثاً- أثر مياه البحار.

لقد سلف أن تمت الإشارة إلى أن العرب في عصر الرسول الأكرم محمد ﷺ لم يقوموا بالغزو في البحر إلا فيما ندر^(١)، وذلك بسبب قلة الخبرة أو الخوف من ركوب البحر^(٢)، وهذا الأمر جسده قرار الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن وصف له عامله على مصر عمرو بن العاص حال البحر^(٣)، ثم تطور الأمر حتى عهد الخليفة عثمان، فكان عهده فاتحة النشاط الإسلامي العربي في البحر، وبالتحديد سنة (٢٨هـ/٦٤٩م) حيث كان فتح جزيرة قبرس.

والحقيقة أن معركة ذات الصواري عام (٣١هـ/٦٥١م)^(٤)، حولت العلاقات العسكرية بين المسلمين والبيزنطيين نحو اتجاه جديد في الحوض الشرقي للبحر المتوسط^(٥)، إذ أنها كانت المدخل الذي أطل منه المسلمون على العالم الوسيط كقوة بحرية منافسة في المنطقة، وأضاعت آخر فرص البيزنطيين في استعادة مواقعهم في الشام ومصر، وبالتالي كان على البيزنطيين أن يضعوا نصب أعينهم استعادة اعتبارهم في المجال البحري، وهذا الأمر لم يغيب عن بال الخليفة معاوية^(٦).

وبما أن أغلب المعارك مع البيزنطيين كانت بمجملها بحرية، حاول الروم البيزنطيين من خلالها استغلال البحر لإيقاع ضربات متكررة بالمسلمين في كل من الشام ومصر^(٧)، وقد أدرك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أهمية هذا العامل الجغرافي وعمل على استغلاله، وخاصة بعد أن تم للمسلمين الاستيلاء على الشام ومصر خلال العصر الراشدي، حيث فتحت صفحات جديدة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط، وكان الفضل في تدوين سطور هذه الصفحات لمعاوية ملأها بأخبار عظمة المسلمين، ونشاطهم الرائع في ميدان العمليات البحرية^(٨).

وقد تجسد ذلك بأنه عمل على بناء البحرية الإسلامية، وأسس قواعد خاصة لصناعة السفن الحربية في الاسكندرية والشواطئ الفلسطينية (صور وعكا)^(٩)، لأن مجال عمل الأساطيل البحرية يحتاج

(١) العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٥٢.

(٢) كاتبي: بناء الأسطول الأموي (النشأة والتطور)، ص ٢٥٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٢، ص ٤٨٨.

(٤) الجوزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية، ص ٣٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ١٣.

(٥) مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٢٨٥.

(٦) طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٠.

(٧) العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٥٢.

(٨) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ٧٣.

(٩) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٨٧.

وبدرجة كبيرة إلى الدعم وإلى قواعد أرضية ساحلية (موانئ) توزع على طول السواحل، مع توفر خدمات الإمداد للسفن وإصلاحها عند الحاجة^(١)، كما أنشأ أسطولاً بحرياً عهد بإدارته إلى عدد من الملاحين العرب، بعد أن استفاد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من الغابات الموجودة في جبال لبنان، حيث وفرت الخشب اللازم لبناء السفن فبلغ الأسطول الإسلامي في ذلك الوقت (١٧٠٠) سفينة كاملة العدة والعتاد، وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة^(٢)، ثم أعقبها هجمات أخرى على جزر البحر المتوسط رودس، وكوس، وقد تعرضتا للنهب^(٣).

وعليه كان معاوية بن أبي سفيان أول من نظم الأسطول البحري^(٤)، وأول من أرسل حملة إسلامية للغزو في لبحر المتوسط، سنة (٢٨هـ/٦٤٩م)^(٥)، ثم أعاد الغزو بعد أن ارتد أهل قبرص سنة (٣٣هـ/٦٥٣م)، وترك في قبرص حامية عسكرية، وبالتالي كان ظهور الأسطول الإسلامي، الذي لعب دوراً فاعلاً في السيطرة على البحار^(٦).

وهنا قد يسأل سائل، ما علاقة الأسطول وبناءه بأثر مياه البحار في أحداث التاريخ في العصر الأموي؟

يمكن الإجابة على ذلك بأنه لولا وجود الأسطول الذي تم بناءه من أجل استغلال العامل الجغرافي المتمثل بالبحر، لما حصلت الغزوات البحرية التي كانت لا تقل في أهميتها عن الغزوات البرية، والتي استغلت عوامل الجغرافية الطبيعية، وما كان ليظهر أثر البحر في الغزوات، وفي الحصارات التي كان يقوم بها المسلمون مستغلين عامل البحر، لكن ما يلاحظه الباحث في أثر البحر هو الارتباط بعامل الشتاء المناخي الذي كان يؤثر على البحر، وبالتالي يجعل أثر البحر جلياً في عرقلة الغزوات التي كانت في أغلبها ضد البيزنطيين، وما يلي يوضح ذلك.

في سنة (٤٤هـ/٦٦٤م)، أرسل الخليفة معاوية بن أبي سفيان حملة على القسطنطينية، وكانت هذه الحملة مجهزة بقوات مشتركة برية وبحرية، وما يهم هنا القوات البحرية التي كانت بقيادة بسر بن

(١) بلتير، لويس سي و جي إيزل بيرس: الجغرافيا العسكرية، تر: عبد الرزاق عباس حسين، دار الحرية، بغداد، العراق، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص ٥١-٥٢.

(٢) الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٤٤١.

(٣) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٤) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٣٠.

(٥) طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٢.

(٦) الخفاجي، شهاب الدين محمود المصري (ت ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م): شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل، تح: عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني، القاهرة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ٦١.

أرطأة^(١)، والتي توجهت حتى مياه بحر مرمرة، ولكن الشتاء مع ما يرافقه من اضطراب الأمواج في البحر، وشدة الرياح، والعواصف والأمطار كان له حضوره وأثره^(٢)، والمهم في هذه الحملة أنها مكنت القوات البرية والبحرية من معرفة مفاوز آسيا الصغرى، ومعرفة طريق البحر، وماهي المآخذ التي يمكن من خلالها فرض الحصار على القسطنطينية.

وبناءً على الحملة الأولى تم حشد قوات أعظم، وأسطولاً أضخم سار إلى القسطنطينية في سنة (٤٩٩هـ/٦٦٩م)^(٣)، وكان الأسطول بقيادة بسر بن أرطأة الذي استطاع بفضل معرفته السابقة أن يجتاز مضيق هيليس - الدردنيل - heles دون مقاومة، ونقل الجيش إلى الشاطئ الأوروبي على بعد أميال من العاصمة البيزنطية^(٤)، وكان البحر عاملاً سلبياً بالنسبة لجيش المسلمين خاصة مع اقتراب فصل الشتاء^(٥) مما كان يجبرهم على ترك الحصار، والتوجه إلى جزيرة كيزكوس - kezkos^(٦)، التي كانت تقع في جنوب بحر مرمرة^(٧)، وكانت وفيها مراكزهم العامة.

وقد أكد المؤرخان (محمد عنان و محمد طقوش) في أن الغزوات استمرت سبع سنوات متتالية منذ بداية الحصار الثاني الذي بدأ سنة (٥٤هـ/٦٧٤م)^(٨)، فكان المسلمون يغزون في الصيف ويرتدون عن القسطنطينية في الشتاء^(٩).

وفي هذا الحصار استخدم المسلمون جزيرة أرواد قاعدة بحرية للقوات الإسلامية، وخرج الأسطول بقيادة جنادة بن أمية الأزدي وتم إحكام الحصار على القسطنطينية، براً وبحراً، لكن رداءة الطقس وصخب الأمواج واستخدام النار الإغريقية أخفق الحصار أيضاً.

(١) بسر بن أرطأة (ت ٨٦هـ/٧٠٥م): أبو عبد الرحمن، ولد بمكة قبل الهجرة، وكان من أهم رجال معاوية، ووجهه معاوية إلى المدينة في ثلاثة آلاف سنة (٣٩هـ/٦٥٩م)، فأخضعها، ثم ولاه البصرة سنة (٤١هـ/٦٦١م)، ثم ولاه البحر، ومات في دمشق. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٣، ص ٢٥. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ٥٢.

(٢) مصطفى: الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص ٢٢.

(٣) ذكر العمري أنها كانت سنة (٤٨هـ/٦٦٨م). العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٦٤.

(٤) عنان، محمد عبد الله: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الناشر: ورثة المؤلف حسين عنان، ط: ٥، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ٣٦.

(٥) راجع أثر الشتاء والبرد من المبحث الثالث في الفصل السادس.

(٦) كيزكوس: جزيرة تقع على بعد ثمانين ميلاً من القسطنطينية. عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣٧.

(٧) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٥١.

(٨) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٦. العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٦٤.

(٩) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣٧. طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٤.

ويمكن القول: إنّ موقع القسطنطينية الجغرافي أعطاهما حصانة طبيعية تمنع محاصرتها بالكامل، والسبب في ذلك البحر الذي حال دون حصارها بالكامل، فعلى الرغم من أنهم ركزوا جهودهم على محاصرة المدينة من جهة البحر، إلا أن الحصار البري والبحري كان مزعزعا، فكانت الإمدادات تصل إلى المدينة، كما أخطأ المسلمون تقدير منعة القسطنطينية^(١).

ومن خلال ما تقدم يمكن الجزم أن البحر بحلول فصل الشتاء يكون ذو أثر مدمر على سفن الأسطول، من خلال ارتفاع الأمواج وقوتها، وبالتالي يتسبب في إغراق السفن، وهذا ما أجبرهم على فك الحصار مراراً وتكراراً، ويبرهن على ذلك ما حصل في سنة (٩٨هـ/٧١٧م).

فقد كان أثر البحر واضحاً في حصار القسطنطينية سنة (٩٨هـ/٧١٧م)^(٢)، عندما كلف الخليفة سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك بقيادة الحملة البرية^(٣)، وولى عمر بن هبيرة الفزاري^(٤) على القوات البحرية، ولعل هذه الغزوة كانت تضم أعظم قوة بحرية استطاعت أن تحشدتها دولة إسلامية، فقد كان قوامها نحو ٨٠ ألفاً من الرجال في أسطول كبير يقدر بـ (١٨٠٠) سفينة، وما يهم هو عامل البحر الذي استغله قائد الأسطول، وقطع علاقات وصلات المدينة في البحر^(٥).

وبعد أن تم تطويق المدينة براً وبحراً، جرت أول معركة بحرية حينما سار الأسطول المحاصر للقسطنطينية من جهة البر الأوروبي إلى مرافئه، وهنا ظهر الأثر السلبي للبحر، فكيف ذلك؟

لقد ظهر الأثر السلبي من خلال المناخ القاسي وارتفاع الموج؛ فقد عصفت بالأسطول الرياح والموج عصفاً هائلاً، فاصطدمت السفن بعضها ببعض، وأربكت السفن الإسلامية، ويضاف إلى ذلك التيارات المائية شديدة الانحدار التي كانت تبعد السفن عن أسوار القسطنطينية^(٦)، وقد انتهز البيزنطيون الفرصة، ووجهوا إلى السفن النار اليونانية (الإغريقية)^(٧)، فأحرقوا بعضها ودفعوا البعض

(١) العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٦٤. طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٣٠.

(٣) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٥٢٢.

(٤) أبو شبيكة: خلافة بني أمية عند علي بن الحسين المسعودي، ص ١٤٤.

(٥) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٨٦.

(٦) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٦.

(٧) النار الإغريقية: اخترعها رجل من بعلبك، في بلاد الشام فرّ لاجئاً إلى بيزنطة من الأراضي التي فتحها العرب، وكانت مزيجاً من الزيت الخام ومواد أخرى تجعله يلتصق بالخشب، وكان يُشعل ويُدفع من إناء (سيفون) على سفن العدو. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٥٢.

الآخر إلى أسفل سور القسطنطينية، وهذا ما دفع بالقائد مسلمة إلى سحب الأسطول المرابط في الشاطئ الأوروبي، ريثما يتم تنظيم القوات من جديد وإعادة الحصار^(١).

وبعد أن استأنف مسلمة الحصار، حلّ الشتاء ببرده القارس، وجاء خبر وفاة الخليفة سليمان^(٢)، فاضطربت الصفوف، وكان قد قدم إلى مسلمة أسطول ضخم يحمل الأقوات من الاسكندرية حوالي (٤٠٠) سفينة، فدخل البوسفور^(٣)، وجاء في أثره أسطولاً آخر من إفريقية حوالي (٣٦٠) سفينة^(٤)، ورسا شرقي بحر مرمرة، لكن ما يهم أن بعض البحارة كانوا من غير المسلمين وعندما عاينوا حال المسلمين المتردي أمام أسوار المدينة تأمروا على الفرار، واستغلوا البحر، وهرب كثير منهم بعد أن استقلوا القوارب، ثم أبحروا تحت جناح الظلام، ودخلوا إلى الإمبراطور وشرحوا له حال المسلمين، وهنا حاول الإمبراطور انتهاز الفرصة، فماذا فعل؟

يُلاحظ بأن الإمبراطور عمد إلى استغلال عامل البحر من خلال إخراجه قسم من السفن خارج الميناء وقد زودها بقاذفات النار التي أثبتت فعاليتها، وانقضّ على المسلمين وأوقع فيهم وفي سفنهم الخراب والدمار، وأحرق بعضها وأسر البعض الآخر، وكانت النتيجة أن جنحت كثير من سفن المسلمين على الشاطئ^(٥).

وهنا جاء أمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) بالانسحاب ورفع العودة وفك الحصار^(٦)، الذي فرض منذ عهد سلفه سليمان بن عبد الملك^(٧)؛ فنأدى مسلمة بالرحيل، وقدمت المراكب لتحمل الجيش لعبور الخليج على البحر، وهنا دعا البطال وقال له:

"مرّ الناس بالعبور، فنأدى البطال بالناس في الرحيل، فرحل الناس في المراكب، وساروا في البحر، إلا مسلمة فقد تخلف وأقام على شاطئ البحر ستة أيام، ثم رحل"^(٨).

(١) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٤١.

(٢) فوزي، فاروق عمر: الخلافة الأموية (دراسة لأول أسرة حاكمة في الإسلام)، دار الشروق، ط: ١، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ١١٠.

(٣) الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية، ص ٤٩.

(٤) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٠٠.

(٥) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٤٢. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٠٤.

(٧) الشريف: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، ج: ١، ص ٦٥.

(٨) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٧، ص ٢٠٢.

لكن البحر مجدداً ترك أثره على السفن الإسلامية؛ فعندما نقل مسلمة جيشه إلى الشاطئ الآسيوي، ورفع الحصار، وقفل عائداً إلى دمشق صادفت السفن عواصف شديدة، واضطراب في أمواج البحر، فهدمت العواصفُ الثائرة في بحر إيجة (الأرخيبيل) السفنَ وفرَّقتها، وقيل: "أنه لم يعد من أسطول مسلمة الضخم إلى ثغور الشام سوى سفن قلائل"^(١).

ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن: حادثة عهد العرب في الحروب البحرية، وقسوة المناخ الذي لم يعتده عرب المسلمين، وبراعة البيزنطيين الذين كانوا سادة البحر والقادة في الحروب البحرية فيما سلف، واستخدامهم أساليب دفاع بحرية قوية، واستغلالهم لعامل البحر؛ يعطي برهاناً على إخفاق العرب أمام أسوار العاصمة البيزنطية، وإخفاقهم رغم كل التجهيزات والأقوات التي حملوها معهم. انظر الخريطة (٣٨-٣٩).

أما على الجبهة الشرقية للدولة الأموية، فالحاجة إلى قوة بحرية وأسطول قوي كان أمراً ضرورياً لمواجهة الأخطار العديدة والتي كان من أبرزها خطر الخوارج، وكان من خطرهم ما دفع العباسي إلى وصف حربهم مع الدولة الأموية بالقول:

"لم يكن في الدولة الأموية بعد حرب الصحابة، أعظم من حربهم"^(٢)؛ ويقصد بذلك أن محاربة الخوارج وقتالهم توازي الحروب التي خاضها الصحابة في سبيل نشر الإسلام. وفي هذه الحروب كان دور البحر واضحاً، واستخدمت السفن، وهذا زاد من إصرار الدولة على الاهتمام بالأسطول، والعمل على تطويره.

وما يمكن ملاحظته أن الأسطول الأموي كان عمله بشكل أساسي في البحر الشامي، لوجود القوة البيزنطية فيه، فانحصر تأثير البحر في معارك المسلمين مع الروم البيزنطيين.

ومما تقدم يبدو واضحاً أن البحر كان ذو أثر واضح على الأحداث التي جرت على جبهة الروم والجبهة الشرقية في العصر الأموي، ولو طُرح السؤال التالي، كيف الحال بالنسبة للجبهة الغربية وهي جبهة شمال إفريقية؟ وكيف كان أثر البحر؟

يُلاحظ أن الأثر لا يختلف كثيراً، لأن المسلمين أدركوا أهمية هذا العامل، وحاولوا استغلاله أيضاً في فتوح الشمال الإفريقي، وعليه فقد اشتركت الأساطيل البحرية الإسلامية المتحركة من مصر منذ

(١) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٤٣.

(٢) العباسي، الحسن بن عبد الله بن محمد (ت ٧٠٩هـ/١٣١٨م): آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ١٨١.

عهد معاوية بن أبي سفيان، في فتوح سواحل إفريقيا، التي قادها معاوية بن حديج السكوني^(١) سنة (٤٥هـ/٦٦٥م)، وفيها استطاع فتح العديد من المناطق^(٢).

وفي بناء القيروان سنة (٥٠هـ/٦٧٠م)^(٣)، اختار عقبة موقعها في مكان بعيد عن البحر، وذلك لأن البحر كان يشكل خطراً على المدينة الإسلامية التي ستكون قاعدة ثابتة للمسلمين، فكان لابد من انتقاء هجمات أساطيل الروم البيزنطيين البحرية، وعليه كان اختيار موقعها بعيداً عن البحر^(٤).

وفي عهد يزيد بن معاوية أعاد تولية عقبة بن نافع على إفريقية سنة (٦٢هـ/٦٨٢م)^(٥)، فسار عقبة إليها وفتح عدة مناطق على الطريق الصحراوي متجهاً نحو الغرب حتى نزل على طنجة^(٦)، فلقبه بطريق رومي اسمه يوليان بالهدايا، ثم سار إلى مناطق السوس الأقصى فقاتل البربر وهزمهم، حتى بلغ بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) الذي شكل عائقاً أمام تقدم قوات عقبة بن نافع؛ فقال:

"اللهم إنك تعلم أنني لا أريد أن يعبد على وجه الأرض أحد سواك، يا ربّ لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك"^(٧)؛ ثم عاد غازياً دون التقدم في البحر.

إذاً وقف البحر دون تقدم القائد عقبة بن نافع، وعلى ما يبدو أن توغله في الصحراء بقوات قليلة كما ورد سابقاً، لم يكن أمراً مشجعاً له على الغزو في البحر، ولو وجدت لديه السفن والقوات الكافية لعله كان أبحر باتجاه الغرب، أو باتجاه الشمال نحو الأندلس.

(١) معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبرة الكندي السكوني التجيبي. أبو نعيم، الأمير الصحابي، كان ممن أبلوا بلاءً حسناً في وقعة اليرموك، وفي سنة ٣٨هـ/٦٥٨م جهزه معاوية بجيش ووجهه إلى مصر فانتزعها من محمد بن أبي بكر عامل علي بن أبي طالب عليها، وفي سنة ٤٥هـ/٦٦٥م ولاة معاوية على إفريقية وعزله عنها سنة ٤٩هـ/٦٦٩م. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص: ٤٣٤.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ق: ٢، ص: ٣٢٩. العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص: ١٧٣.

(٣) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص: ٩٨.

(٤) مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص: ١٤٢.

(٥) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص: ٦٤.

(٦) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو من البر الأعظم وبلاد البربر، وهي على ظهر جبل. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص: ٤٣.

(٧) العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص: ١٧٤.

وبعد أن رتب الوالي حسان بن النعمان الغساني^(١) عمليات الفتح، وأمور الدولة على أسس ثابتة عمد إلى تأسيس مدينة تونس سنة (٨٤هـ/٧٠٣م)^(٢) لتكون قاعدة بحرية، فأين اختار مكانها وهل كان للبحر أثر في ذلك؟

لعل الوالي حسان بن النعمان فطن إلى أهمية أن تكون بعيدة أيضاً عن البحر من أجل اتقاء هجمات الروم البحرية- كما هو الحال بالنسبة لمدينة القيروان- وهذا ما رجحه "كينيدي" عندما ذكر أن جاذبية تونس تتمثل في أنها لم تكن على البحر المفتوح، بحيث تكون عرضة للهجمات البيزنطية البحرية، فاختار مكانها على بحيرة ضحلة هي بحيرة (جون) وكانت تربطها بالبحر قناة صغيرة في ذلك الوقت، وهذا آمن لها الحماية بشكل كبير وجعل منها قاعدة بحرية رئيسية في أفريقية^(٣).

وبعد أن أصبح للعرب قاعدة بحرية في شمال أفريقية تعمل على مواجهة التفوق البيزنطي حاولوا استغلال ذلك في حملات بحرية عديدة ومنها سنة (٨٤هـ/٧٠٣م) عندما وصل أسطول مصري تحت قيادة عطاء بن رافع إلى شمال أفريقية، وقام الأسطول بحملة على جزيرة سردينيا^(٤) على الرغم من تحذيرات الوالي موسى بن نصير. انظر خريطة (٣٩).

وبشكل عام يمكن القول أنه خلال خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) وابنه الوليد (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) استغل المسلمون البحر، وأتموا فتح المغرب إلى طنجة وجزء من جنوب فرنسا، فأصبحت أجزاء كبيرة جداً من ساحل البحر المتوسط في أيدي المسلمين، وأصبحت تونس ميناءً جديداً حلَّ محل قرطاج، واهتموا بالسواحل والأساطيل، وأنشأوا الأربطة على السواحل.

وما يهم أن لهذا الأمر أثره الكبير، فقد غدا الساحل الشمالي لبلاد المغرب والساحل الشرقي للأندلس بعد أن أصبحا بأيدي المسلمين مركزين للقيام بالأعمال التجارية والأنشطة البحرية، وعمرت السواحل والموانئ، ودبت الحياة في حوض المتوسط^(٥).

(١) حسان بن النعمان الغساني (ت بعد ٨٦هـ/٧٠٥م): هو حسان بن النعمان بن عدي الأزدي، الغساني، قائد من رجال السياسة والحرب، من المشهورين في الفتوحات الإسلامية، كان يلقب بالشيخ الأمين، ولي إفريقية زمن معاوية بن أبي سفيان، وكان عاملاً على إفريقية أيام عبد الملك بن مروان، وتوجه إليها في أربعين ألف مقاتل، كانت له وقائع عديدة مع الروم في قرطاجنة، ودانت له إفريقية بعد مقتل الكاهنة دهايا، وتوجه إلى أرض الروم فتوفي فيها. أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٦٤. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ١٧٧.

(٢) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٣٥.

(٣) كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٥٦.

(٤) سردينيا: جزيرة إيطالية تقع غرب البحر المتوسط، جنوب جزيرة كورسيكا. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٥٤.

(٥) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٨٦.

لكن هذا الأمر لم يستمر بوجود القوة البحرية الرومية الحاقدة على التفوق الإسلامي، وكانت تتحين الفرصة المناسبة للانقضاض على الأسطول الإسلامي، وهذا ما حصل.

ففي سنة (١٣٠ هـ/ ٧٤٨ م) جرت معركة بين الأسطول الرومي، والأسطول المصري بالقرب من جزيرة كريت^(١)، وما يهم هو أن الأسطول الرومي استطاع الانتصار على الأسطول المصري الذي كان يتكون من ألف سفينة من مصر والشام، لأنه كان مسلحاً بالنار الإغريقية التي استخدمها الروم في أغلب معاركهم البحرية، وكانت تحقق لهم عنصر القوة، وانهزم الأسطول العربي في البحر، ولذا بالفرار، ولم ينج سوى ثلاث قطع بحرية، وكان من أثر هذه المعركة البحرية التي استغل فيها الروم عامل البحر، أن قوة مصر البحرية اختفت في البحر المتوسط أكثر من قرن من الزمان^(٢).

ومما سلف يمكن القول: إن العصر الأموي كان عصر اهتمام بالبحر المتوسط وشؤونه البحرية، لأن الدولة الأموية كانت دولة بحرية، وما ذكر من أمثلة على كثرة الحملات في البحر لعلها تؤكد ذلك، ويرجع الفضل إلى خلفاء الدولة الأموية الذين اهتموا بالقوة البحرية ووضعوا أساسها، وعملوا على تطويرها.

(١) كريت: يسميها العرب (أقريطش)، جزيرة يونانية في البحر المتوسط، اشتهرت بحضارتها القديمة، غزاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر، واحتلها الرّبيضيون الأندلسيون سنة (٢٠٢ هـ/ ٨٢٥ م)، وانتزعوها من أيدي البيزنطيين، وفيها أسسوا قاعدة لهم أحاطوها بخندق كبير، وعرفت باسم الخندق. الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، مج: ١، ص ١٤٣٥.

(٢) فرج، وسام عبد العزيز: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، مصر، ١٤٣٣ هـ/ ١٩٨١ م، ص ٢٤٣. الجزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية، ص ٥١.

★ الفصل الثالث:

أثر المناخ

مما لا شك فيه أن الظروف المناخية تلعب دوراً مؤثراً في نتائج العديد من المعارك والحروب، وهذا ما لوحظ خلال العصور الإسلامية الأولى، وامتد تأثيرها حتى العصور الحالية، لأنه على الرغم من التطور التكنولوجي الواسع الذي شهدته الصناعات الحربية، وظهور أنواع من الأجهزة الإلكترونية المستخدمة في الحروب البرية والبحرية، يبقى للمناخ أثر واضح في سير المعارك والحروب.

وعليه تبقى العوامل الجغرافية المناخية عاملاً مساعداً في حسم نتائج المعارك لصالح أحد الأطراف، وخاصة الطرف الذي يحسب لظروف الطقس حساباتها، ويجعلها موضع الاهتمام في المخططات الاستراتيجية للهجوم، ويدرس مؤثراتها من الوجهة العسكرية في ساحة المعركة التي سيختارها، وعلى العكس تماماً قد تكون ظروف الطقس عاملاً سلبياً، وتتقلب وبالألمع ومعرقلاً للمجهود الحربي، وسير العمليات الحربية للطرف الآخر الذي يهمل دراسة مؤثرات العوامل المناخية في ساحة القتال.

وفيما يلي نماذج تبرهن على أثر العوامل الجغرافية المناخية في العصر الأموي.

أولاً- أثر الأمطار والسيول.

لا يمكن إغفال دور الأمطار في أي عصر من العصور، وخاصةً إذا كان لها دور أساسي في نتائج المعركة أو الحدث أياً كان، وبعد استعراض أثر الأمطار في العصر الأموي، يمكن أن يذكر الباحث عدة نماذج، تجلى فيها أثر الأمطار.

فعندما قام معاوية بن حديج السكوني بغزوة إلى إفريقية سنة (٤٥هـ/٦٦٥م) في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، أصابه مطر شديد بعد أن نزل على جبل^(١)، وقد ظهر الأثر في تسمية ذاك الجبل الذي نزل به باسم (جبل الممطور) على حد تعبير خليفة بن خياط^(٢)، مما يدل على أثر الأمطار في تلك الغزوة بالرغم من عدم ذكر النتائج التي ظهرت نتيجة لذلك.

وتجلى أثر الأمطار أثناء حصارات المسلمين المتعددة للقسطنطينية والتي قاموا بها على مدى عدة سنوات (٤٤ - ٥٤ - ٩٨هـ/٦٦٤ - ٦٧٤ - ٧١٦م)، حيث يلاحظ معاناة المسلمين الكبيرة أمام برد الشتاء، وأمطاره الغزيرة التي جعلت ظروف حصارهم صعبة للغاية.

ولعل تلك الغزوات كادت أن تحرز انتصاراً لولا الظروف الطبيعية المناخية كبرد الشتاء ومطره وعواصفه، ومناعة أسوار المدينة، والنار التي استخدموها في الدفاع عنها، وهذا ما أدى إلى نقص الطعام والأغذية والمؤن^(٣)، وقد كان للأمطار الغزيرة أثرها على الأسطول الإسلامي المنسحب من أمام المدينة، حيث صادفته عواصف شديدة، فتحطمت سفن كثيرة، ونفذت قوات الجند، وقيل: لم يعد من أسطول القائد مسلمة الضخم إلى ثغور الشام سوى سفن قلائل^(٤).

وكان للمطر أثره على الجيش المتقدم من أجل حصار المدينة في سنة (٦٣هـ/٦٨٣م)^(٥)، فقد حاول أهل المدينة تغوير الآبار من أجل التضييق على جيش أهل الشام وعملوا خندقاً على أنفسهم، ولعل الأمطار التي سقطت عليهم أغنتهم عن الحاجة لمياه الآبار، وكانت عاملاً مساعداً لهم على الاستمرار في التقدم دون ماء، وخلال مسيرهم أرسل الله عليهم السماء بالماء، فلم يستقو بدلو حتى

(١) حسان: خلافة بني أمية عند خليفة بن خياط، ص ٢١١.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٠٧.

(٣) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٥. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣١.

(٤) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٤٣.

(٥) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١١، ص ٦١٤.

وردوا المدينة^(١)، ثم سار مسلم حتى نزل على المدينة من جهة الحرة الشرقية^(٢)، فأخاف أهل المدينة، ونهبها وقتل منهم مقتلة عظيمة، وبايعه أهلها على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية^(٣).

إذاً كان المطر عاملاً مساعداً لهم على إتمام مسيرهم إلى أهل المدينة، وأغناهم عن فقدان مياه الآبار نتيجة تغويرها.

ويبدو أن للعامل الجغرافي المناخي المتمثل بـ (الصواعق) أثره في أثناء الحصار التي قام بها أهل الشام على أهل المدينة، وفي سبيل توضيح ذلك لابد من ذكر الأمثلة التالية:

• بعد أن ترك مسلم بن عقبة حصار المدينة، واتجه إلى مكة أدركته الوفاة، وكان قد عهد إلى الحصين بن نمير التميمي في سنة (٦٤هـ/٦٨٣م)، بمتابعة الحصار قائلاً له: "انظر أن تفعل في أهل مكة وفي عبد الله بن الزبير كما رأيتني فعلت بأهل المدينة"^(٤).

وعندما وصل الحصين إلى مكة أمر بالمجانيق فنصبت، فجعل يرمي أهل مكة رمياً متداركاً لا يفتر من الرمي، وإذا بصاعقة قد نزلت فأحرقت منجنيقاً كان لهم^(٥)؛ إلا أن هذا الأمر لم يثني أهل الشام عن متابعة الرمي والتضييق على ابن الزبير ومن معه، وقد روى ذلك البلاذري: "نصب ابن نمير المنجنيق على الكعبة فارتفعت سحابة فاستدارت على أبي قبيس ثم رعدت وأصعقت، فأحرقت المنجنيق وما تحتها"^(٦).

وفي ذلك قال أعشى همدان:

أَحْرَقَ اللَّهُ مَنْجَنِيْقَ الزُّبَيْرِ^(٧)

وَرَمَى الْبَيْتَ بِالْحَجَارَةِ حَتَّى

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٥٦.

(٢) أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر، ص ٢٣٧.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٣، ص ٦٣.

(٤) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص ١٦٣.

(٥) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٥، ص ١٦٤.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٣٦٠.

(٧) ليس المقصود هنا عبد الله بن الزبير، بل الزبير بن خزيمة الذي كان مع الحصين ورمى البيت بالمنجنيق فاحترق.

البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٣٦٥.

• أما في سنة (٧٣هـ/٦٩٢م)^(١) كان للعواصف والصواعق أثراً كبيراً جداً على جيش المحاصرين لمكة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أرسله الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل القضاء على عبد الله بن الزبير، وقد ذكر عدد من المؤرخين^(٢) كيف أن العواصف ترافقت مع بداية رمي الحجاج للكعبة بالمنجنيق؛ فقد صور ابن الأثير ذلك بقوله: "وأول ما رُمي بالمنجنيق إلى الكعبة أرعدت السماء، وأبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة، فأعظم ذلك أهل الشام، وأمسكوا أيديهم"^(٣)، بعد أن كانوا يرمون البيت الحرام بالحجارة التي تقع كالمطر، حتى انصدع الحائط الذي على بئر زمزم^(٤).

وعلى ذلك ظهر الأثر، حيث أصاب جيش الشام الرعب والخوف والقلق، وظنوا أن هذا بفعل غضب الله عليهم^(٥)؛ خاصة بعد أن استمر الحجاج بالرمي، فقام هو بنفسه وأخذ حجارة المنجنيق بيده ووضعها فيه ورمى بها معهم، "فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهل الشام"^(٦)؛ وهنا خاف أهل الشام أن يكون الله عز وجل قد سلط عليهم الصواعق، ويؤكد ذلك قوله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَيَرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾^(٧).

إلا أن الحجاج عمد إلى تهدئة النفوس بعد أن لاحظ عليها القلق وعدم الرغبة في متابعة الحصار والرمي؛ فقال: "يا أهل الشام لا تتكروا هذا فإنني ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر فأبشروا"^(٨).

وفي اليوم التالي أصابت الصواعق عدد من أصحاب ابن الزبير، فقال الحجاج: "ألا ترون؟ أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلافها"^(٩)؛ وهكذا استمرت الحرب حتى تم قتل ابن الزبير فيما

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٦٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢٣. الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٤٧٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٨٧. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٣٤٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢٣.

(٤) الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٣٤٠.

(٥) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٧٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج: ٤، ص ١٢٣.

(٧) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٨٧-١٨٨.

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٨٧-١٨٨.

بعد، فهل كانت الصواعق المرافقة لرمي الحرم المكي غضباً من الله سلطه عليهم، أم أنه عامل جغرافي طبيعي حصل بمحض الصدفة؟.

ويجد الباحث أنَّ سبب تسمية منطقة بُطنان حبيب^(١) من أرض قنسرين التي كان يعسكر فيها الخليفة عبد الملك بن مروان بـ(بُطنان الطين)، ما هو إلا بفعل العامل الجغرافي المناخي المتمثل بالأمطار والشتاء، لأنه كان يعسكر فيها أثناء حربه مع مصعب بن الزبير^(٢)، وقد أصابهم مطر شديد، وكثرت الوحول والطين أيضاً، وكان يشتمو بها عبد الملك ثم يعود إلى دمشق، ومصعب يعود إلى العراق^(٣)؛ فسميت المنطقة بذلك الاسم، وكان ذلك في سنوات (٦٨-٧١هـ/٦٨٧-٦٩٠م)^(٤).

وفي سنة (٧٨هـ/٦٩٧م) كانت غزوة محرز بن أبي محرز إلى بلاد الروم، وفيها تم فتح بعض الحصون^(٥)، لكن ما يهم هو الأمطار التي سقطت على المسلمين بعد أن انتهوا من معاركهم، حيث أصابهم مطر شديد، فأصيب فيه ناس كثير^(٦)، دون أن يتم ذكر الأثر البالغ سلباً أو إيجاباً، ولكن بكل تأكيد ثمة أثر سلبي على عودة جيش المسلمين الذين تعرقل سيرهم بسبب الأمطار والوحول التي خاضوا فيها.

ولو طُرح السؤال التالي، لماذا سميت سنة (٨٠هـ/٦٩٩م) بعام الجُحاف^(٧)؟

يمكن القول بناءً على ما أورده المصادر^(٨): إن عام الجُحاف سمي بهذا الاسم نسبةً إلى السيل الجارف الذي حدث في مكة من ذلك العام، وقد جاء عند ابن سعد نقلاً عن الواقدي ما يبرهن على ذلك؛ فقال:

(١) **بُطنان حبيب**: بقنسرين من أرض حلب، وقد نسب إلى حبيب بن مسلمة الفهري، وقيل بطنان حبيب بأرض الشام، وبها شتى عبد الملك بن مروان. **الحموي: معجم البلدان**، مج: ١، ص ٤٤٨.

(٢) **الحموي: معجم البلدان**، مج: ١، ص ٤٤٨.

(٣) **الكوفي: كتاب الفتوح**، ج: ٦، ص ٣٢٧.

(٤) **الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، ج: ٦، ص ١٢٧-١٥١.

(٥) ومنها حصن أزقة، كما ذكر ابن خليفة في نقله عن ابن الكلبي.

(٦) **ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط**، ص ٢٧٧.

(٧) **ابن الأثير: الكامل**، ج: ٤، ص ١٩٢.

(٨) **الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، ج: ٦، ص ٣٢٥. **ابن الأثير: الكامل**، ج: ٤، ص ١٩٢. **ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، ج: ٩، ص ٢٤٣.

"جاء سيل بمكة، فذهب بالحاج والإبل والحمول والنساء، فأغرق خلقاً عظيماً، وبلغ الماء الركن الأسود وجاوزه، ولم يقدروا على منعه؛ فسمي الجحاف، لأنه جحف كل شيء مرّاً به، فسمي ذلك العام بعام الجحاف"^(١).

وأضاف ابن كثير إلى رواية الواقدي قوله: "إن السيل بلغ إلى الحجون"^(٢)، وغرق خلق كثير، وقيل: إنه ارتفع حتى كاد أن يغطي البيت الحرام، والله أعلم"^(٣).

وفي سبيل حلّ هذه المشكلة أمر الخليفة عبد الملك بن مروان، عبد الله بن أبي سنان المخزومي واليه على مكة بالقيام بعمل سواتر وردميات - أي حواجز - على السكك - أي الطرق - المؤدية إلى البيت، كإجراء علاجي ووقائي في حال تكرّر هذا الأمر فيما بعد"^(٤).

وبعد أن فتح القائد محمد بن القاسم الثقفي مدينة الديبل سنة (٩٣هـ/٧١٠م) توجه إلى مدينة البيرون من أجل فتحها، وعندما نزل في موضع من ضواحيها، كانت مصادر المياه بعيدة عنهم، كما أن نهر السند لا يمر بذاك الموضع الذي نزلوا به؛ فعانى المسلمون من الجهد والعطش والتعب، لكن الله تعالى قيّض للمسلمين الأمطار، فما الذي حصل؟

بعد أن عانى الجنود من العطش والتعب أرسل الله السماء بالمطر، فأمرت، وامتألت الخزانات بالمياه، وشرب جنود الإسلام وحمدوا الله تعالى"^(٥)، واستطاعوا متابعة المسير وإكمال فتح باقي المناطق.

فكان نزول المطر عاملاً لتقوية المسلمين وشد أزهرهم، وتقوية قلوبهم، وهذا الأمر ليس جديداً فقد حصل في غزوة بدر الكبرى سنة (٢هـ/٦٢٤م) التي تقدم ذكرها"^(٦)، وفيه خير دليل أن الله تعالى يؤيد أوليائه بنصره ومعاونته لما يريد بهم من إظهار دينه وإعلاء كلمته.

وفي سنة (١١٠هـ/٧٢٩م) كانت وقعة كمرجة عندما حاصر خاقان (ملك الترك) المسلمين فيها، وما يهم في هذه الواقعة أنه كان للمسلمين فيها خندق يحميهم، فعمد خاقان إلى طريقة من شأنها

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٢٤٣.

(٢) الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، ومكان من البيت على بعد ميل ونصف. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٢٢٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٢، ص ٢٩٦.

(٤) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٧٤.

(٥) الحمّيدي: فتوح بلاد السند في عهد الأمويين، ص ٢٩.

(٦) راجع المبحث الثالث من الفصل الثاني.

إغلاق الخندق، لكي يجتازوه ويقطعوا إلى المسلمين، فكيف تصرف خاقان في سبيل ذلك؟ وما هو أثر الأمطار؟

لقد تمت الإشارة إلى أنَّ خاقان حاول اجتياز الخندق من خلال ملئه بالحطب في بادئ الأمر، لكنَّ كان الفشل الذريع هو النتيجة لذلك الأمر بفعل النار والرياح^(١)، ثم عمد إلى تصرف آخر رأى أنه من الممكن أن يكون بديلاً عن الحطب الذي أحرقتة النار، ففرَّق على الترك أغناماً، وأمرهم أن يأكلوا لحمها، ويحشوا جلودها تراباً، ويكبسوا- يملؤوا- الخندق بها ففعلوا ذلك.

وهنا كانت المفاجأة الكبرى للأتراك التي أوردها ابن الأثير في تاريخه قائلاً: "أرسل الله سحابة فمطرت مطراً شديداً فاحتل السيل ما في الخندق وألقاه في النهر الأعظم"^(٢).

من خلال ما تقدم يلاحظ بأنَّ الأمطار كانت عاملاً مساعداً للمسلمين حيث حمتهم من الهجوم المؤكد للأتراك لو تم اجتياز الخندق، فأخذ السيل ما في الخندق من جلود الحيوانات المليئة بالتراب، مما جعل الخندق فارغاً، وذهب تعب الأتراك أدراج الرياح.

وفي نفس السنة حدثت غزوة الطين^(٣)، التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى أمطار الشتاء، والوحوّل التي خاض فيها المسلمون من أجل الوصول إلى الشام، وذلك بعد أن زحف القائد مسلمة بن عبد الملك في جموع عظيمة لقتال خاقان (ملك الترك)، "فاقتتلوا قريباً من شهر في الشتاء، وأصابهم فيها مطر شديد"^(٤)، وقد انتصر مسلمة على خاقان، الذي انهزم في زمن الشتاء، ورجع مسلمة ظافراً، وسلك مسلك ذي القرنين أثناء مسيره إلى الشام^(٥)، المهم أنهم سلكوا على مواضع ومفارق غرق فيها دواب كثيرة^(٦)، وتوحد فيها خلق كثير بفعل الأمطار، فما نجوا حتى قاسوا شدائد عظيمة، وأهوالاً كبيرة^(٧).

وختاماً، يمكن الإشارة إلى أهمية مياه الأمطار واهتمام الخلفاء الأمويين بها من خلال حرص الخليفة سليمان بن عبد الملك على تتبع أخبار سقوط الأمطار وكمياتها في الأقاليم الإسلامية، لأنه عدا عن أثرها على العمليات العسكرية كان لها أثر اقتصادي لارتباط ذلك بكميات الخراج، فكلما كان

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٦٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٨٧.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٥٤.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ٣٣٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج: ٤، ص ٣٨٩.

(٦) الأسطل: مسلمة بن عبد الملك، ص ١٢٠.

(٧) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٣٠.

نزول المطر أوفر زاد وارد الخراج وبالعكس؛ فقد روي أن يزيد بن المهلب بعث سريعاً إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك، فقال سريع: "فعلمت أنه سيسألني عن المطر.. فأعطيت أعرابياً درهماً وقلت: كيف أقول إن سئلت عن المطر؟ فقال: قل جاء مطر غزير درير فعمد الثرى، وأخطر العمير، واستأصل العرق، ولم أر وادياً إلا دارياً؛ فلما دخلت على سليمان سألتني عن المطر، فقلت هذا الكلام"^(١).

ذاك لمعاً من الأمثلة التي توضح أثر الأمطار، فماذا عن أثر الجفاف والقحط؟

ثانياً- أثر الجفاف والقحط.

يُلاحظ بأنَّ هناك قلة في سنوات القحط التي شهدتها العصر الأموي، ويمكن القول أنَّ تأثيرها انحصر في وقف الغزو، وإرجائه حتى وقت لاحق، أو التخلي عن عمليات الحصار التي كان يقوم بها العرب المسلمين في سبيل نشر الإسلام وفتح المناطق التي لم يسلم أهلها بعد.

وكان ذلك بهدف أن تكون السنة خصبة، ووفرة الأمطار من أجل تأمين احتياجات الجيش والخيول والدواب المرافقة له من الغذاء والأعشاب والحبوب، وهذا لا يمكن في ظل ظروف القحط والجفاف مع ما يرافقه من قلة في الغذاء والأطعمة، وما يمكن ملاحظته أن حالات الجفاف والقحط كانت ترتبط بدرجة كبيرة بانحباس المطر وعدم انتظام سقوطه، وبالتالي كان اختلاف سقوط مياه الأمطار من منطقة لأخرى يؤثر في الإنتاج الزراعي ومن ثم حدوث القحط أو عدمه، والأمثلة التالية توضح ذلك.

كانت الحجاز تمتاز بقلّة الأمطار بصورة عامة لاسيما في المناطق البعيدة عن البحر مثل مكة والقرى المحيطة بها، ودليل ذلك ما جاء في وصية مسلم بن عقبة إلى قائد الجيش (الحصين) الذي توجه لمحاصرة ابن الزبير بمكة سنة (٦٤هـ/٦٨٣م) حيث ورد: "احفظ عني ما أقول لك، لا تطيلنَّ المقام بمكة، فإنها أرض محتدمة الحر لا تصلح الدواب بها"^(٢).

ومن خلال ذلك يستدل أن الجفاف والقحط المرافق لدرجات الحرارة العالية من الممكن أن يكون سبباً في القضاء على الدواب والجيش الشامي المتوجه إلى الحجاز، وعليه كانت الوصية بعدم الإطالة في المكوث بمكة.

(١) دحماني، فاتح وتركية رحالي: السياسة الزراعية في العصر الأموي ٤١-١٣٢هـ/٦٦٢-٧٥٠م، كلية العلوم

الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بو ضياف، المسيلة، الجزائر، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص ٣١.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٣٥٠. دحماني: السياسة الزراعية في العصر الأموي، ص ٢٩.

وجاء في إشارة أخرى أن المدينة تشابه مكة في أوضاعها المناخية، وقلة الأمطار عموماً التي تؤدي إلى حالات من القحط ويقال فيها: "اشتدت على أهل المدينة وجهدوا فيها بالقحط"^(١).

إذاً لا ريب أن حالات الجفاف والقحط تراكمت مع انعدام هطول الأمطار وإمساك السماء، ولم يقتصر ذلك على المدينة ومكة فحسب، بل كان في أغلب مناطق الدولة الأموية مثل الشام والعراق.

وقد كانت سنة (٦٨٧هـ/٦٨٧م) سنة جوع وقحط وجفاف، وذكر ابن خياط في سنده عن محمد بن عائذ: "كان الجوع فترك أهل الشام الغزو سنة ثمان وستين"^(٢)، كما أن سنة (٧٩هـ/٦٩٩م) كانت سنة قحط ترافق مع الطاعون الشديد الذي أصاب أهل الشام حتى كادوا يفنون فلم يغز في تلك السنة أحد كما ذكر^(٣).

إذاً برز أثر الجفاف والقحط في إعاقة الغزو، وتأخيره حتى وقت آخر يمكن من خلاله الاستئناف في الغزو.

ويبدو أن سنة (٧١هـ/٦٩٠م) كانت سنة جفاف وجذب، وبرز ذلك عندما أراد الخليفة عبد الملك بن مروان أن يتوجه إلى العراق من أجل ملاقاته مصعب بن الزبير والتخلص منه^(٤)، وقد استشار أصحابه في ذلك، فأشار عليه بعض أصحابه وقدموا له نصيحة بعدم القيام بالتوجه للحرب، وكان السبب الأساسي وراء ذلك هو الجذب والقحط، وفي ذلك أورد ابن الأثير:

"وقال بعضهم: إن العام جذب، وقد غزوت سنتين فلم تظفر، فأقم عامك هذا".

وعلى هذا الرأي قدّم الخليفة تبريراً أن قيامه بالغزو مخافة أن ينفذ المال من أرض الشام، وأن توجهه إلى العراق بناءً على طلب من أشرف العراق قائلاً: "الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه، وقد كتب كثير من أشرف العراق يدعونني إليهم"^(٥).

(١) الشريف، إبراهيم محمد: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، الاسكندرية، مصر، (د.ت)، ص ١٧٣.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٦٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٩١. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٢٣٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٥١.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٠٤.

ثم عقد العزم على المسير إلى العراق، وبناءً على ذلك لم يثن القحط والجذب الخليفة عبد الملك بن مروان عن محاولة تحقيق ما كان يخطط له، وسار إلى العراق ونزل بمسكن، وجرت وقائع المعركة التي انتهت بقتل مصعب ودخول عبد الملك الكوفة^(١).

وقد أصاب عبد الله بن الزبير والذين معه القحط والمجاعة أثناء حصار الحجاج له سنة (٧٣هـ/٦٩٢م)^(٢) حتى غلت الأسعار وقلت الأقوات وجاعت الناس، وكان من نتيجة القحط أن اضطر ابن الزبير المحاصر في مكة إلى ذبح فرسه، وتقسيم لحمها بين أصحابه، لكن هل استطاع أن يخرج بجل مناسب لهذه المشكلة؟

إن ما حصل يدل على سوء تقدير ابن الزبير، لأن بيوته كانت مملوءة بالقمح والشعير والذرة والتمر، ومع ذلك "لم يكن ينفق منها إلا ما يمسك الرمق"^(٣)، ولعله كان ينوي الاحتفاظ بها لمواجهة الحصار وطول أمده، لكن النتيجة انعكست سلباً عليه حيث تفرق أصحابه عنه، وكان من ضمنهم ابنه حمزة وخبيب؛ وبالتالي ضعف موقف ابن الزبير وانتهى الأمر بقتله^(٤).

وكانت سنة (٨٨هـ/٧٠٨م)^(٥) سنة جفاف وقحط، والدليل على ذلك أن عمر بن عبد العزيز قام بالحج في هذه السنة^(٦)، وساق معه بدنأً، فلما وصل إلى التميم، أخبروه أن مكة قليلة الماء والمطر، قد أصابها الجفاف والقحط، وأنهم يخافون على الحاج من العطش وقلة الزاد، وهنا عمد عمر بن عبد العزيز إلى إجراء من شأنه أن يحول دون هذه المشكلة البيئية، فماذا فعل؟

(١) طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ٨٠.

(٢) اليعقوبي، يحيى إبراهيم: الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، تقديم: أكرم العمري، دار الهجرة، (د.ت)، ص ٦٦١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٢٣.

(٤) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٢٥.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٢، ص ٤١٥.

(٦) اختلف المؤرخون فيمن قام بالحج في هذه السنة، فقال الواقدي: أنه عمر بن عبد العزيز، أما المسعودي ذكر أن من قام بالحج هو: الوليد بن عبد الملك، وهناك رأي ثالث يقول: عمر بن الوليد بن عبد الملك من قام بالحج في هذه السنة. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٤٣٨. ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٤٢٤.

بعد أن علم عمر بن عبد العزيز بذلك، استنصر الله عز وجل بالدعاء والاستسقاء قائلاً: "المُطَلَّب ههنا بَيِّن، فتعالوا ندعُ الله"^(١)؛ فدعا وأمنوا، فما وصلوا إلى البيت إلا والمطر قد هطل، وفي ذلك يروي الطبري عن صالح بن كيسان قوله:

"قرأتهم دعوا ودعا معهم، فألحوا في الدعاء، فلا والله إن وصلنا إلى البيت في ذلك اليوم إلا مع المطر حتى كان مع الليل، وسكنت السماء، وجاء سيل الوادي، فجاء أمر خافه أهل مكة، ومُطِرَتْ عرفة ومنى"^(٢)؛ وما يهم هو النتيجة التي ظهرت على أرض مكة بعد أن كانت جافة تعاني من القحط في ذلك العام، فقد أخصبت الأرض خصباً عظيماً بمكة وما حولها^(٣).

وهذا الأمر ليس بجديد، وللتأكيد يجب الالتفات إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه حلّ في زمنه القحط والجفاف - كما ذكر سابقاً - فقام بصلاة الاستسقاء في سنة (١٨هـ/٦٣٩م)، وذلك بعد أن أصاب الناس في المدينة والحجاز مجاعة شديدة وقحط وجذب^(٤)، وقد استجاب الله لدعائهم في ذلك الوقت، وشاءت قدرته استجابة الدعاء في هذه المرة أيضاً.

ولو سأل سائل لماذا أغلب حالات الجفاف كانت تحصل في أرض الجزيرة العربية بما فيها الحجاز ومكة واليمن؟

يمكن الإجابة على ذلك من خلال ما ذكره ابن خلدون بقوله: "اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب، ولا كل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهلها خصب العيش من الحبوب والحنطة... وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن..^(٥)"

إذاً طبيعة الأرض الصحراوية ومناخها الجاف كان السبب الرئيسي لحدوث حالات عديدة من الجفاف الذي يرافقه القحط.

وأشار ابن الأثير أن أفريقية كان لها نصيب من حالات القحط ذاكراً أنه في سنة (٨٩هـ/٧٠٧م) عندما ولي الخليفة الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ولاية أفريقية "قحطت واشتد بها الغلاء"،

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص: ٤٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص: ٢٤٨. ابن الجوزي:

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص: ٤٢٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص: ٤٣٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص: ٢٤٨. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٢، ص: ٤١٦.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص: ١٣٨. الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص: ١٨.

(٥) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٧٤.

وكان رد الفعل كما هو الحال بالنسبة لجميع المسلمين عندما يتعرضوا لحالات القحط والجفاف أن قاموا بالاستسقاء "فاستسقى بالناس وخطبهم ولم يذكر الوليد، وقيل له في ذلك؛ فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لأحد ولا يذكر إلا الله عز وجل"^(١)؛ وكانت النتيجة أن سقي الناس ورخصت الأسعار، ثم خرج غازياً يريد من بقي من البربر.

وأضاف أنه في سنة (٩٥هـ/٧١٤م) أجذب أهل أفريقية^(٢)، وكان واليهم في هذه السنة موسى بن نصير، حيث "استسقى- موسى بن نصير- ودعا وسأل الله، فقل له بعد أن نزل على المنبر: ألا تدعو لأمر المؤمنين؟ فقال: ليس هذا يوم ذاك، فجاء الغيث سحاً"^(٣) وسُقُوا سَقِيًّا كَفْتَهُمْ زَمَاناً"^(٤).

إذاً بعد انتهاء القحط والجذب تابع موسى بن نصير عمليات الفتوح، وهذا يدل على أثر القحط السلبي وإعاقته للعمليات العسكرية.

وقد وقع قحط شديد بخراسان سنة (١١٥هـ/٧٣٤م) وكان والي الجنيد بن عبد الرحمن، فماذا فعل في سبيل حل تلك المشكلة البيئية؟

يجد الباحث أن القادة كانوا يستجِدون بالمناطق التي لم تتأثر بحدوث القحط، من أجل إرسال المساعدات إلى المناطق التي حصل بها القحط وهذا ما حصل؛ فقد أرسل الجنيد إلى الكور من أجل إرسال الطعام إلى مرو (مركز المسلمين في خراسان في ذلك الوقت)^(٥)، وهذا كان له أثر إيجابي كبير، حيث عزز قيم الإسلام والتواصل بين المناطق الإسلامية، وعزز وحدة الشعور الإسلامي، وخفف من حدة هذه المشكلة.

وما يجب الالتفات إليه أن أغلب حالات الجفاف والقحط كانت تترافق بعامل جغرافي بيئي وهو الطاعون^(٦)، حيث يعد من العوامل البيئية ذات الأثر الكبير على حياة الإنسان، وكان أثره سلبياً بكل

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٥٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٧٨.

(٣) سحاً: سحا الطين: قشره، وجرفه. وهو: السيل الجُرافُ، والمطرَةُ الشديدة الوقع. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٢٩٣.

(٤) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٣٧٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٤٠٩.

(٦) الطاعون: هو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض الناس، ويكون مرضهم واحداً بخلاف بقية الأوقات، فتكون الأمراض مختلفة. وقال ابن عبد البر: غدة كغدة البعير، تخرج في الآباط، وقد تخرج في الأيدي والأصابع وحيث شاء الله تعالى من البدن. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢هـ/١٤٤٩م): بذل الماعون في فضل الطاعون، تح: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض، (د.ت)، ص ٩٦.

معنى الكلمة، إذ لم يقتصر تأثيره على العمليات العسكرية والفتوحات، بل شمل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالمصادر لم تغفل أثر هذا الجانب على المقاتلة العرب، وأطلقوا عليها تسميات متعددة منها الوباء الذي يؤدي إلى كثرة الوفيات^(١)، وبالتالي استشهاد عدد كبير من القادة وهذا كان له أثره على حركة الفتح والعمليات العسكرية، حتى أن مدّ الفتح قد توقف في كثير من السنوات التي كانت تشهد انتشار الطواعين^(٢).

ومما سلف يتبين أنّ الطواعين كان لها أثراً كبيراً جداً على الحالة الاقتصادية والعسكرية في البلاد تجلّت في توقف الزراعة والأنشطة الاقتصادية^(٣).

وبالتالي حدوث المجاعات والقلة في الأقوات ومن ثم القحط^(٤) الذي كان بدوره يؤثر على العمليات العسكرية ويؤدي إلى وقف الفتوحات وإرجائها.

ثالثاً- أثر الرياح والشمس.

كان للرياح والشمس أثراً كبيراً ظهر في أحداث العصر الأموي، وقد حاول القواد أثناء الفتوحات والمعارك والحصارات استغلال هذين العاملين، وفيما يلي نماذج تبين أهمية استغلالهما كي يكون أثرهما الإيجابي في صالحهم، وكيف كان لهما أثر كبير على أحداث ذلك العصر.

وهذا الأمر ليس جديداً؛ ففي أحداث سنة (٦٣هـ/٦٨٣م) كانت وقعة الحرة^(٥)، وفيها يمكن ملاحظة أثر الشمس الذي حاول استغلاله الجيش المتوجه إلى المدينة من أجل حصارهم، وذلك حين أرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري، وانتدب معه اثني عشر ألفاً بعد أن خلع أهل المدينة بيعته واجتمعوا على إخراج عامل يزيد وإجلاء بني أمية من المدينة، فوصل إلى المدينة وبنو أمية محاصرون بها، ثم أخرجوا بعد أن أخذ أهل المدينة عليهم عهداً بأن لا يدلوا جيش الشام على عورات البلد وطرقه وشعابه^(٦)، وهذا ما يدل على قلق أهل المدينة من أن يأخذ عليهم أهل الشام طرائق المدينة المدينة وشعابها، واستشار مسلم عن كيفية حصار أهل المدينة؛ فأشار عليه عبد الملك بن مروان برأي

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٥٢.

(٢) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٨٨.

(٣) للمزيد عن أثر الطواعين في العصر الأموي راجع: العدوي، أحمد: الطاعون في العصر الأموي - صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٥٢.

(٥) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ٢٣٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١١، ص ٦١٤.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٥٦.

برز من خلاله أهمية استغلال الشمس وجعلها وراء ظهور الجيش، فما هو الرأي الذي طرحه عبد الملك في سبيل أخذ أهل المدينة وحصارهم؟

لقد أشار ابن الطقطقي إلى رأي عبد الملك بقوله: "الرأي أن تسير بمن معك، فإذا انتهيت إلى أدنى نخلها نزلت، فاستظل الناس في ظله وأكلوا من صفوه"؛ وهذا لأن السير سيكون في طريق صحراوي مشمس فلا بد لهم من الراحة والشرب لكي يقدروا على متابعة السير وفرض الحصار دون أن يكون أنفهم المسير الطويل، ثم مواصلة الطريق في اليوم التالي؛ فقال:

"فإذا أصبحت مضيت وتركت المدينة على اليسار. ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مُشْرِقاً، ثم تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم وقد طلعت الشمس عليهم طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذهم، بل يصيب أهل المدينة أذاها ويرون من ائتلاف بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين، ثم قاتلهم واستعن بالله"^(١).

إن القارئ لهذا الاقتراح يجد أن الاهتمام بالعامل الجغرافي المناخي وهو الشمس كان موجوداً عند القادة المسلمين، وحاولوا استغلاله بما يحقق لهم النصر على الطرف الآخر، ومن هنا تبرز أهمية مقولة الهرثمي: "توخ أن تكون الريح والشمس من وراء ظهرك"^(٢).

كما أنهم كانوا يبدؤون الهجوم في أغلب معاركهم بعد زوال الشمس وهو الوقت الذي تهب فيه الرياح وينزل الله تعالى نصره على المسلمين عملاً بمبدأ الرسول الأكرم ﷺ، وقد حصل ذلك في الحملة على بلاد القيقان^(٣) سنة (٥٠هـ/٦٦٩م)، عندما ولى زياد بن أبيه (سنان بن سلمة) فتح الهند في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وفيها أخذ سبعة أحجار وواقف القوم، ثم قال:

"إذا رأيتموني حملت عليهم فاحملوا"، فلما صارت الشمس في كبد السماء رمى الحجر في وجه القوم وكبّر، حتى بقي معه حجراً واحداً انتظر حتى زالت الشمس عن كبد السماء رمى بالحجر السابع وصاح: "حم لا ينصرون"، وكبّر وحمل عليهم، وقد كانت الشمس وراء ظهور المسلمين وفي وجه الأعداء وتم النصر عليهم، ولما سألوه أصحابه عن السبب وراء انتظار الشمس حتى تزول قال لهم: "كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ"^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٤٨٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٥٧. ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٢٤. الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٤٦٢.

(٢) الهرثمي: مختصر سياسة الحروب، ص ٣٣.

(٣) القيقان: من بلاد السند مما يلي خراسان. الحموي: معجم البلدان، مج: ٤، ص ٤٢٣.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢١٢.

وتأكيداً لذلك من المهم ذكر الحديث الذي رجع إلى النعمان بن مقرن حيث قال: "شهدت رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل أول النهر، أخر القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح، وينزل النصر"^(١).

أما الرياح فقد ظهر أثرها في كثير من أحداث هذا العصر ومثالاً على ذلك:

في سنة (٦٤هـ/٦٨٤م)، كان حصار ابن الزبير في مكة من قبل الحصين بن نمير السكوني^(٢)، وقد ضرب الحصين مكة بالمنجنيق، وهنا يجد الباحث أن الآراء قد تضاربت حول السبب الذي كان يكمن وراء حريق الكعبة، لكن ما يهم أن أغلبهم ذكر الريح وأثرها، وأنها سبب أساسي في حرق أستار الكعبة، فقد أشار البلاذري أن "رجلاً من أصحاب مسلم بن عقبة، أخذ ناراً في ليفة على رأس رمح في يوم ريح، فطارت شرارة فتعلقت بأستار الكعبة، فأحرقتها".

وهناك رواية أخرى له تفيد بأن جُزءاً جرّ فتيلة فيها نار، فسقطت في متاع بعض من حول الكعبة فاحترقت، وهاجت ريح حملت الشرر إلى الأستار^(٣).

أما الطبري فقد اتفق مع ابن الأثير في التأكيد على أثر الرياح في إشعال النار التي حرقت الكعبة قائلاً: "وكانوا يوقدون حول الكعبة، فأقبلت شرارة هبت بها الريح، فاحترقت ثياب الكعبة، واحترق خشب البيت يوم السبت". وعقب على ذلك برواية عن عروة بن أذينة الذي كان حاضراً في ذلك اليوم وسأل عن سبب حريق الكعبة، قائلاً:

"فأشاروا إلى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير، وقالوا: هذا احترقت بسببه، أخذ قبساً في رأس رمح له فطيرت الريح به، فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليماني والأسود"^(٤).

وابن الأثير ذكر قائلاً: "إن الكعبة احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق خشب البيت"^(٥).

إذاً كان للرياح السبب الأساسي بإجماع المؤرخين في إحراق ستار الكعبة بعد أن نقلت النار وأجبتها وألهبتها، بغض النظر عن توجيه الاتهام لأي من الطرفين، أهل الشام من الأمويين أم أهل مكة من اتباع ابن الزبير.

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٤٨. البلاذري: فتوح البلدان، ق: ٤، ص ٤٢٦.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٩١.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج: ٥، ص ٣٦٩. حسان: خلافة بني أمية عند خليفة بن خياط، ص ٩٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٤٩٨-٤٩٩. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٩١.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٦٤.

وفي أحداث سنة (٧٦هـ/٦٩٥م) التي كانت فيها وقعة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث مع الخارجي شبيب بن يزيد^(١)، وبعد أن نزل عبد الرحمن على عواقل نهر حولايا من أجل تأمين الحماية للجيش، قام عثمان بن قطن وأخبر الحجاج بذلك، فعزله وولى عثمان بدلاً عنه، وعندما تولى عثمان قيادة الجند قَدِمَ إلى جيش عبد الرحمن في عشية يوم الثلاثاء يريد القتال، ومناجزة الخوارج أصحاب شبيب، فقام عبد الرحمن وأصحابه بمناشدته التريث حتى اليوم التالي، ولو طرح السؤال لماذا طلبوا منه التريث؟ وما السبب في ذلك علماً أنهم كانوا مجتمعين من أجل محاربة شبيب؟

تكمّن الإجابة فيما قاله عُقيل بن شداد لعثمان مبيناً أن الرياح هي السبب، حيث قال:

"إن الذي تريد من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غداً، وهو غداً خير لك وللناس، إن هذه ساعة ريح وغبرة، وقد أمسيت فانزل، ثم أبكر بنا إليهم غدوة"^(٢).

وفعلاً ما إن نزل عن فرسه حتى سَفَت - هَبَّت - عليه الرياح، وشقَّ عليه الغبار، وكان نتيجةً لذلك أن قام ببناء قبة يتقي فيها الرياح وأثرها السيء؛ ولما أصبح يوم الأربعاء - اليوم التالي لنزول عثمان في معسكر عبد الرحمن - خرج بالناس من أجل القتال فاستقبلتهم ريح شديدة وغبرة، ومن الواضح أن أثرها كان سيئ جداً لأنه يترافق بانعدام الرؤية وإعاقة تحرك الجيش بحرية، وكان نتيجة ذلك تأجيل القتال حتى اليوم التالي، بعد أن طلب أصحاب عثمان التريث قائلين: "ننشك الله أن لا تخرج بنا في هذا اليوم، فإن الرياح علينا!"^(٣)؛ فأقام بهم ذلك اليوم حتى اليوم التالي، فكانت المعركة يوم الخميس^(٤).

إذاً كانت الرياح هي السبب الأول الذي جعلهم يؤخرون القتال مدة يومين متتاليين، الثلاثاء والأربعاء وكانت المعركة يوم الخميس، انتصر فيها شبيب وأصحابه بعد أن جازوا النهر، وحملوا على مجنبتى جيش عثمان، ثم قتل عثمان وانهزمت جموعه^(٥).

وفي سنوات حصار القسطنطينية من قبل المسلمين وخاصة سنة (٩٨هـ/٧١٧م)^(٦) كان للمطر الغزير، والعواصف، والهواء البارد، والرياح الهوجاء التي أغرقت الكثير من سفن الأسطول الإسلامي، أثراً في إخفاق الحملات جميعها؛ فقد اختل سير السفن العربية الحربية وجنحت عن مسارها وتحطم

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ٩، ص ٢٠٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٢٥٢.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٢٥٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٦٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٢٥٢.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج: ١٢، ص ٢٦٢.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٣٠.

الكثير منها^(١)، وبالتالي كان لجغرافية المناخ أثراً كبيراً في إخفاق محاولاتهم، وردهم على أعقابهم خائبين^(٢).

وفي ذلك كان لعبد المنعم الخفاجي رأي يؤكد على دور العوامل المناخية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، حيث ساهمت بدور في عرقلة النشاط الإسلامي البحري، ومنعته من مساعدة قوات مسلمة البرية، وحالت الرياح من توجه السفن شمالاً من أجل إغلاق مضيق البوسفور الذي كان المعبر الذي تصل منه الإمدادات إلى العاصمة^(٣).

ولعل السبب في ذلك يكمن في تغير اتجاه الرياح من جنوبية إلى شمالية، وبالتالي لم تكن عاملاً مساعداً للسفن، ومنعت المسلمين من إحكام السيطرة من جهة الشمال، وبقيت مصدراً لتموين البيزنطيين المحاصرين^(٤).

وفي سنة (١٠٢هـ/٧٢١م) كان تمرد يزيد بن المهلب على الخلافة الأموية، وكان على الخلافة أن تستأصل جذور هذا التمرد، فأرسلت مسلمة بن عبد الملك، ومعه جنود من أهل الشام والجزيرة^(٥)، وجرت وقائع المعركة عند مكان يسمى العقر، ودون الخوض في تفاصيل المعركة التي برز فيها أثر النهر كان للرياح أثر في انهزام يزيد بن المهلب، ومقتله، وقد تجلى في أمرين:

١. عندما قام مسلمة بن عبد الملك بحرق الجسر الذي على النهر كان للرياح أثر، إذ أججت النار، وألتهبها، فسطع الدخان وارتفع، ولما رأى أصحاب يزيد ذلك انهزموا وتفرقوا؛ فقال يزيد متسائلاً: "مما هزم الناس؟ فقالوا: أحرق الجسر"^(٦)، وعبثاً حاول السيطرة على الموقف.

٢. بعد أن فر أصحاب يزيد، امتطى جواده رافضاً الفرار، فعطفت عليه خيول أهل الشام وكان رجل من بني كلب يقال له: القحل بن عياش^(٧) نظر إلى يزيد قائلاً: "هذا والله يزيد بن المهلب، والله

(١) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٣٦.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣١.

(٣) الخفاجي، عبد المنعم وعبد العزيز شرف: معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، ط: ٢، الاسكندرية، مصر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ٦٨.

(٤) الأسطل: مسلمة بن عبد الملك، ص ١٠١.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٣٩.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٥.

(٧) القحل بن عياش: هو الذي قتل يزيد بن المهلب وقتله يزيد، حيث ضرب كل واحد منهما الآخر فقتله. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج: ٦، ص ٣٠٦.

لأقتلنه أو يقتلني"^(١)، وحمل عليه، فاضطربوا ساعة، وسطع الغبار، وهاجت الرياح، وانفجر الفريقان عن يزيد قتيلاً^(٢).

ما يهم في هذا الأمر اعتبار بعض المؤرخين أن يزيد كان قتل الغبرة التي أثارتها الرياح، فكيف ذلك؟ وما الأدلة التي يمكن من خلالها تأييد ذلك؟

لقد نقل المرعشي عن الجاحظ أن يزيد بن المهلب كان قتيلاً بسبب الغبار التي أثارتها الرياح، والدليل على ذلك أنه وُجِدَ صريعاً، وليس به أثر لطعنة أو لضربة، وهو مسدود الأنف بالغبار، ووجد في القتلى مدرك بن المهلب، وأربعة من قادة بني المهلب^(٣).

ومن خلال ما ذكره الجاحظ، يمكن القول أن الجاحظ انفرد لوحده في روايته حول مقتل يزيد بن المهلب بالغبار مشيراً إلى دور العامل الجغرافي المناخي وهو الرياح، وذلك عندما ذكر أنه قتل الغبار، أما باقي المصادر^(٤) أكدت على أنه قتل على بيد رجل من بني كلب يقال له: العجل بن عياش (القحل)، ولم يقتل بفعل الغبار، حتى وإن كان الغبار نتيجة طبيعية لحدوث أي معركة، وانتهت المعركة بمقتل يزيد وإخوته سواء بفعل الغبار أو بفعل السيف؛ وفي قول المسعودي دليل على قتل يزيد بالسيف: "فالتقى الجيشان فاقتتلوا قتالاً شديداً، وولى أصحاب يزيد عنه؛ فقتل يزيد في المعركة، وصبر إخوته أنفسهم، فقتلوا جميعاً"^(٥).

أما في أحداث وقعة كمرجة سنة (١١٠هـ/٧٢٩م)^(٦)، كان للرياح أثر كبير في تأجيج النار وإشعال جذوتها، ومن ثم احترق الحطب الذي جمعه الأتراك ووضعوه في الخندق في محاولة من خاقان ملك الترك أن يستغل الخندق الموجود حول القرية من أجل الوصول إلى المسلمين، وذكر ذلك ابن الأثير: "ثم أمر خاقان بقطع الخندق، فجعلوا يلقون الحطب،.. حتى سوى الخندق ليصل إليهم، فأشعلوا فيه النيران، وهاجت ريح شديدة - صنعاً من الله - فاحترق الحطب"^(٧).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٧.

(٢) الأزدي، أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م): تاريخ الموصل، تح: علي حبيبة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ١١.

(٣) المرعشي: غرر السير، ص ١٧٤-١٧٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٩٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٤١. الأزدي: تاريخ الموصل، ص ١١.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج: ٣، ص ١٦٥.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٦٢.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٨٧.

فكانت الرياح المسخرة عاملاً مساعداً للمسلمين^(١)، كما أن الأمطار التي سقطت وشكلت سيلاً جرف ما كان في الخندق يمكن اعتبارها عامل نصر إلهي للمسلمين.

وقد أورد ابن خليفة أن في سنة (١١١١هـ/٧٣٠م)، "أرسل عبيدة بن عبد الرحمن من إفريقية المستنير بن الحارث في ثمانين ومائة مركب، فنزل فحاصره، وهجم الشتاء ففعل بريح طيبة، وقد أبحر فجاءت ريح عاصفة فغرقت مراكبهم فلم يسلم منهم إلا سبعة عشر"^(٢).

وقد ظهر أثر الرياح في هذه الغزوة كما في ظهر حصار المسلمين للقسطنطينية، فقد حطمت الرياح السفن، وأغرقتها، وعرقلت مسير الأسطول البحري الإسلامي.

يبدو واضحاً من خلال ما تقدم الدور الفاعل والمؤثر للرياح في أحداث هذا العصر.

رابعاً- أثر الشتاء والبرد.

مما لا شك فيه أن الأحوال الجغرافية المناخية لها دور كبير في العمليات العسكرية وغيرها، ولكن ما يلاحظ الحضور الواضح للعامل الجغرافي المتمثل بالبرد والثلج، فقد كان له دور كبير جداً في أحداث العصر الأموي، ولو طُرح السؤال التالي، ما السبب في زيادة فاعلية هذا العامل المناخي وحضوره المؤثر في هذا العصر؟

يرجح أن السبب يكمن في الفتوحات التي جرت في هذا العصر، وامتدادها على رقعة جغرافية واسعة، وتوغلها في مناطق ذات طبيعة مناخية باردة جعل لهذا العامل حضوره القوي ودوره الفاعل والمؤثر، حيث توغل العرب المسلمون شمالاً حتى مضيق البوسفور، وشرقاً حتى حدود الصين، وتوغلوا في أفريقيا غرباً حتى المحيط الأطلسي، ثم جازوا الأندلس، ثم اقتحموا غرب أوروبا حتى قلب فرنسا^(٣).

(١) الرياح: لها وظائف متعددة، وخاصة إذا كانت من قبل الله عز وجل لنصرة المسلمين؛ فقد تختص بالعذاب للأعداء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿كَكَلِمَةٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

وقد تختص بالرحمة، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَكْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ...﴾ سورة الحجر، الآية: ٢٢. وفي قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ سورة الفرقان، الآية: ٤٨. عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٣٢٥.

(٢) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٤١.

(٣) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣٤.

ومما سبق يبدو واضحاً أن هذه المناطق البعيدة كانت غريبة بمناخها على العرب الذين لم يألفوا مناخها بعد.

وكما هي خطة البحث سيتم ذكر أمثلة تعطي صورة واضحة عن أثر هذا العامل ودوره في أحداث التاريخ، ومنها:

ما عرف بنظام (الصوائف والشواتي) التي نظمها المسلمون في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤٠-٦١هـ/٦٨٠-٦٦١م) إلى بلاد الروم في سبيل تحقيق أهداف الدولة الإسلامية، حيث يلاحظ من التسمية أنها كانت تنظم في أوقات معينة من السنة، ويبدو للباحث أثر الشتاء في تلك الحملات من خلال قلة عدد الحملات التي أرسلت في فصل الشتاء، وقلة مدتها، حيث لم تكن تتجاوز الشتوية عشرين يوماً^(١)، ولم تكن تتوغل كثيراً في أراضي الدولة البيزنطية، ويؤيد ذلك ما ذهب إليه رأي أحد المؤرخين المسلمين^(٢)، حيث أشار أن الأمويين لم يقدموا على إرسال حملات الشواتي إلا فيما نذر، وللضرورة القصوى دون التوغل في أراضي الدولة البيزنطية، كما أنه بين الوقت الذي أرسلت فيها الحملات الشتوية إلى الدولة البيزنطية ما بين أواخر فبراير/شباط والنصف الأول من مارس/أذار، بينما الحملات الربيعية والصيفية تبدأ لعشرة أيام تخلو من أيار/مايو، وتستمر ثلاثين يوماً حتى العشرة الأولى من حزيران/يونيو. وقد يطرح أحدهم السؤال التالي، هل للجغرافية المناخية أثر في توقيت الحملات الشتوية بهذا الوقت؟

يمكن الإجابة على ذلك بأن الشتاء البارد هو السبب الأساسي، كما أن ثمة سبب يكمن في محاولة استغلال المراعي والحشائش الطبيعية التي تنمو في فصل الربيع والصيف وتندعم في فصل الشتاء^(٣)؛ فقد كانت تنمو في مراعي البيزنطيين أيام الربيع الحشائش التي تستفيد منها جيوش المسلمين مما جعل الحملات الربيعية والصيفية أكثر من الحملات الشتوية.

وقد ظهر دور الشتاء والبرد الذي في جميع الحملات المنظمة -عدا الصوائف والشواتي- التي وجهها الأمويون إلى القسطنطينية منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، حيث بدأ بالتفكير في غزو القسطنطينية منذ فترة مبكرة جداً من خلافته، وذلك لأن فتحها كان مشروع الخلافة الأول من أجل اقتحام الغرب، ونشر الدين الإسلامي فيه.

(١) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٠٨.

(٢) أبو الفرج، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م): الخراج وصناعة الكتابة، تح: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام/العراق، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٩١-١٩٣.

(٣) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٠٨.

وعليه جهز حملة كانت سنة (٤٤٤هـ/٦٦٤م)^(١)، وقد وصلت هذه الحملة إلى برجان^(٢) على مقربة من القسطنطينية برأ، أما بحرأ فقد كان يقود الأسطول بسر بن أرطأة.

وهنا برز أثر الشتاء الذي وقف عائناً أمام تحقيق الهدف، فقد حلَّ الشتاء قبل أن يتمكن المسلمون من تنفيذ مشروعهم، فقصوا فصل الشتاء في الأناضول، وقنعوا ببعض الغارات المحلية^(٣).

وقد استمرت الغزوات سبع سنوات متتالية منذ بداية الحصار الثاني الذي بدأ سنة (٥٤٤هـ/٦٧٤م)^(٤)، يغزون في الصيف ويرتدون عن القسطنطينية في الشتاء إلى جزيرة (كيزكوس)، من أجل قضاء فصل الشتاء القارس ثم مواصلة الغزو في الصيف، وبعد أن استنفذت قواتهم هذه الغزوات، وعصف الفشل المستمر بحماسهم، واستشهد عدد من زعماءهم منهم أبو أيوب الأنصاري^(٥) الذي توفي في الحصار الأول سنة (٥٥٠هـ/٦٧٠م)^(٦)، قرروا الانسحاب النهائي في سنة (٥٥٨هـ/٦٧٨م)^(٧).

ويبدو للباحث أن الأسباب التي جعلت حصار المسلمين للقسطنطينية يفشل هي أسباب جغرافية ويمكن إجمالها فيما يلي:

- البرد الشديد القارس.
- المطر الغزير والعواصف التي أغرقت الكثير من سفن الأسطول الإسلامي.
- الهواء البارد والرياح الهوجاء.
- التيارات المائية شديدة الانحدار التي كانت تبعد السفن عن أسوار القسطنطينية.
- الثلوج والجليد الذي كان يغطي منطقة تراقيا والذي تسبب بموت العديد من الخيول والجنود الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية من جهة البر الأوروبي.

(١) وردت عند خليفة بن خياط أنها عام ٤٣هـ/٦٦٣م. ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٠٦.

(٢) برجان: تقع في شمال غربي آسيا الوسطى. عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣٦.

(٣) مصطفى: الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص ٢٢.

(٤) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٦.

(٥) أبو أيوب الأنصاري (ت ٥٠هـ/٦٧٠م): خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجار، صحابي، شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق، وسائر المشاهد، عاش إلى أيام بني أمية وكان يسكن المدينة فرحل إلى الشام، ولما غزا يزيد القسطنطينية صحبه أبو أيوب غازياً، فحضر الوقائع، ثم مرض فأوصى أن يوغل به في أرض العدو، ولما توفي دفن في أصل حصن القسطنطينية. الزركلي: الأعلام - قاموس تراجم، ج: ٢، ص ٢٩٥. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٤.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٣١٤. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، ج: ٣، ص ٢٧. طقوش: تاريخ الدولة الأموية، ص ٣٣.

(٧) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣٧.

وعليه يُلاحظ أنَّ جغرافية المناخ كان لها أثراً كبيراً في فشل محاولاتهم، وردهم على أعقابهم خائبين^(١)، وتم عقد صلح بين الخليفة معاوية وبين البيزنطيين مدته ثلاثون عاماً^(٢). وبرز أثر الشتاء أيضاً في سنة (٩٨هـ/٧١٧م)^(٣) في الحصار الثالث للقسطنطينية، وذلك في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي اقتصرَت العمليات العسكرية على الجبهة البيزنطية في عهده^(٤). فقد حشد قوات عظيمة برية وبحرية، وزودها بمقادير هائلة من المؤن والذخائر والعدد وآلات الحصار لحرب الشتاء والصيف^(٥)، وكلف أخاه مسلمة بن عبد الملك بقيادة الحملة^(٦) البرية أما البحرية فقد تولّاها عمر بن هبيرة الفزاري^(٧).

وبعد أن وصل الجيش البري والأسطول البحري إلى القسطنطينية تم تطويقها براً وبحراً بقوات كثيفة، وقد أخفق الهجوم مراراً وتكراراً أمام مناعة أسوارها، ووفرة آلات الدفاع لديهم من قاذفات النار الإغريقية والأحجار^(٨)، وبالتالي قرر مسلمة بن عبد الملك أن يفرض حصاراً شديداً على القسطنطينية، وهنا برز الشتاء ببرده وأثره القاتل، فكيف تجلّى أثر الشتاء؟

يمكن القول: إنّ الشتاء كان له أثراً كبيراً على الحصار البري تجلّى من خلال قيام القائد مسلمة بإنشاء أسراباً وبيوتاً من الخشب لجنده^(٩)، وهذا أكد عليه الطبري بقوله: "وعمل بيوتاً من خشب، فشتا فيها"^(١٠).

(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٣١.

(٢) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٩٧. مصطفى: الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص ٢٤.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٣٠.

(٤) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٤.

(٥) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣٩.

(٦) الخصري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٥٢٢.

(٧) أبو شبيكة: خلافة بني أمية عند علي بن الحسين المسعودي، ص ١٤٤.

(٨) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٥.

(٩) الأسطل: مسلمة بن عبد الملك، ص ٩٣. طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٣٧.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٣١.

وذلك لأن حصارهم بدأ قبل الشتاء بقليل^(١)، فكان صنع البيوت الخشبية من أجل الاحتماء بها من برد الشتاء القارس، وفعلاً بعد أسابيع قليلة من الحصار دخل الشتاء ببرده، وكان شديداً وقاسياً بإجماع المؤرخين^(٢)، ولم يتمكن سليمان من أن يمد الجيش المحاصر للقسطنطينية^(٣).

وبلغ برد الشتاء من القسوة والشدة ما عانى منه المسلمون كثيراً من الجوع والمرض، حتى أنهم أكلوا الجمال والبغال، وكل شيء غير التراب^(٤).

ونتيجة عن ذلك إخفاق الحصار البري والبحري؛ فقد تراجع الأسطول الإسلامي الذي لم يسلم من عنفوان المناخ الذي صادفته عواصف شديدة، فتحطمت سفن كثيرة، ونفذت قوات الجند، جعلت الخليفة عمر بن عبد العزيز يرسل سنة (١٠٠هـ/٧١٨م) إلى مسلمة طالباً منه العودة^(٥)، وقيل: لم يعد من أسطول القائد مسلمة الضخم إلى ثغور الشام سوى سفن قلائل^(٦).

وبناءً على ما سلف يُستنتج أنّ دور الشتاء بعواصفه وبرده كان له أثر بالغ في فشل الحصار برّاً مراراً وتكراراً، وهذا ما يؤكد على دور العوامل الجغرافية في توجيه الأحداث.

ومن خلال استعراض أثر الشتاء في أحداث العصر الأموي يُلاحظ أن دوره كان حاضراً في أغلب المعارك والفتوحات التي حصلت على الجبهة الشرقية والشمالية، حتى وإن لم تذكر المصادر نتائج هذا الأثر سواء سلباً أو إيجاباً، ولو لم يكن للشتاء أثراً، لما حاول المسلمون تقاديه، فغالباً ما كان القادة يضعون الخطط الاستراتيجية للهجوم والغزو خلال فصل الشتاء، ويقومون بالتنفيذ بعد انقضاء فصل الشتاء والدليل يجده الباحث في أكثر من حدث، ومنها:

ما حصل في سنة (٦٤هـ/٦٨٣م) عندما استولى عبد الله بن خازم على هراة^(٧) وانتصر على الترك؛ فهجم الأتراك على قصر كان فيه جماعة من الأزد الذين استجاروا به، فأرسل لهم زهير بن

(١) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٤٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٥٣١. أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ١٢٥.

المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٠٠. مصطفى: الدولة الأموية دولة الفتوحات، ص ٣١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٠٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٠٤. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٠٠.

(٥) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٣٧.

(٦) عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٤٣.

(٧) هراة: مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان. وهي: مدينة بفارس قرب اصطخر. الحموي: معجم البلدان، مج: ٥، ص ٣٩٦.

حيان بعد أن أوصاه بمناجزة الأتراك، وحربهم قائلاً: "إياك ومشاولة"^(١) الترك إذا رأيتموهم فاحملوا عليهم"^(٢).

ووافاهم في يوم شديد البرودة، ولما التقوا حمل عليهم زهير عملاً بوصية ابن خازم، فانتهزمت الترك، لكن ما يهم هو كيف تجلّى أثر الشتاء؟

يجد الباحث فيما أورده الطبري عن الحال التي وصل إليها زهير إثر قتاله للترك برهاناً يؤكد على مبلغ أثر الشتاء؛ فقال: "ثم رجع في نصف من الليل، وقد يبست يده على رمحه من البرد"^(٣)؛ وهنا عمد إلى طريقة من شأنها تقليل أثر البرد الشديد، فقد "دعا غلاماً له، فجعل يسخن له الشحم فيضعه على يده، ودهنوه، وأوقدوا له ناراً حتى لان ودفئ"^(٤)؛ ثم توجه إلى هراة بعد ذلك.

وما حصل في سنوات (٦٨-٧١هـ/٦٨٧-٦٩٠م)^(٥)، كان للشتاء دوره في إنهاء القتال فيها، وعودة كل من الخليفة عبد الملك بن مروان من العراق إلى الشام^(٦)، وخصمه مصعب بن الزبير الذي كان يعود إلى الكوفة، حيث كان عبد الملك يقوم بالتوجه إلى العراق في محاولة للقضاء على تمرد مصعب بن الزبير؛ إلا أن العامل المناخي من شتاء وتلج كان يقف دون متابعة القتال، حيث قيل في ذلك:

"وكان عبد الملك لا يزال يقرب من مصعب، حتى يقرب من بطنان حبيب، ويخرج مصعب إلى باجميرا"^(٧)، ثم يهجم الشتاء فيرجع كل واحد منهما إلى موضعه"^(٨).

وفي سنة (٨٠هـ/٧٠٠م)^(٩) أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي القائد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على رأس جيش قوامه أربعون ألفاً^(١٠) لقتال ملك الترك (رتبيل)، وقد توغل ابن الأشعث في بلاد الترك، وقطع فيها مسافة طويلة حتى اقترب الشتاء، وكان عبد الرحمن يدرك بمنظوره أن الشتاء عامل لا يمكن قهره، خاصة مع وجود الجبال التي لا يقدر المسلمون على اجتيازها، وتحصن رتبيل في مناطق جبلية وعرة شديدة البرودة، وما قام به يدل على السياسة الحكيمة، لأنه رأى أن يتوقف

(١) مشاولة: بمعنى لا تشدوا عليهم، ثم تسكتوا وتلبثوا في القتال. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٨٦.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٥٤٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٣، ص ٤٨٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٥، ص ٥٤٩.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٢٧-١٥١. طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٧٠.

(٦) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٧٠.

(٧) باجميرا: موضع دون تكريت، كان يعسكر عنده مصعب بن الزبير. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٣١٤.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ١٥١. الكوفي: كتاب الفتوح، ج: ٦، ص ٣٢٧.

(٩) شاعر: التاريخ الإسلامي - العهد الأموي، ص ١٧٨.

(١٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٩٣.

ليصلح المسلمون ما استولوا عليه^(١)، ويكون الشتاء ببرده القارس في تلك المناطق قد انتهى فيستأنف الغزو^(٢)، واختصر رؤيته بقوله الذي قدمه لقادة جيشه:

"نكتفي بما قد أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجتري المسلمون على طرقها، وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها إن شاء الله"^(٣).

كما أن دور الشتاء برز في سنة (٨٥هـ/٧٠٤م)^(٤) عندما قام يزيد بن المهلب بغزو خوارزم^(٥) ذات الشتاء البارد، بعد أن عصى أمر الحجاج بن يوسف الثقفي الذي رفض قيامه بالغزو، المهم أن الحملة حصلت في الشتاء، وقد وصف ذلك الطبري بقوله:

"وقفل في الشتاء، فاشتد عليهم البرد"^(٦)، وكان للبرد أثراً كبيراً فقد جعل أفراد الجيش الذين كانوا معه "يأخذون ثياب الأسرى الذين معهم؛ ونتيجة ذلك كان موت السبي الذي كان معهم"^(٧).

وفي فتح بيكند^(٨) سنة (٨٧هـ/٧٠٦م)، اقتضت خطة القائد قتبية ابن مسلمة أن يبدأ بتحركاته العسكرية في الربيع، والعودة قبل حلول الشتاء إلى مرو، لكي يقي أفراد جيشه برد الشتاء القارس فيما وراء النهر، ولكي يعد العدة لحملة جديدة^(٩).

وكان للشتاء أثراً كبيراً بعد أن تم اللقاء في طلبيرة بين موسى بن نصير مع القائد طارق بن زياد أثناء عمليات فتح الأندلس سنة (٩٤هـ/٧١٣م)^(١٠)، فقد التقيا في الخريف وبما أن الشتاء أصبح قريب، قررا وقف العمليات العسكرية ريثما ينقضي فصل الشتاء البارد، وعملا على استغلال ذلك في تنظيم الحاميات العسكرية، ووضع الخطط الاستراتيجية لاستكمال الفتوح^(١١).

(١) أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص ٦٩.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ١٩٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٣٩٦.

(٥) من قرى خراسان، الشتاء عندهم شديد جداً، بحيث أن نهر جيحون يتجمد في الشتاء وعرضه ميل واحد. الحموي: معجم البلدان، مج: ٢، ص ٣٩٥-٣٩٧.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٦، ص ٣٩٦.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٢٢٨.

(٨) بيكند: بلدة بين بخارى وجيحون، إلى الجنوب الغربي من بخارى، تقع على الطريق التجاري الذي يربط بخارى بمرو، ولها ذكر في الفتوح. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٥٣٣.

(٩) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٩٧.

(١٠) المقرئ: نفح الطيب، ج: ١، ص ٢٧١.

(١١) طهوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٢٨. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٨٧.

إذاً على الرغم من أهمية الفتوح واستمراريتها، إلا أن الشتاء ببرده شكل عائقاً أمامها، كما سبب الفشل في استكمال الفتوح في بعض الأحداث، فانتظروا انقضاء فصل الشتاء.

كما أن غزوة الطين سنة (١١٠هـ/٧٢٩م)^(١)، والتي كانت بين المسلمين والترك، قد حدثت في فصل الشتاء، وقد أصاب المسلمين فيها مطر شديد وبرد قارس^(٢)، وغرق كثير من دوابهم^(٣)، كما توكل جيش المسلمين أثناء العودة إلى الشام^(٤)، إذاً ظهر أثر الشتاء عليهم حتى لو لم يكن حاسماً.

وفي سنة (١١٢هـ/٧٣١م)^(٥) أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك، أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى أذربيجان وأرمينية، وكلفه بحماية الترك بعد أن قتل الجراح بن عبد الله الحكمي وأخذ الترك مدينة أربيل، والمهم أن ذلك الوقت كان أثناء فصل الشتاء^(٦)، فوصل إلى البلاد، وسار إلى الترك حتى وصل إلى جبال بَلَنْجَر^(٧) في شتاء بارد شديد غزير المطر، وكثير الثلوج حتى جاز البلاد في آثارهم^(٨)، ودانت له تلك البلاد، بعد أن حرق الأعداء أنفسهم بالنار في مدائنهم^(٩)، ووصل إلى أماكن أماكن لم يصل إليها أحد قبله^(١٠).

ويمكن تفسير برودة المنطقة بالطبيعة الجبلية التي سار من خلالها القائد مسلمة، وهذا صعب عليه المهمة كثيراً، على الرغم من نجاحه في المهمة التي ألقيت على عاتقه.

وختاماً، لا يمكن إلا التأكيد على فاعلية دور العوامل الجغرافية (الطبيعية والمناخية) في أحداث التاريخ على امتداد العصور منذ بدء التاريخ وحتى نهايته، وما فعله الإنسان ويفعله من محاولات للسيطرة على الجغرافية تبقى مجرد محاولات ليس أكثر، ويبقى للجغرافية القوة والهيمنة على وقائع وأحداث التاريخ بشكل عام.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٥٤.

(٢) الأسطل: مسلمة بن عبد الملك، ص ١٢١.

(٣) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٣٠.

(٤) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ٣٣٩.

(٥) في المنتظم لابن الجوزي ذكر ذلك في سنة (١١٣هـ/٧٣٢م)، أما الخضري فقد ذكر أنه في سنة (١١١هـ/٧٣٠م). ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج: ١١، ص ٢١. الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية -، ص ٥٤٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج: ٤، ص ٣٩٥.

(٧) بَلَنْجَر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، وهي مدينة جبلية. الحموي: معجم البلدان، مج: ١، ص ٤٨٩.

(٨) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج: ٧، ص ٧١.

(٩) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، ص ٣٤٣.

(١٠) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٢٨.

خاتمة



من خلال ما تقدم لا يمكن إلا الإقرار بأن الصلة بين التاريخ والجغرافية وثيقة جداً، ولا سيما بين جغرافية المنطقة والحرب التي قامت عليها، وعلى الرغم من أن التفوق في العدة والعتاد لأحد الأطراف وقيادته الناجحة يشكل أحد أهم العوامل في تحقيق النصر، إلا أن الجغرافية لها تأثير كبير على النتيجة النهائية للحرب، وفي رسم الملامح العامة التي اتخذها التاريخ منذ أقدم العصور وحتى الآن، وعلى هذا يجدر القول بأن البحث يهتم بحتمية البيئة الجغرافية في تفسير التاريخ.

وبرهان ذلك ما جاء في فصول البحث من أمثلة، أوضحت عدة نقاط يمكن إجمالها فيما يلي:

- فسرت حركة التاريخ وأرجعتها إلى تأثيرات الجغرافية، ومنها أن المعارك التي أرغمت نتائجها التاريخ أن يتخذ وجهة معينة، كان سيرها ومن ثم نتائجها يرتبط بتضاريس الأرض الطبيعية، والأحوال المناخية التي كانت سائدة في الوقت الذي حصلت فيه المعارك.
- بينت أن الرسول الأكرم ﷺ كان ينتقي المسارات إلى الغزوات ومواقعها الجغرافية بدقة متناهية، أخذاً بعين الاعتبار جميع الأبعاد والمؤثرات الجغرافية، وعمل القادة في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي على نهجه في هذا الأمر.
- أكدت أيضاً على أن العرب في الجانب العسكري كانوا قد برعوا في ممارسة كافة أساليب القتال، وأتقنوا فنونه في مختلف مراحل المعركة، ووضعوا مفاهيم جديدة للقتال، واستحدثوا أساليب تعبوية جديدة، برز فيها محاولة استغلالهم للعوامل الجغرافية، كل ذلك دلّ على فطنتهم، وإمكانياتهم القتالية العالية، إلا أن الظروف الجغرافية سواءً طبيعية أو مناخية كانت ذات السلطان الأكبر، وأخضعت أحداث التاريخ لسلطانها.
- أظهرت أن الجبال كانت عاملاً مساعداً واستخدمت من قبل الطرفين مؤثلاً للفرار في كثير من المعارك، وقد استخدمها الأعداء أيضاً مراراً وتكراراً للهروب من الجيش الإسلامي والاعتصام بها، كما كانت عاملاً يؤمن الحماية للجيش الإسلامي، وقد حرصوا في كثير من الأحيان على قصدها واستغلالها كدروع تحمي ظهورهم، وتقوي موقفهم.

- وأكدت أن الصحراء هي ملاذ العرب التي اعتادوا على العيش فيها، وتعرفوا على طرقها والسير في مسالكها ومفاوزها؛ حيث يلاحظ الباحث أن المعارك التي وقعت في أطراف الصحراء كان النصر فيها حليف العرب المسلمين إلا فيما نذر.
- أوضحت أثر المياه أيضاً ودورها في المعارك المختلفة، وقد جسده حسن اختيار القادة للموقع العسكري قرب النهر، وفي محاولة العبور أو عدمه، ووجود المخاضات التي كانت تعيق أو تساعد على اجتياز النهر وعبوره حسب مساحتها، أو حسب ارتفاع منسوب مياه الأنهار وفيضانها، وقد أثبتت معارك العبور أن الهزيمة غالباً ما تكون حليف من يعبر النهر لأنه يضع نفسه بين النهر والعدو.

فإلى أي مدى استفاد العرب من تجاربهم السالفة في تسخير العامل الجغرافي لمصالحهم في حروبهم وفتوحاتهم؟ وهل استفاد الخلفاء الراشدون من خبرة الرسول الكريم وساروا على نهجه وطوروا معارفهم الجغرافية وفنون الاستراتيجية العسكرية للتلاؤم مع الواقع الجغرافي الجديد، لاسيما أن الفاتحين في العصرين الراشدي والأموي وصلوا بفتوحاتهم إلى أصقاع لم يعتادوا على طبيعتها الجغرافية مثل بلاد السند والهند والمغرب وآسيا الصغرى؟ وهل كان العامل الجغرافي هو المؤثر الرئيسي في جسد المعارك الحربية أم اشترك مع عوامل أخرى؟

يمكن من خلال ما جاء في البحث الإجابة عن هذه الأسئلة بأن الرسول الكريم والخلفاء من بعده استفادوا من جغرافية الأراضي والمعارك وحاولوا قدر المستطاع تسخيرها لمصالحهم، وبرز ذلك في كثير من المعارك، وقد استفاد الخلفاء دون شك من خبرة الرسول المصطفى، وعملوا على نهجه واتبعوا طريقه في التخطيط والتنظيم الجيد للمعارك محاولين الإلمام بجميع العوامل التي من شأنها تحقيق النصر والظفر في المعارك.

وتبقى الإجابة على آخر نقطة وهي أن العامل الجغرافي يبقى له الدور الأكبر في تسخير النصر لمصالح الطرف الذي يستغل هذا العامل الجغرافي، فغالباً ما كان التخطيط والتنظيم يخفق بفعل عوامل جغرافية أخضعت حركة المعارك العسكرية لسلطانها.

وقد خُصِّصَت الدراسة إلى بعض التوصيات ومنها:

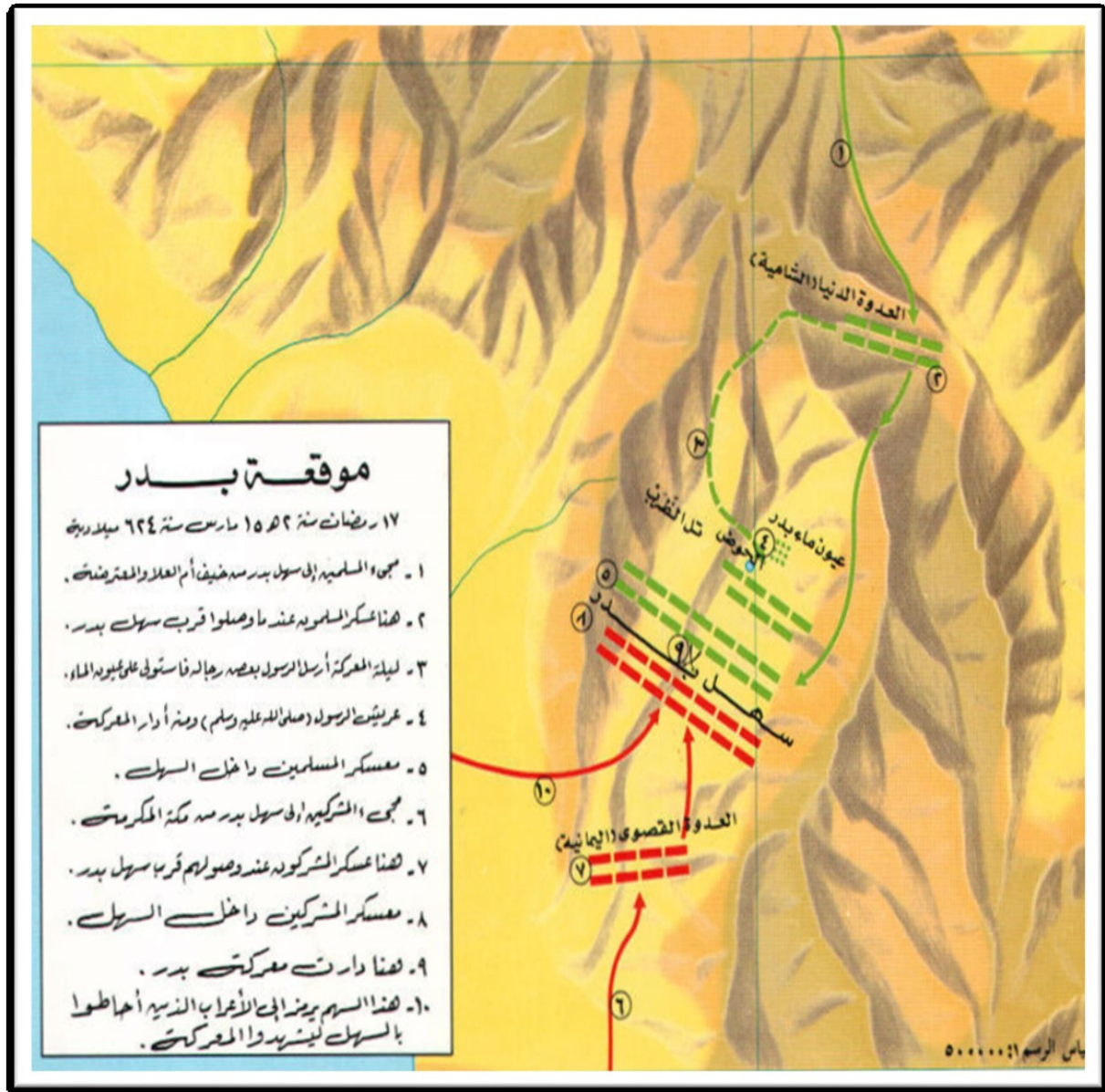
- إن الجانب الجغرافي في الدراسات الإسلامية قليل جداً وغير وافٍ، ويحتاج إلى مزيد من تسليط الضوء عليه وتوضيحه، وذلك من خلال عمل خرائط تفصيلية تبين طبيعة التضاريس التي جرت عليها المعارك، وتوضحها، وتثبت أماكن الغزوات جغرافياً ووثائقياً بشكل جيد.
- إيلاء الجانب الجغرافي في الغزوات والمعارك أهمية أكثر في البحوث والدراسات، لإبرازه وتوضيحه وبيان أهميته بالنسبة للقراء.
- الإطلاع بنظرة خاصة على الجانب الإسلامي العسكري في الدراسات والبحوث، لبيان مجمل التخطيط العسكري وبراعته، ومنهجه وتكتيكه، الذي نفذته القادة على أرض الواقع في معاركهم وغزواتهم، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف الجغرافية المحيطة بكل معركة على حدى.
- وضع قواعد بيانات جغرافية للغزوات والمعارك التي خاضها المسلمون عبر تاريخهم، وذلك للحفاظ عليها كتراث ديني وثقافي وعسكري.

وختاماً، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين.

الْمَلَأَ حَقِي

١. الخريطة (١).

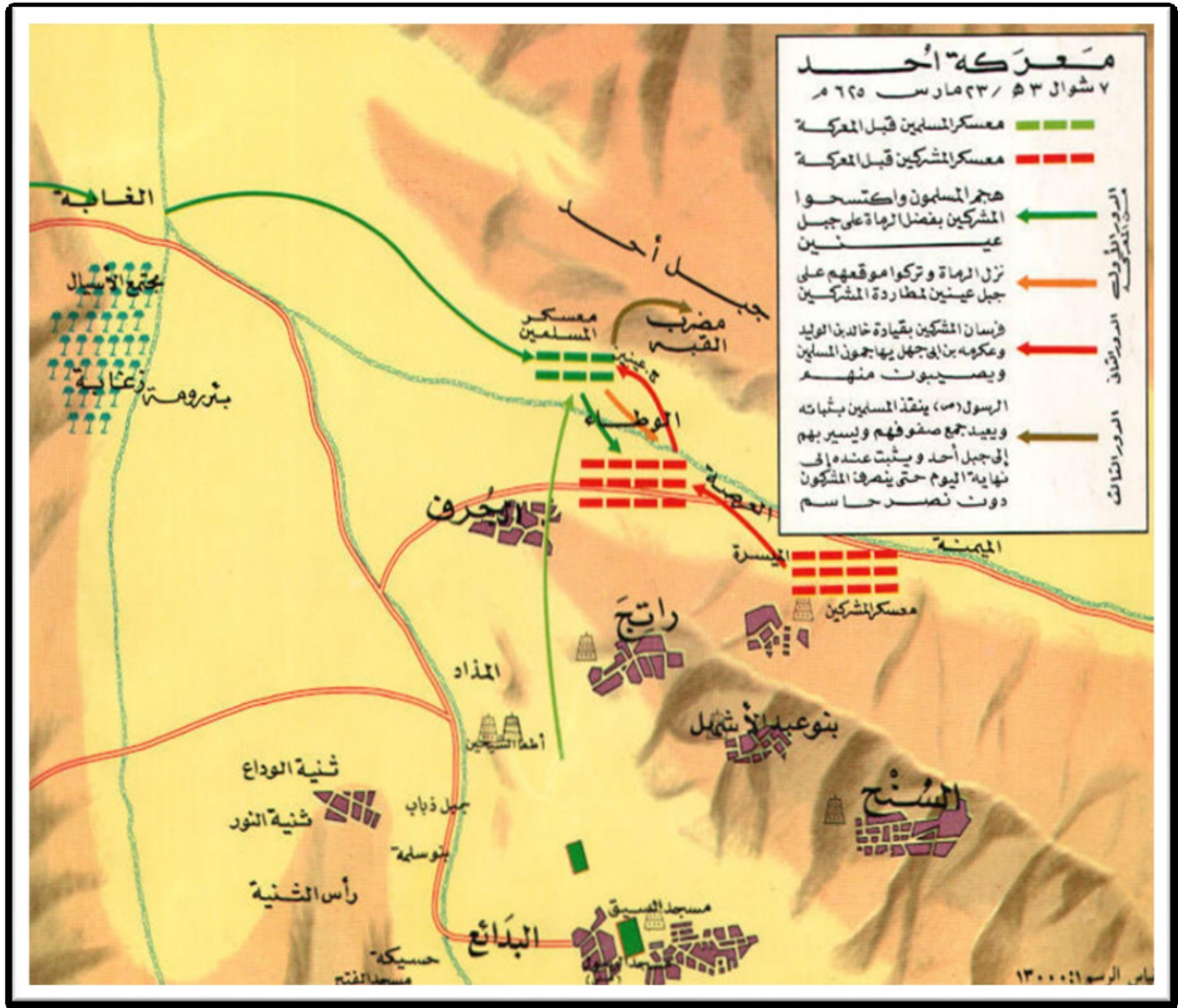
معركة بدر (٥٢/٦٢٤م)^(١).



(^١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٦٨.

٢. الخريطة (٢).

معركة أحد (١٢٥/هـ-٦٢٥م) (١).



(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٦٨.

٣. الصورة (٣).

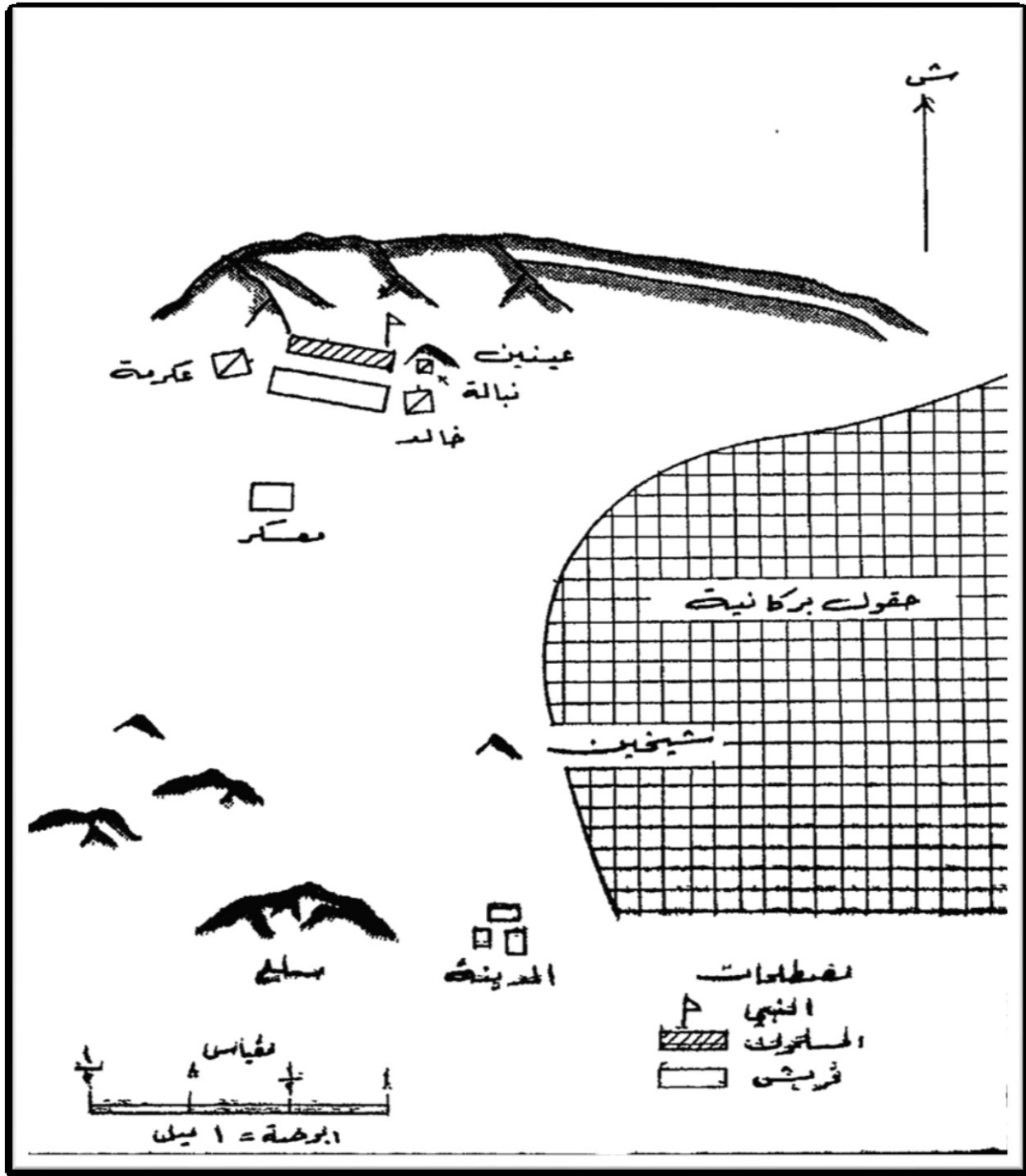
صورة جبل عينين^(١).



^(١) المغلوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول (ص)، ص ١٦٧.

٤. الخريطة (٤).

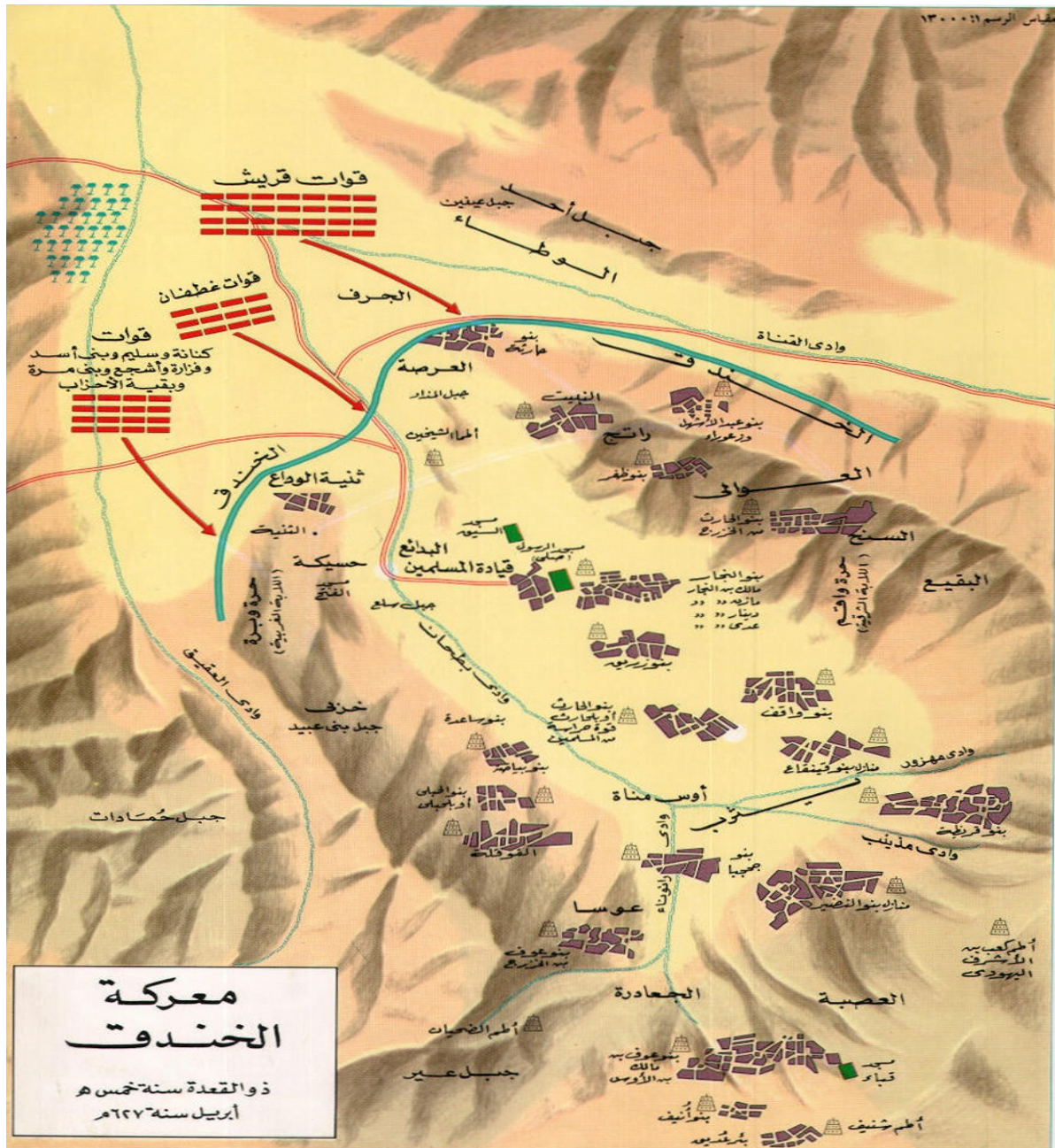
موقعة أحد (١٢٥/هـ) ودور جبل عينين^(١).



^(١) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٤٦.

٥. الخريطة (٥).

معركة الخندق (الأحزاب) (٦٢٧/٥٥م) ^(١).



(^١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٦٩.

٦. الخريطة (٦).

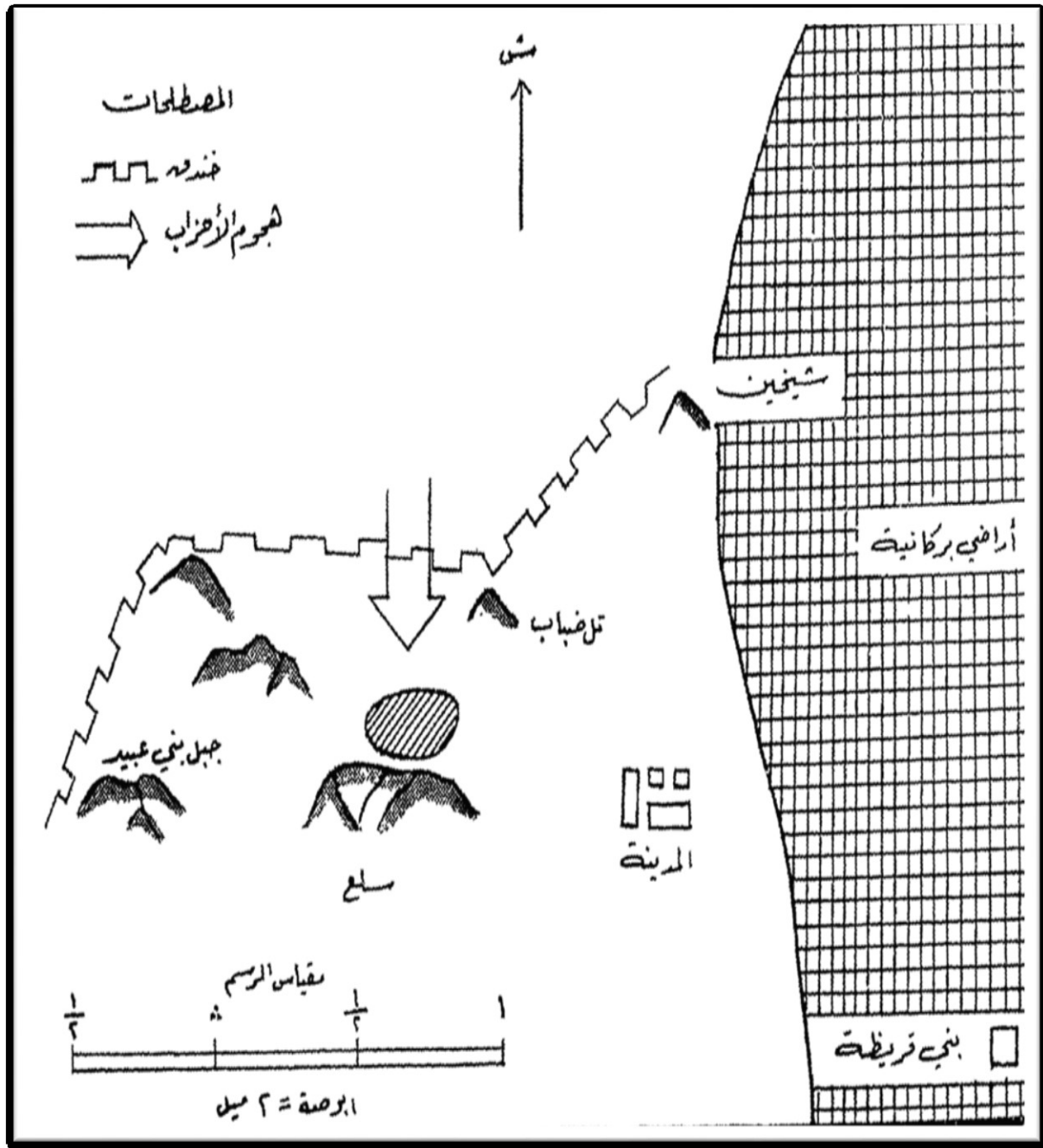
غزوة الخندق (الأحزاب) ومكان حفر الخندق في الجهة الشمالية للمدينة^(١)



(١) المغولوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول (ص)، ص ١٧٥.

٧. الخريطة (٧).

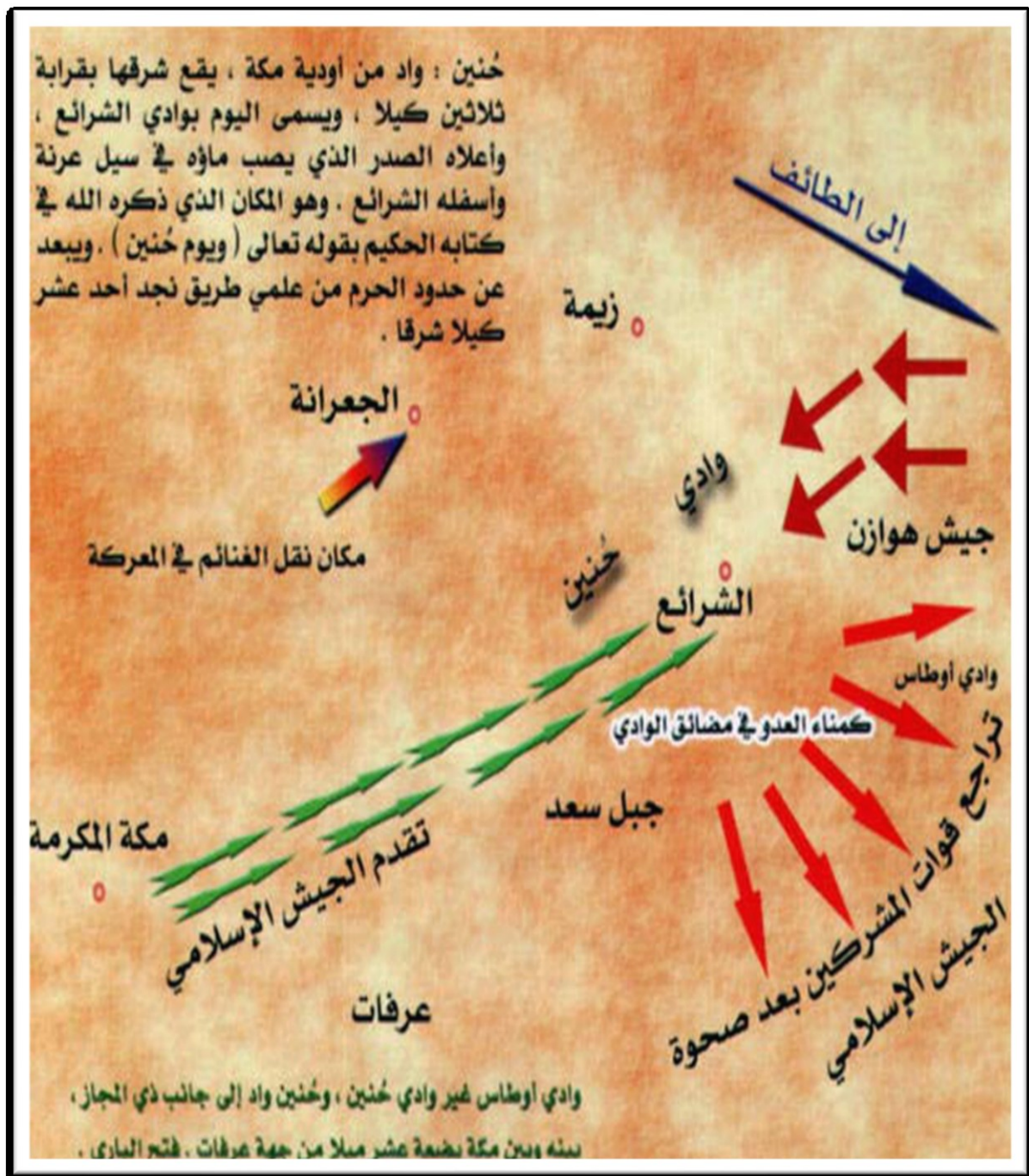
موضع الخندق^(١).



(١) الجنرال: سيف الله خالد بن الوليد، ص ٨١.

٨. الخريطة (٨).

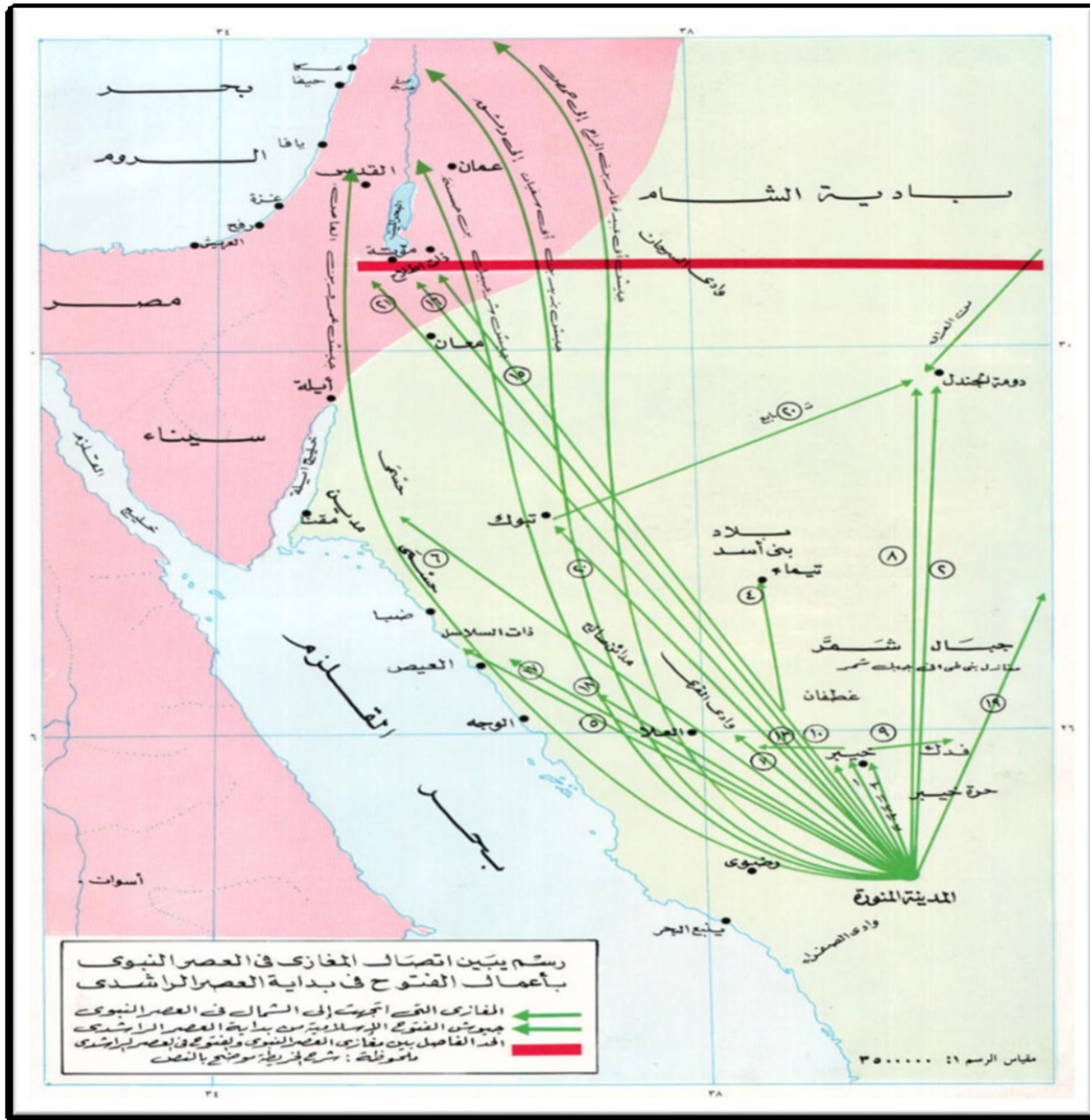
غزوة حنين (٥٨/٦٢٩م)^(١).



(١) المغلوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول (ص)، ص ١٨٩.

٩. الخريطة (٩).

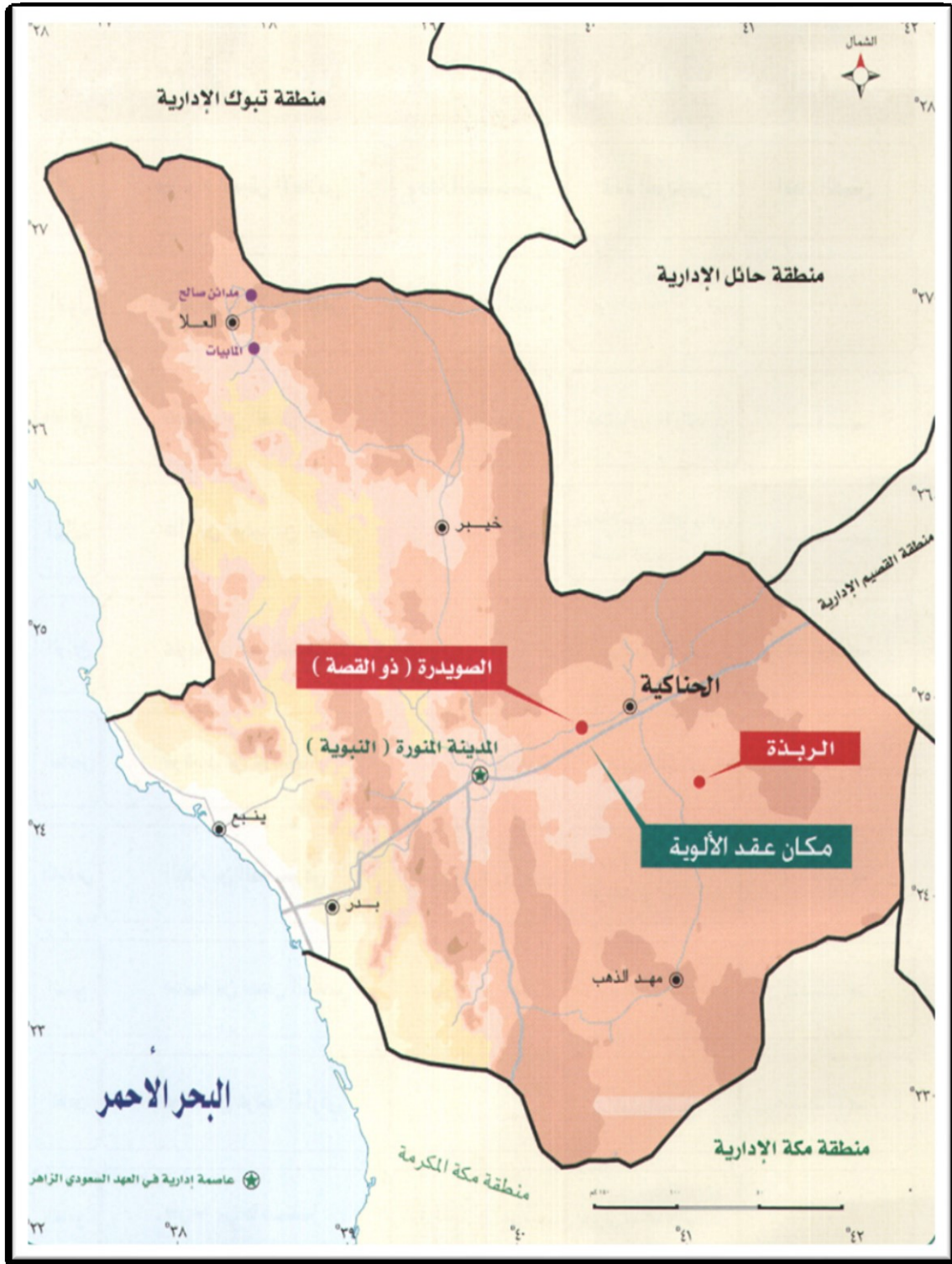
توجه المسلمين بالفتوحات نحو الشمال في عهد الخلفاء الراشدين ^(١).



(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٠٧.

١٠. الخريطة (١٠).

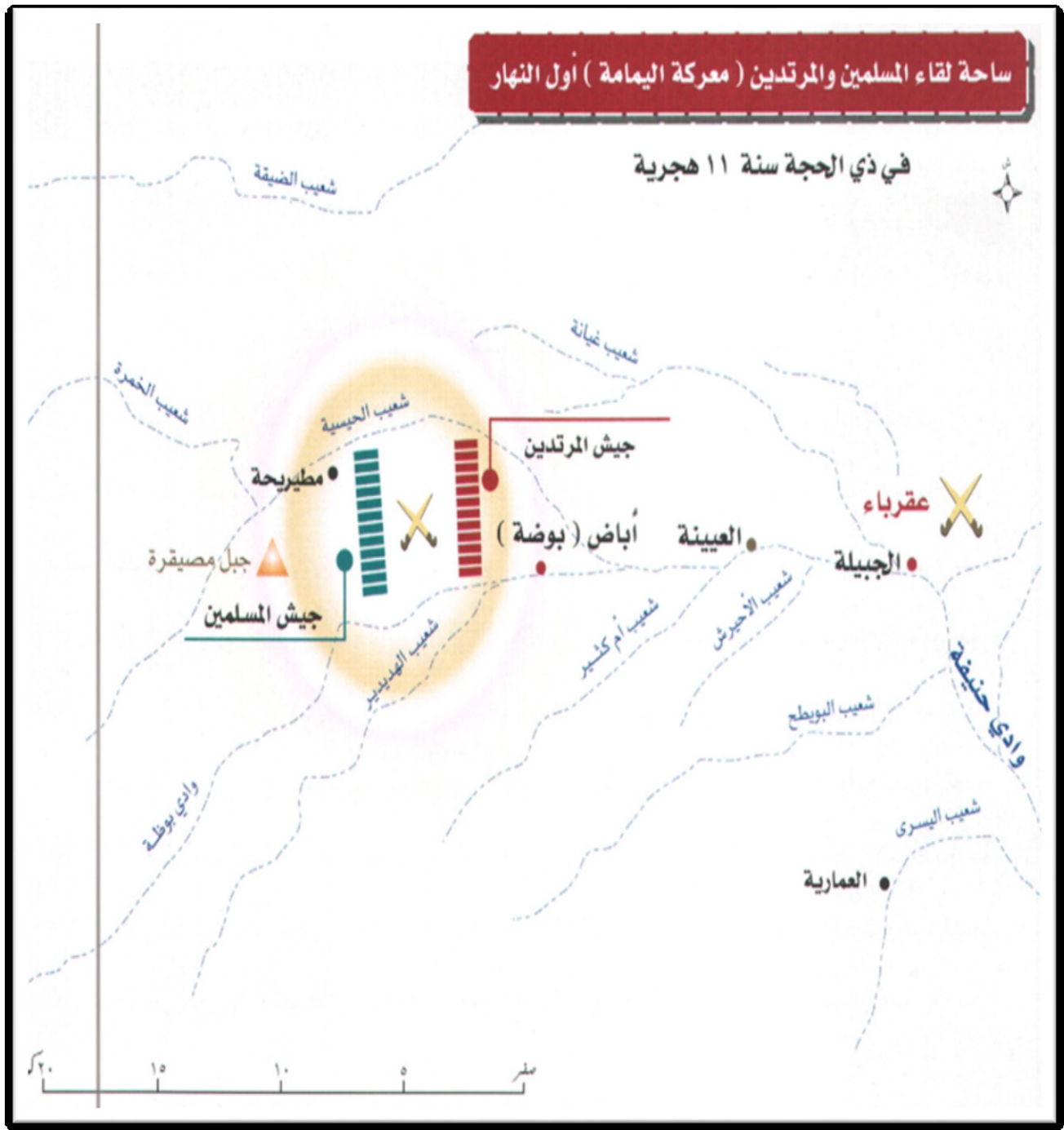
خريطة تبين موقع ذي القصة الذي اختاره الخليفة مكاناً لعقد الألوية^(١)



(١) المغلوث: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر، ص ٥٤.

١٣. الخريطة (١٣).

موقع المسلمين بداية معركة اليمامة (١٣٢/هـ)^(١).

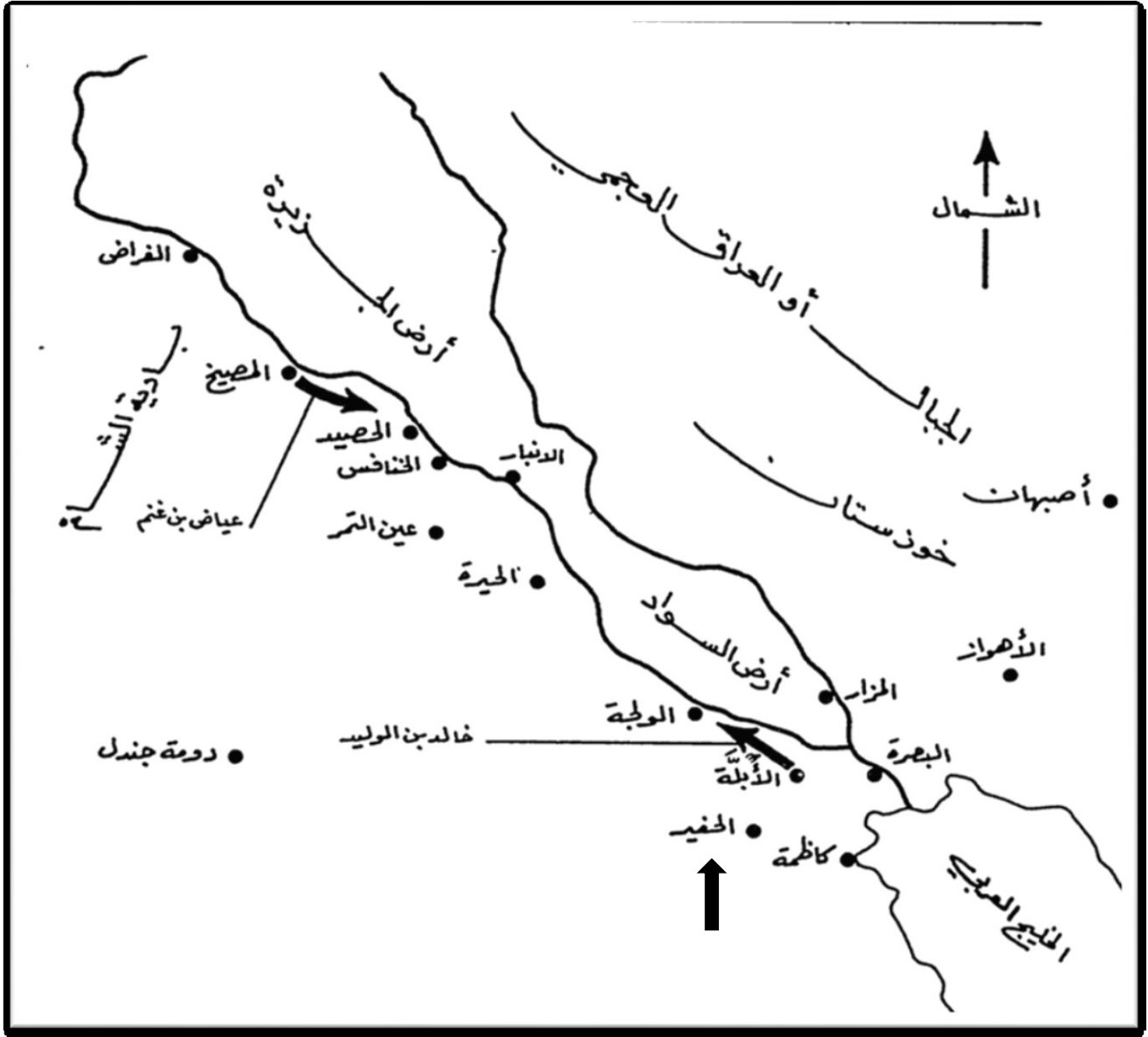


(١) المغلوث: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر، ص ١٢٠.

١٤. الخريطة (١٤).

موقع معركة كاظمة - ذات السلاسل- عام ١٢٥١هـ/١٦٣٣م^(١).

ومواقع المعارك الأخرى



(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ١٧٩.

١٥. الخريطة (١٥).

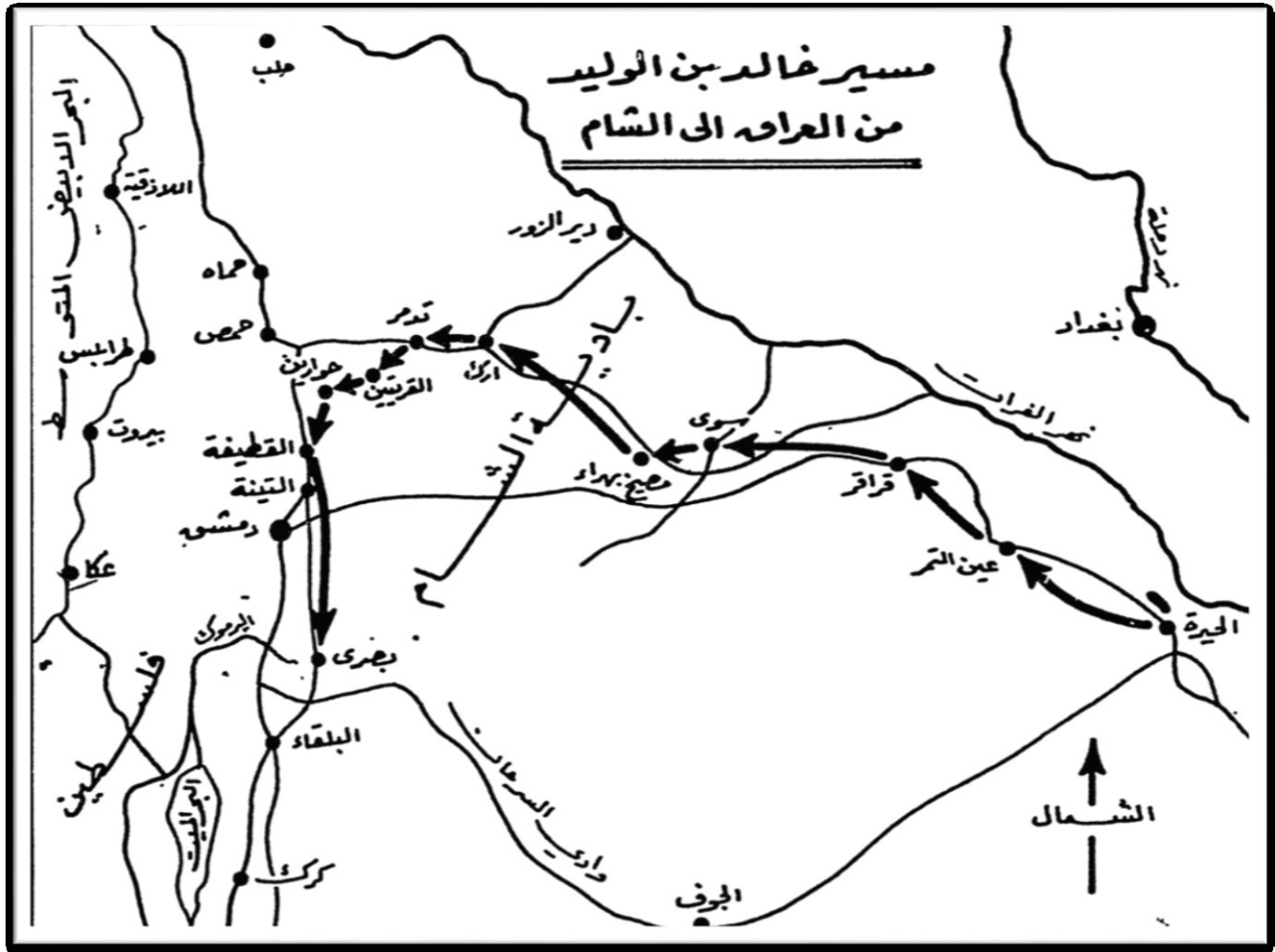
معركة المذار (١٢/٥١٢م) والتي كان للنهر أثر فيها^(١).



(١) الدوري: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، ص ٥٥.

١٦. الخريطة (١٦).

الطريق التي سلكها القائد خالد بن الوليد من العراق إلى الشام وبرز فيها أثر الصحراء (١٢/٥١٢م) (١).



(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٢٦٤.

١٧. الخريطة (١٧).

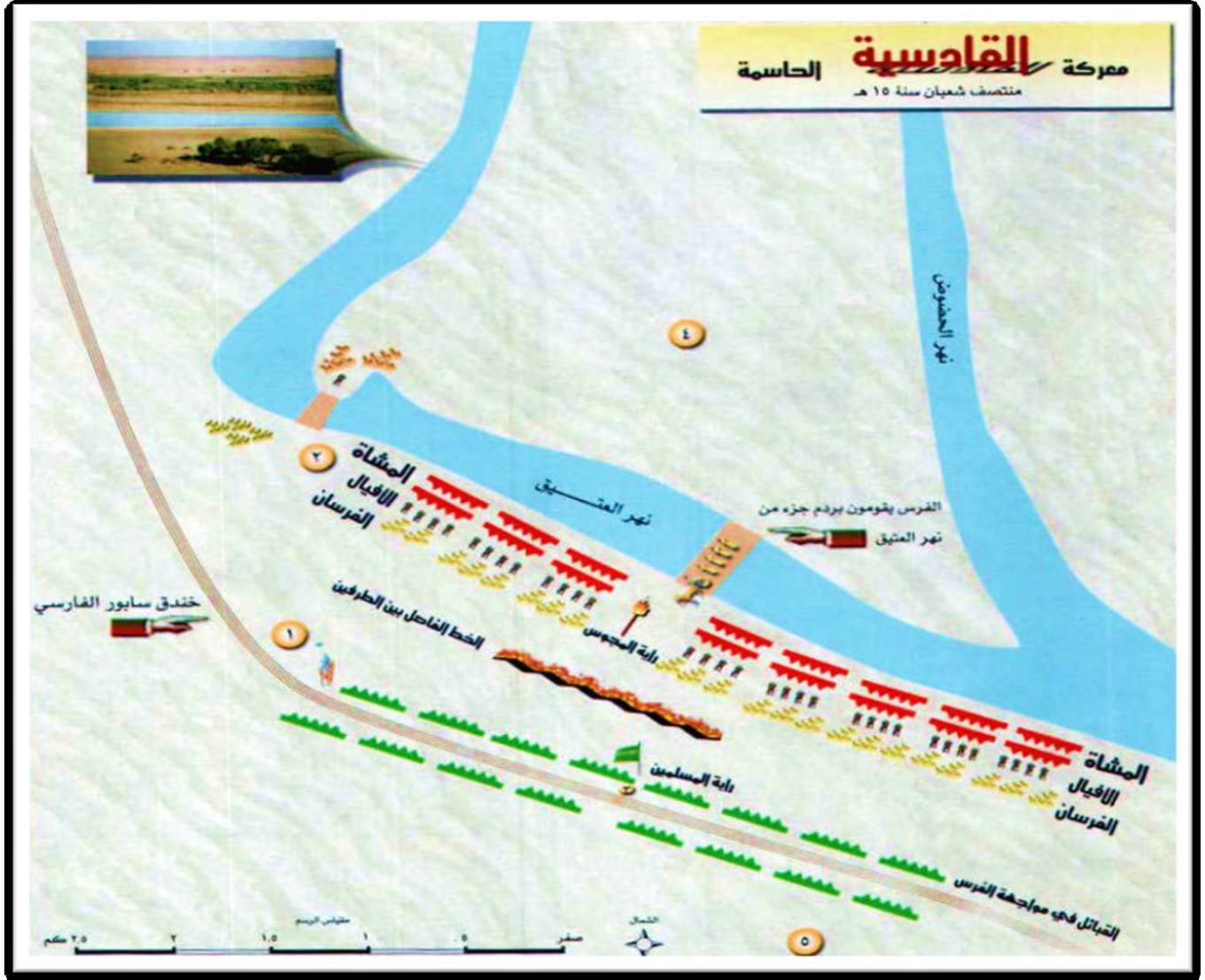
مواقع الجيشين في القادسية (١٤٥هـ/٦٣٥م)^(١).



(١) المغول: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ص ٧٩.

١٨. الخريطة (١٨).

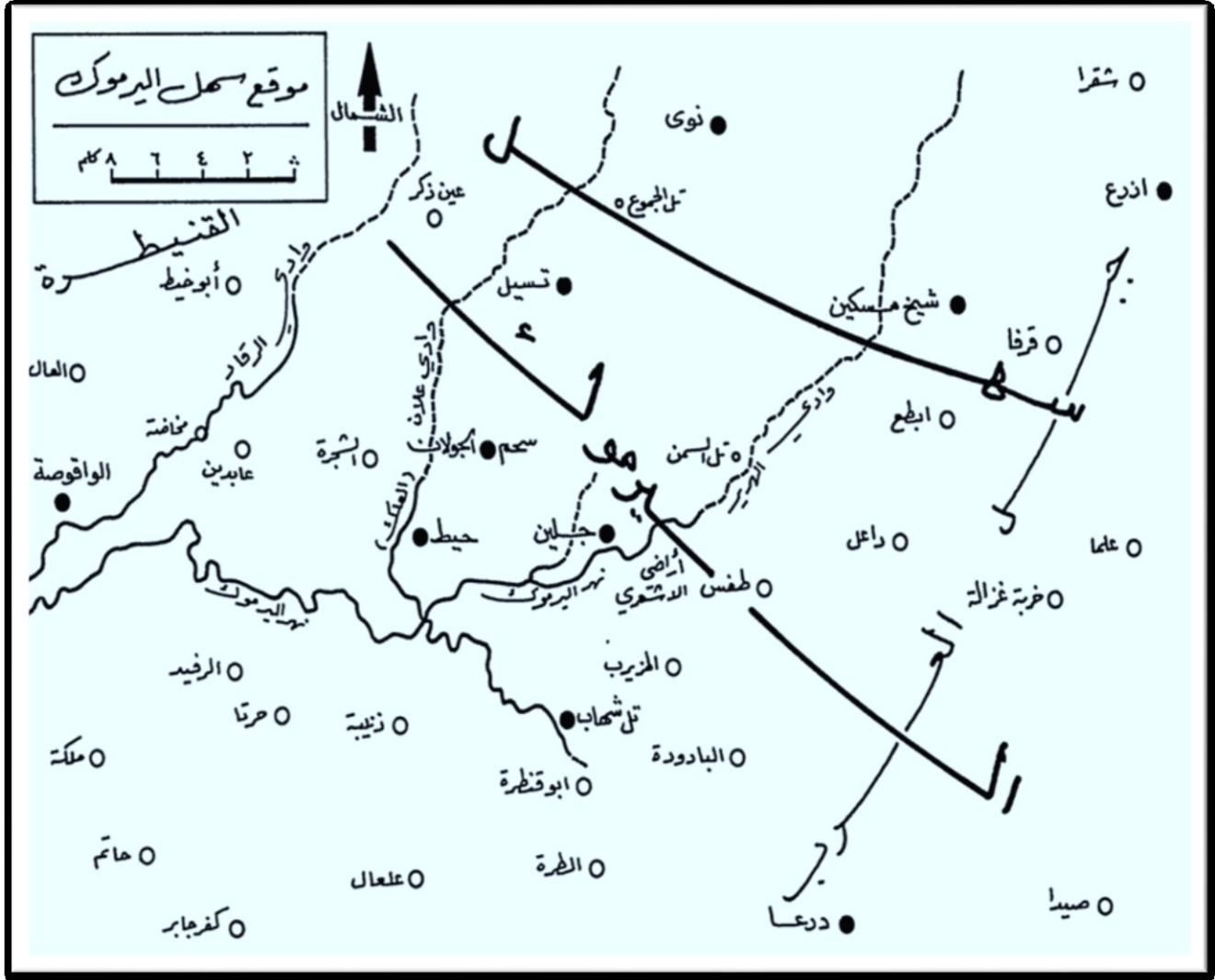
معركة القادسية (١٤/هـ-٦٣٥)^(١).



^(١) المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب ؓ، ص ٨١. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٢١.

١٩. الخريطة (١٩).

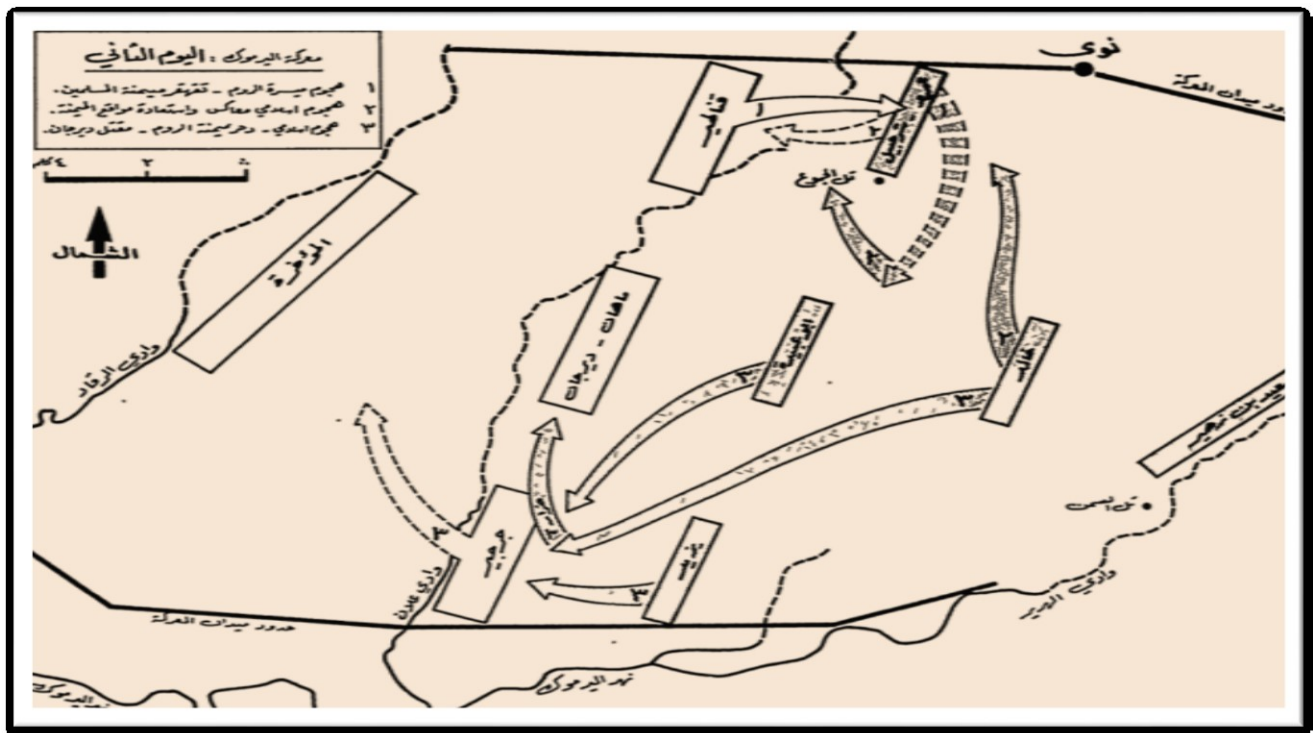
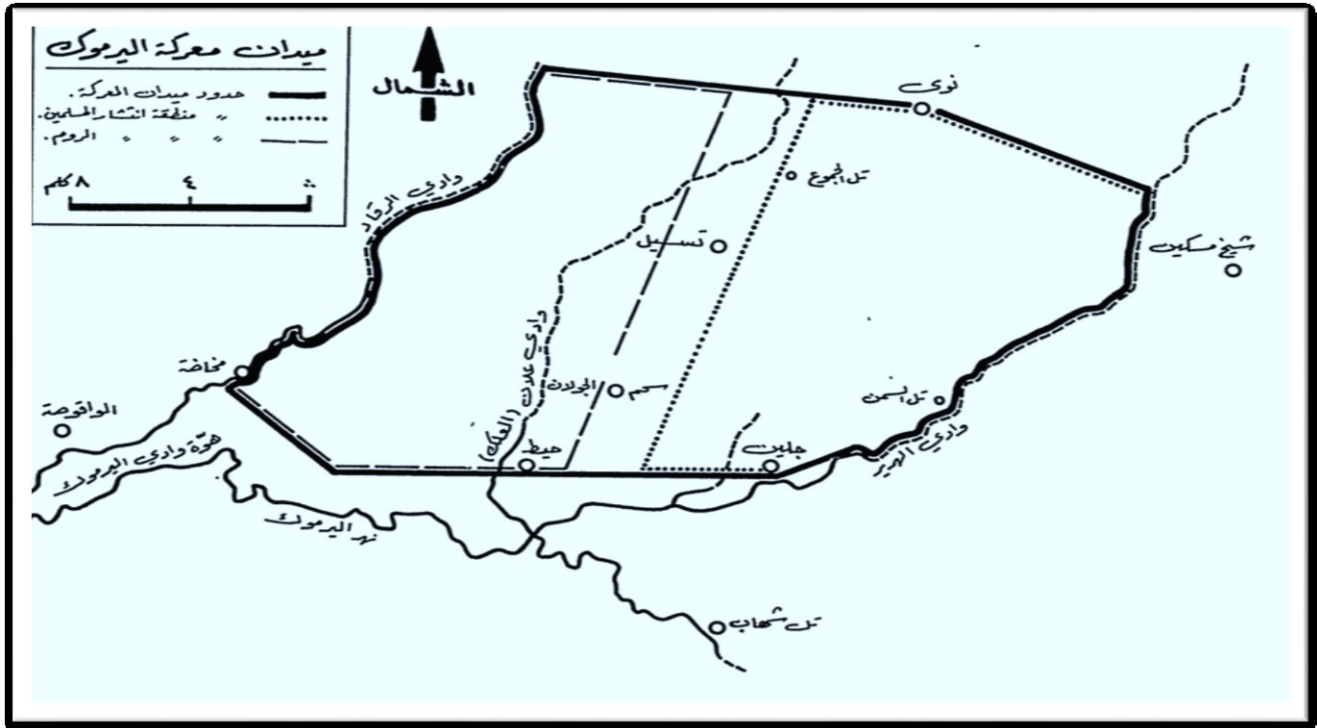
جغرافية معركة اليرموك (١٥/٦٣٦م)^(١)



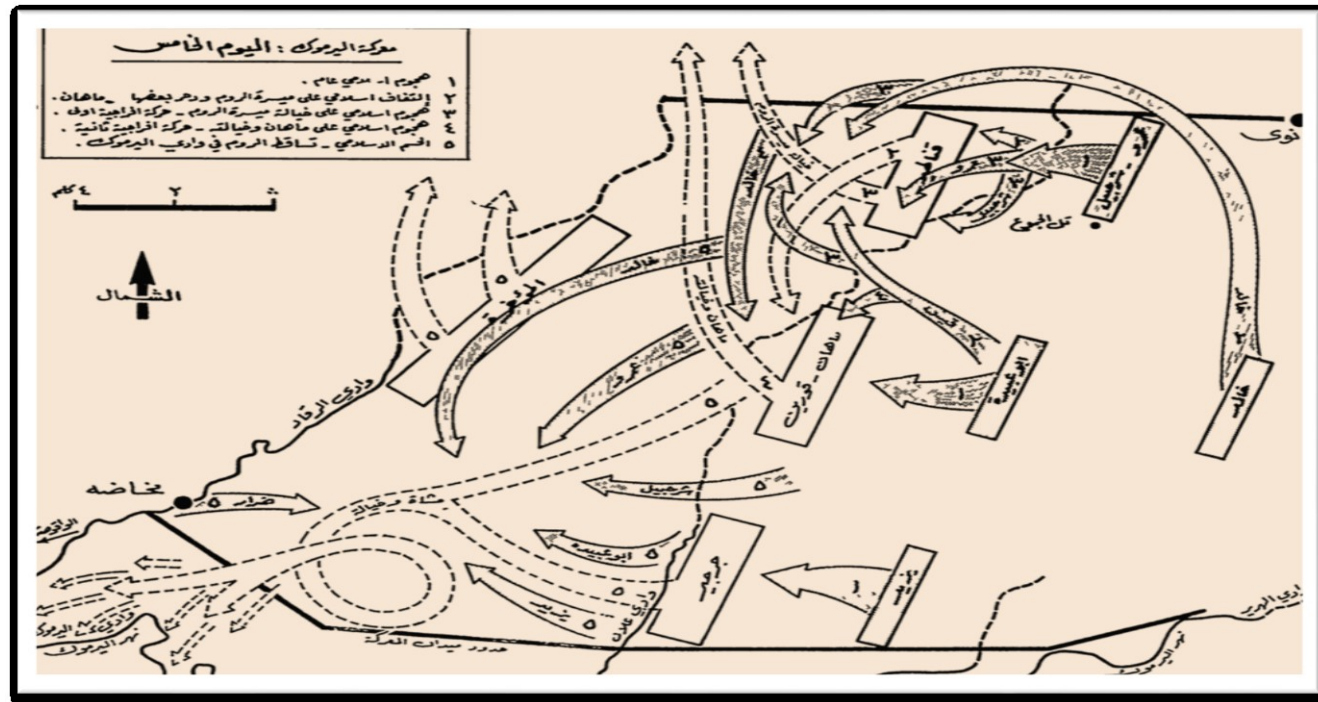
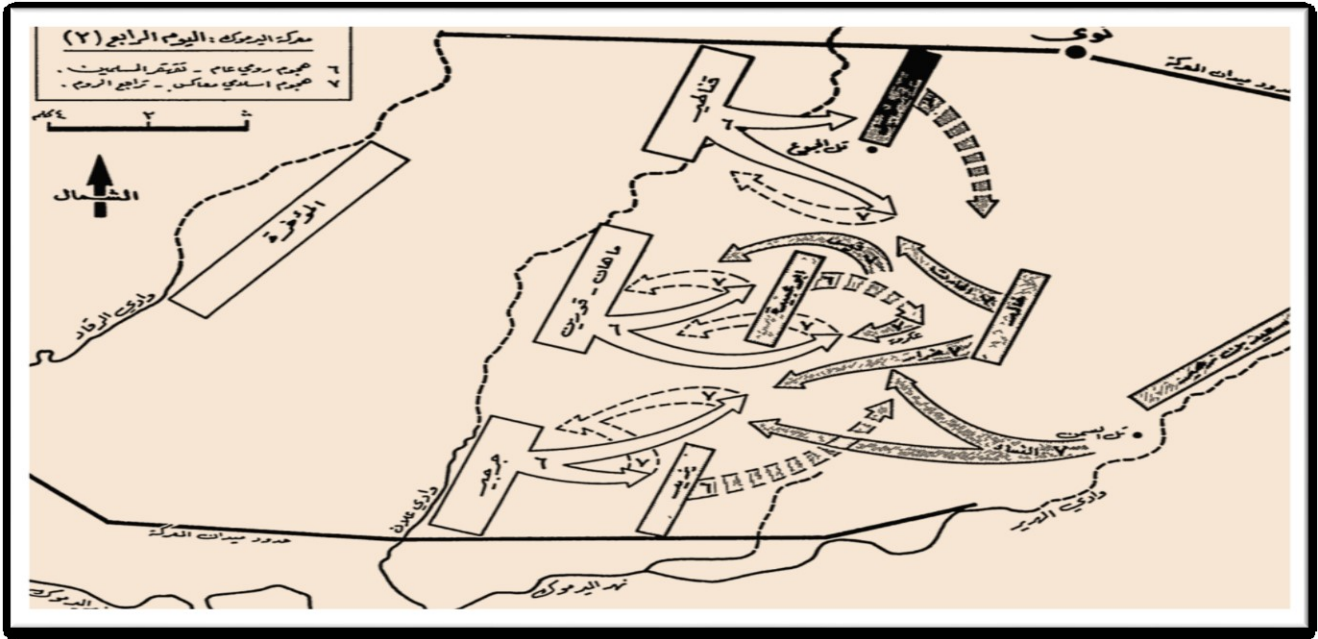
^(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٣٣٣-٣٣٤.

٢٠. الخريطة (٢٠).

وقائع معركة اليرموك (١٥هـ/٦٢٦م)^(١).

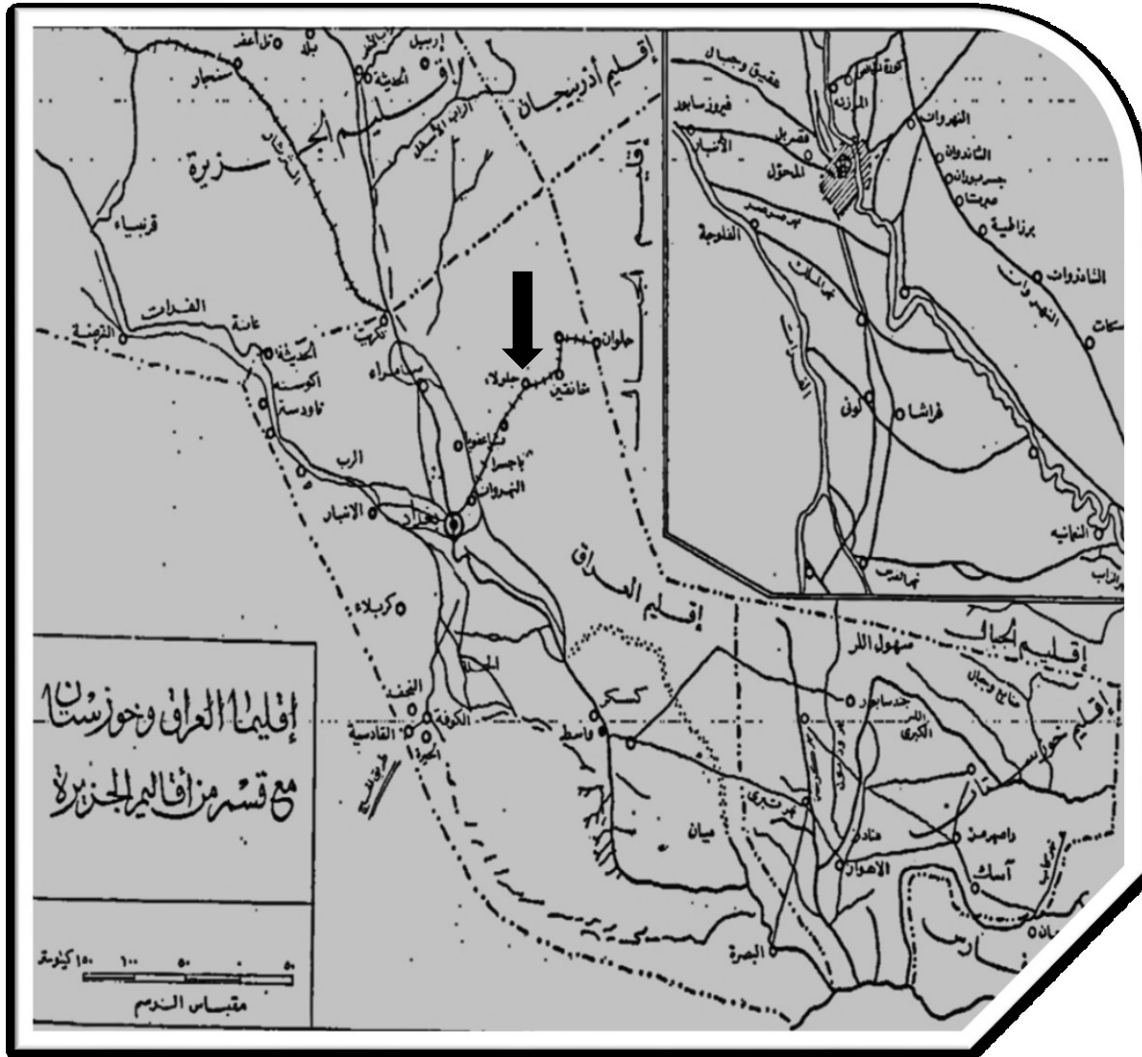


^(١) سويد: معارك خالد بن الوليد، ص ٣٣٣-٣٣٤. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٢٢.



٢١. الخريطة (٢١).

موقع معركة جلولا، حيث جرت المعركة سنة (١١٦/٦٣٧م).^(١)



^(١) خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، ص ٤٩٨.

الخريطة (٢٢).

العراق بعد الفتح الإسلامي له

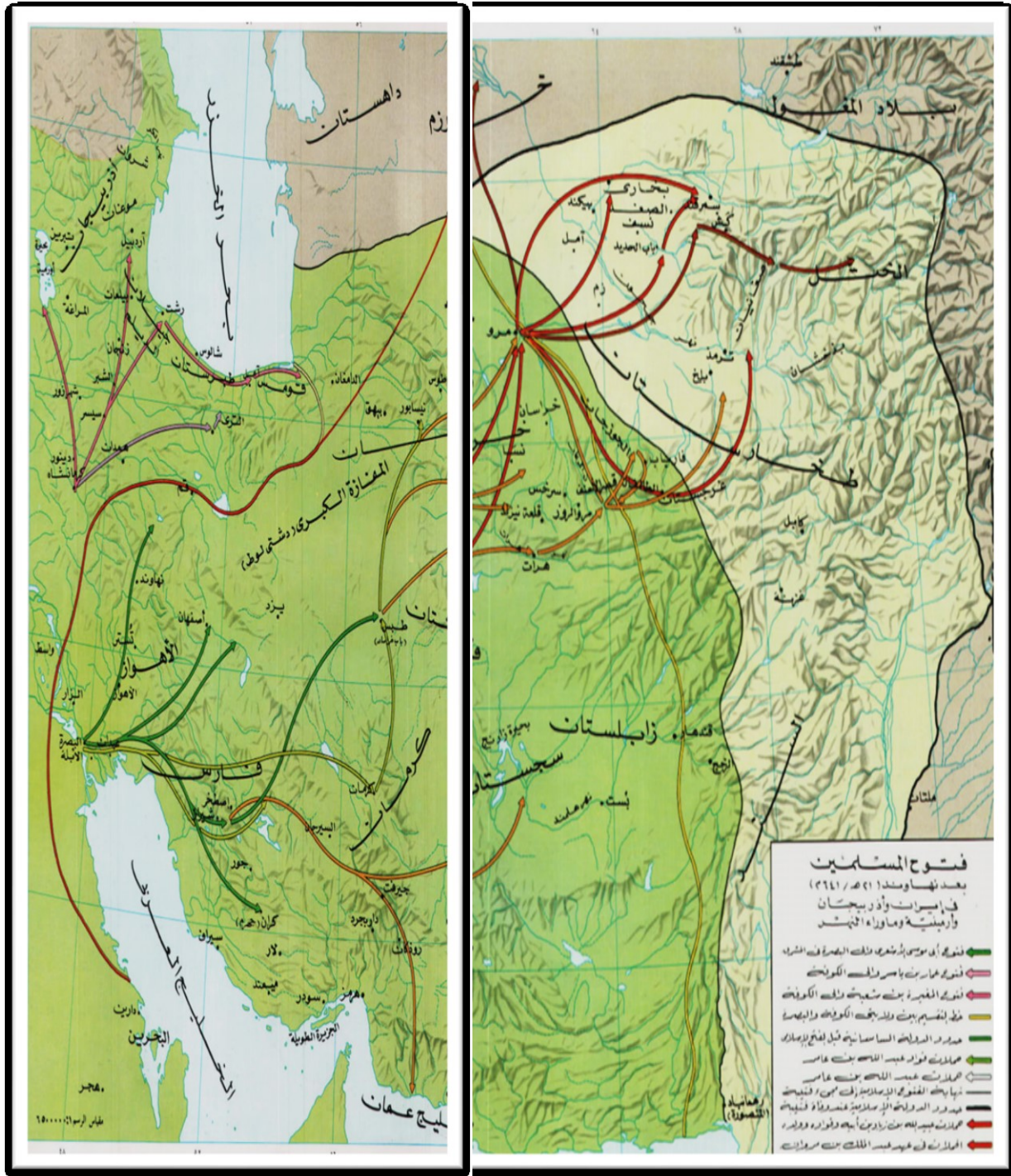
يلاحظ أثر جبال فارس أيضاً في الخريطة^(١).



(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١١٣. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١١٥-١٢٠.

٢٣. الخريطة (٢٣).

فتوح المسلمين بعد معركة نهاوند سنة (٥٢١/٦٤٢م)^(١).



(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١١٦-١١٧. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٢٠.

الخريطة (٢٤).

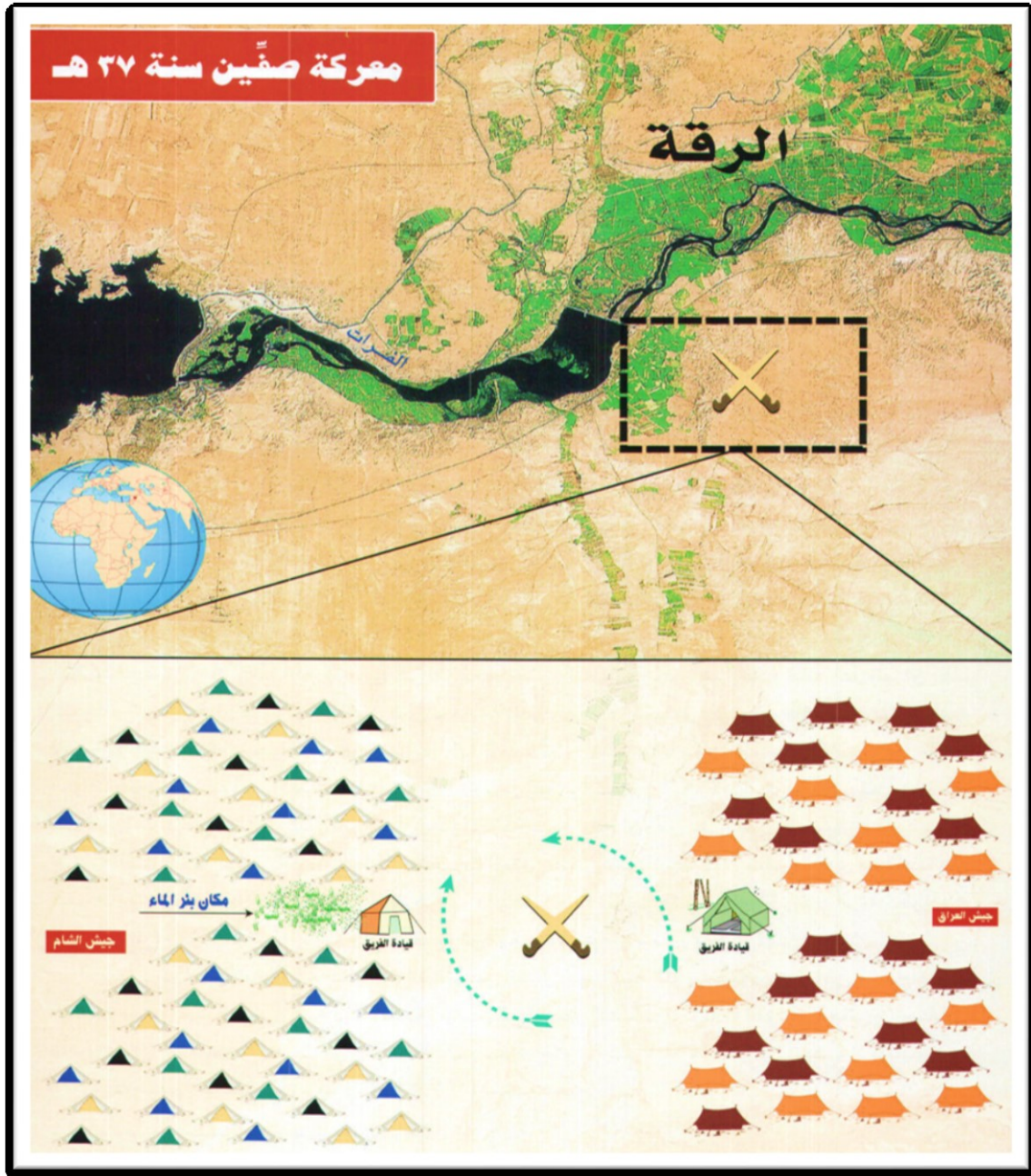
توجه الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ إلى صفين (٣٧/هـ-٦٥٧م) وأثر النهر في ذلك^(١).



(١) المغلوث: أطلس الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ، ص ١٨٠.

٢٥. الخريطة (٢٥)

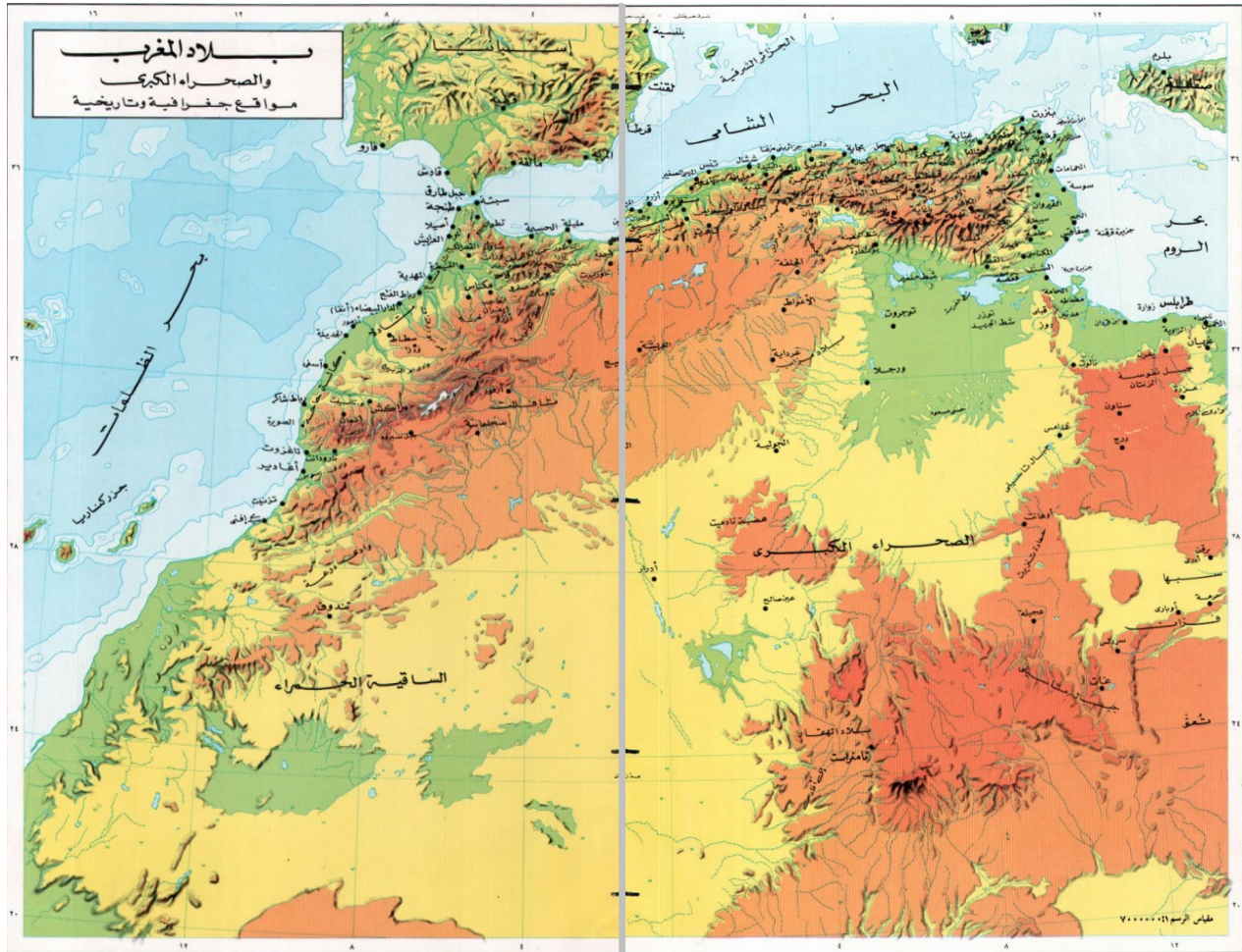
مواضع الجيشين في معركة صفين (٣٧/٥٦٥م) ^(١).



(١) المغلوث: أطلس الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ، ص ١٨١.

٢٦. الخريطة (٢٦).

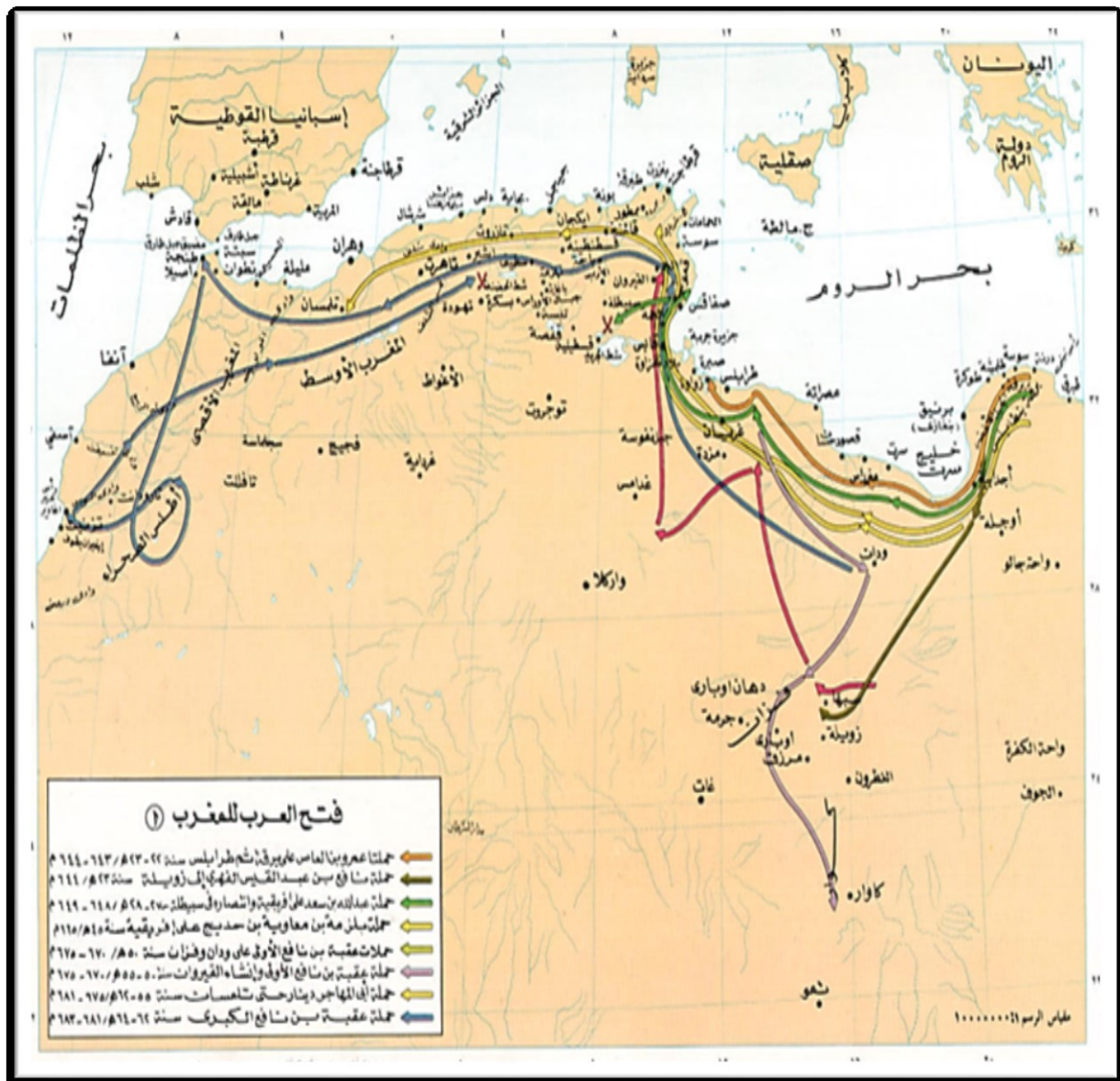
خريطة طبيعية لبلاد المغرب العربي لبيان أثر الجغرافية في سير الفتوحات الإسلامية^(١).



^(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٥٦-١٥٧. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١١٠.

٢٧. الخريطة (٢٧).

⁽¹⁾ فتح العرب للمغرب وبيان الطريق التي سار فيها عقبة بن نافع سنة (٤٦هـ/٦٧٥م).



(^١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٢٠.

٢٨. الخريطة (٢٨).

فتوحات الحكم بن عمرو الغفاري في إقليم خراسان سنة (٥٤٧/٦٧٦م)^(١).



(^١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٦٤.

٢٩. الخريطة (٢٩).

الطريق الذي سلكه الحسين بن علي إلى كربلاء والذي برز فيه أثر الآبار سنة (٦٠هـ/٦٧٩م) ^(١).



^(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٧٩.

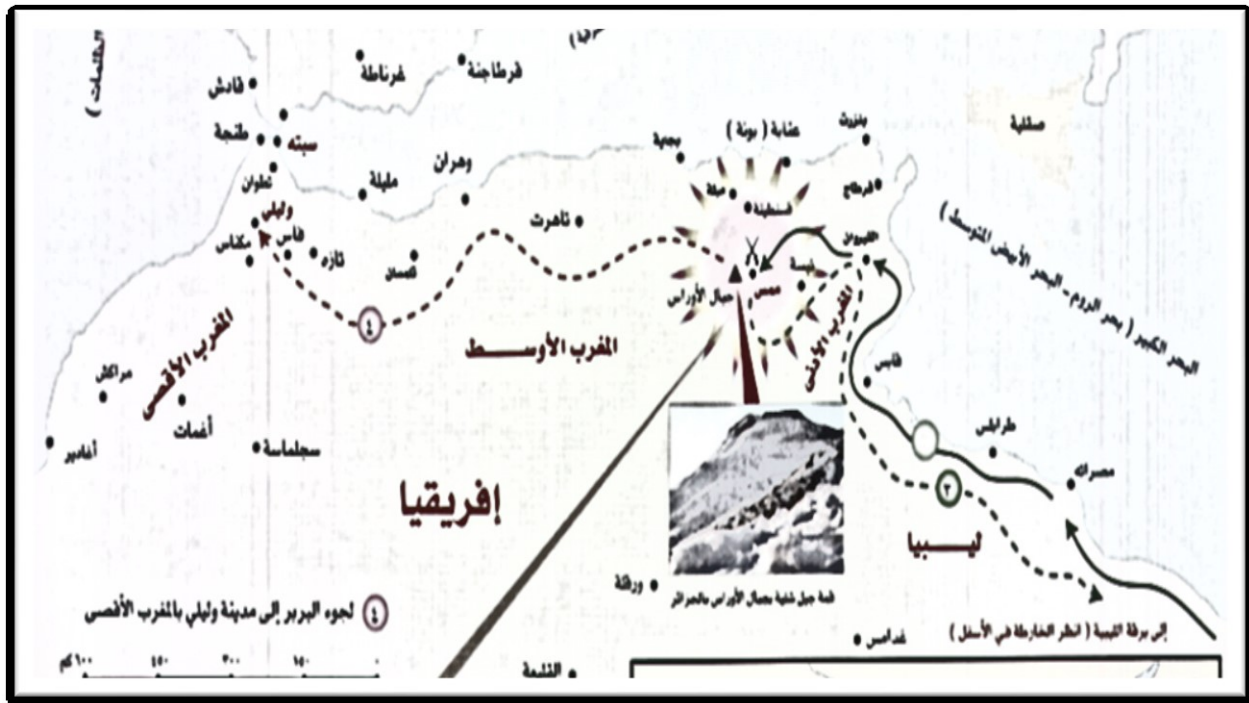
٣٠. الخريطة (٣٠).

حصار ابن الزبير وضرب الكعبة بالمنجنيق سنة (٦٤/٦٨٣م)^(١)



٣١. الخريطة (٣١).

توجه زهير بن قيس البلوي إلى إفريقية لقتال كسيلة سنة (٦٩/٦٨٨م)^(٢)



(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٩١.

(٢) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٩.

٣٢. الخريطة (٣٢).

حملة عبد الرحمن بن الأشعث لمحاربة رتبيل ملك الترك والتي برز فيها أثر الجبل سنة

(٨٠٠هـ/٧٠٠م).



٣٣. الصورة (٣٣) جبال هندوكوش في أفغانستان التي وقفت سداً أمام فتوحات عبد الرحمن بن الأشعث سنة (٨٠هـ/٧٠٠م)^(١).



٣٤. الخريطة (٣٤).

موقع معركة وادي لكة سنة (٩٢هـ/٧١١م) والفتح العربي للأندلس^(٢).



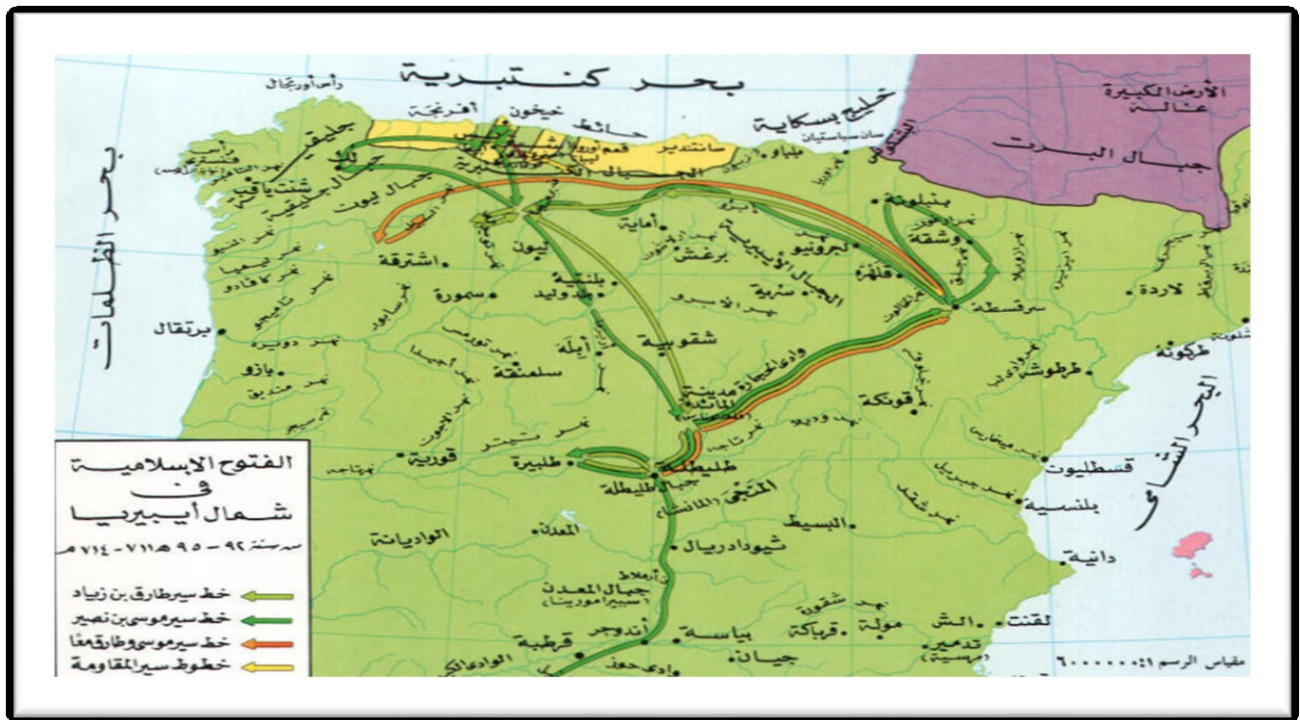
(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٣٠-١٣١.

(٢) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٢٢. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٢٤.

٣٥. الخريطة (٣٥). عبور موسى بن نصير إلى الأندلس سنة (٩٣هـ/٧١٢م)^(١).



٣٦. الخريطة (٣٦). استمرار فتوح الأندلس باتجاه الشمال بعد سنة (٩٥هـ/٧١٤م).

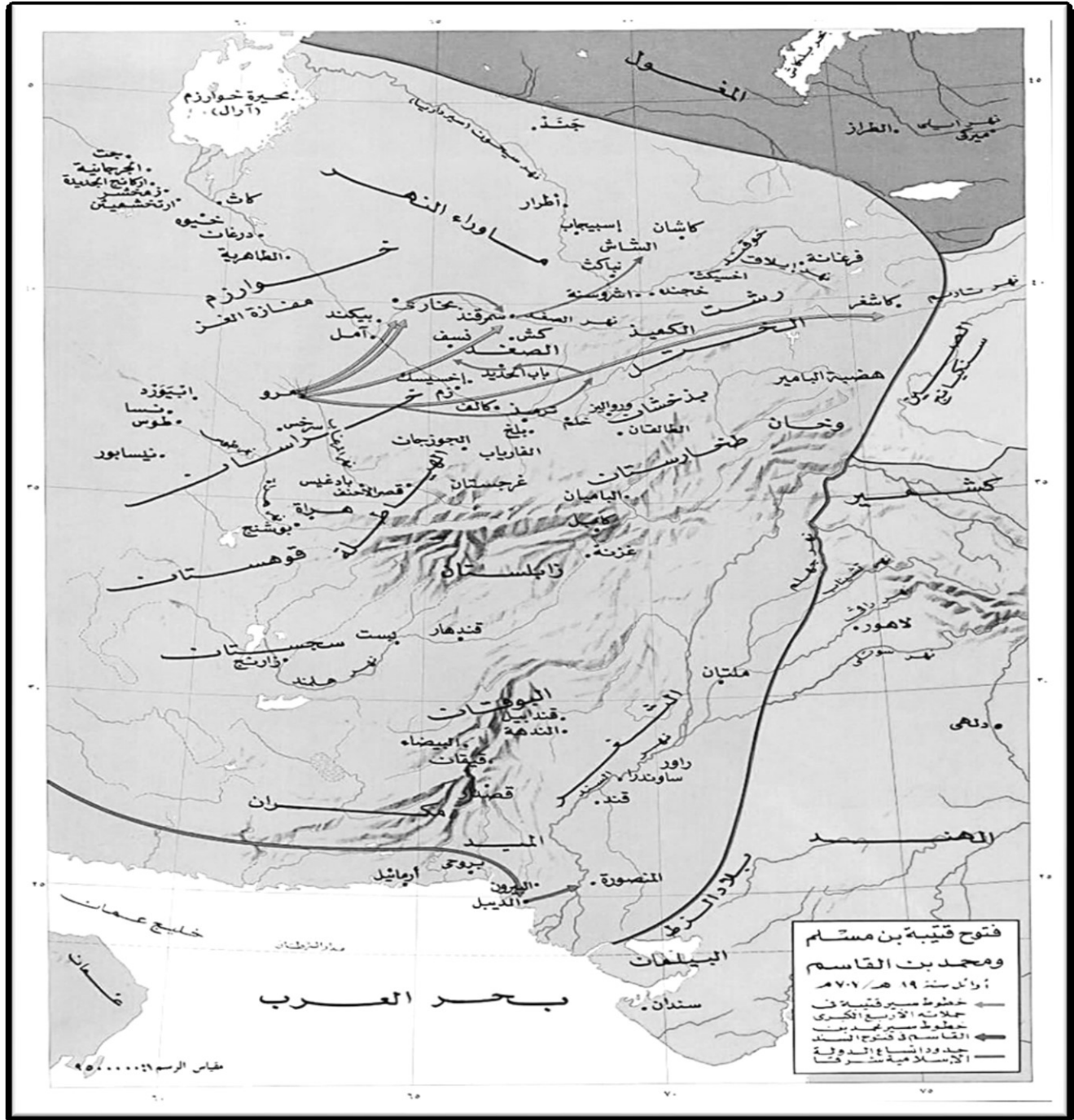


(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٢٢-١٢٣. حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٢٤.

٣٧. الخريطة (٣٧).

فتوحات القائد قتيبة بن مسلم الباهلي و محمد بن القاسم الثقفي في بلاد ما وراء النهر وعلى

أرض السند سنة (٧٩٨هـ/٧١٧م) ^(١).

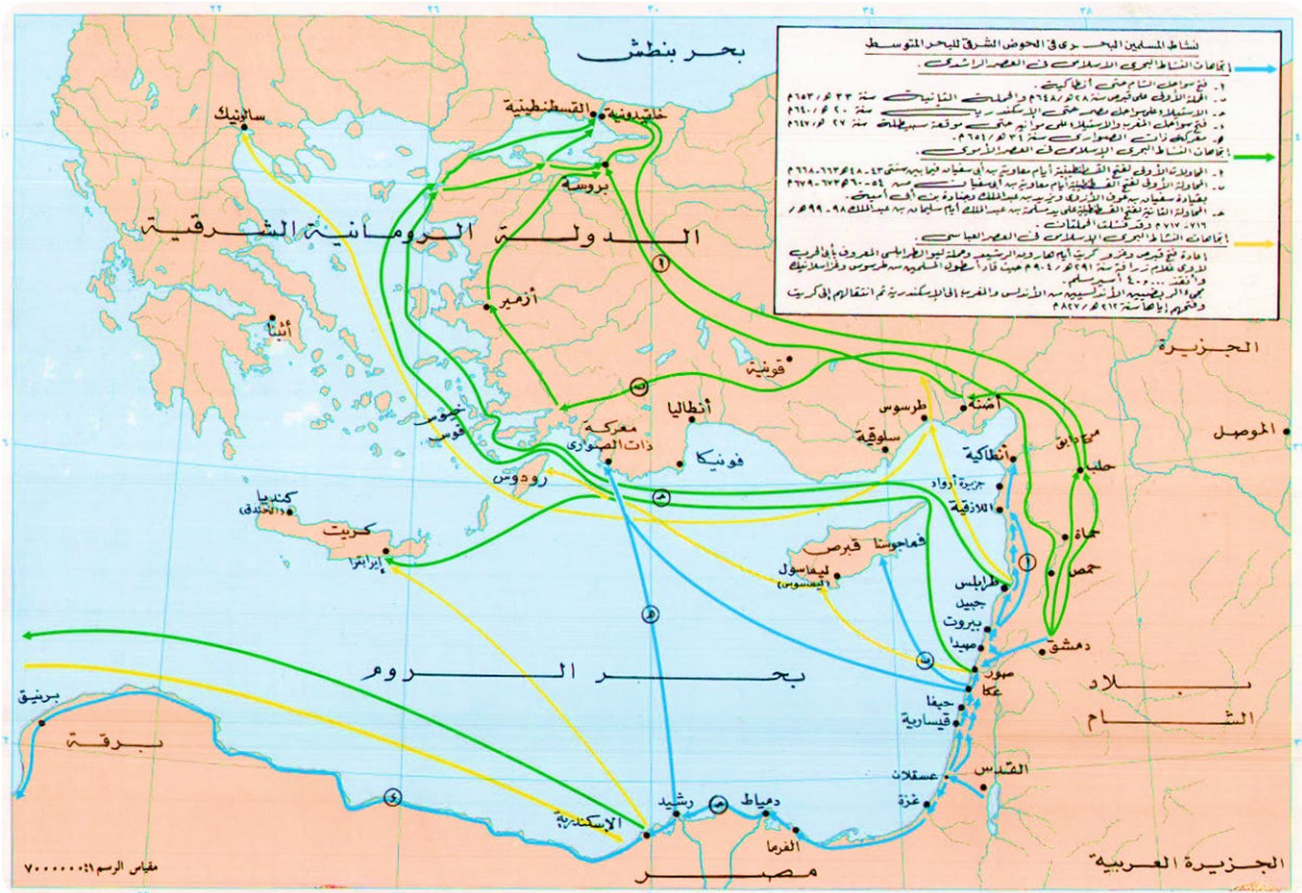


^(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١١٨. المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ١٦٧.



٣٨. الخريطة (٣٨). نشاط المسلمين البحري في البحر المتوسط وفيه سير الحملات على

القسطنطينية خلال القرنين الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين^(١).



(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٧٦.

٣٩. الخريطة (٣٩). استمرار النشاط الإسلامي البحري في العصر الراشدي والأموي والاستفادة من

عامل البحر^(١).



(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٧٧.

٤٠. الخريطة (٤٠)

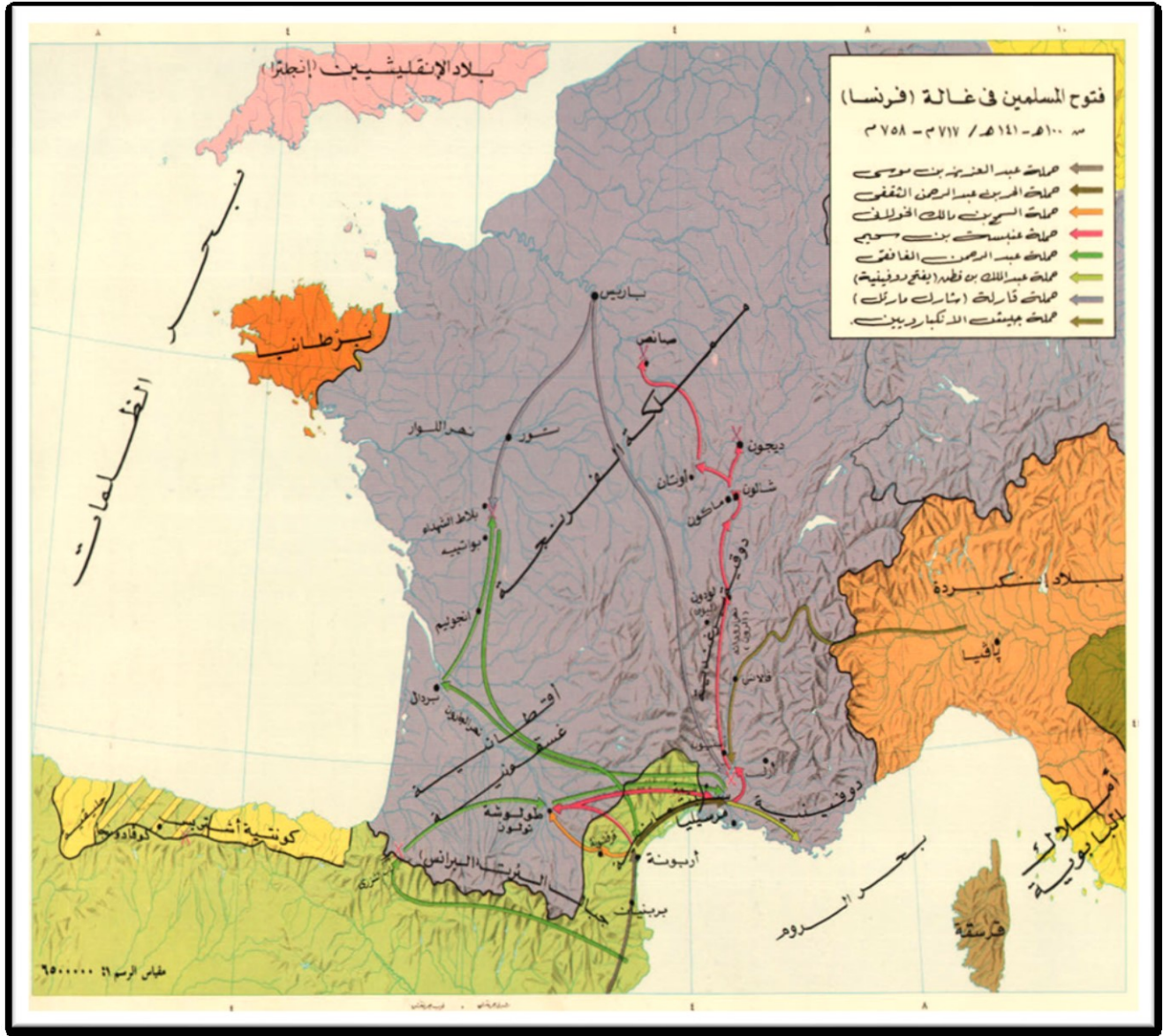
موقع معركة بلاط الشهداء سنة (١١٤/هـ-٧٣٣م) وأثر الجبال في اختيار الطريق إليه^(١).



(١) المغولوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٤١.

٤١. الخريطة (٤١).

استمرار المسلمون في فتوحاتهم بعد معركة بلاط الشهداء (١١٤/٧٣٣م).^(١)



(١) مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٢٤.

٤٢. الخريطة (٤٢).

موقع معركة الزاب سنة (١٣٢/هـ - ٧٥٠م) والتي برز أثر النهر فيها^(١).



(١) المغلوث: أطلس تاريخ الدولة الأموية، ص ٢٦٧.

المُلَخَّصُ

ملخص الرسالة

(دور العامل الجغرافي في التاريخ منذ صدر الإسلام ١٢٢٢هـ/١٢٢٢م وحتى نهاية العصر الأموي ١٣٢هـ/٧٥٠م).

تهدف الدراسة إلى التركيز على أثر الجغرافية كعامل أساسي في الحدث التاريخي ونتيجته خلال القرن الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين، وتتجلى أهمية هذه الدراسة في بيان التغيير الحاصل في نتائج المعارك، وتحويلها إلى صالح أحد الأطراف التي كانت تستغل العوامل الجغرافية وتسخرها لصالحها، وبالتالي جاء البحث مهتماً بال تفسير الجغرافي للتاريخ العسكري الإسلامي، وذلك لأنه يوضح المسؤوليات التاريخية، ويبرز قيمة الحوادث العسكرية الإسلامية، ويوثق الحكم على نتيجة تلك الأحداث، ويهيئ سبل الوصول إلى الحقيقة فيها.

وقد لوحظ من خلال الدراسة أن الجغرافية تبقى لها أثراً مرتبطاً بسيرورة التاريخ لا يمكن إغفاله، أو تجاهله، وهذا ما دفع القادة المسلمين إلى دراسة أرض المعركة، ومعرفة جغرافيتها قبل التوجه للقتال، ولعل جهلهم بالجغرافية كان هو السبب وراء هزيمتهم، وخسارتهم في كثير من المعارك؛ وعليه كان لابد من تتبع أحداث المعارك الواردة في بطون المصادر والمراجع العربية من أجل استنباط أثر الجغرافية.

وفي سبيل تحقيق الهدف من الدراسة استخدم الباحث أكثر من منهج أهمها: المنهج الوصفي لتقديم نظرة شاملة على علمي التاريخ والجغرافية ونشأتها وميادينها، واستعان الباحث بالمنهج الاستقرائي والتحليلي عندما وقف أمام الروايات التي تعطي معلومات جغرافية بشكل عام أثناء رواية الحدث، وبذلك استطاع الباحث استخلاص المعلومة الجغرافية وتحليلها، وبيان الظرف الجغرافي الذي جرى فيه كل حدث.

أما الدراسة من حيث المحتوى فتقسم إلى:

مقدمة، فيها فكرة عامة عن البحث، وقد تضمنت الإطار النظري والمنهجي للبحث مع دراسة لأهم المصادر والمراجع.

تمهيد اشتمل بنظرة عامة شملت علمي التاريخ والجغرافية وأهم ميادينها، والعلاقة الوثيقة بينهما.

وثلاثة أبواب، أما الباب الأول فقد تناول دور العامل الجغرافي في أحداث عصر الرسول الأكرم ﷺ، مبيناً في ثلاثة مباحث الآثار الجغرافية الطبيعية والمناخية على حد سواء.

ووقف الباب الثاني على أهم المعارك والأحداث في العصر الراشدي لبيان دور العامل الجغرافي وكان أيضاً في ثلاثة مباحث تناولت العوامل الجغرافية الطبيعية والمناخية.

وفي الباب الثالث تم استعراض أهم أحداث العصر الأموي وبيان مبلغ أثر الجغرافية عليها في ثلاثة مباحث أيضاً.

الخاتمة تتضمن النتائج التي خلصت إليها الدراسة، وبعض التوصيات.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر العربية

١. ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م): الكامل في التاريخ، تح: أبي فداء عبد الله القاضي، الأجزاء: ١٢، دار الكتب العلمية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢. _____: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت.).
٣. ابن الأثير، مجد الدين بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ/٥٤٤م): النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود الطناحي وطاهر الزاوي، المكتبة الإسلامية، ط: ١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
٤. الأزدي، أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م): تاريخ الموصل، تح: علي حبيبة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
٥. ابن اسحاق، محمد بن اسحاق (ت ١٥١هـ/٧٦٩م): السير والمغازي، تح: د. سهيل زكار، دار الفكر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٦. الإصطخري، إبراهيم بن محمد (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م): المسالك والممالك، تح: جابر عبد العال الحسيني، مراجعة شفيق غربال، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٦١.
٧. البغدادي، عبد القادر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م): الفرق بين الفرق، تح: طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٨. بك، واصف أمين: معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تح: أحمد ذكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، مصر، (د.ط.).
٩. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
١٠. _____: فتوح البلدان، تح: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١١. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة ليبزك، ألمانيا، ١٤٣١هـ/١٩٢٣م.
١٢. ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن عبد الله (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد رضوان عرقسوسي، دار الرسالة العالمية، ط: ١، دمشق، سورية، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

١٣. الجوهري، اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م): الصحاح، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط: ٢، بيروت، لبنان، (د.ت).
١٤. أبو الحسين، مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م): صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، (د.ت).
١٥. الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
١٦. الحميري، محمد عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٦م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٧. الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي بن عماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
١٨. ابن حوقل، أبي القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م): صورة الأرض، مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١٩. ابن خرداذبه، عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م): المسالك والممالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.
٢٠. الخفاجي، شهاب الدين محمود المصري (ت ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م): شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل، تح: عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني، القاهرة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
٢١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): المقدمة - من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (د.ت).
٢٢. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.
٢٣. ابن خياط، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م): تاريخ خليفة بن خياط، تح: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢، الرياض، السعودية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٤. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٩هـ/١٣٧٤م): سير أعلام النبلاء، تقديم: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط: ١١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٢٥. —: تجريد أسماء الصحابة، تح: صالحة عبد الحكم شرف الدين، بومباي، الهند، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٢٦. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م): مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
٢٧. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
٢٨. ———: التبر المسبوك في ذيل الملوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، (د.ت.).
٢٩. ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م): الطبقات الكبير، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٣٠. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م): الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تح: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.
٣١. ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م): المخصص، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديد، بيروت، لبنان، (د.ت.).
٣٢. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م): الشماريخ في علم التاريخ، تعليق: عبد الرحمن حسن محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، (د.ت.).
٣٣. ———: كفاءة الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٣٤. الصفدي، صلاح الدين بن أيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، تح: رمضان عبد التواب، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية/ دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٣٥. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م): تاريخ الرسل والملوك، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط: ٢، القاهرة، مصر، (د.ت.).
٣٦. ———: التفسير من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: بشار معروف وعصام الحرستاني، مؤسسة الرسالة، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
٣٧. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، (د.ت.).
٣٨. العباسي، الحسن بن عبد الله بن محمد (ت ٧٠٩هـ/١٣١٨م): آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٣٩. ابن عساكر، علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م): تاريخ مدينة دمشق، تح: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٤٠. العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م): الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر العربي، الاسكندرية، مصر، (د.ت.).
٤١. ———: بذل الماعون في فضل الطاعون، تح: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض، (د.ت.).
٤٢. ———: فتح الباري - بشرح صحيح الإمام محمد بن اسماعيل البخاري -، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، الجيزة، مصر، (د.ت.).
٤٣. أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، تح: محمد فخري الوصيف وآخرون، دار المعارف، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٤٤. أبو الفرج، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م): الخراج وصناعة الكتابة، تح: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام/ العراق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٤٥. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٥م): القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط: ٨، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٤٦. الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
٤٧. القرآن الكريم.
٤٨. القرطبي، يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١هـ): الدرر في اختصار المغازي والسير، تح: شوقي ضيف رئيس لجنة إحياء التراث الإسلامي، دار التحرير للطباعة والنشر، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
٤٩. القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢٠هـ/٧٥٦م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
٥٠. ———، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت.).

٥١. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١هـ/١٣٥١م): زاد المعاد في هدى خير العباد، تح: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: ٣، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
٥٢. الكافيجي، محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد الرومي الحنفي (ت ٨٧٩هـ/١٤٧١م): المختصر في علم التاريخ، تح: محمد كمال الدين عز الدين، دار عالم الكتب، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٥٣. ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ١، مصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٥٤. الكلاعي، ابن الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م): الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، تح: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٥٥. الكوفي، محمد أحمد بن أعثم (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م): كتاب الفتوح، تح: علي شيري، دار الأضواء، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٥٦. المرعشي، الحسين بن محمد المرعشي (ت ٢٤١هـ/١٠٣٠م): غرر السير، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٦٦٩م.
٥٧. المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦-٩٥٦م): التنبيه والإشراف، مطبعة ليدن، ١٣١٠هـ/١٨٩٣م.
٥٨. ———: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
٥٩. المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٧م): كتاب الجغرافيا، تح: اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
٦٠. المقدسي، مطهر بن طاهر (ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م): البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، (د.ت).
٦١. المقرئ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
٦٢. المقرئ، تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، ط: ٢، القاهرة، مصر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٦٣. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.

٦٤. ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
٦٥. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني وعماد علي حمزة، دار الكتب العلمية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٥م.
٦٦. الهرثمي، أبو سعيد الشعراني صاحب المأمون (ت ٢٠٠هـ/٨١٦م): مختصر سياسة الحروب، تح: عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، (د.ت).
٦٧. الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م): فتوح الشام، تح: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، ط: ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٦٨. —: المغازي، تح: مارسدن جونس، مطبعة عالم الكتب، ط: ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٦٩. اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م): مرآة الجنان وغيره اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مراجعة: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٧٠. اليعقوبي، أحمد بن يعقوب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م): البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، د.ت.

قائمة المراجع العربية

١. إبراهيم، عيسى علي: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٢. أحمد، علي وإبراهيم زعرور: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، منشورات جامعة دمشق، سورية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٣. ابن ادريس، عبد الله: مجتمع المدينة، مطبعة جامعة الملك سعود، ط: ٢، الرياض، السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٤. أدهم، علي: بعض مؤرخي الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
٥. اسماعيل، أحمد علي: الجغرافيا العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، مصر، ١٤١٥-١٤١٦هـ/١٩٩٥-١٩٩٦م.
٦. باشميل، محمد أحمد: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة أحد، تقديم: محمود شيت خطاب، المكتبة السلفية، ط: ٥، القاهرة، مصر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٧. _____: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة الأحزاب، المكتبة السلفية، ط: ٦، القاهرة، مصر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٨. _____: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة بدر الكبرى، المكتبة السلفية، ط: ٨، القاهرة، مصر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٩. _____: موسوعة الغزوات الكبرى - صلح الحديبية، المكتبة السلفية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٠. _____: موسوعة الغزوات الكبرى - غزوة مؤتة، المكتبة السلفية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١١. بطاينة، محمد: الحياة الاقتصادية في صدر الإسلام، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٢. البلادي، عاتق بن غيث: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، ط: ١، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٣. بيومي، محمد مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، (د.ت).
١٤. ترجيني، محمد أحمد: المؤرخون والتأريخ عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

١٥. الترماني، عبد السلام: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، دار طلاس للنشر، ط: ٢، دمشق، سورية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٦. جاد الرب، حسام الدين: الجغرافيا البشرية، منتدى مكتبة الاسكندرية، الاسكندرية، مصر، (د.ت).
١٧. الجبوري، نهاد عباس شهاب: تدابير الأمن العسكري في صدر الإسلام، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، العراق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٨. جرجس، جرجس وأنطوان نصري: المعجم المدرسي للطلاب، دار صبح، ط: ٣، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
١٩. الجنزوري، علي عبد السميع: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو مصرية، ط: ١، الاسكندرية، مصر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٠. الجوهري، يسرى: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٢١. الجوهري، يسرى: المضمون البشري في الجغرافيا، مطبعة الإشعاع الفنية، ط: ١، المنتزة، مصر، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
٢٢. حسن، ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - الدولة العربية في الشرق ومصر ومغرب الأندلس، دار الجيل/بيروت ومكتبة النهضة المصرية/القاهرة، ط: ١٤، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٢٣. حسن، زكي محمد: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢٤. حسونة، محمد أحمد: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، دار نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، مصر، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
٢٥. حسين، عبد الحميد: الفتح الإسلامي في العراق والجزيرة، مطبعة عفيف، بغداد، العراق، ١٩٥٨/١٩٦١م.
٢٦. حلاق، حسن: مقدمة في مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٧. حمد، مروان أسود: تدابير الرسول ﷺ في شمالي المدينة، جامعة بغداد، كلية الآداب، العراق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٢٨. حميدة، عبد الرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، ط: ٣، دمشق، سورية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٢٩. حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، ط: ٦، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣٠. الحُمَيْدي، عبد العزيز بن عبد الله: فتوح بلاد السند في عهد الأمويين، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط: ١، مكة المكرمة، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
٣١. خصباك، شاكِر: الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٣٢. _____: الخصائص العلمية للجغرافية العربية الإسلامية (بحوث المؤتمر الجغرافي الأول)، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الملك محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٣٣. خضر، عبد الكريم عبد الرحمن: المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: ١، هيرندن، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٣٤. الخضري بك، محمد: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية، تح: الشيخ محمد العثماني، دار القلم، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٣٥. خطاب، محمود شيت: قادة فتح بلاد فارس، دار الفتح، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
٣٦. _____: قادة فتح العراق والحزيرة، دار القلم، القاهرة، مصر، (د.ت).
٣٧. الخفاجي، عبد المنعم وعبد العزيز شرف: معارك فاصلة في التاريخ الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، ط: ٢، الاسكندرية، مصر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٣٨. الخلف، محمد جاسم: جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، معهد الدراسات العربية العالمية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
٣٩. الدرة، محمود: تاريخ العرب العسكري، دار الكاتب العربي، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
٤٠. الدفاع، علي بن عبد الله: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة التوبة، الظهران، المملكة العربية السعودية، (د.ت).
٤١. الدوري، عبد العزيز: نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٤٢. الرحيم، أحمد حسن: منهج المسعودي وإسهاماته في الجغرافية والتاريخ (٩١٢-٩٥٩م)، مركز البحوث التربوية والنفسية، جامعة بغداد، (د.ت).
٤٣. الرديسي، سمير علي حسن وعبد المحمود علي أحمد جهينة: مقدمة في الجغرافية البشرية، كلية التربية، جامعة الخرطوم، السودان، (د.ت).

٤٤. الزركلي، خير الدين: الأعلام - قاموس تراجم، الأجزاء: ٨، دار العلم للملايين، ط: ١٥، بيروت، لبنان، (د.ت).
٤٥. زكريا، أحمد: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، ط: ٢، دمشق، سورية، (د.ت).
٤٦. الزوكة، محمد خميس: الجغرافيا الاقتصادية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٤٧. سالم، عبد العزيز: التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٤٨. _____: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، (د.ت).
٤٩. سبيتان، سمير زياب: الجغرافيا العسكرية، الجنادرية للنشر والتوزيع، ط: ١، عمان، الأردن، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
٥٠. سعيد، ابراهيم أحمد وممدوح شعبان دبس: تطور الفكر الجغرافي، منشورات جامعة دمشق، سورية، ١٤٣١-١٤٣٢هـ/٢٠١٠-٢٠١١م.
٥١. السقا، عبد الحفيظ: الجغرافية الطبيعية للملكة العربية السعودية، دار كنوز المعرفة، جدة، السعودية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
٥٢. السلمي، محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي، ط: ١، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٥٣. سويد، ياسين: الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٥٤. _____: معارك خالد بن الوليد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط: ٤، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٥٥. السيد، رضا محمد: أساسيات الجغرافية السياحية، الأكاديميون والرمال للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
٥٦. السيد، مجدي فتحي: تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
٥٧. شاعر، فارس حسن: عمر بن الخطاب، المكتبة المدنية للنشر والطباعة، بغداد، العراق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٥٨. شاعر، محمود: التاريخ الإسلامي - العهد الأموي، المكتب الإسلامي، ط: ٧، بيروت/دمشق، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٥٩. الشامي، أحمد: الخلفاء الراشدون، دار النهضة العربية، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٦٠. الشرقاوي، عفت محمد: أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، لبنان، (د.ت).
٦١. الشريف، إبراهيم محمد: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، الاسكندرية، مصر، (د.ت).
٦٢. شكري، فيصل: حركة الفتح العربي الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملايين، ط: ٦، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٦٣. الشيخ، عبد الرحمن عبد الله: المدخل الى علم التاريخ، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
٦٤. الصباغ، ليلى: دراسة في منهجية البحث التاريخي، مطبوعات جامعة دمشق، سورية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٦٥. الصياد، محمود محمد: ابن بطوطة - شيخ الجوايين (٧٠٣-٧٧٩هـ/١٩٠٤-١٣٧٧م) من الوجهة الجغرافية، دراسة في التراث العربي، جامعة بيروت اللبنانية، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
٦٦. طقوش، محمد سهيل: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٦٧. _____: تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، ط: ٧، بيروت، لبنان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
٦٨. طهوب، صلاح: موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر الأموي، دار أسامة، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٦٩. آل عابد، أبو بدر محمد زكريا: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ، دار الغرب الإسلامي، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٧٠. عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية للطباعة، القاهرة، مصر، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
٧١. عبد الحكيم، محمد صبحي: دراسات في الجغرافيا العامة، دار النهضة العربية، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٧٢. عبد العال، أحمد: دراسات في الفكر الجغرافي، دار فكرة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٧٣. عبد الله، يسري عبد الغني: معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٧٤. عثمان، حسن: منهج البحث التاريخي، دار المعارف، ط: ٨، القاهرة، مصر، (د.ت).
٧٥. العدوي، ابراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، مكتبة الأنجلو المصرية، الاسكندرية، مصر، (د.ت).
٧٦. _____: الطاعون في العصر الأموي - صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.
٧٧. العدوي، ابراهيم ونايف السهيل: الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٧٨. عطيتو، عباس حربي: الفكر الشرقي القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
٧٩. أبو العلا، محمود طه: جغرافية شبه الجزيرة العربية، القاهرة، مصر، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.
٨٠. غلبي، عاطف: الجغرافيا الاقتصادية والسياسية والمكانية والجيوپوليتيكا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٨١. علي، أحمد اسماعيل: تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، دار دمشق للنشر والتوزيع، ط: ٣، دمشق، سورية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٨٢. العمري، عبد العزيز بن ابراهيم: الفتوح الإسلامية عبر العصور، دار إشبيليا، ط: ٣، الرياض، السعودية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٨٣. العمري، أكرم: المجتمع المدني خصائصه وتنظيماته الأولى، مطابع الجامعة الإسلامية، ط: ١، المدينة المنورة، السعودية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٨٤. _____: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة، دار إشبيليا، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٨٥. عنان، محمد عبد الله: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الناشر: ورثة المؤلف حسين عنان، ط: ٥، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٨٦. عواد: محمود أحمد سليمان: الجيش والقتال في صدر الإسلام - دراسة عن المقاتلة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٨٧. عوض، محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، ط: ١، السعودية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٨٨. عون، عبد الرؤوف: الفن الحربي في صدر الإسلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦١م.
٨٩. أبو عيانة، فتحي محمد: دراسات في جغرافية شبه جزيرة العرب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٩٠. الغضبان، منير محمد: المنهج الحركي للسيرة النبوية، الأجزاء: ٣، مكتبة المنار، ط: ٦، الأردن، الزرقاء، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٩١. الفالوجي، أكرم بن محمد: ترسيخ المدخل الى علم التاريخ، الدار الأثرية، عمان، الأردن، (د.ت).
٩٢. الفراء، محمد علي عمر: مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية، وكالة المطبوعات، ط: ٣، الكويت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٩٣. فرج، وسام عبد العزيز: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، مصر، ١٤٣٣هـ/١٩٨١م.
٩٤. فوزي، فاروق عمر: الخلافة الأموية (دراسة لأول أسرة حاكمة في الإسلام)، دار الشروق، ط: ١، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٩٥. القاضي، النعمان عبد المتعال: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
٩٦. كمال، أحمد عادل: استراتيجية الفتوح الإسلامية (القادسية)، دار النفائس، ط: ٩، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٩٧. الكوثراني، وجيه: تاريخ التاريخ - اتجاهات - مدارس - مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
٩٨. ماجد، عبد المنعم: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: ٤، القاهرة، مصر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٩٩. مادون، محمد علي: مسيرة خالد أو الدرب المفقود، مراجعة: عبد الله بن ابراهيم الأنصاري، مؤسسة الشؤون الدينية، ط: ١، قطر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٠٠. مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٠١. _____: التاريخ والمؤرخون - دراسة في علم التاريخ ومدخل الى فقه التاريخ، دار الرشاد، ط: ٢، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
١٠٢. _____: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، الاسكندرية، مصر، (د.ت).
١٠٣. محفوظ، محمد جمال الدين: العسكرية في الإسلام - سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٠٤. محلين، محمد محمود: التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم، ط: ٣، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

١٠٥. مجلين، محمد محمود وطه عثمان القرا: المدخل إلى علم الجغرافيا، دار المريخ، ط: ٣، الرياض، السعودية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٠٦. مصطفى، شاكراً: التاريخ العربي والمؤرخون - دراسة في تطور علم التاريخ، دار العلم للملايين، ط: ٣، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٠٧. مصطفى، نادية محمود: الدولة الأموية دولة الفتوحات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
١٠٨. المغلوث، سامي بن عبد الله بن أحمد: أطلس تاريخ الدولة الأموية، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
١٠٩. _____: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر، شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
١١٠. _____: أطلس الخليفة أبي بكر الصديق، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
١١١. _____: أطلس الخليفة علي بن أبي طالب، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
١١٢. _____: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب، مكتبة العبيكان، ط: ١، الرياض، السعودية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
١١٣. مقبل، فهمي توفيق محمد: مآثر العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية (الفكر الجغرافي نموذجاً)، جامعة البترا، عمان، الأردن، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
١١٤. مكى، علاء الدين حسين خماس: فن الحرب عند العرب في العصر الراشدي، بيت الحكمة للإعلام والنشر والتوزيع، بغداد، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
١١٥. النجار، حسين فوزي: التاريخ والسير، دار القلم، القاهرة، مصر، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
١١٦. النجار، عبد الوهاب: الخلفاء الراشدون، تح: الشيخ خليل الميس، دار القلم، ط: ٤، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
١١٧. وتر، محمد ضاهر: الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
١١٨. وهيب، عبد الفتاح محمد: جغرافية العرب في العصور الوسطى، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، مصر، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
١١٩. _____: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٢٠. _____: مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية، إهداءات جامعة بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
١٢١. آل يحيى، سيف الدين سعيد: الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفتي ميزان، الدار العربية للموسوعات، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٢٢. يحيى، لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
١٢٣. اليحيى، يحيى إبراهيم: الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، تقديم: أكرم العمري، دار الهجرة، (د.ت).
١٢٤. اليماني، محمد عبده: غزوة بدر الكبرى - المدينة والغزوة، دار القبة للثقافة الإسلامية، ط: ٢، جدة، السعودية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

قائمة المراجع المعربة

١. أتزو، سون: فن الحرب، تقديم: أحمد ناصيف، دار الكتاب العربي، ط: ١، حلب، سوريا، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
٢. بارنز، هاري إلمر: تاريخ الكتابة التاريخية، تر: محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣. بريتون، رولان: جغرافيا الحضارات، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط: ١، بيروت/باريس، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٤. بلتير، لويس سي و جي إيزل بيرس: الجغرافيا العسكرية، تر: عبد الرزاق عباس حسين، دار الحرية، بغداد، العراق، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
٥. توماس، أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، تر: حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، ط: ٣، القاهرة، مصر، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
٦. الجنرال، أ. أكرم: سيف الله خالد بن الوليد - دراسة عسكرية تاريخية -، تر: صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، ط: ٧، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٧. جورج، ه.ت كمبل: علم الجغرافيا (آفاق تتسع في عالم يضيق في كتاب آفاق المعرفة)، تر: عبد الهادي المختار، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد - نيويورك، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.
٨. روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط: ٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٩. شربل، مورييس: التاريخ، جروس برس، ط: ١، طرابلس، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
١٠. فرجريف، جيمس: الجغرافيا.. السيادة والتاريخ، تر: علي الأنصاري، وكالة الصحافة العربية، الجزيرة، مصر، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
١١. فريمان، دبليو ت: قرن من التطور الجغرافي ١٨٦٠-١٩٦٠م، تر: شاعر خصبك، منشورات جامعة بغداد، بغداد، العراق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٢. كب: علم التاريخ، ترجمة: دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، ط: ١، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٣. كراتشوفسكي، أغناطيوس يوليانونوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جزئين، القاهرة، مصر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
١٤. كلوب، جون جوت: الفتوحات الإسلامية الكبرى، تعريب وتعليق: خيرى حماد، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت.).

١٥. كلوزيه، رينيه: تطور الفكر الجغرافي، تر: عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٦. كينيدي، هيو: الفتوح العربية الكبرى (كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه)، تر: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، ط: ١، القاهرة، مصر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
١٧. منشل، روجر: تطور الجغرافيا الحديثة، تر: محمد السيد الغلاب ودولت أحمد صادق، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.
١٨. موسيل، الوا: الفرات الأوسط، تر: حمدي صدقي وعبد المطلب داود، مراجعة: صالح العلي وعلي المياح، المجمع العلمي العراقي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
١٩. هرنشو: علم التاريخ، ترجمة وإضافة: عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.
٢٠. هنتس، فالتر: المكايل والأوزان الإسلامية، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، د.ت.
٢١. ينسن، أريلد هولت: الجغرافيا تاريخها ومفاهيمها، تر: عوض يوسف الحداد وأبو القاسم عمر أشتوي، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

قائمة الرسائل الجامعية

١. الأسطل، عبد القادر جبارة محمد: مسلمة بن عبد الملك (حياته وجهاده)، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
٢. حسان، خليل نعيم خليل: خلافة بني أمية عند خليفة بن خياط ١٣٢هـ/٤١م، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
٣. حسن، كمال عبد الله: أصالة الجغرافيا الإقليمية عند المقدسي، جامعة المستنصرية، كلية الآداب، العراق، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٤. حمد، مروان أسود: تدابير الرسول ﷺ في شمالي المدينة، جامعة بغداد، كلية الآداب، العراق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٥. دحماني، فاتح وتركية رحالي: السياسة الزراعية في العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ/٦٦٢-٧٥٠م)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بو ضيف، المسيلة، الجزائر، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
٦. دحومان، أمال: جهود الأمويين في الدفاع عن إقليم العراق (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م)، جامعة المسيلة، كلية الآداب، الجزائر، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.
٧. الدوري، وائل كليب مطلق: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية حتى نهاية العصر الراشدي، جامعة تكريت، كلية التربية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٨. الزيان، زهير محمد مصطفى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبد الله المقدسي دراسة دلالية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
٩. أبو شبكية، إبراهيم أحمد حسن: خلافة بني أمية عند علي بن الحسين المسعودي (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م)، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
١٠. الشريف، عبد الله بن حسين: الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ)، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
١١. الصوفي، أسماء فتحي إبراهيم: حركات الخروج على الخلافة الأموية في العراق، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
١٢. عبد علي، هشام حسون: المقدسي وأثره في الفكر الجغرافي، جامعة القادسية، كلية الآداب، العراق، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

قائمة الدوريات

١. الأحمدى، فهد سالم: معلومات لبعض سجلات السيول بمنطقة المدينة المنورة - سلسلة الأبحاث الهيدرولوجية، وزارة الزراعة - المديرية العامة للزراعة والمياه بمنطقة المدينة المنورة، السعودية، مج: ٣، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٢. بولس، جواد: أهمية التاريخ والجغرافيا في نشوء الأمم والشعوب (مقال مأخوذ من كتاب جواد بولس)، موقع شهادتنا، تاريخ إضافة المقال ٢٠١٤/١٠/٥م.
٣. تونسي، هدى محمد محمد: الإطار الجغرافي لمناطق الثغور والعواصم في العصر العباسي الأول، مجلة بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، العدد: ٢٩، شوال-١٤٣٢هـ/أيلول-٢٠١١م.
٤. الجنابي، ستار محمود: مرويات الفتوحات الإسلامية لجهة الروم في تاريخ الطبري (٤٢-٦٠هـ)، مجلة كلية الآداب، الجامعة العراقية، العراق، العدد: ٢، د.ت.
٥. الجنابز، محمد منير: معركة ذات الصواري البحرية، موقع شبكة الألوكة الثقافي، المقال بتاريخ ٢٠١٧/٧/٦م.
٦. الجواري، رائد راكان قاسم: جهود الشريف الإدريسي في الفكر الجغرافي العربي، مجلة كلية التربية، جامعة الموصل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٧. حنفي، محمد رجاء: عوامل النصر في موقعة بدر الكبرى، مجلة المنهل، الرياض، السعودية، مج: ٥٤، العدد: ٥٠٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٨. الخطيب، حامد موسى عيسى: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة وأثرها في أحداث غزوة الأحزاب، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، الرياض، العدد: ٣٦، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٩. الخليل، أديب: مفهوم الإقليم الجغرافي الاقتصادي وجوهره - الاجتماعي وأهميته في الدراسات الاجتماعية، مجلة جامعة دمشق، سورية، مج: ٣١، العدد: ١-٢، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
١٠. الداوقى، حسين علي: خالد بن الوليد وتحرير العراق، مجلة الأستاذ، جامعة بغداد، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١١. دبس، عبد الرحمن بن مصطفى: أثر البعد الجغرافي في غزوات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية/ جامعة الكويت، العدد: ٣٦٤، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
١٢. الدوعان، محمود بن إبراهيم: الخصائص الطبيعية لموقع معركة بدر وأثرها في أحداث الغزوة، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، العدد: ١٦، ٢٠٠٦م.
١٣. الزيايدي، حسين عليوي ناصر: تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة، مجلة أورو، جامعة المثنى، العراق، مج: ٧، عدد: ١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

١٤. طلبه، شحاتة سيد أحمد: مناخ المدينة المنورة وآثاره الاقتصادية، النادي الأدبي بالمدينة المنورة- دراسة علمية محكمة، ط: ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
١٥. عبد العال، أحمد: نقاط التجديد في الفكر الجغرافي، مجلة المجمع العلمي المصري، جامعة الفيوم، مصر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
١٦. فاعور، علي: جغرافية تاريخية- المدينة العربية نشأتها وموقعها في كتابات الجغرافيين العرب، مجلة الفكر العربي المعاصر/مركز الإنماء القومي للنشر، العدد: ١٢، رجب-١٤٠١هـ/أيار-١٩٨١م.
١٧. الفراء، طه عثمان: جغرافية موقعة بدر- دراسات في تاريخ الجزيرة العربية-، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٨. _____: جغرافية موقعة اليرموك، مجلة الدارة، العدد: ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٩. _____: دور الجغرافيا في المعارك الحربية، مجلة كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، مج: ١، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
٢٠. كاتب، غيداء عادل خزنة: بناء الأسطول الأموي (النشأة والتطور)، مجلة مجمع اللغة العربية، الأردن، مج: ٣٩، العدد: ٨٩، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
٢١. مؤنس، حسين: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مج: ١٠، مدريد، إسبانيا، ١٣٨٠-١٣٨١هـ/١٩٦١-١٩٦٣م.
٢٢. محفوظ، محمد جمال الدين علي: أول أسطول بحري في تاريخ المسلمين، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرياض، السعودية، العدد: ٢٨٨، ١٤٤٠هـ/١٩٨٨م.
٢٣. _____: معركة ذات الصواري البحرية تحقيق موقعها، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد: ٣٦٦، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٢٤. محمد، صفاء أحمد خضر و سحر عادل عجيل: رواد علم الجغرافية الإسلامية في القرن السابع الهجري (دراسة في الفكر الجغرافي)، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج: ١٠، العدد: ٣٤، شعبان ١٤٣٩هـ/أيار ٢٠١٨م.
٢٥. مخلص، عدي يوسف: المدخل إلى الجغرافية التاريخية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، العدد: ٨١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.
٢٦. المزيني، علي بن عائش: الأحوال الاجتماعية والسكانية والاقتصادية والسياسية للمدينة المنورة قبيل غزوة الأحزاب، ق٢، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، الرياض، السعودية، العدد: ٢٥، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

٢٧. نصر، محمد إبراهيم: أضواء على معركة ذات الصواري، جماعة أنصار السنة المحمدية، مج: ٨، العدد: ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٢٨. يوسف، أبو الحجاج: مسالك انتشار الإسلام، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، مج: ٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

قائمة المراجع الأجنبية

1. Hartshorne ,R: The Nature Of Geography, Lancaster, 1961,
2. Houston (J.M): A social Geography Of Europe, London,1953A.D
3. M. Husain: Evolution of Geographical Thought, Rawat publication, New Delhi, 1984 A.D.
4. Roxby (P.M): The Scope and Aims of Human Geography, Scottish Geographical Magazine, 1930A.D.

لا يَكْتُبُ إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قالَ في غَدِهِ:

لو غَيَّرَ هذا لكانَ أحسنُّ،

ولو زَيَّدَ هذا لكانَ يُستَحَسَنُ،

ولو قَدَّمَ هذا لكانَ أَفْضَلُ،

ولو تَرَكَ هذا لكانَ أَجْمَلُ،

وهذا مِنْ عِظَمِ العَبْرِ،

وهو دَليْلُ اسْتِيلاءِ النَّقْصِ على جُمْلَةِ البَشَرِ.

"المجاهظ"

تمت

بحمد الله